الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء السادس و العشرون

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 5

الجزء السادس و العشرون‏

سورة فصّلت مكيّة و آياتها اربع و خمسون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 7

[سورة فصلت (41): الآيات 1 الى 12]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (2) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (4)

وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (5) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى‏ إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8) قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (9)

وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (11) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 8

سورة فصلت: حم السجدة- مكية- و آياتها أربع و خمسون حم فصلت: السجدة هي ثانية الحواميم السبع المكية، و هنا «تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» و في المؤمن الغافر قبلها و هي أولاها: «تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» و في الشورى ثالثة الحواميم‏ «كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» و في رابعتها الزخرف‏ «وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» و في خامستها الدخان‏ «وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» و في سادستها الجاثية «تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» و في سابعتها الأحقاف: «تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

فثلاث منها تشرك في‏ «الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» قد يشركها في أن آيها تحمل عزة من اللَّه و حكمة ام و لسائر القرآن ككلّ، و واحدة «الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 9

فهكذا الأمر، و اثنتان ليس فيها صفة من هذه أو تلك أمّاذا، و هذه السجدة تنفرد في‏ «الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» قد تلمحان أن آيها تحمل الوصفين و كما في سائر القرآن، فهذه مواصفات خمس في هذه الخمس، تصوغ سورها و القرآن كله بعزة اللَّه و علمه و حكمته و رحمتيه رحمانية و رحيمية، و في‏ «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» نجد جمعية الصفات التي تمتّ بصلة للكمال القمة في هذا الذكر من العزيز العليم الحكيم الرحمن الرحيم! خمس في المحور و سائرها تحور حولها.

و هذه من العزائم الأربع «اقرء باسم ..: النجم- ألم تنزيل: السجدة و «حم: السجدة» «1» حيث تجب السجدة عند استماع او سماع آية السجدة فيها.

و في هامة حم روايات عدة تقول كلمة واحدة ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قرء آيا من أولها إلى‏ «أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً» أماذا؟ فأعجبت و حيّرت نفرا من الناكرين لرسالته المستهزئين به، المتهددين له، فآمن قوم و كفر آخرون‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 538 ح 3 في كتاب الخصال عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام): ...

(2) من ذلك ما

في الدر المنثور 5: 359- اخرج البيهقي في الدلائل و ابن عساكر عن جابر بن عبد اللَّه قال‏ قال ابو جهل و الملأ من قريش قد انتشر علينا امر محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فلو التمستم رجلا عالما بالسحر و الكهانة و الشعر فقال عتبة علمت من ذلك علما و ما يخفى علي ان كان كذلك فأتاه فلما أتاه قال له يا محمد أنت خير ام هاشم أنت خير ام عبد المطلب فلم يجبه قال: فيم تشتم آلهتنا و تضلل آباءنا فان كنت إنما بك الرياسة عقدنا الويتنا لك فكنت رأسنا ما بقيت، و ان كان بك الباءة زوجناك عشرة نسوة تختار من اي بنات قريش و ان كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به أنت و عقبك من بعدك و رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و سلم) ساكت لا يتكلم فلما فرغ قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا» فقرأ حتى بلغ فان اعرضوا فقل أنذرتكم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 10

و لقد فصلت في فصلت شطرات من الرحمتين ابتداء بالرحيمية الخاصة «كِتابٌ فُصِّلَتْ‏ ... لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ‏» و من ثم الرحمانية «قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ..» و بعدها خليطة من هذه و تلك، دمجا برباط كامل شامل لكتابي التدوين التشريع و التكوين، و أن كاتبهما واحد هو «الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ»! حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (2) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) هنالك إنزال للكتاب في إحكام: «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» و هنا تنزيل للكتاب في تفصيل تجمعهما «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (11: 2).

في مرحلة الإنزال الإحكام لم يكن قرآنا يقرء، و لا عربيا يعرب‏ «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» إذ كان نازلا في محطة الوحي: القلب المحمدي، و لما يبرز في تفصيل، فلما فصّل في هذه الآيات المفصلات أصبح قرآنا عربيا: لائحا «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» و بطبيعة الحال غير عربي لا يلوح في حقائقه «لقوم يجهلون» «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود» فامسك عتبة على فيه و ناشده الرحم ان يكف عنه و لم يخرج الى اهله و احتبس عنهم فقال ابو جهل يا معشر قريش ما نرى عتبة الا قد صبا الى محمد و أعجبه طعامه و ما ذاك الا من حاجة اصابته انتقلوا بنا اليه فاتوه فقال ابو جهل و الله يا عتبة ما حسبنا الا انك صبوت الى محمد و أعجبك أمره فان كنت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن محمد فغضب و اقسم بالله لا يكلم محمدا ابدا و قال لقد علمتم أني اكثر قريش مالا و لكني أتيته فقص عليهم القصة فأجابني بشي‏ء و الله ما هو بسحر و لا شعر و لا كهانة قرء بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم‏ حتى بلغ أنذرتكم صاعقة فأمسكت بفيه و ناشدته الرحم فكيف و قد علمتم ان محمدا إذا قال شيئا لم يكذب فخفت ان ينزل بكم العذاب، و فيه ان ممن سمعها سعد بن معاذ فرجع و قد هداه الله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 11

(17: 82) إنه في نفسه بيان للناس، و عربي لا تعقيد فيه و لا خفاء يعتريه، فإنه داعية العالمين‏ «هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى‏ وَ الْفُرْقانِ» و لكنما الواجهة العالمة هي التي تهدي الناس بالقرآن، و الجاهلة المتجاهلة لا تزيدهم إلّا خسارا.

هنالك لتنزيل الرحمن الرحيم تفاصيل عدة تلو بعض، تفصيل اوّل عن إحكامه هذا حتى برز آيات مفصلات «قرآنا» و تفصيل ثان «عربيا» واضحا حيث ينطق بعضه ببعض و يفسر بعضه بعضا، في ترتيب التنزيل لبعد واحد-: الآيات المتشابهة ببعض، تفسر بعضها بعضا، و في ترتيب التأليف لبعد ثان، الآيات التي تحتف بها من قبل و من بعد، فإنها تساعد في تفصيل معانيها و تكميل مغازيها، فهما إذا تفصيلان بعد الأول، و من ثم تفصيلها بالسنة حيث يفسرها الرسول و الأئمة من آل الرسول صلوات اللَّه عليهم أجمعين.

فهذه تفاصيل أربع للناس، بعد إحكامه الخاص في قلب الرسول، و كما يسبقه إحكام في علم اللَّه قبل إنزاله على الرسول‏ «وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» (89: 4) احكامان اثنان ثم تفاصيل أربع.

أ ترى‏ «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» بماذا تتعلق؟ علّما بكلّ من «تنزيل- فصلت- عربيا» فرغم أن الكل مبدئيا كافة لسائر المكلفين، و لكنما التعرف إلى معارفه و تصديقها و تطبيقها ليس إلّا «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» على درجاتهم، فالذي يتجاهل حق القرآن و حقيقته ليس هو له عربيا لائحا فلم يفصّل له، و لم ينزّل، إنما «لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ» «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ».

و الذي يؤمن به و لكنه لا يتخطى مداخل تفهمه و مخارجه و هو يهوى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 12

تفسيره بغير هدى أو أثارة من علم، ليس له عربيا و لا فصلت له آياته، و قد يصبح القرآن لهؤلاء و هؤلاء ضلالا و لا يزيد إلّا خسارا و ملالا.

و الذي يعرف مفاتح تفسيره و لكنه لا يطبّقه ليس له عربيا كما يحق، حيث العمل بالقرآن مما يساعد على تفهمه، فلكل من مراتب العلم حظ من درجات القرآن، و للجاهل المتجاهل المتعنت دركات.

ثم و في‏ «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» استجاشة لكافة القدرات العلمية و استنهاض للعلماء ان يكرسوا طاقاتهم للحصول على الأكثر فالأكثر من معاني آي الذكر الحكيم، مستنبطين متشابهه بمحكمه، و مجملة بمبيّنه، فحاصلين على العبارة ثم الإشارة ثم الطائف و من ثم الحقائق، دونما نظرة بيان في هذه السبيل سوى بيانه، فإنه النور المبين و ما بال النور يستنير بنور سواه ام بنور سواه، اللهم إلّا استيضاحا من السنة القاطعة متطرقة طريق الدلالة صريحة و ظاهرة.

فلا تعني عربية القرآن إلّا جزالة بيانه و وضوح تبيانه و برهانه، و إن كانت تزيد في عربيته تفهما عربيته لغويا.

بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (4).

«تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» «.. بَشِيراً وَ نَذِيراً» «كتاب»:

«بَشِيراً وَ نَذِيراً» «فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»: «بَشِيراً وَ نَذِيراً» للعالمين: من يعلمون و من لا يعلمون‏ «فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ» و هم الذين لا يعلمون «فهم» بإعراضهم عن هذا الذكر العظيم جاهلين أو متجاهلين «لا يسمعون» «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ» «لا يسمعون» بآذانهم مخافة الانتباه، لحد «خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ عَلى‏ سَمْعِهِمْ» فإذا سمعوه بآذانهم لا يسمعون بعقولهم و قلوبهم، فإنه قول محطّته الأنفس: «وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً» (4: 63).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 13

وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (5).

أعذار ثلاثة زعم أنها تعذرهم عن سماعه‏ «فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ» إمعانا في العناد و تيئيسا للرسول ليذرهم كما هم فيذروه كما هو:

«قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ»- «وَ قالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ» (2: 88). ترى و هم صادقون في أكنة قلوبهم؟ أجل! و لكنها امتناع باختيارهم إذ كفروا و أصروا و استكبروا «وَ جَعَلْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً» (6: 25).

«وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ» ثقل عن الاستماع و السماع، و إذا اعترض أسماعهم فلا يصل إلى قلوبهم لأنها في أكنتها.

«وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ» نحن لا نفهمك و أنت لا تفهمنا لاختلاف المبادئ فيما بيننا و بينك، و سدّ المداخل إلى قلوبنا، و الأكنة جمع كنان و هو الستر و الغطاء كعنان و أعنّة و سنان و أسنّة، و قولتهم هذه خارجة مخرج الدلالة على استثقالهم ما يسمعونه او يستمعون من قوارع القرآن، و بوارع البيان، فكأنهم من قوة الزهادة فيه و شدة الكراهية له، قد وقرت أسماعهم عن سمعه و أكنّت قلوبهم دون علمه، و قد أكنها اللَّه و أوقرها جزاء الاكتنان و التوقر.

إن الأسماع هي مداخل القلوب تعي ما سمعت و تسمع ما وعت، فإذا كانت القلوب في أكنّة، لا تدخلها الذكرى و إن كانت الآذان تسمع و لكن‏ «فِي آذانِنا وَقْرٌ» إذا- فقلوبنا بعد في بعدي الكنان، ثم‏ «وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ» يعم كنان القلوب و وقر الآذان إلى عمى الأبصار و تعطل الحواس أمّاذا من مداخل الأعضاء إلى القلوب، و قد تعني «من» أن الحجاب مبتدء منا و مبتدء منك، فهو إذا حجابان ذاتيان، لا حجاب واحد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 14

في هذا البين، منفصلا عنا، فاصلا بيننا، فالمسافة المفاصلة بيننا و بينك مستوعبة بحجاب، دون إبقاء على جزء هو خلو من حجاب.

إذا ففي ثالوث المفاصلات بيننا و بينك لا تفيدك الدعوة و لا إيانا «فاعمل» كما تشاء ما تشاء تجاهنا في شأنك‏ «إِنَّنا عامِلُونَ» تجاهك ما نشاء كما نشاء و في شؤوننا، أذان منا إليك لحرب شعواء عشواء، و بلاء لأواء «فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ»! «فاعمل» في حجابك عنا «إِنَّنا عامِلُونَ» في حجابنا عنك، فكل يعمل على شاكلته، ثم «فاعمل» في إبطال أمرنا «إِنَّا عامِلُونَ» في إبطال أمرك، «فاعمل» كما تستطيع في دعوتك سلبا و إيجابا «إِنَّنا عامِلُونَ» كما نستطيع، فقد وقعت المفاصلة التامة ثم لا يرجى تأثير أية دعوة.

أ تراهم صادقين فلا يمكنهم الاهتداء بما كفروا و ختم اللَّه؟ لقد صدق البعض و هم الذين‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ..» و كذب الآخرون، فنجى الكاذبون‏ «1» و هلك الصادقون!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 36- اخرج ابو سهل السري ابن سهل الجنديسابوري في حديثه من طريق عبد القدوس عن نافع بن الأزرق عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب‏ في قوله‏ «وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ ..» قال: أقبلت قريش الى النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال لهم ما يمنعكم من الإسلام فتسودوا العرب فقالوا يا محمد ما نفقه ما تقول و لا نسمعه و ان على قلوبنا لغلفا و أخذ ابو جهل ثوبا فمد فيما بينه و بين رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال يا محمد! قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ ..» فقال لهم النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أدعوكم الى خصلتين ان تشهدوا ان لا اله الا اللَّه وحده لا شريك له و اني رسول اللَّه فلما سمعوا شهادة ان لا اله الا اللَّه ولّوا على ادبارهم نفورا و قالوا اجعل الآلهة إلها واحدا ان هذا لشي‏ء عجاب و قال بعضهم لبعض امشوا و اصبروا على آلهتكم ان هذا لشي‏ء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق أ أنزل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 15

و هذا نموذج مما كان يواجه الرسول صلى اللَّه عليه و آله و سلم في دعوته على طول الخط، و لكنه ليس ليكفّ عن الدعوة او ييأس من تيئيسهم، و ليس ليجيب عن قولتهم الهباء الخواء إلّا بيانا لكيانه بالوحي:

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى‏ إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6).

آية لا ثانية لها في سائر القرآن إلّا التي في الكهف إلّا في ذيلها «.. فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» (110) «1».

إنني لا أحمل من بشريتكم إلّا ظاهر القالب، و أما باطن القلب فإنه‏ «يُوحى‏ إِلَيَّ» دون قلوبكم المقلوبة الخاوية، غير المهدية بهدى الوحي، فأنا وحي في الفطرة و العقل و الصدر و القلب و الفؤاد و اللب أماذا من جنبات الروح، و أنا اكمّل بالوحي ما قصرتم او قصّرتم! «أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» أماثلكم في القلب و مداخله و مخارجه، و لا أفاصلكم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عليه الذكر من بيننا، و هبط جبرئيل فقال يا محمد ان اللَّه يقرؤك السلام و يقول أ ليس يزعم هؤلاء ان على قلوبهم اكنة ان يفقهوه و في آذانهم وقر فليس يسمعون قولك، كيف و إذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على ادبارهم نفورا لو كان كما زعموا لم ينفروا و لكنهم كاذبون يسمعون و لا ينتفعون بذلك كراهية له، فلما كان من الغد أقبل منهم سبعون رجلا الى النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقالوا يا محمد! اعرض علينا الإسلام فلما عرض عليهم الإسلام اسلموا عن آخرهم فتبسم النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: الحمد للَّه أ لستم بالأمس تزعمون ان على قلوبكم غلفا و قلوبكم في اكنة مما ندعوكم اليه و في آذانكم وقرا و أصبحتم اليوم مسلمين، فقالوا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كذبنا و اللَّه بالأمس لو كان كذلك ما اهتدينا ابدا و لكن اللَّه الصادق و العباد الكاذبون عليه و هو الغني و نحن الفقراء اليه.

(1). راجع تفسير الآية الى الكهف تجد تفصيلها فيها فلا نعيدها هنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 16

تلك المفاصلة التي تجعل من بيني و بينكم حجابا، و في قلوبكم أكنة و في آذانكم وقرا، فلا أفهمكم و لا تفهمونني، لا أتحملكم و لا تتحملونني! لا! أنا بشر كما أنتم، أسمع و أبصر و أحس كما أنتم، و أعي بقلبي ذاتيا و من مداخله كما أنتم، إلّا أن قلبي أوعى من قلوبكم إذ «يُوحى‏ إِلَيَّ» دونكم، و ليست هذه المفاصلة بفاصلي عنكم، و إنما هي مواصلة أخرى فيما لا تنالون بكامله، و إن كنتم تنالونه دون كامله‏ «أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ» فلا حجاب بيني و بينكم إلّا منكم، و لا كنان عما أذكّركم إلّا على قلوبكم منكم، و لا وقر لما أسمعكم إلّا في أسماعكم منكم، ثم من اللَّه جزاء وفاقا: «وَ جَعَلْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً» (6: 25) «بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ» (2: 88)! «ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ» فأنا بشر كما هم و أنتم، و لا بدعا فيما ادعو «إِنَّما يُوحى‏ إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ» كما الرسل كلهم، و هو قضية الفطرة و العقل و كافة البراهين حسية و عقلية، فلما ذا الحجاب بكنانه و وقره أماذا؟

«فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ» استقامة على قضية العقل و الفطرة، و العدل في القوامة و الفضيلة، دونما اعوجاج عنها و لا ارتتاج، ثم الاستقامة «إليه» لا «له» فليس هو المستفيد من تلك الاستقامة، و إنما هو المفيد المستقيمين إليه، القاصدين سبيله «إليه» لا زمانا و لا مكانا، و إنما مكانة و إمكانية في بعدي التكامل شرعة و تطبيقا «و استغفروه» عما يبعدكم عنه و يضلكم عن سبيله-: وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ..».

الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8).

المشرك باللَّه- بطبيعة الحال- لا يدين بدين اللَّه فلا يؤتي الزكاة زيادة مالية على أية حال، فإنها مطلق الزيادة و لا سيما قبل نزول آيات الزكوة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 17

الخاصة، و الآية من أقدم المكيات، و لمّا تفرض هذه الزكوة، و لا يؤتي الزكوة حاليا أن يزكى نفسه كما تقول شريعة اللَّه، فلا له أموال زاكية و لا أحوال زاكية «وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ» فهم لمثلث الزمان هم خاسرون، و أما حاله الدنيا فلا يزكيها لا مالا بتعطفه على عباد اللَّه، و لا حالا في انعطافه بنفسه تقربا إلى اللَّه، و أما مستقبله فهو كافر بالآخرة، فهو ناكر للمبدء و المعاد و بينهما يعيش نكران الشرعة الحاكمة بين المبدء و المعاد ف «ويل لهم» بدء وعودا، ويل لهم في أولاهم و ويل لهم في أخراهم! «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» باللَّه و اليوم الآخر و بشرعة اللَّه حيث تزكى أحوالهم و أموالهم‏ «وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» التي تتجاوب و إيمانهم‏ «لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» و لا مقطوع عطاء غير مجذوذ، لأنه قضية فضل اللَّه، فليست له نهاية مهما كان الويل للمشركين ممنونا مقطوعا حين تخمد النار و من في النار لأنه قضية عدل اللَّه فله نهاية.

قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (9) وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (11) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12).

آيات أربع من «فصّلت» هي منقطعة النظير في سائر القرآن بما فصّلت من أيام الخلق بين السماوات و الأرض بعد إذ أجملت في آياتها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 18

السبع‏ «1» و لكنها تركت إجمالات بعد تفصيلاتها مما حيّرت ألباب الباحثين عنها فأصبحت معترك الآراء المتضاربة، و قد توضحها هي بنفسها عند التأمل اللائق بها فيها، و الآيات التي تناظرها فتناصرها في إيضاح ما أجمل منها ما أجملها، دون أن نمشي في تفسيرها مكبين على وجوهنا، لاجئين في دراسة القرآن إلى نظريات العلماء القابلة للتبديل أو التعديل، فلا نحمل على القرآن ما لا يتحمله من توجيهات، أو هو ساكت عنها، و إنما نستنبط من نصوصه و ظواهره مشيا على صراط مستقيم، حيث القرآن هو الإمام‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). السبع هي التالية:

1- «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» (7: 54).

2- «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (57: 4).

3- «وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ...» (11: 7).

4- «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ» (10: 3).

5- «الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً» (25: 59).

6- «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ» (25: 39).

7- «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا شَفِيعٍ أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ» (32: 4).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 19

الذي لا بديل عنه. و لا دليل أوضح و أتقن منه، فهو- فقط- المحور و سائر الأنظار حائرة حوله، نصدق منها ما صادقه نصه دون تمحّل، و نرجّح ما يصادق ظاهرا منه ثابتا متظاهرا بتفسير منه، و نضرب عرض الحائط ما يخالفه نصا أو ظاهرا جليا أم لا يوافقه! هنالك تساؤلات حول أيام الخلق ماهية؟ و ما هما اليومان تارة لخلق الأرض، و أخرى لتسبيع السماء، و ما هي الأربعة بينهما و لماذا هيه و الجمع ثمانية؟ أو قد يزيد عليها يوم لأقل تقدير نصيبا مفروضا لخلق الدخان.

فأين الثمانية او التسعة أما هيه؟ و اين الستة الثابتة بآياتها السبع؟ «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً»؟.

ثم و من‏ «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ» نتلمح كصراحة أن خلق الأرض كان قبل السماوات بمرحلة، فهو قبل خلق الأنجم في السماء الدنيا بمرحلتين، فهي- إذا- قبل الشمس المخلوقة مع الأنجم، و قد تنازع ذلك السبق آيات النازعات: «أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها. رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها. وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها. وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها. أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها. وَ الْجِبالَ أَرْساها. مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ» (27- 33).

و على ضوءها النظريات العلمية القائلة أن الأرض هي من مواليد الشمس المنفصلة عنها، المستضيئة منها! و من ثم فما ذا تعني‏ «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ» من الإستواء و من الدخان؟ و ما هي المقاولة بين رب العالمين و الأرض و دخان السماء؟ و ما هو إتيانهما طوعا أو كرها و قولهما: «أَتَيْنا طائِعِينَ» و إلى م يرجع ضمير الجمع في «فسواهن» و لا يسبقه جمع؟ و ما هو الوحي في كل سماء، دون إلى كل سماء أم لكل سماء؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 20

ما هو اليوم؟.

اليوم في مطلق ما يعنيه هو واحد الزمان حقيقيا أو نسبيا، فالواحد الحقيقي هو واحد الحركة في المادة الاولية و لا يعلمها إلّا اللَّه أو من علّمها إياه ك «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» (55: 29).

و النسبي- فيما نعرف- يعم اليوم الإلكتروني و هو مقطع من الزمان للدور الإلكتروني حول شمسها البروتوني، و سنته 1/ 000، 50 ثانية أرضيه .. ثم اليوم الأرضي نهارا أم بليله كما في آيات قد لا تعدو عشرين‏ «1» بين الآي التي تحمل اليوم و هي تذرف أربعمائة و تسعة و أربعين.

ثم أيام عمر الإنسان طفولة و كهولة و شيخوخة، إلى ايام السلطة لآل فلان و فلان، إلى يومي الدهر ف «الدهر يومان يوم لك و يوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر و إذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر» و إلى أيام عمر الكون منذ البداية حتى الآن، و إلى يوم القيامة، و إلى ايام السنة الأربع و هي فصولها التي يتقدر فيها الأرزاق كلها، و إلى الأيام النجومية، ثم الأيام الكونية التي خلقت فيها السماوات و الأرض، و قد تعد يوما واحدا بحساب المجموعة: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ ..» (9: 36) حيث اعتبرت الستة يوما واحدا، و الأيام التكاملية للأرض و السماوات بعد خلقهما، أمّاذا من أيام ابتداء من‏ «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» و انتهاء إلى يوم الكون كله منذ خلق حتى النهاية، و بينهما متوسطات من هذه و سواها «2».

إن الأيام المذكورة في آيات التقسيم ليست هي الوليدة عن دوران‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي الآيات 2: 203 و 3: 41 و أضرابهما.

(2) راجع ج 29: 116 ستجد تفاصيل لليوم على ضوء آية المعارج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 21

الأرض بعد خلقها و دحرها، إذ تسبق الأرض و السماء، بل هي على الترتيب بين أيام الخلق، و تكملة الخلق، و الأيام الفصول، و هي مختلفة الزمان و أحيانا بمليارات الأضعاف بنسبة بعضها لبعض.

فليست هي الأيام النجومية العالمية و واحدها، 43200، سنة «1» حيث القرآن يخاطب المكلفين أجمعين دون النجوميين حتى يحصر صلاحاته الكونية فيما يصطلحون، و لا الأيام التدبيرية الألف او المعارجية الخمسين الف، فإنها خاصة بمواردها في آياتها، و انما هي أدوار الخلق و التكملة أما ذا مما يحوم حوم خلق السماوات و الأرض. حسب المراحل المختلفة المتدرجة من خلق الكون و تكامله.

هنالك يومان و اربعة و يومان في آياتها الأربع من «فصلت» هذه، و ليس ليعني من الكل أيام أصل الخلقة التي هي ستة، مع العلم أنها لا تخرج عن نطاق الخلقة!.

أ ترى أن‏ «أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» تعني تتمة الأربعة «2» فهي مع اليومين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تفسير الجواهر للشيخ الطنطاوي 4: 165: اعلم ان لفظة (يوم) قد وردت في علوم البابليين و الآشوريين التي عثر عليها العلماء في المكتبة الملكية بقصر (آشور بانيبال) ففي هذه الخزانة وجدوا انهم قسموا منطقة البروج الى اثني عشر قسما و هي البروج و قسموا الدائرة 360 درجة و هكذا الدقيقة و الثانية .. و الأسبوع سبعة ايام و يقولون ان تقهقر الاعتدالين في زمان (43200) سنة و يسمون هذه المدة يوما من الأيام العالمية و جعلوا السنة الشمسية التي قدرها 365 يوما و ربع يوم ثانية واحدة من السنة العالمية ثم يقسمون اليوم العالمي إلى اثنتي عشرة ساعة، فتدبر تجد أن اليوم جاوزت عشرات الألوف من السنين و هو اليوم العالمي.

(2) و مما يؤيده من الروايات ما

في الدر المنثور 5: 360- اخرج ابن جرير و النحاس في ناسخه و ابو الشيخ في العظمة و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في الأسماء و الصفات عن ابن عباس‏ ان اليهود أتت النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فسألته عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 22

الآخرين ستة، كما يقال: سرت من البصرة إلى الكوفة في يومين و إلى كربلاء في أربعة أيام، و الآيات السبع أن الخلق في ستة أصلح قرينة لهكذا توجيه؟ و لكنه خلاف الفصيح و الأدب الصحيح أن يتمحّل في مثل هذه المعاريض الهامة بين معترك الآراء، و لزامها البيان الصريح‏ «خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ‏ وَ جَعَلَ فِيها .. فِي يَوْمَيْنِ‏» أمّاذا، و المثال إن صح في نفسه ليس إلّا في استمرارية فعل واحد كالسفر و أمثاله، و هنا أفعال عدّة مفصولة بعضها عن بعض كما فصل‏ «خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ»، عن‏ «وَ جَعَلَ فِيها .. فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ»؟.!

ثم اليومان بعد الأربعة المختصان بتسبيع السماء لا يفسحان مجالا لأصل الدخان السماء، و اللائح من‏ «خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» في آياتها، و من‏ «فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ» هنا بعد دخانها-: أن الستة تنقسم- لأقل تقدير- إلى ثلاثة هي خلق الأرض و دخان السماء و تسبيع الدخان.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

خلق السماوات و الأرض فقال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) خلق اللَّه الأرض يوم الأحد و الاثنين و خلق الجبال و ما فيهن من منافع يوم الثلاثاء و خلق يوم الأربعاء الشجر و الماء و المدائن و العمران و الخراب فهذه اربعة فقال تعالى: «قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ‏ .. فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ» و خلق يوم الخميس السماء و خلق يوم الجمعة النجوم و الشمس و القمر و الملائكة الى ثلاث ساعات بقين منه فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال حين يموت من مات و في الثانية القى الآفة على كل شي‏ء من منتفع به و في الثالثة خلق آدم و اسكنه الجنة و امر إبليس بالسجود له و أخرجه منها في آخر ساعة، قالت اليهود ثم ماذا يا محمد! قال: ثم استوى على العرش قالوا قد أصبت لو أتممت ثم قالوا: استراح فغضب النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) غضبا شديدا فنزل:

و لقد خلقنا السماوات و الأرض و ما بينهما في ستة ايام و ما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون‏ «و رواه مثله في المجمع عن عكرمة عن ابن عباس عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الى «خلق يوم الجمعة» بتفاوت يسير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 23

فجعل الاربعة تتمتها بعد اليومين- على مشاكله العدة- لا يغني عن المناقضة بين الستة و الزائدة، فإن يوم الدخان يجعلها سبعة! أم يزيد يوما لتزيين السماء الدنيا بمصابيح فرجعت ثمانية! أم إن الأربعة لا تمتّ بصلة لأيام الخلقة، إذا فهي الفصول الأربعة لدور السنة حيث تقدر فيها أقواتها كل سنة «1»؟ و في ذلك التوجيه العضال إهمال أمرين من الثلاثة المتقدمة على الأربعة: «وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فِيها» بإشغال الثالث فقط-: «وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها» أنها متعلّق الظرف‏ «فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» دونهما، فلا هما ضمن «يومين» كما الثالث إذ ليسا من أصل الخلق و لم يذكرا قبل يومين، و لا ضمن الأربعة إذا اختصت بالثالثة، و لماذا ذلك الإختصاص؟ و ذكر أيام بعد أفعال متتالية يقتضي الشمول بطبيعة الحال! ثم اللفظ الصحيح الصريح لهذا الإختصاص‏ «وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ‏ وَ جَعَلَ فِيها .. وَ بارَكَ» بعدا عن أي التباس، و كما نراه في تسبيع السماء: «فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ..» حيث خرج الوحي و التزيين عن يومي تسبيع السماء!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 538 تفسير علي بن ابراهيم أخبرنا احمد بن إدريس عن احمد بن محمد عن ابن محبوب عن أبي جميلة عن ابان بن تغلب قال قال لي ابو عبد اللَّه (عليه السلام) يا ابان- الى ان قال-: «فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» يعني في اربعة اوقات و هي التي يخرج اللَّه عز و جل فيما أقوات العالم من البهائم و الطير و حشرات الأرض و ما في البر و البحر في الخلق من الثمار و النبات و الشجر، و ما يكون فيه معاش الحيوان كله و هو الربيع و الصيف و الخريف و الشتاء ...

أقول: انها رواية يتيمة في تفسير الأربعة بالفصول الأربعة، فقد تطرح او تؤول بأنها ضمن المعني من الأربعة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 24

أم إن الأربعة هي الأدوار التكاملية الأرضية بعد خلقها، ذكرت هنا لأفعال ثلاثة، و أجملت في تكملة السماء عن فعليها، فلا هما ضمن اليومين لتسبيع السماء، و لا ذكر لهما يوم؟

إن ذلك لحق تنطق به الآية نفسها، ففيها خلق للأرض، و فيها دون ذلك مما في الأرض، و الكل قبل تسبيع السماء: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ» (2: 29) و الأيام الستة في آياتها السبع تخص أصل الخلق دون ما فيه!.

و قد تعم‏ «قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» الفصول الأربعة دلالة ضمنية تتحملها الآية و تؤيدها الرواية، «فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» تتعلق أصالة بالثلاثة تكملة للأرض، و بالأخيرة، الفصول الأربعة بعد التكملة.

إذا فالمذكورة من الأيام الستة لخلقهما ليست هنا إلّا الأربعة، و اليومان الآخران علهما لخلق الدخان، أم يقتسمان بينه و بين خلق الأنجم في السماء الدنيا، أمّاذا من محتملات علّنا نستعرضها.

فالنتيجة الحاسمة المجتثة لجذور المحتملات الدخيلات أن خلق الأرض كان قبل تسبيع السماء، فهو- إذا- قبل الشمس بمرحلتين إذ خلقت مع سائر الأنجم في السماء الدنيا بعد تسبيعها.

ترى هذه هي الأرض خلقت في أصلها قبل الشمس دون انفصال عنها، فما ترى في تكملتها الثلاث في أربعة أيام، هل هي كما الأرض مدبرة لها بعد يوميها و قبل يومي السماء؟ و آيات النازعات تؤخر ماءها و مرعاها عن بناء السماء! هنا محكمات في تقديم ما في الأرض كما الأرض، و أخر متشابهات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 25

ترجع إلى هذه المحكمات:- فآية البقرة تجمعهما في تقدّمهما على السبع السماوات: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ ..» (29) «1».

و آية فصّلت فصّلت ما في الأرض أن‏ «جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ .. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ ..».

و آيات النازعات هنا متشابهات في جهات محكمات في أخرى، فإنها تصرح أن دحو الأرض فإخراج ماءها و مرعاها و إرساء جبالها، هي كلها بعد بناء السماء، دونما تصريحة و لا إشارة أن خلق الأرض بعد بناء السماء، ثم تبقى الأفعال الثلاثة الأخرى المتشابهات بين فصلت و النازعات‏ «2».

فهل إنها كما الأرض قبل تسبيع السماء، أم هي- فقط- بعده و خلقها نفسها قبله.

و هنا تشابه في بناء السماء هل هو تسبيعها؟ فالثلاثة إذا بعده، أم بناء لها من دخانها قبل سبعها؟ و «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ‏ ..

فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ» قد لا تفسح مجالا لبناء ثان، فإن القضاء سبعا مبدءه- فقط- الدخان، لا شي‏ء ثان! أم إنه بناء الدخان أولا ثم بناء ثان هو، «فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ»؟ و الدخان ليس فيه ماء ينزل على الأرض، مع العلم أن مياه الأرض كلها من السماء!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 292 ح 12 تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين‏ ان اللَّه جل ذكره و تقدست أسماؤه خلق الأرض قبل السماء ثم استوى على العرش لتدبير الأمور.

(2) في فصلت‏ «وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ ... و في النازعات‏ «أَخْرَجَ مِنْها ماءَها» مهما اختلف الترتيب بين الثلاثة هنا و هناك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 26

أم إن الثلاثة في النازعات متأخرة عن ثلاثة فصلت، تأخر البارز عن الكامن، فقد «جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها» قبل بناء السماء «وَ الْجِبالَ أَرْساها» بعدها، ثم‏ «وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها» بنزول تراكيب الماء من دخان السماء و لمّا تصبح بالفعل بركات و أقوات، إذ كانت مخبيّات، ثم‏ «أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها» بعد بطونها و كمونها، إذا فالثلاثة هي قبل بناء السماء دخانا أم سبع سماوات، كامنة في الأرض، و هي بعد ذلك ظاهرة، و كما «الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها» و هي الحركة المعتدلة التي هيأتها لفعلية الحياة، و قد كانت شموسا في حراكات غير معتدلة.

و لأن‏ «قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها» قد تعني- فيما عنت- أقوات الفصول الأربعة، لذلك فمن هذه الثلاث ما هو متأخر عن تسبيع السماء، كما منها المتقدم عليه، و نحتمل أخيرا- بناء على وحدة الثلاثة في فصلت و النازعات ظهورا و كمونا- أن للسماء بنائين اثنين بعد دخانها، بناء اوّل انتج‏ «رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها. وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها» و هي تعديل لها و تحريك عن حرّ الى قرّ لحدّ إنزال الماء، و بناء ثانيا هو تسبيعها، فآيات النازعات تعني البناء الأول إذ لم يذكر ضمن أفعالها الثلاثة تسبيعها؟ و آية فصلت تعني البنائين مع بعض، و دحو الأرض و إخراج ماءها و مرعاها و إرساء جبالها كان بين البنائين!.

إذا فلا تنازع بين آيات فصلت و النازعات إلا تشابهات ترجع إلى محكمات و اللَّه اعلم بما أنزل من محكمات و متشابهات.

و أمّا نظرات العلماء في انفصال الأرض عن الشمس، فإنها على كونها فرضيات لم تصل لحد القانون العلمي القاطع، ليست لتعارض صراح الآيات أنها خلقت قبل الشمس بمرحلتين، و قد أثبت العلم أخيرا استحالة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 27

الواقعية لهذه الفرضية لاختلاف جرمي الأرض و الشمس شاسعا يحيل تولد إحداهما عن الأخرى‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الفرضيات حول تشكيل المنظومة الشمسية كالتالية:

1- فرضية التصادم ل: بوفون الفرنسي 1749 م.

انه يذكر في كتاب له بين (44) كتابا ألفها في التاريخ الطبيعي و يقول حول تشكل المنظومة الشمسية: «الأم الكبرى للعائلة الشمسية كانت تحمل أولادها لزمن مجهول، ثم أخذت في ولادتها، و كلّف كوكب من ذوات الأذناب لإيلادها فضربت بنفسها الشمس في سرعتها الهائلة فتقاطرت منها قطرات، و هذه المواليد الحائرة أصبحت تدور حول أنفسها على أثر هذه الضربة الهائلة فأصبحت عائلة لأمها الشمس.

2- الفرضية الحلقوية او السحابية ل «كانت» الآلماني 20- 30 بعد بوفون:

أبطل كانت باستدلالات و استبعادات فرضية التصادم و منها أن كوكبة صغيرة لا تقدر في صدامها مع الشمس أن تفصل عنها جذوات تصبح كرات، فهذه الفرضية بعيدة في عالم الفرض ... و سائر الأدلة المذكورة في محالها- ثم يشرح فرضية الحلقوية بان الشمس كانت في البداية كتلة وسيعة من الغازات المعتدلة الشاغلة للمنظومة الحالية، و كانت تحول حول نفسها بهدوء فانتقلت مقادير من حرارتها على أثر التشعشعات إلى الأجواء المحيطة بها فانتقصت بذلك حرارتها فانقبضت و تراكمت لحد كثير فزادت حركتها الدورانية فخلقت هذه السرعة زيادة في فرارها عن مركزها و على اثرها تسطّح قطبها و انقطعت منها حلقات سقطت على الصفحة الاستوائية ثم تكسرت هذه الحلقات و تراكمت و تحولت عن الحلقات الغازية الى كرات المنظومة الحالية.

3- فرضية «لا بلاس» الفرنسي 1796 م:

لا بلاس يأخذ الفرضية الحلقوية بعين الإعتبار (في كتابه عرض الجهاز العالمي) و عرضها مرة ثانية بشرح أوسع و وجه أبدع و لكنه لم يكن لوقت ما يستدل له بادلة رياضية-:

ثم- كلارك ماكس ول- بعد ستين سنة من هذه الفرضية- أخذ يجدد النظرية فيها بدقة و وصل الى النتيجة التالية:

أن تقبل هذه الفرضية يستلزم قبول تناقضات عدة ...

و لحد الآن أصبح الفرضيتان الحلقوية و التصادم مقبورين تلو بعض، و من ثم أخذ. جمبرلن- مولتون الامريكي، و سرجس جنس الانجليزي يجددون حياة فرضية التصادم مرة أخرى، و لأنها لم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 28

هذا- و إلى رجعة تفصيلية بحثا دقيقا عن آية التقسيم:

كيف خلقت السماوات و الأرض؟ و مم خلقتا؟ و متى خلقتا؟ أسئلة تطرح نفسها و إليكم إجاباتها:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

تكن مثل الحلقوية تشتمل على تناقضات، و في هذه الرجعة و هي ترث الفرضية السحابية طرد عنها بعض الاستبعادات التي كانت عليها، فالسيارة ذات الذنب هنا أصبحت ثابتة و جرمها كالشمس لكي تستطيع بصدامها مع الشمس على فصل قطرات منها.

و لكنها رغم هذه الرجعة لم تعد قابلة للقبول، حيث الأصل المفروض فيها و في زميلتها مظنة المشابهة بين عناصر الشمس و سيارات المنظومة، فما ذا بعد إذا اختلفت العناصر هنا و هناك اختلافا شاسعا.

هنا «ويززيكر» الالماني في كتابه (سر الخلقة) يتبنى تشكل المنظومة على مبنى العناصر التي تشكل الشمس و سائر المنظومة قائلا: إن الفيزيا النجومية كشفت عن اختلاف العناصر بين الشمس و سائر المنظومة.

ثم «شترومكرن» بعد تأمل زائد حول كيفية هذه العناصر حصل على نتيجة: أن 35% من جرم الشمس يتشكل من خالص الأوكسيجين، و من ثم تبين انه 50% و قسم كبير منها هليوم.

ثم «شوارتس شيلد» استمر في تكامل هذا المبنى، و على اثر التجزئة الدقيقة الطيفية من سطح الشمس أنتج أن الشمس تشتمل- فقط- على 1% من العنصر الارضي و 99% منها مركب من نيدروجين بكثرة و هليوم بقلة.

هذا آخر ما انتجته التحقيقات حول عناصر الشمس و سائر المنظومة، مما يحيل حسب العادة انفصال الأرض و سائر المنظومة من الشمس.

و من لباب العجاب ان «ويز زيكر» و هو أول كاشف لاختلاف العناصر يرتجع إلى فرضيتي كانت و لا بلاس موجها ذلك الاستبعاد ان الحلقات المنفصلة عن الشمس علّها من 1% من جرمها المشابه لأجرامها، حيث الشمس كانت مائة أضعاف حجمها الفعلي و على أثر الحركة الدورانية انفصلت عنها- فقط- العناصر ال 1% التي تشكل الأرض و سائر المنظومة.

هنا نعرف مدى بطلان هذه الفرضيات، و صحة البيان القرآني الناصع، أن لا صلة بين الأرض و الشمس إلا في المادة الأم «الماء» و ان الأرض متقدمة على الشمس في اصل تكونها، و ان كانت تستضيى‏ء منها حال اعتدالها الحيوي الحالي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 29

المادة الاولية لخلق الكون «ماء»؟! آية يتيمة وحيدة في القرآن تتكفل بيانا مجملا لأم الكون اجمع: المادة الأولى التي خلقت منها السماوات و الأرض و ما بينهما: «وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (11: 7) و بيانها الفصل راجع إلى موضعه في «الفرقان».

«كان» هنا تضرب إلى أعماق الماضي البعيد لكينونة «الماء» قبل خلق الأرض و السماء، فليس- إذا- هو الماء المتولد عنهما و فيهما حيث خلقهما «و» الحال أن‏ «كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ».

و العرش فيما يعنيه من معانيه هو السلطة و البناء، و قد كانت سلطته التدبيرية قبل خلق الأرض و السماء على الماء إذ لم يكن دونه كائن، و كان بنائه سائر الخلق على الماء إذ لم يخلقهما دون مادة سابقة.

و قد وردت في بعد هذا الماضي لكينونة الماء رواية ما أرواها و اروعها عن الإمام امير المؤمنين (ع) تضرب إلى مليارات من سنينا و اللَّه اعلم‏ «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير البرهان 2: 208 عن تفسير العياشي‏ سئل امير المؤمنين (عليه السلام) عن مدة ما كان عرشه على الماء قبل ان يخلق الأرض و السماء فقال: تحسن ان تحسب؟

فقال- السائل- نعم فقال (عليه السلام) لو أن الأرض من المشرق الى المغرب و من الأرض إلى السماء حب خردل ثم كلفت على ضعفك ان تحمله حبة حبة من المشرق الى المغرب حتى أفنيته لكان ربع عشر جزء من سبعين جزء من بقاء عرش ربنا على الماء قبل ان يخلق الأرض و السماء ثم قال: انما مثلث لك مثالا.

أقول هذا الزمن الهائل هو من زمن بقاء العرش مع الماء، و مع النظر الى بطؤ الحركة العادية، و السعة الهائلة بين المشرق و المغرب و عدد حبات الخردل ملأ الأرض و السماوات، و الزمن الذي يتطلب نقل كل من المشرق الى المغرب، يفوق عمر المادة الاولية بليارات البليارات من السنين الضوئية، و يا لعلم الامام حيث يحيط بهذا الزمن دون ان يلفظ بحدة إذ لا يحده القلم!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 30

و عن سائر العترة الطاهرة كلمة واحدة في متظافر الرواية

«كان كل شي‏ء ماء و كان عرشه على الماء فأمر الله الماء فاضطرم نارا ثم أمر النار فخمدت فارتفع من خمودها دخان فخلق السماوات من ذلك الدخان و خلق الأرض من الرماد» «1»

مما تتأيد بالقرآن‏ «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ ..».

«الماء» هو الخلق الأول إذ لا خلق غيره، المادة الأولى إذ لا مادة سواها

«و لو كان أول ما خلق من خلقه، الشي‏ء من الشي‏ء، إذا لم يكن له انقطاع أبدا، و لم يزل الله إذا و معه شي‏ء ليس هو يتقدمه، و لكنه كان إذ لا شي‏ء و خلق الشي‏ء الذي جميع الأشياء منه و هو الماء الذي خلق الأشياء منه، فجعل نسب كل شي‏ء إلى الماء و لم يجعل للماء نسبا يضاف إلى شي‏ء» «2».

إذا فليس هو- قطعا- مائنا (O 2H ( منسوبا الى أبوين، و لا أي عنصر أو جزئي أو ذرة حتى الئيدروجين حيث النسب يشملها كلها فهي- إذا- المادة الأولى المعبّر عنها هنا بالماء لمناسبات شتى قدمناها في موضعها.

ذلك أن الماء على أثر تفجّره فوق الذرية اقتسمت إلى زبد الأرض و دخان السماء، و هذه أولى الفتقات بعد رتقات للأرضين و السماوات:

«أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ. وَ جَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ. وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ» (21: 32).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رواه الكليني في الكافي بسند عن محمد بن مسلم، قال قال لي ابو جعفر (ع) ...

(2) الكلين في روضة الكافي باسناده عن محمد بن عطية قال جاء رجل الى أبي جعفر (ع) من اهل الشام من علمائهم- الى ان قال-: و كان الخالق قبل المخلوق و لو كان ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 31

فقد كان هنالك رتق أوّل إذ كانتا ماء «فَفَتَقْناهُما» في تلك التفجرة عن مادتها الأولى، و فتق ثان اقتسام كل إلى طبقات سبع، و ثالث فتق السماء بالأمطار و فتق الأرض بالإنبات، و رابع فتق السماء بالوحي و فتق أراضي القلوب بتقبل الوحي، أماذا من فتق بعد رتق فصلناها في موضعها.

آية الدخان هنا تشير إلى ما خلّفه الفتق الاوّل‏ «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ» ثم الثاني‏ «فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ» و رابع‏ «وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها» و بينما الثالث يشار إليه في تكملة الأرض:

«وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها» إمطارا من السماء فإنباتا من الأرض.

و ترى هذه السماوات نرى مادتها المرتوقة «دخان» و فتقها إلى سبعها هنا، فأين المادة الأرضية و أين فتقها إلى سبعها؟ و اين سبعها؟.

«خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ» تشير إلى أصلها مادة كثيفة تناسبها كما السماء في دخانها، ثم و من‏ «الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» (65: 12) تشير إلى انقسامها إلى سبعها، و من ثم‏ «فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ..

فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ» تشير إلى موازاة انقسامها إلى سبعها مع تسبيع السماء «في يومين» متداخلين لهما لذلك التقسيم الجسيم! فسبع الأرض و مادتها في مراحلها الثلاث غامضة مرموزة دون سبع السماء بمادتها، و نحن نسكت عما سكت اللَّه عنه، و نستلهم ما ألهمه رمزا كما هنا.

فلو لا تسبيع الأرض مع تسبيع السماء في يوميها فلما ذا خطاب التكوين لهما «ائتيا ..» و لماذا الجواب تقبّلا لتكوين‏ «قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ»؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 32

و لأن الأرضين السبع هي في السماوات، و علّ كل واحدة منها في كل واحدة منها، لذلك‏ «فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ» و «هن» جمعا باعتبار الأول الى سبع و سبع، فهنّ إذا اربع عشر طبقات.

هذان يومان من أصل الخلق يختصان بخلق السماء و الأرض طباقا، و قبلهما يومان لخلق الأرض الامّ إمّا ذا من أرض: «خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ» و هل للسماء الأم‏ «وَ هِيَ دُخانٌ» من نصيب في الباقيين من الستة، و هل ل «وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ» من نصيب فيهما؟ نعم بطبيعة الحال، فإنهما ضمن خلق السماوات من طباقها و كراتها و قبلهما دخانها، كما الأرض الأم و طباقها، أمور خمسة حصلت في ستة أيام!.

فهل- بعد- يبقى نصيب لخلق المادة الأم «الماء»؟ كلّا، لأنه ليس من خلق السماوات و الأرض في شي‏ء إذ لم تكن حينها لا سماء و لا أرضا، و لا يعني خلقهما إلّا الزبد و الدخان الحصيلين من التفجرة فوق الذرية في المادة الأم، فلخلق الأرض يومان، و لتسبيع الأرض و السماء يومان، ثم الآخران يقتسمان بين دخان السماء و زينة السماء الدنيا.

أم و كما تداخل السبعان في يومي السماوات، كذلك التداخل للأرض و الدخان في يومي الأرض، فيبقى أخيران لزينة السماء الدنيا! ثم اليومان لخلق الأرض قد يتخللهما اليومان لتسبيع السماء و الأرض، فتتأخر الأفعال الثلاثة للأرض في أيامها الأربعة عن استقلال هذه الأرض، مهما شملت هذه الثلاث سائر الأرضيين السبع! و على أية حال هنا محكمات في ذلك التقسيم العضال، يومان لخلق الأرض، و يومان لتسبيع السماء، ثم لا ندري كيف التقسيم في الآخرين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 33

و من ثم تداخل السبعين ليومي تسبيع السماء، و لا ندري هل تداخل الأرض و الدخان في يومي الأرض أم لكلّ نصيبه متفاصلا؟

و لأن خلق الأرض كما السماء يشمل مرحلتي الوحدة الأم و الكثرة السبع، «خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ» قد يعني يوما لخلق الأرض الأم و يوما لتسبيعها مع السماء، فتصبح الأربعة- إذا- ثلاثة، فثلاثة باقية لسائر الخلق!.

هنالك نصوص و ظواهر هي بدرجاتها محكمات، و هنا مبهمات مجملات متشابهات، نؤمن بما تشابه منها و نعلن ما أحكم فيها نصا بنص و ظاهرا بظاهر و اللَّه أعلم بما قال! ثم لا بد لنا من تحقيق معمّق أنيق حول ذلك التقسيم في رجعة ثالثة إلى آيات التقسيم:

خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ‏؟

ترى أنها أرضنا هذه التي نسكنها؟ حيث الأرض في كافة إطلاقاتها في ساير القرآن تعنيها لا سواها.

لكنما الأرض كما السماء تعني جنسها الشامل للسبع إلّا لقرينة تخصها، و الخطابات القرآنية تعم كافة المكلفين فلا تخص أهل هذه الأرض، و لو أنها هذه لا سواها فكيف اقتسمت مع السماء إلى سبع؟ أو ليس لسائر السبع نصيب من يومي الخلق و أربعة التكملة، و قد شملتها الأيام الستة في خلق السماوات و الأرض!.

أم إنها السبع حيث الإطلاق يشملها، و آيات خلق السماوات و الأرض تؤيدها؟ إلّا أن «قضاهن» الشامل لقضاء الأرض سبعا، تعارض سبعها قبل تسبيعها!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 34

أم انها الأرض الأم خلقت في يومين، ثم في «قضاهن» اقتسمت سبعا؟ و كيف تقتسم بعد كمالها الثلاثة في أربعة ايام؟ و الظاهر من‏ «خَلَقَ الْأَرْضَ» كل خلق جوهري لها فيشمل تسبيعها! علّ الثلاث أوسطها أولاها، أن خلقت سبعا «في يومين» و استكملت في أربعة، ثم تمكنت في «قضاهن» اقتساما في السماوات السبع، فالقضاء لدخان السماء تسبيعها، و للأرضين السبع تمكينها عن جمعها إلى مكانات اخرى، و لذلك ترى النص يخص‏ «سَبْعَ سَماواتٍ» بذلك القضاء، و تهمل عن سبع أرضين، مع العلم أنها داخلة في القضاء، و الفارق أن قضاء السماء تقسيم لها إلى سبع، و قضاء الأرضين تحويل لها إلى سماواتها.

و قد يساعد هذه الوسطى أدب اللفظ حيث يقدم الأفعال الثلاثة على تسبيع السماء، و واقع المعنى، إذ من البعيد جدا اقتسام الأرض سبعا بعد تكملتها، و تساعدها الروايات المستعرضة لها «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و منها رواية الكافي عن الصادق (عليه السلام) «و في يوم الأحد و الاثنين خلق الأرضين» تفسير البرهان 2: 177 و فيه 2: 207 عن تفسير العياشي عن عبد اللَّه بن سنان عنه (عليه السلام) مثله. و منها ما في شرح النهج للخوئي 1: 393 عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فخلق من زبده الأرضين السبع ..» و منها ما في دعاء عرفة عن الإمام الحسين (عليه السلام) تسبح لك السماوات السبع و الأرضون و من فيهن» و في القرآن «الأرض» مكان «الأرضون» مما يدل على انها معنية من «الأرض» و قد يدل عليه أو يؤيده ما

في الدر المنثور 5: 261 عن عكرمة ان اليهود قالوا للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)، يوم الأحد قال: خلق اللَّه فيه الأرض»

و جاه الرواية المتظافرة عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و عن عترته (عليهم السلام) انها خلقت يوم الأحد و الاثنين، كما

في نفس المصدر اخرج ابن جرير عن أبي بكر قال‏ جاء اليهود الى النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقالوا يا محمد أخبرنا ما خلق اللَّه من الخلق في هذه الأيام الستة فقال: خلق اللَّه الأرض يوم الأحد و الاثنين .. إذا فاليوم الثاني لتسبيع الأرض بعد خلقها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 35

و هنا اليومان قد يقتسمان إلى خلق الأرض الأم، و اقتسامها إلى سبع و من ثم الأربعة التكاملية للثلاثة، و لو أنّ تقسّم الأرض إلى سبع كان في غير يوميها، موازيا لسبع السماء أمّاذا؟ فالمحتملان التاليان في موردها:

1- يوم للأرض الأمّ الحصيلة عن تفجرة الأم الاولى: «الماء» و يوم لتجميدها بعد ذوبانها و قد تؤيده‏ «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا ..»

(67: 15) حيث ذلت بعد شماس، و اعتدلت بعد ارتكاس، فلشماسها يوم و لذلّها يوم.

2- أم إن يوما لحالتي شماسها و ذلّها و الآخر لدحوها «وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها» و على أثر دحوها و حراكها، تصلّبت رواسيها شيئا فشيئا في أعماقها «أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها .. وَ الْجِبالَ أَرْساها ..» كبداية للأعمال الثلاثة في الأربعة التكاملية .. أماذا؟

و لكنما الأوفق للمحات الآيات و تصريحات الروايات و قضية الترتيب الطبيعي علّه ما قبلهما، أن الثاني لتسبيع الأرض، ثم الأربعة لتكامل السبع، و من تمكينها في مكاناتها بين السماوات السبع، ثم إخراج ماءها الكامن فيها و مرعاها الباطن لها، و إرساء جبالها في أعماقها بعد ما جعلت من فوقها، و خالقها أعلم بما قال.

«وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها ... فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ..»

هنا افعال ثلاثة في أربعة أيام، فكيف التقسيم لثلاثة بين أربعة؟.

تعرّفنا من آية الذّلول حالتي الأرض في شماس و ذلّ، فقد كانت في اوّل أمرها شماسا: متحرقة مذابة و في حراكات مضطربة كما الدابة الشّموس، فحركتها الدورانية من ناحية، و مساس سطحها الخارجي مع الهواء من أخرى‏ «وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها» كبداية لخلق الجبال و لمّا ترسو الجبال في أعماقها، و إنّما أمواج على سطح الأرض، و كما

يسأل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 36

الإمام امير المؤمنين (عليه السلام) ممّ خلقت الجبال؟ قال: من الأمواج» «1»

و علّه اليوم الأول من الأربعة لبداية خلق الجبال.

ثم وتّدها في أعماق الأرض لما أخذت الأرض تجمد من ظاهرها إلى أعماقها «وَ الْجِبالَ أَرْساها» تعني التي جعلت فيها من فوقها و أرساها في متنها و عمقها، فللجبال حالة أولى هي نصبها «وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ».

وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها.

و حالة أخرى بعدها هي إرساءها «وَ الْجِبالَ أَرْساها» و توتيدها «وَ الْجِبالَ أَوْتاداً» (78: 7) أن تميد بكم‏ «وَ أَلْقى‏ فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» (16: 15) «و عدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها و ذوات الشناخيب الصم من صياخيدها فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها» «و وتد بالصخور ميدان أرضه» و هذا من دحوها الذي خلّف إخراج ماءها و مرعاها بعد ما «وَ الْجِبالَ أَرْساها»! هذان يومان كما يقول القرآن لنصب الجبال و إرسائها، و قد يصادقه نظرات المعرفة الأرضية أن اليوم الأول لبداية ظهور الجبال و الثاني لإرساء الجبال في قطع أديمها و الاول 360 مليون سنة و الثاني 135 مليون سنة.

فالملاحظ في الدور الأول ظهور «كالدونين و هرسى‏نين» و في الثاني أغلب الجبال الفعلية، و الأصل هو المستفاد من القرآن ليومي جعل الجبال و إرسائها.

وَ بارَكَ فِيها.

مباركة الأرض هي تحصّل المياه فيها و تهيؤها لتبريك الأرض ببركاتها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان: 10: 327.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 37

و بذلّها بعد شماسها و قرّها بعد حرّها، و اعتدال حركاتها بعد اضطرابها، و تقول النظرية معرفة الأرضية: إن هذا الدور لم يعد طائلا إلّا 54 مليون سنة و الأكثرية الساحقة من الماء و الكلاء التي نعيشها الآن هي من ذلك الدور، و هي أهم الأدوار الجغرافية العمارية لأرضنا، لها أهميتها بين أدوارها.

وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها.

علّها أخذ في تنظيم الفصول الأربعة، و لأن الأقوات ليست إلّا لذويها فهو دور ظهور الحياة الحيوانية و الإنسانية على وجه الأرض، و تقول النظرية إن هذا اليوم الرابع يقدر ب 000، 300 سنة التي ظهر فيها الإنسان‏ «1».

سَواءً لِلسَّائِلِينَ‏.

يعني المحتاجين لأن كل محتاج سائل، و في العالم من خلق اللَّه من لا يسأل و لا يقدر عليه من الحيوان كثير «فهم سائلون و إن لم يسألوا» «2» فمن سائل يسأل بلسان القال، و منه من ليس له قال أم لا يسأل بقال فسؤاله- إذا- بلسان الحال، و من سائل يسأل قبل كونه سؤال الحاجة الذاتية للاستكمال، فهنالك مثلث السؤال «فهم سائلون» بسائر السؤال «و ان لم يسألوا» بلسان القال! «يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» (55: 30- 29) «وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها ..»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هذا على فرض صحته لا ينافي عمر هذا النسل المقدر بزهاء عشرة آلاف، فان قبله انسأل إنسانية كما فصلنا في آية الخلافة في البقرة.

(2) نور الثقلين 4: 538 تفسير القمي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في حديث طويل حول تفسير آية التقسيم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 38

(14: 34).

و ترى البركات و الأقوات السواء للسائلين هل هي قدر السؤال و حسبها؟ إنها قدر الحاجيات و المصلحيات دون إفراط فيها و لا تفريط، فالنبات يأخذ من الماء و الهواء و من القرّ و الحرّ قدر الحاجة، و الحيوان آخذ منها كما يحتاجه، و على الإنسان أن يعدل فيما يأخذ دون أثرة و لا كبرياء، اقتطاعا لأكثر مما يحتاجه مهما كان من سعيه، فوا ويلاه إذا كان من مساعي الآخرين!.

ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ ...

ذلك استواءه الاستيلاء لخلق الدخان سبعا كما خلق الأرض في يومين‏ «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ» (2: 29).

هنا و هناك «استوى إلى» و بعد خلق السماوات الأرض «استوى على» و الفارق بينهما أن الأولى استواء لخلقهما، و الثانية استواء لتدبير أمرهما:

«إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» (7: 54).

استوى إلى السماء لخلق لها ثان و هي دخان، حالة ثانية للمادة الأم، فنصيب السماء دخان ثائر، و نصيب الأرض زبد مائر، وليدان اثنان إثر التفجرة فوق الذرية للوالدة الكبرى «الماء».

ترى ما هي «الدخان» و لم يأت ذكرها إلّا هنا و في «الدخان»:

«فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ. رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ» (10- 12).

ليس الدخان- فقط- الصاعد عن محترق الحطب و أضرابه، بل هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 39

المستصحب للهيب أيّا كان: من لهيب الأحطاب و الفحوم الحجرية، إلى لهيب الفلزات المذابة على درجاتها الحرارية المختلفة، و إلى لهيب الغازات الصاعدة عن التفجرات الذرية على درجاتها الحرارية، إلى الئيدروجين و قد شكلت الكرة الشمسية منها في قسم كبير من جرمها، ففي مركزها 70 مليون درجة من الطاقة الحرارية، و إلى 380 مليون درجة كالتي في مركز الشعري و هي تبعد عنا 50000 ضعف الشمس، و هنالك درجات فوقها لم يصل العلم إليها حتى الآن، و التي وصلها ليست إلّا من وليدات الدخان الأم.

و هل هنالك بناء للسماء بين دخانها و طباقها كما بنيت الأرض أرضا ما، ثم انقسمت إلى سبعها؟ علّه نعم، فالتسوية سبعا تتحمل للسماء بناء أولا هو لها وحدها بتحويلها عن دخانها إلى حالة أخرى، فيه‏ «رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها. وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها» و ثانيا هو تسبيعها، فخلق الأرض و ما فيها هو قبل تسبيع السماء كما تقول آية البقرة و فصّلت، و دحو الأرض و إخراج ماءها و مرعاها هو بين بناء السماء و تسبيعها.

«ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ» لبناءها سماء و تسويتها سبعا و كما:

فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ ...

و تراه قولا قوليا؟ و ليست الأرض و السماء من أهل المقال، و لا خيرة الأفعال «طوعا» و إذ لا تختار ف «كرها»! فهو- إذا- قوله الفعل تكوينيا كما في سائر تكوينه‏ «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (36: 82) و تعبيره عن فعله بقوله إشارة إلى نفاذ أمره دونما نظرة للفاعل و لا من القابل، و هي فيهما لكل فاعل غير اللَّه‏ «وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً» (3: 83) «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 40

وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً» (13: 15) فهذه السجدة و ذلك التسليم تعطفان إلى طواعية شاملة للكون أمام أمر التكوين في بداية الخلق و نهايته، فقد

«خلق السماوات موطدات بلا عمد قائمات بلا سند، دعاهن فأجبن طائعات مذعنات غير متلكئات و لا مبطيات» «1»

«ذلل للهابطين بأمره و الصاعدين بأعمال خلقه حزونة معراجها و ناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها» «2»

فقد كان التحامها- و علّه بناءها سماء قبل سبعها- كان ذلك بدعائها و الأرض «ائتيا» «قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ» فكان في إتيانهما بناء لهما ثان بعد دخان السماء و زبد الأرض أماذا؟

و في‏ «طَوْعاً أَوْ كَرْهاً» إشارة إلى حتمية إرادته، أن لو كانت لهما خيرة لامتنعتا، فإتيانهما- إذا- واقع كرها، «قالتا» بلسان الكينونة و الحال و واقع المحكي المقال: «أَتَيْنا طائِعِينَ»! فعل العاقل اللبيب و السامع المجيب جريا على المراد و وقوفا عند الحدود و الأقدار، من غير معاناة طويلة و لا مشقة شديدة، فكانت في ذلك جارية مجرى الطائع المميز إذا انقاد إلى ما أمر به و وقف عند ما وقف عنده! «فقضاهن» هل السماء فحسب؟ و الإتيان بعد الأمر لهما دونها فحسب! أم لهما؟ و هذه جمع و هما اثنان! .. إنه قضاءهما سبعا، سبعا في سبع، علّ كل أرض استكنت في سماء أماذا؟ و ما ألطفه تعبيرا أن الأرض ما كن السماء كسائر الأنجم حيث يحول حولها الفضاء، ليست على قرني الثور أو ظهر الحوت أماذا من أماكن اختلقتها أيدي الجهل و الجعل! «فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ» دورين من الأدوار الستة لخلق السماوات و الأرض، و ذلك قضاء تكوين ثان للأرض و السماء، أيا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2) نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 41

كان فإنه «قضاهن» لا «لهن» أو «إليهن» أو «عليهن» أم سائر القضاء التي تحمل سائر معاني القضاء! أ ترى أحدها لتسبيع السماء و الآخر لتزيين السماء الدنيا بمصابيح كما يروى‏ «1» و لو كان لذلك التزيين نصيب منهما فصحيح التعبير إذا «فقضاهن .. و زينا. في يومين»! فنصيبه- إذا- من اليومين الباقين.

أم إنهما- فقط- لتسبيع السماء كما في رواية أخرى‏ «2» و هو الصحيح الفصيح من آيتهما فتصدّق روايته و يعرض عن الأخرى.

وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها و ذلك الوحي- أيا كان- يشمل الوحي في كل أرض كما في كل سماء كما «وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ..» و هو الأمر الموحى في كلّ من السماوات السبع و الأرضين السبع: «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ..» (32: 5) .. و «كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها» تلمح باختصاص كلّ بوحي خاص، اللّهم إلّا وحي الشرعة الشاملة لكل عام و خاص! أ ترى أن الأمر الموحى في كل أرض و سماء هو التكويني فقط؟ و لا يناسبه الوحي، و إنما القضاء أماذا من صيغ التكوين! أم هو التشريعي؟ فلما ذا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 360 في رواية ابن عباس الماضية عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «و خلق يوم الخميس السماء و خلق يوم الجمعة النجوم و الشمس و القمر و الملائكة ...

أقول و قد سبق صدرها انها تصرح‏ «فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» تعني في تتمتها و هي ايضا خلاف ظاهر الآية فالرواية بمجموعها مطروحة لمخالفة الكتاب.

(2)

نور الثقلين 4: 539 ح 7 في روضة الكافي عن الصادق (عليه السلام) في حديث‏ تقسيم ايام الخلق: «و خلق السماوات يوم الأربعاء و يوم الخميس ..» و روى مثله القمي عن الرضا (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 42

«فِي كُلِّ سَماءٍ» دون «الى»! أم إنه يعنيهما، و الوحي «في» جامع للوحيين «ل» كما للأرض‏ «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها» رمز في التكوين بعد ما كونت أماذا من خلق يعبّر عنه ب «أوحى» ثم الثاني: الوحي «الي» كما إلى الأنبياء و الملائكة أمّن ذا من مؤمن بارع، و إلى حيوان صانع كما «أَوْحى‏ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ»! فلكلّ سماء و لكلّ ارض أمر من الأمور: أشياء و أفعالا، و امر من الأوامر شرعة ففعالا «1»، و هما من الأمر المدبّر من السماء إلى الأرض و العارج إليه.

و الأمر أيا كان يقابل الخلق‏ «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ» فهو التدبير للخلق ماديا: وحيا لخلق، أو معنويا: وحيا إلى خلق، يجمعهما «وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها»! وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12).

و السماء الدنيا هي أدنى السماوات السبع إلينا، فهي الأولى بالنسبة لنا، أم هي الدنيا بالنسبة للأرضيين السبع كلها في احتمال أنها كلها في السماء الاولى، و علّ الاولى اولى كما قد تقتضيها: «فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ» و «مصابيح» هنا هي «الكواكب» في الصافات، تشمل كافة الكرات الصابحة، السابحة في خضم البحر الملتطم، مرئية بعيون مجردة و مسلحة أماهيه؟ و هي تشمل شمسنا، فهي متأخرة عن أرضنا و عن الأرضين كلها، فليست هي والدة لها، بل هي وليدة غازات في السماء الدنيا كما و الأرض حيث، انتهيا إلى الجدة الأولى «الماء»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حيث الأمر بين هذه المعاني الثلاث: الشي‏ء- الفعل- مقابل النهي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 43

و هذه الكرات مصابيح لمن يستصبحها، و حفظا من كل شيطان مارد، أماذا من حكم أجمل عنها «ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ».

قد لا يريبنا شك أن لتزيين السماء الدنيا نصيبا من اليومين الباقيين، كما ولد خان السماء نصيب منهما، فهل هنا نصيب ثالث ل «أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها»؟ بطبيعة الحال نعم، و لكنه أنى؟ و قد قضيت الستة، و لكنه لا، حيث الوحي «في» ليس من الخلق، و إنما هو تدبير شرعة و تكوينا للخلق، و هو بعد أصل الخلق، فإنما الشركاء في الأيام الستة، الأرض بتسبيعها و الدخان بتسبيعها و تزيين السماء الدنيا.

فذلكة حول أيام الخلق‏

: أسماء أيام الأسبوع التي تتكرر في أحاديثنا لا تعني أنها بقدرها هي أيام الخلق، بل هي صيغ فرعية عن الأيام العالمية أو الأرضية المختلفة مع بعض بالآفات المضاعفات، خلافا للخرافات التي أقحمت في التوراة أنها أيامنا هذه بلياليها!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 44

[سورة فصلت (41): الآيات 13 الى 25]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ (13) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (14) فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى‏ وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ (16) وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى‏ عَلَى الْهُدى‏ فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (17)

وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (18) وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لا أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (22)

وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (23) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24) وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (25)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 46

... إنها جولة في مصارع الغابرين عبرة للحاضرين بعد تلك الجولة العابرة في خلق السماوات و الأرضيين، مما تهز القلوب المقلوبة و تعز الصافية النقية «فَإِنْ أَعْرَضُوا» بعد ذلك العرض العريض للرحمة الكونية و الشرعية الشاملة، و تلكم البراهين الكاملة على التوحيد «أعرضوا» عن رب العالمين، فلا دواء لدائهم العضال إلّا أشد الإنذار «فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً» تصعقكم‏ «مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ» أ فهذا هو بنفسه الإنذار؟

و صيغة الماضي تضربه إلى ماض! فأين كان ذلك الإنذار- إذا- و متى؟ لا نجد في سائر القرآن إنذارا لهم سابقا كصاعقة عاد و ثمود أم أية صاعقة، فذلك،- إذا- هو هو بنفسه، تعبيرا بماض تأكيدا لمستقبل قاض! أم إنه إنذار ماض فيما استعرضت صاعقة عاد من آيات، فإن قصص القرآن عما مضى بشارات و إنذارات لمن يستقبل، و لا يعنى من قصّها على اللاحقين إلّا عبرة «لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ» (12: 111) «إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى‏» (79: 26).

و لأن الإنذار ليس إلّا بواقع يستقبل المنذرين أم في حال، فلتكن لهم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود فأين هي و أنى؟

لعاد و ثمود و المصعقين من قبل و من بعد، قد تكون صاعقة في الأولى و أخرى في الأخرى: «فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى‏ وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ» (16) أم هي- فقط- في الأخرى كما هنا! فلأن صاعقة الأخرى هي أخزى فقد أنذروا بمثل صاعقتهم و أخزى، فإن عذاب الأخرى أشد و أنكى، إذ تضم لهم إلى صاعقتهم ما استحقوها في الأولى، فاولى لهم ثم اولى! و الصاعقة هي التي تصعق غشية أو إماتة من صواعق الرعد و البرق:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 47

«وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ» (13: 13) أم صاعقة ريح صرر قرّ صرّ: «رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ» (16) و هي عاتية: «وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى‏ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ» (69: 7)، أم صيحة خاصة كما في ثمود: «وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ‏ .. أَلا بُعْداً لِثَمُودَ» (11: 68) و قد جمعتهما «صاعقة» «فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ» (17) .. أم صيحة تحشرهم جميعا إماتة و إحياء: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» (39: 68) أم صاعقة الجحيم، فقد تشملهم صواعق العذاب إلّا التي في الدنيا لمن أنذرهم الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ» (8: 33).

إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (14).

«هم» هنا عاد و ثمود، رجعا لجمعهم مهما كانوا اثنين، فمن هم الرسل التي جاءتهم و لم يكن إلّا صالح و هود؟ و ماذا تعني‏ «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ»؟ و لا تجي‏ء الرسل إلّا بين أيدي المرسل إليهم حضورا، لا غيّبا في ماض او مستقبل! إنها آية عديمة النظير في مجي‏ء الرسل من بين أيديهم و من خلفهم، إلّا التي لعاد في الأحقاف‏ «وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (21) «1» الرسل من بين أيديهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الفرقان 26: 53.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 48

هم المعاصرون لهم، صالح و هود في أصل الدعوة، و من معهم من الرسل حيث وصلتهم دعوتهم المناصرة لتلك الدعوة، و ليست الرسل المستقبلية إذ لا صلة لهم بعاد و ثمود حضورا و لا وصولا إذا هم غيّب! و «من خلفهم» هم الرسل الذين خلوا من قبل، فقد جاءتهم دعوتهم في بعدي إنذار آبائهم فهم إذا منذرون، ثم وصول دعوتهم من طرق اخرى، فلا يعنى من مجي‏ء الرسل إلّا مجي‏ء الرسالة، كما جاءت الرسالة الاسلامية ملأ العالمين من الجنة و الناس أجمعين و إلى يوم الدين، و لم يبق الرسل إلّا شذرا من السنين.

أم و في وجه أوسع‏ «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» تعم الحاضرين و من يستقبل، كما «وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» تعم كافة الماضين، تدليلا على أن الرسالة القائلة بتوحيد اللَّه واحدة مهما كان الرسل عدّة، فليس فاصل الزمان و العدّة و العدّة بالتي تفصل بين الرسالات، فرسول واحد- بهذا الصدد- هو الرسل كلهم يحمل الرسالات كلها، فتصديق واحد منهم تصديق لهم أجمع و لها كلها، كما و تكذيب واحد تكذيب الآخرين، لذلك نرى‏ «كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ» (26: 123) «كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ» (141) و «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَ لا تَتَّقُونَ» (161).

و وجه ثالث مجي‏ء الرسل من كافة الجهات و الجنبات، حيث استغرقت الحجج كلها: حسية و فطرية و عقلية و كونية أماذا «فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ» تبلغ البالغين، من ألقى منهم السمع و هو شهيد، و قد تعني‏ «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» مثلث الجهات و الوجهات! «جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ ..» و لكنهم اعرضوا كما أعرضتم «و قالوا» كما قلتم‏ «لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً» ف «لو» إحالة منهم اولى لإرسال الرسل، و «لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً» إحالة ثانية أن يكون بشرا لو أنزل، و «ربنا» دون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 49

«اللَّه» أو «رَبِّ الْعالَمِينَ» إحالة ثالثة، فإنه- و هو ربنا- لم يرسلنا و نحن بشر كالمرسلين البشر، فهم- و هم ناكرون للرسالات الإلهية- يعتذرون في نكرانهم بثالوثهم، و حجتهم داحضة عند ربهم لو كانوا يعقلون.

فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (15).

و هل هناك استكبار بحق حتى يوصف هنا «بِغَيْرِ الْحَقِّ»؟ علّه كقتلهم النبيين بغير حق تأكيدا لبطلانه! أم و لأن استكبار المستضعف أمام المستكبر الظالم هو استكبار بحق، أخذا لحق او دفاعا عن حق، و قد يروى أن التكبر مع المتكبّر عبادة! و لكنه ليس استكبارا فإنه طلب الكبر لمن ليس بنفسه كبيرا أو لا يحق له الكبر، و لا تجد في سائر القرآن استكبارا بحق فكلّه دونما استثناء بغير حق، و قد تعنيهما «بِغَيْرِ الْحَقِّ» حيث الاستكبار الحق هنا ضمن المعني المتحرز عنه‏ «بِغَيْرِ الْحَقِّ».

و في تاريخ الاستكبارات الباطلة قوّات بعضها فوق بعض‏ «كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً ... أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْراهِيمَ وَ أَصْحابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكاتِ ..» (9: 70) فمنهم أولاء و هم كانوا أشد منكم قوة، و ثالث هم أشد من أولاء «وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً»؟ كأن لم يروا أشد منهم قوة، فإذا لم يروا «أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً» «1» او ليس اللَّه بقادر على أن ينتقم منهم؟ «وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ»-:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فالواو هنا عطف على محذوف هو «ا لم يروا» و الا لم يكن لها موقع أدبي و مثله كثير في القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 50

فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى‏ وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ (16).

«فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ» هؤلاء الحماقى الطغاة السرسريين‏ «رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ» «1» و كما السرسر هي بالغة الشر، كذلك الصرصر هي بالغة الصر و القرّ، و الأيام النحسات هي سبع ليال و ثمانية أيام حسوما مجتثة جذورهم‏ «فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» (69: 8) .. أ ترى أن هناك أياما بين الأيام هي بنفسها نحسات و هي من قالة المنجمين؟ كلا! حيث النحوسة و السعادة في زمان او في مكان هما الناتجتان عما يحصل فيهما، دون ذاتية لايّ منهما في نحوسة أم سعادة، و هما ترجعان إلى عملية الإنسان و نويّته النحسة او السعيدة، دونما قضاء فيهما و قدر لهما لا تمتّ بصلة لما يعمله الإنسان.

ذلك‏ «لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا»، و صرصرهم في الآخرة أخزى و أنكى‏ «وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ» خزيا زائدا على الأولى في بعدية، فإذا هم يظنون نصرة في الأولى‏ «الْآخِرَةِ أَخْزى‏ وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ» بل و يخذلون و يرذلون! ألا

«و اتعظوا فيها بالذين قالوا «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً» حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا، و أنزلوا فلا يدعون ضيفانا، و جعل لهم من الصفيح أجنان، و من التراب أكفان، و من الرفات جيران» «2».

وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى‏ عَلَى الْهُدى‏ فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (17).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الفرقان 39: 86، و 37: 489 تجد تفصيلا زائدا لعذاب الصرصر في آيتي الحاقة و القمر و قد ذكرت عاد في القرآن- و هم عاد الاولى- 34 مرة و ثمود 26 مرة و لم يذكر قوم طغاة كما ذكرا فإنهم اظلم و اطغى.

(2) نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 51

هذه الهداية هي العامة بارائة طريق الهدى عن الردى، فإذا استحبوا العمى على الهدى فهم إذا في ضلال قاصد بعناد زائد «فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ» و علّه في بعدي القلب و القالب، «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» «فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ» (69: 6) و هي الصيحة: «وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ. كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ» (11: 68) و بالرجفة الطاغية: «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ» (7: 77) و ثالوث الصيحة الرجفة الصاعقة هي من عذاب الهون‏ «بِما كانُوا يَكْسِبُونَ».

و قد تعني «فهديناهم» واقع الهدى بعد آية الناقة، ثم ردّتهم بعد ردح قليل منها، و ترى إذا يستحب الإنسان عماه على هداه فهل هو مايز هداه عن عماه؟ أو على علم يستحب المكروه على المحبوب؟ و ليس هكذا اي حيوان، بل أية حشرة فضلا عن إنسان، اللّهم إلّا ذو جنّه فاقد عقله و تمييزه، إذا فلما ذا صاعقة العذاب الهون، للمجنون! و لكن إذا كانت الفطرة الإنسانية و عقليتها مقياس الاستحباب فلا يستحب الإنسان إلّا هداه، فالذي «أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ‏ وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» (18: 28) هذا يستحب هواه على هداه، أم ليست هداه إلّا هواه‏ «وَ رَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا بِها» «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» إذا

«فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى‏ عَلَى الْهُدى‏ و هم يعرفون» «1»

و لأن العمى هنا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 542 ح 22 في كتاب التوحيد باسناده الى حمزة بن الطيار عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الآية قال: عرّفناهم فاستحبوا ..

و

في اعتقادات الامامية للصدوق و قال الصادق (عليه السلام) في الآية: قال‏ وجوب الطاعة و تحريم المعاصي و هم يعرفون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 52

تقابل الهدى فهي ظلام البصيرة، و المتاه في الغواية، و الهدى بصيرة مختارة، يتركون هذه إلى تلك باختيار دون جنّة و لا إجبار، فان ذلك أخف على الإنسان، و أشد ملائمة للطباع من تحمل مشاق النظر و التلجيج في غمار الفكر «فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ».

وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (18).

إيمان بقلب ثم اتقاء من جرّاءه بالقالب، حيث الإيمان المجرد لا ينجي إلّا أن يظهر في الإنسان ككل من ظاهره و خافيه، و عنده النجاة عن صاعقة العذاب الهون.

وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (20).

هنا شهادة الأعضاء عدلا و حقا إلى جنب ما هناك و هنالك من شهادة الأرض بفضائها، و شهادة النبيين و الكرام الكاتبين، و ليكون عدو اللَّه غارقا في يمّ الشهادات عينية و ذهنية أماهيه من شهادات قاطعة قاصعة لا محيد عنها و لا محيص! و ليراجع للتعرف الى كلّ لموضعه من الفرقان بطيات آياته المفسرات‏ «1».

الحشر إلى النار هو الجمع إليها، و الإيزاع هو الإكفاف و الإحباس، أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فصلنا البحث حول شهادة الذات و الأعضاء في سورة الإسراء و النور، وفي شهادة الأرض و الفضاء في الزلزال و في الشهادة ككل في الجاثية و لقد استوفينا البحث حول الشهادة عند آياتها و بمناسباتها، و يأتي حديث الامام الصادق (عليه السلام) حول أن هذه الشهادة بعد شهادة الملائكة و عرض أعمالهم و تكذيبهم للكل فيختم على أفواههم عند الآية: «وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 53

يكفّوا عن التفرق، و يحبس أوّلهم على آخرهم حتى لا يتفلتوا، فقد يكون احتراما ك «رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ..» (27: 19) أو اختراما كما هنا و في‏ «يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ» (27: 83) فلا يفيد الحشر الجمع لحساب فعقاب أم شكر فثواب إلّا إيزاعا لجمع كيلا يتفرقوا و يهملوا على كثرتهم.

.. حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (20).

علّها شهادة أخيرة في موقف أخير «إِذا ما جاؤُها» و قد سبقتها شهادات منها و سواها، أم هي تجمع شهادات الأعضاء كلها، و على أية حال لماذا الانحصار في‏ «سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ» و الانحسار عن ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم؟ و هذه أقوى من تلك و أجلى و الاستشهاد بها أشجى و أحجى! هنا «جلودهم»- كإجمال بعد تفصيل مّا- تشمل هذه الثلاثة و سواها، و علّ اختصاص‏ «سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ» لأهميتهما من جهات أخرى أبرزها أنهما رقيبان على الجوارح و على أنفسهما، كما الفؤاد على الجوانح و على نفسه: «إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا» (17: 36) مسئولا لذواتها فيما افتعلت، و مسئولا عنه لسائر الجوارح و الجوانح فيما افتعلت و ليست كذلك سائر الجوارح و الجوانح.

فقد تسمع آيات او تبصر يستهزأ بهما فلا تمنع بجارح أم تغضب بجانح، أم تسمعها و تبصرها فلا تعتبر بها، فهنا السمع و البصر كل مسئول عنه ماذا فعلت و هما بريئان عما افتعلت من حرام او تركت من واجب! ..

أو تسمع ام تبصر محرما فلا تمنع أو تمتنع، فشهادة مزدوجة منهما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 54

عليهما و على لسانك أمّاذا كان عليك أن تمنع بها! أم تسمع و تبصر ما لا محيد عن حرمته بمنع و سواه، فشهادة منهما- فقط- عليها، فيما اقترفا من حرام! و لكنما الجوارح الأخرى من ألسنة و أيد و أرجل أمّاذا فلا رقابة لها على غيرها، بل هي شاهدة- فقط- على أنفسها شهادة ذاتية و لا سواها، فإنما هي كآلات مباشرة لما عصت، لا تعدوها إلى سواها فيما افتعلت.

فللسمع و البصر و الفؤاد اختصاصها من هذه الجهة، و للألسنة و الأيدي و الأرجل أهميتها من أخرى، و قد يجمعها كلها «جلودهم» فإنها جلود الأرواح: الأبدان، فتشمل الجوارح كلها كما «كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ» فلا تعني- فقط- القشور حيث النضج و الشهادة تعم الأعضاء.

إذا «شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ» تعني مثلث الشهادة و مزدوجها، ثم «و جلودهم» تعني شهادة واحدة. و لأن الشهادة على شي‏ء تتطلب تحمّل الشهادة من قبل و إلّا فلا شهادة، فلتكن الأعضاء متحملة لأصوات الأقوال و صور الأعمال حتى تلقي ما تحملت و تؤدّي ما حمّلت، إذا فهي مسجّلات الأقوال و شاشات تحمل صور الأفعال، و هكذا تشهد عليهم‏ «سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» أن يظهر على كلّ ما يناسبه من شهادة عينية هي الحجة القاطعة و البينة القاصعة القارعة على المكلفين، حيث‏

«صارت الأجساد شحبة بعد بضتها و العظام نخرة بعد قوتها، و الأرواح مرتهنة بثقل أعبائها، موقنة بغيب أنباءها، لا تستزاد من صالح عملها، و لا تستعتب من شي‏ء زللها» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 55

و قيلة من قال إن «جلودهم» هي عوراتهم مردودة إلى قائلها، و الرواية «1» القائلة بها مأولة إلى بيان مصداق هو عار بين مصاديقها، فتشهد العورة كسائر الجلود بما افتعلت أم و فعل غيرها.

وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21).

مفاجئة هائلة من مشهد الشهادة في معرض القيامة بموقفه العصيب و هم بحاجة ماسة إلى مناصرة من سواهم فإذا هم محجوجون بشهادة الجوارح، و إنها بحق جوارح تجرح قلوبهم و تفتّت أكبادهم و لات حين مناص، و لا منفذ لخلاص! يا ويلاه! فكل شهادة كانت بحسبان إلّا شهادة الإنسان على نفسه، بجارحه و جانحه، و يا للفجأة المحيرة بسلطان اللَّه الخفي يغلبهم على أبعاضهم فتلبّي و تستجيب.

و كيف يقاولون جلودهم و ليست بقائلة إلّا ألسنتهم، و هي السائلة القائلة:

«لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا»؟ لأنهم شاهدوها تشهد، و لم تسبق لهم منها سابقة الشهادة، و هذه خارقة للعادة، فليسألوها «لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا» مما يدل على أن شهادتها لم تكن باختيار منهم أو علم، و لا يصدر من الأعضاء فعل إلّا عن إختيار منهم و علم! «2».

قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ- وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ- وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ‏.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2).

نور الثقلين 4: 544- القمي بسنده عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في حديث‏ فرض الايمان على الجوارح: يعني بالجلود الفروج و الأفخاذ.

و رواه مثله في الفقيه عن امير المؤمنين (عليه السلام):

يعني بالجلود الفروج. أقول و مما يدل على انه تفسير بمصداق ما

في الدر المنثور 5: 362- اخرج عبد الرزاق و احمد و النسائي و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه و البيهقي في البعث عن معاوية بن حيدة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في حديث‏ و ان اوّل ما يعرب عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 56

جواب مثلث عن‏ «لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا» فيه بيان الحكمة و السبب و المبرر لتلك الشهادة العجيبة:

1- «أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ» و ماذا تعني «كلّ شي‏ء» و لا نسمع شيئا ينطق إلا أنفسنا كعادة، و إلا أعضاءنا هنا كخارقة العادة و نحن نتساءلها «لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا»؟.

أ ترى «كل شي‏ء» هنا هم سائر الشهداء من الأرض بفضائها و الملائكة و الأنبياء، و قد شهدوا من قبل شهادتها و لمّا تشهد الأعضاء، إذا ف «كل شي‏ء» تعرّفوا إلى شهادتها قبل هذا الموقف، و هي مخصوصة بالأشياء الشاهدة لا كل شي‏ء، الأشياء التي عشناها في حياة التكليف، و ما كنا نظنّ أن أعضاءنا سوف تشهد علينا، و لكن اللَّه الذي أنطق هؤلاء الشهداء خلاف العادة، هو الذي أنطقنا و نحن أقرب الشهداء فأحق بالشهادة و أحرى.

و شهادات الأعضاء كما سائر الشهداء هي شهادات عينية و حتى اللسان إذ تبرز منه الكلمات التي تكلمها «1» فالأعضاء- إذا- هي مسجّلات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أحدكم فخذه و كفه و تلا (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لا أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ‏،

أقول لا تناسب الآية مستندا ل «فخذه و كفه» الا ان يعمها «جلودكم» و الفخذ كناية عن العورة.

(1). تفسير البرهان 4: 108 ح 2 علي بن ابراهيم انها نزلت في قوم تعرض عليهم اعمالهم فينكرونها فيقولون ما علمنا شيئا منها فتشهد عليهم الملائكة الذين كتبوا عليهم أعمالهم‏

قال قال الصادق (عليه السلام) فيقولون للَّه يا رب هؤلاء ملائكتك يشهدون لك ثم يحلفون باللَّه ما فعلوا من ذلك شيئا و هو قول اللَّه‏ «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ» هم .. فعند ذلك يختم اللَّه على ألسنتهم و ينطق جوارحهم فيشهد السمع بما سمع مما حرم اللَّه و يشهد البصر بما نظر إلى ما حرم اللَّه و تشهد اليدان بما أخذتا و تشهد الرجلان بما سعتا فيما حرم اللَّه و يشهد الفرج بما ارتكب مما حرم اللَّه ثم أنطق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 57

الأصوات و الصور، شاشات من صنع اللَّه تبرز كل ما حصل منها في حياة التكليف: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ..». فليست الأعضاء لتنطق كلها قولا، و إنما كما يناسبها من عينية الشهادات، تلقي ما تلقّت دونما زيادة أو نقيصة، اللهم إلّا قولها:

«أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ ..» فإنه خارقة أخرى تنطق بالأولى و لكي يعرف المجرمون ما جهلوه من خافية الأعضاء و الأشياء «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها» ف «أنطقنا» تلقّ ثان إجابة عن «لم شهدتم» إفصاحا عن تلقّ أوّل‏ «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها»! و إذا كانت شهاداتهم كلها نطقا لفظيا فما هي بشهادات، و إنما كلمات خلقت فيها، ليست حجة على أصحابها فقد ينكرونها، و لكنما الشهادات العينية ليست لترد على شاهديها فلا تكذب ردا عليها كما نرى‏ «لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا» دون: ان شهادتكم كاذبة علينا.

إنهم يلمسون واقع الشهادة و صدقها، و يحتارون كيف الأعضاء تشهد على أصحابها.

إذا ف «أنطقنا» تنظير لشهادتها بشهادة كل شي‏ء خارقة تلو خارقة، و لا تملك الجلود أن تتمنّع عن هذه الشهادة، فإن اللَّه هو الذي أنطقها و أنطق كلّ شي‏ء.

2- «وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» و هذه ثاني مرة، خلقكم بهذه الأعضاء المسجّلة للأصوات، الشاشة للصور و أنتم جاهلون-:

3- «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» و لا بد للمخلوق اوّل مرة الراجع إلى خالقه ثاني مرة، أن تبرز شهداءه يوم الحساب الرجعة، شهداء من نفسه بعد سائر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللَّه ألسنتهم فيقولون‏ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا .. وَ لا جُلُودُكُمْ‏» الجلود الفروج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 58

الشهداء، و لكي لا يخلد بخلده نكران ما افتعل، و يذكر ما فعل بعد نسيان، فواقع‏ «أَنْطَقَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ» يبرز تنطّق الأعضاء، و «خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» يفرضه كحكمة عالية، إذا فالجواب هو مشهد الواقع و شهادة الحكمة و لات حين مناص! وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لا أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (22).

هنالك تمّت الشهادات و تم الجواب، و هنا اللَّه يعقّب تكملة الجواب‏ «وَ ما كُنْتُمْ ..».

و كما الاستتار عن التسجيل حين الأقوال و الأعمال غير ما كن و لا ممكن حيث المسجّل المستنسخ لها هو اللَّه: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (45: 29) و أنتم لا تعلمون، كذلك بأحرى‏ «ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ» هنا «أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ» ما تلقتها من أعمال، إذ «أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ» «وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ»! و قد كان ما كان من ظنهم هذا أنهم يخفون عن اللَّه كثيرا من خافية أقوالهم و أعمالهم و نياتهم، فنزلت الآية تنديدا بظنّتهم، علاجا لعلتهم، تنبيها نبيها عن غفوتهم و لمّا يموتوا و يحشروا على وجوههم إلى جهنم‏ «1»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 5: 362- اخرج سعيد بن منصور و احمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و الترمذي و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقي في الأسماء و الصفات عن ابن مسعود قال: كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي و ثقفيان او ثقفي و قرشيان كثير لحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فتكلموا بكلام لم أسمعه فقال أحدهم أ ترون ان اللَّه يسمع كلامنا هذا فقال الآخر إذا رفعنا أصواتنا سمعه و إذا لم نرفعه لم يسمع فقال الآخر ان سمع منه شيئا سمعه كله قال فذكرت ذلك للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فأنزل اللَّه‏ «وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 59

«إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا ..» (14: 40) «بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ..» (6: 28) «إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيماً» (3: 54) «وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ» (7: 25) «وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً» (10:) 61).

و قد يشير «المضي» في «ما كنتم» إلى أن الاستتار المنفي يشمل حين تلقي الشهادة يوم الدنيا، كما يشمل حين إلقاءها يوم الأخرى، و كما يلمح به نزول الآية عند ظنّتهم هذه مهما كانت الشهادة الأولى شهود نفس العمل، و الثانية شهادة عليه، فموقف «على» هنا يسجل نفي الاستتار هناك‏ «1».

بل الأصل في «ما كنتم» هو الاستتار في الأولى، أن لو تحقق كان استتارا في الأخرى، و لكن‏ «ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ» هناك، فكيف تستترون هنا و هي شهادات ملتقاة و لا بد أن تلقى! ما كان يخطر ببالكم أنها سوف تكون و بالكم‏ «وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ» فخدعكم ذلك الظن القاحل الأثيم و قادكم في مآلكم إلى الجحيم:

وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (23).

الردي‏ء هو الهلاك، فالإرداء: الإهلاك، و قد أرادهم هالكين ذلك الظن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ففي الاول يقال شهده و في الثاني شهد عليه و لا يصح الجمع ب «شهده» الا «شهد عليه» حتى يشمل الشهادة عليه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 60

الردي‏ء، فالذي يظن أن اللَّه لا يعلم كثيرا مما يعمل، و القليل الباقي يخفّف أو يعفى عنه، ذلك الأحمق الشّرس ليس ليتقي بأس اللَّه يوم بأسه، فيردّى في جحيم العصيان فيصبح يوم القيامة من الخاسرين.

إن سوء الظن باللَّه يردي الظانّ حسب دركات السوء، كما حسن الظن ينجي حسب درجاته، و لكنه ليس فوضى جزاف أن كل ظان باللَّه يكون عند ظنه، فلو ظن كافر باللَّه حسنا من غفران و رضوان فهو من أهل الغفران! او ظن مؤمن باللَّه سوء من عدم الغفران يصبح من أصحاب النيران! كلّا.

و إنما حسن الظن فيما يحسن به الظن، و سوء الظن فيما يسوء في ميزان اللَّه لا سواه‏ «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ» (48:) 6) و نائرة الظن السوء «وَ طائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ ..» (3: 154).

و أما أن يظن باللَّه أنه يعاقب المسيئين عدلا، فهو ظن الخير العدل، و خلافه ظن السوء، كما ظن الذين كفروا أن اللَّه لا يعلم كثيرا مما يعملون، فأرداهم فأصبحوا من الخاسرين.

أو أن يظن باللَّه أنه لا يعفو عن المؤمنين، فهو ظن السوء مهما كان من المؤمنين، و ما

يروى‏ «أن الله عند ظن عبده إن خيرا فخير و إن شرا فشر» «1»

و

«ليس عبد يظن بالله عز و جل خيرا إلا كان عند ظنه به» «2»

ليس بذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المجمع عن الصادق (عليه السلام) ينبغي للمؤمن ان يخاف اللَّه خوفا كأنه يشرف على النار و يرجوه رجاء كأنه من أهل الجنة ان اللَّه تعالى يقول‏ «وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ ..» ثم قال: إن اللَّه ...

(2)

نور الثقلين 4: 544 ح 29- القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن عبد الرحمن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 61

الفوضى التي يزعمها الفوضويون، حتى أن لو ظن كافر خير الجنة دخلها، أو ظن مؤمن شر النار وردها، فإنما المعني من هذه و تلك وجوب حسن الظن باللَّه في ميزان اللَّه، دون ما أهمتهم أنفسهم فيظنون باللَّه غير الحق ظن الجاهلية!

«لا يموتن أحدكم إلّا و هو يحسن الظن باللَّه فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم باللَّه عز و جل قال اللَّه عز و جل: «وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ» «1».

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24).

و ويلاه، و يا للسخرية المرهفة، حيث الصبر الآن صبر على النار

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بن الحجاج قال‏ قلت لابي عبد اللَّه (عليه السلام) حديث يرويه الناس فيمن يؤمر به آخر الناس الى النار فقال لي: اما انه ليس كما يقولون قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ان آخر عبد يؤمر به الى النار، فإذا امر به التفت فيقول الجبار جل جلاله ردوه فيردونه فيقول له: لم التفت اليّ؟ فيقول يا رب لم يكن ظني بك هذا فيقول و ما كان ظنك بي فيقول كان ظني بك ان تغفر لي خطيئتي و تسكنني جنتك قال فيقول الجبار يا ملائكتي لا و عزتي و جلالي و آلائي و علوي و ارتفاع مكاني، ما ظن بي عبدي هذا ساعة من خير قط و لو ظن بي ساعة من خير ما ودعته بالنار أجيزوا له كذبه و أدخلوه الجنة ثم قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ليس من عبد يظن باللَّه عز و جل خيرا الا كان عند ظنه به و ذلك قوله عز و جل‏ «وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ»

أقول: هذا الحديث مطروح من جهات عدة أو مؤول فان مجرد حسن الظن و لو في غير محله فضلا عن كونه كذبا و في الآخرة، هذا لو أوجب دخول الجنة لم يبق احد للنار فان مجال الكذب واسع لكل اصحاب النار!.

(1). الدر المنثور 5: 362- اخرج احمد و الطبراني و عبد بن حميد و مسلم و ابو داود و ابن ماجة و ابن حبان و ابن مردويه عن جابر قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 62

«فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ» و ليس الصبر الذي يعقبه الفرج حتى يبدّل مرّه حلوا لآجل الفرج، و إنما هو النار المثوى القرار ولات حين فرار! ليس لهم إلّا الصبر على النار فإنه مثواهم المأوى و مستقرهم في الأخرى بما قدموها، و ان يستعتبوا- طلب العتبى و الرضا- فما هم بمرضيين، و الإعتاب هو استصلاح الجلد بإعادته في الدّباغ، و هؤلاء لم يبق لهم مجال الاستصلاح حيث تردّوا بكاملهم إلى الفساد فلا مثوى لهم إلّا النار «اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ» (52: 16).

و معنى ثان للعتبى هو العتاب الشديد، فإن طلبوا عتباهم فلا يعتبون، كناية عن غاية ترذّلهم لحد لا يخاطبون حتى خطاب العتاب‏ «فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» (30: 57) و قد جرت العادة أن الذي يطلب العتاب يطلبه كذريعة لما يرجوه من الصفح و الرضا تغاضيا عن الأسباب، فاليوم يغلق باب العتاب متابا و عتابا.

فالاعتباء يعني كلا السلب و الإيجاب، العتبى و إزالة العتاب، كما الإطاقة هي سلب الطاقة، فان يستعتبوا طلب سلب العتاب بعتبى الاستصلاح فما هم بمعتبين، و إن يستعتبوا إيجاب العتاب التنديد فما هم بمعتبين! «سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ» جزع الصراخ أم طلب الإصلاح، أم طلب العتاب، فقد سدل الستار و أغلقت الأبواب و تمت كلمة ربك بتمام العذاب! وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (25).

و لأنهم عشوا عن ذكر الرحمن فعاشوا عشو الشيطان‏ «وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 63

ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» (43: 36) لذلك‏ «وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ ..»

«أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» (19: 83).

فالتقييض هو الإرسال، فكما اللَّه يرسل للمؤمنين مؤيدين لاكتمال الإيمان ثوابا وفاقا، كذلك يرسل للكافرين مؤيدين عقابا وفاقا، أم ليس التقييض- فقط- الإرسال و إلّا جي‏ء بصيغته الشهيرة «أرسلنا» كما في آيته الأخرى، بل هو الإرسال التبديل، أن بدلناهم عن الهداة التّقاة بغاة طغاة، إذ بدلوا نعمة اللَّه كفرا و «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ» فلما بدّلوا دعوة الهدى إلى الردى‏ «قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ» ليواصلوا في الردى‏ «وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ»، «فَزَيَّنُوا لَهُمْ» ثانيا بزيادة، ما تزين لهم أنفسهم بما ظلموا و تعاموا و عشوا «فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» من شهواتهم الحاضرة و دنياهم المستقبلة و يوم القيامة «وَ ما خَلْفَهُمْ» ما خلفوها و جعلوها سنة أم فعلة عابرة غابرة، و من سنن الغابرين أمثالهم، فعند ذلك تمادوا في العصيان و تعاموا في الطغيان.

و من تزيين دنياهم بين أيديهم و خلفهم أنهم يصورونها بمكائد و أكاذيب صورة المطلوب و الغاية القصوى من الحياة: «إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا ..» و من تزيين عقباهم الأولى تشجيعهم على جبران ما فات منها، عرضا للمستقبل أعرض مما مضى، و من تزيين عقباهم الأخرى، تزيين نكرانها، أم و على قبولها لمن ليس لينكرها، تزيين حسابها هينا لا يعتد به، أم غفرانا للمجرمين قضية الرحمة الواسعة الفوضى جزاف، أم و «أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ» أماذا من تحريف للآخرة و حسابها، و تجديف فيها و تجريف لها يخرجها عما يحمل على التقوى و يذر على الطغوى فهذه هي المهلكة العظمى و المصيبة الكبرى و المنحدر الذي ينتهي الى كل بوار «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ» و هم من «الأخسرين‏ أَعْمالًا الَّذِينَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 64

ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» و «أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ».

لذلك‏ «وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» كلمة العذاب‏ «قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» (38: 85).

«فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ» مضت‏ «مِنْ قَبْلِهِمْ» فإن أصحاب الجنة يتواردون ردف بعض تلوا، لا دفعة واحدة «مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ» قضية اشتراك التكليف فاشتراكا في عقاب أو ثواب‏ «إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ».

[سورة فصلت (41): الآيات 26 الى 39]

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (28) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30)

نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (31) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32) وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَ ما يُلَقَّاها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقَّاها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)

وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36) وَ مِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُمْ لا يَسْأَمُونَ (38) وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى‏ إِنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (39)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 67

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26).

علّها من قيلة القرناء المقيّض لهم، يزينون لهم كفرهم بمزيد هو اللغو في القرآن، بعد أن كانوا به كافرين، و لكي يغلبوا على دعوة القرآن و دعايته الجذابة الجلابة، كيلا يقعوا- هم- او من سواهم- على حد زعمهم: في فخ القرآن، و لا يصطادوا بصيده.

فالذين يكفرون بالقرآن يقتسمون إلى ثالوث النكران! 1- نكرانا في أوّل مرة و قد يؤول إلى إيمان على ضوء سماع له أو استماعه و تسمّعه، 2- و نكرانا عريقا بما سوّلت لهم أنفسهم و سول لهم الشيطان ثم يبعدون عنه فلا له و لا عليه، 3- و من ثم نكرانا يعني غلبهم على القرآن بمحاولات كلغو فيه أماذا من دوائر السوء، يتربصونها بدعوة القرآن و ليس إلّا عليهم‏ «لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» فلا «تغلبون» و لا عوان بين ذلك، بل «تغلبون»! «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» لقرنائهم الكافرين و لمّا يصلوا ما وصلوا من عمقهم في كفرهم و حمقهم، قالوا كلمتين اثنتين لهما تأثيرهما ردف بعض:! «لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ» فإنه يسحركم فيحملكم دونما اختيار إلى الإيمان، علما منهم أنه يأخذ بازمة القلوب فيحركها إلى المطلوب.

و لماذا «لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ» و السمع متعد بنفسه، و القرآن كتاب واحد لا يحتاج في شخصه و تشخيصه إلى اشارة التعريف؟

القرآن- في وجه عام- يشمل كل مقروّ وحيا و سواه‏ «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَ لا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» (34: 31) فالذي بين يديه قرآن غير هذا وحيا «قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ ..». (10: 15) «غير هذا» وحيا يختلف عنه «أو بدله» من عند نفسك تحويرا عن وحيه‏ «قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 68

أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (15).

فهذا القرآن بين قرائين الوحي و سواها هو الذي لا تسمعوا له.

و أما «لهذا» دون الى هذا؟ فلأن سماع القرآن قد يعني الهزء به و اللغو فيه و الرد عليه، و أما السماع له فهو سماع خاص لصالح الهدف الذي يرام، تدبرا فيه و تفكرا يحويه، فالسماع له ممنوع، و سماعه بين ممنوح و ممنوع، و من الممنوح المفروض‏ «وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» كلمة ثانية للذين كفروا.

فهنالك غلب بحجة تدحض حجة القرآن و لسنا عليها بقادرين، فتحوّلا إلى لغو فيه كيلا يسمعه السامعون، فكما أنتم لا تسمعون له، اختلقوا جو اللّااستماع له‏ «لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» حجته بعدم بلوغها للناس، ثم افتراءات عليه أنه سحر أو شعر أماذا من مبعّد عنه و هنالك الغلبة التامة.

و إنها كلمة مضللة و قالة قاحلة جاهلة من الكبراء القرناء المقيّض لهم، يغرون بها الجماهير بعد ما عجزوا عن مغالبته بحجة «لا تسمعوا ..

و الغوا» سلب ثم إيجاب يتضمنان اجتثاث حجة القرآن، مفاصلة بينهما و بين الإنس و الجان و سائر المكلفين.

و إنها مهاترة و مكابرة عجزا عن المواجهة بالحجة، و المقارعة، عند الطغاة المستكبرين على الإيمان، توسلا بكل الوسائل، و تربصا بكل الدوائر «لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ»! «هيهات هيهات لما يوعدون»! و اللغو هو ما لا يعتد به من فعال او مقال، و من قيله صوت العصافير في مقياسنا إذ لا نفهمه، و لكنه ليس لغوا بينها فانه محادثة و ذكر لا نفهمها، فاللاغي منا- على فهمه- هو ألغى من العصافير على حيونتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 69

و لغو الفعل و الكلام قد يكون لإجماله كأن كان مفردا دون جملة، كمفردات الكلام، و لذلك سميت لغة، و قد يكون في جملته إجمالا لأنه لغة خلاف ما نعرفها من لغة كلغو العصافير أماذا من لغات حيوانية أم انسانية لا نعرفها، و ثالثة هو لغو بقول مطلق، لا يعني أيّ معنى صالح في أية لغة، ثم هو يلحد في لغة صالحة كاللغو في القرآن.

فمن اللغو في القرآن تحريفه بزيادة او نقصان، فتجريفه الى منجرفات الكتب التي بين يديه، الى شفا جرف هار منهار، و لكنهم عن بكرة أبيهم حاولوا و لم يفعلوا و لن ... حيث القرآن في ضمان دائب من الرحمان الرحيم.

و منه نقضة بنقصة لغويا أو معنويا ام أي خلاف للحق او اختلاف‏ «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» (4: 82).

و من اللغو فيه إلهاء الناس عن السماع له بقصص خرافية أماهيه، ملهية عن سماع القرآن لمّا يقرء، و اللغو بالهرج و الصياح و النياح، و بالرجزات و السجعات، و قد فعلوا كل ذلك و افتعلوا و لكنها ذهبت كالتي قبلها إدراج الرياح، و غلب القرآن و غلب هنالك المبطلون! ... ثم لا جواب عن تهددهم هذا إلّا بما يلقون- جزاء ما يلغون- يوم القيامة، حيث الجواب هنا تبابهم عما كانوا يهوون:

فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (27) قد يعني ذوق العذاب أولا و جاه و قبل الجزاء، أسوء الذي كانوا يعملون، ذوقه في الدنيا قليلا، ثم في البرزخ وسطا، و من ثم الجزاء الأوفى يوم الجزاء، و سرعان ما شهدنا حنقهم يوم الدنيا أن رجعوا عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 70

لغوهم في هذا القرآن خاسرين مهانين، و من ثم البرزخ و القيامة الكبرى فإن فيها نفس الجزاء بعد ذوقه.

و «الَّذِينَ كَفَرُوا» تعم الكبراء الأتباع، و «أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ» هو اللغو في القرآن و أضرابه من بالغ الكفر و التكذيب بآيات اللَّه، و الجزاء هنا هو الأسوء نفسه، إذ ليس جزاء بأسوء، مما يتهدّدهم أن لغوهم في القرآن يبرز يوم القيامة بملكوته جزاء «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فهي من الآيات القائلة أن الجزاء هو العمل و العمل هو الجزاء، فليس هنالك انتقام و انتصار، بل هو ظهور ما كان خفيا «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ».

«ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (28).

«ذلك» البعيد المدى‏ «جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ» و هو «النار» «لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ» قدر ما أخلدوا إلى عداء اللَّه «جزاء» وفاقا بما كانوا يكسبون.

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29).

«الَّذِينَ كَفَرُوا» هنا هم التابعون و «الَّذَيْنِ أَضَلَّانا» هم القرناء المتبوعون، يطلب الأولون ربهم أن يريهم الآخرين ليذلوهم و يسفلوهم.

و هل‏ «الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ» هما شخصان اثنان، إبليس الجن و قابيل الإنس‏ «1»؟ و ليس قابيل مضلا لكلّ الكافرين مهما كان بادئ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 363- اخرج عبد الرزاق و الفرياني و سعيد بن منصور و عبد بن حميد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 71

الإضلال من الإنس، فهنالك في تاريخ الإنسان من هو أشر منه و أطغى! و ليس المضل من الجن هو شخص إبليس مهما كان يرأس المضلين! إذا فهما النموذجان الأولان للإضلال و من ثم الآخرون في كل زمان و مكان، و «اللذان» تثنية الجمع لا المفرد.

و إنه تطلّب بخنق عنيف تحرّقا على الانتقام، أ ترى إنهم المجابون في طلبتهم هذه؟ علّه نعم لأن المضلّل هو أسفل من المضلّل و قد ظلمه فليكن تحت قدمه، و قد يجاوبه اللّاجواب! .. و علّه لا إذ لا إجابة لدعاء الكافر و هو في النار «وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ» (13: 14)! و ليس كل مضلّل أسفل من مضلّله و لا أظلم منه و أطغى!: «قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ» (7: 38) و علّهم حيث أضلوا غيرهم كما ضلوا بغيرهم فهم و مضللوهم في الضعف سواء! و قد يكون الانظلام أظلم من الظلم! ثم اللَّه هو الذي يجعل الأسفل من الأسفلين و السافل من السافلين عدلا و جزاء وفاقا، أ فيطلب بعدله يوم عدله؟! و في جعلهما تحت أقدامهم حظوة و نعيم للتابعين و ليست النار دار النعيم!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و ابن عساكر عن علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه‏ انه سئل عن قوله‏ «رَبَّنا أَرِنَا ..» قال: هو ابن آدم الذي قتل أخاه و إبليس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 72

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32) «1».

آية الاستقامة في فصّلت فصّلت ثانيتها المجملة في الأحقاف، ثم ليست سواهما في سائر القرآن إلّا «لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» (81: 6) «فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ» (42: 15) «فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ» (41: 6).

في الأحقاف تبشر بسلب الخوف و الحزن و إثبات الجنة «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ، أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» (13) و هنا يحمل الملائكة تنزلا عليهم هذه البشارة بولاية لهم دائبة في الدنيا و الآخرة، و ما ألذّها بشارة وحيا من اللَّه ثم إلهاما يحمله ملائكة اللَّه! و ترى ما هي الحاجة إلى بشارة الملائكة و ولايتهم بعد اللَّه في الدنيا و الآخرة؟ علّها لتكملة المقابلة بينهم و بين الكافرين، فأولاء لهم قرناء من الشياطين و هم أوليائهم بعد الشيطان الأول، و هؤلاء لهم قرناء من الملائكة يبشرونهم و هم أولياء لهم بعد اللَّه و بأمره في الدنيا و الآخرة، تشريفا لهم و ليس بحساب الحاجة.

«.. و قد قلتم ربنا الله فاستقيموا على كتابه و على منهاج أمره و على الطريقة الصالحة من عبادته، ثم لا تمرقوا منها، و لا تبتد عوافيها، و لا تخالفوا عنها، فإن أهل المروق منقطع بهم يوم القيامة» «2»

و

«قد قالها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فصلنا بحث الاستقامة في الفرقان 26: 25- 27 فراجع و لا نعيده هنا.

(2)

في نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام) و اني متكلم بعدة اللَّه و حجته قال اللَّه تعالى‏ «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ...» و قد قلتم ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 73

ناس من الناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها» «1»

و مادة الاستقامة تختصر بل و تحتصر في‏

«فرائض الله» «2»

أصلية كولاية اللَّه و الرسول و خلفائه (عليهم السلام) «3» و حقيقة المعاد، و فرعية كسائر الفروع المفروضة على العباد.

فالاستقامة في قول‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» هي استقامة في العمق بكافة متطلباتها، و استقامة في طول الحياة و عرضها في معارضها كلها، استقامة على الطريقة الصالحة إليه علما و إيمانا و عملا صالحا، و الاستقامة عليها شعورا في الضمير و سلوكا في الحياة و صبرا على تكاليفها، و الأشلاء و الدماء في سبيلها، و الحرمانات و ترك الشهوات و النفسيات في جادتها بصورة قاطعة جادّة.

أ ترى المستقيمين- كلهم- تتنزل عليهم الملائكة ببشراهم؟ فمن رأى منهم الملائكة و سمعهم؟! اللهم إلّا من حذى حذو الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) منهم و نحى نحوه، و هم الأئمة الاثنى عشر (عليهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 263- اخرج الترمذي و النسائي و البزاز و ابو يعلى و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن عدي و ابن مردوية قال قرأ علينا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هذه الآية «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا» قال: قد قالها ..

(2)

الدر المنثور 5: 263- اخرج ابن مردوية من طريق الثوري عن بعض أصحابه عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في قوله: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا» قال:

على فرائض اللَّه.

(3)

نور الثقلين 4: 547 ح 43 في تفسير اهل البيت (عليهم السلام) عن أبي بصير قال‏ قلت لابي جعفر (عليه السلام) قول اللَّه‏ «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا» قال:

هي و اللَّه ما أنتم عليه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 74

السلام) إذ كانوا يرونهم و يسمعونهم‏ «1»، و لكنما الآية تعم المستقيمين كلهم، أو أن بشرى الملائكة بوجه عام هي عند موتهم، مهما بشروا الخصوص منهم قبل موتهم؟ «2» و الظاهر من «تتنزل ..» هو تنزلهم عليهم منذ استقاموا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 545 ح 36 في بصائر الدرجات بسند قال‏ دخل حمران بن أعين على أبي جعفر (عليه السلام) فقال له جعلت فداك يبلغنا ان الملائكة تنزل عليكم؟ قال:

اي و اللَّه لتنزل علينا فتطأ فرشنا اما تقرأ كتاب اللَّه تبارك و تعالى‏ «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ..»؟

و

في ح 44 عن الخرائج و الجرائح باسناده الى أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الآية فقال: اما و اللَّه لربما وسدناهم الوسائد في منزلنا، قيل له: الملائكة تظهر لكم؟

فقال: هم الطف بصبياننا منا بهم و ضرب بيده الى سور في البيت فقال: و اللَّه لطالما اتكئت عليها الملائكة و ربما التقطنا من زغبها.

(2)

نور الثقلين 4: 547 ح 45 القمي‏ في الآية «ثُمَّ اسْتَقامُوا» قال: على ولاية امير المؤمنين (عليه السلام) «تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ» قال: عند الموت‏ «أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» قال: كنا نحرسكم من الشياطين‏ «وَ فِي الْآخِرَةِ» اي: عند الموت ..

و

في تفسير الامام الحسن العسكري (عليه السلام) عند قوله تعالى‏ «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ» من البقرة قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لا يزال المؤمن خائفا من سوء العاقبة و لا يتيقن الوصول الى رضوان اللَّه حتى يكون وقت نزع روحه و ظهور ملك الموت له و ذلك ان ملك الموت يرد على المؤمن و هو في شدة علته و عظيم ضيق صدره بما يخلفه من أمواله و بما هو عليه من اضطراب أحواله من معامليه و عياله قد بقيت في نفسه حسراتها و اقتطع دون أمانيه فلم ينلها فيقول له ملك الموت مالك تجرع غصصك؟ قال: لاضطراب احوالي و اقتطاعك لي دون آمالي، فيقول له ملك الموت و هل يحزن عاقل من فقد درهم زائف و اعتياض الف الف ضعف الدنيا؟ فيقول: لا- فيقول ملك الموت فانظر فوقك فينظر فيرى درجات الجنان و قصورها التي يقصر دونها الاماني فيقول ملك الموت: تلك منازلك و نعمك و أموالك و أهلك و عيالك و من كان من أهلك هاهنا و ذريتك صالحا فهم هنالك معك أ فترضى بهم بدلا مما هاهنا فيقول بلى و اللَّه ثم يقول انظر فينظر فيرى محمدا (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و عليا (عليه السلام) و الطيبين من آلهما في أعلى عليين فيقول او تراهم هؤلاء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 75

ليطمئنوهم على استقامتهم فيزدادوا قوامة على قوامة، ثم‏ «نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» لا تفيدهم بشارة إلّا أن تكون قولة في الحياة الدنيا كما «وَ فِي الْآخِرَةِ» لتكون زادهم في مسيرهم الشاق الطويل، فلا يخافوا مستقبلهم الأخرى، و لا يحزنوا على ما فاتهم في الأولى! أم إن بشارة الملائكة درجات بمختلف التنزلات كما استقامة المؤمنين درجات، فقد يرونهم و يسمعونهم كالرعيل الأعلى و هم الأئمة الهداة، أو يسمعونهم و لا يرونهم كمن حذى حذوهم من المخلصين، أو يلهمون دون سماع و رؤية كالمؤمنين المتوسطين، فمهما كان تنزلهم عند موتهم برؤية و سماع، فلكلّ في حياته منزل من الملائكة حسب قابلياته، فليس مثل ابن عباس- على مكانته- ممن يتنزل عليهم الملائكة نزولهم على العترة الطاهرة «1» مهما شملته البشارة الملائكية بين من استقاموا، و ما أظنه تشمله و قد تنحى عن نصرة الإمام المعصوم سيد الشهداء عليه آلاف التحية و الثناء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ساداتك و أئمتك هم هناك جلاسك و أناسك أ فما ترضى بهم بدلا من تفارق هنا؟ فيقول. بلى و ربي فذلك ما قال اللَّه عز و جل‏ «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا» فما إمامكم من الأحوال فقد كفيتموها و لا تحزنوا على ما تخلفونه من الذراري و العيال فهذا الذي شاهدتموه في الجنان بدل منهم و ابشروا بالجنة التي كنتم توعدون و هذه منازلكم و هؤلاء ساداتكم اناسكم و جلاسكم».

(1).

المصدر 546 ح 38 اصول الكافي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) انه قال: بينا أبي جالس و عنده نفر إذ استضحك حتى اغرورقت عيناه دموعا ثم قال: هل تدرون ما اضحكني؟ قال: فقالوا: لا- قال: زعم ابن عباس انه من الذين قالوا ربنا اللَّه ثم استقاموا فقلت له: هل رأيت الملائكة يا بن عباس تخبرك بولايتها لك في الدنيا و الآخرة من الأمن من الخوف و الحزن؟ قال فقال: ان اللَّه تبارك و تعالى يقول‏ «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» و قد دخل في هذا جميع الامة فاستضحكت ثم قلت: صدقت يا بن عباس ...

أقول: لعل تصديقه (عليه السلام) قول ابن عباس تصديق لاصل دخوله في الآية دون رؤية الملائكة و سماعهم التي هي الدرجة العليا من تنزلهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 76

و مهما كان أجلى المصاديق لمتنزل الملائكة مكانا هم الأئمة و زمانا هو الموت، و لكنه لا يمنع شموله كل المستقيمين منذ استقاموا حتى الموت و يوم النشور، أياما ثلاثة يعيشونها بهذه البشارة المشرفة، و في الحق‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» إذا قيل بحق يحمل كلما يتوجب على العبد تجاه اللَّه، إذ تشمل التربيات الإلهية كلها دونما استثناء، و لا يمكن الاستقامة في‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» اللائقة لهذه البشارة إلّا أن تعني «قالوا» قولا نابعا عن علم، نابغا بإيمان، فالقولة الخالية عنها خاوية لا تحمل الاستقامة فيها إلّا خواء على خواء! ثم الاستقامة تحمل بعد قوامة العلم و الإيمان استدامة العمل الصالح الذي يتبعهما، فالقول‏ «رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا» يتبنى مثلث العلم و الإيمان و العمل الصالح بمراتبها.

و هذه البشارة تحمل كلا السلب و الإيجاب جزاء من ربك عطاء حسابا عن‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» فإنها «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» سلبا بسلب و إيجابا بإيجاب.

فسلبها «أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا» خوفا عما يأتي و حزنا على ما أتى، و إيجابها «وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ..»! «فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» هي زادهم من بدئهم إلى معادهم‏ «فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2: 38) «بَلى‏ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2: 112) «وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (3: 17)! نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ ...

الولاية هنا المحبة و النصرة المساندة عل ضوء ولاية اللَّه، فللملائكة تأثيرات جلية و خفية في الأرواح البشرية المستقيمة على‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» بإلهامات و مكاشفات في مختلف المقامات و المكانات حسب القابليات و الدرجات،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 77

و كما للشياطين القرناء للكافرين إلهامات لأوليائهم حسب الدركات ظلمات بعضها فوق بعض.

هذه الولاية الملائكية و تلك الشيطانية في الحياة الدنيا سوف تبقى في الآخرة أظهر و أقوى، حيث التعلقات الحائلة هناك زائلة، فالولاية في بروزها و تأثيرها تظل دون غطاء و وطاء نائلة.

.. فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (31).

لكم فيها ما تشتهون و لكم ما تطلبون، جمعا بين ما تسرون من طلباتكم و ما تعلنون.

نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32) فكما قدمتم للَّه في حياتكم الدنيا مرضات الرب كلها، كذلك الغفور الرحيم يجيب إلى طلباتكم كما تشتهون و تدعون في الحياة الأخرى.

وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33).

علّ الواو قبل «عمل و قال» للحال فتعني حال أنه عمل صالحا و قال إنني من المسلمين، فمن أحسن قولا منه؟ «الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ» هم القائلون‏ «إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» و لمّا «استقاموا» فهم ممن‏ «عَمِلَ صالِحاً» فلما استكملوا في تبنّي حق الإسلام لأنفسهم، من ثمّ لهم و عليهم أن يكونوا «مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ» فهو الأحسن قولا ممن سواه، و لا أحسن منه قولا فيمن سواه.

و وجه آخر أن الواوين للعطف، «عَمِلَ صالِحاً» في سبيل الدعوة إلى اللَّه و كما أصلح به نفسه‏ «وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» الحقيقيين جهارا دون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 78

تقية و لا ستار، فإسلامه جاهر قولا و عملا فدعوة إلى اللَّه، و هذه هي الدعوة الحقة التي ما لها من فواق.

و المعنيان علّهما معنيّان و يقتضيهما أدب اللفظ و علو المعنى، فهناك عمل صالح و إنني من المسلمين قبل الدعوة و هما من شروط الدعوة، ثم عمل صالح و قول في طريق الدعوة و هما زاد الدعوة في سبيلها الشاق الطويل، و قد زوّد الرسول محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أفضل من غيره من الدعاة إلى اللَّه و أحسن، بقول و عمل صالح قبل الدعوة و منذ ترعرع، و مع الدعوة حتى لاقى ربه، فمن أحسن قولا منه.

إن كلمة الحق حينئذ أحسن كلمة تقال، لكنها مع العمل الصالح الذي يصدقها و يصعدها، و مع الاستسلام الذي تتوارى معه الذات و الذاتيات و الإنيات وجب الظهور و كل شي‏ء، فتصبح الدعوة خالصة للَّه، ليس فيها للداعية شأن إلّا الدعوة.

و النهوض بتلك الدعوة البارعة في مواجهات التواءات النفوس البشرية و استكباراتها، إنه أمر عظيم، و أعظم منه الداعية الذي لا يهدف في دعوته إلّا اللَّه، تناسيا لنفسه و رغباته و كل شي‏ء إلّا اللَّه.

إنه يعارض السيآت ليزيلها، و لا تستوي الحسنات و لا السيآت، فقد يقتضي صالح الدعوة أن يدفع بالتي هي أحسن السيئة دون مجابهة بمثل كما يفعلها غير الصالحين:

وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ» (23: 96).

ترى ما هو موقع «و لا» بين الحسنة و السيئة؟ فهل إنها مزيدة لتأكيد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 79

النفي حيث الإستواء لا يكتفي بمفرد، و لها نظائر «وَ لَا الظُّلُماتُ وَ لَا النُّورُ» (35: 19) «وَ ما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَ لَا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ» (35: 22).

أم انها للنفي، نفيا لاستواء جنس الحسنة بأفرادها و جنس السيئة بأفرادها؟ فهو بأحرى نفيا للاستواء بين قبيل الحسنة و السيئة! و لو أن تأكيد النفي يبرر الزيادة في «لا» فلما ذا لم تزد فيما هو أولى: «لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ» (59: 30) «قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ» (5: 100) و لا سيما أن‏ «وَ لَا الظُّلُماتُ وَ لَا النُّورُ» كمثال واقعة بين الممثل أو مثال أولى‏ «وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى‏ وَ الْبَصِيرُ» و هو أحرى بتأكيد النفي، و علّ الإستواء المنفي في‏ «ما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَ لَا الْأَمْواتُ» ايضا هو بين الأحياء أنفسهم، و بين الأموات، ثم النفي بين الأحياء و الأموات، و بين الحسنة و السيئة هو نفي الاستواء بينهما بطريق أولى.

أم إنها لتأكيد النفي بين الحسنة و السيئة و للنفي بين مصاديق الحسنة و مصاديق السيئة؟

قولة الزيادة زيادة من القول، و النفي ثابت إذ تقتضيه «لا» و الجمع أولى فإنه أجمع و أحلى! فإذ لا تستوي الحسنة في أفرادها، و لا السيئة في أفرادها، فلا ينحصر دفع السيئة بسيئة أخرى، فقد تكون سيئة تدفع بحسنة «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ» و قد تكون سيئته لا تدفع إلّا بسيئة فلا مجال إذا لدفعها بحسنة، فالمعاند المكذب بآيات اللَّه، الذي لا يرجى هداه، و لا تصد هواه، لا تدفع سيئته بحسنة، بل‏ «جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ» (42: 41).

فالعفو في موضع الإصلاح دفع للسيئة بالحسنة و درء لها «وَ يَدْرَؤُنَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 80

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ» (13: 22) و 28: 54) و العفو فيما لا يصلح بل و يفسد هو سيئة بدل كونها حسنة، «لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ» في مواردها، و كذلك السيئة التي تدفع بحسنة، و التي تدرء بأية حسنة «لا تستوي السيئة» كذلك في مواردها، «جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها» لا تعم مواردها، لاختلاف السيآت، «فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» لا تعم لاختلاف الحسنات، و السيئة التي تدفع بحسنة خير من حسنة لا تدفع سيئة بل و تزيدها، فلأنه‏ «لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ» «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» ما أمكن الدفع، و إلّا «جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها»! ثم الدفع بالتي هي أحسن ليس إلّا عن موضع القدرة، فلئن أحس العدو موضع الضعف اخترم و لم يحترم، و نفس الدفع يلمح إلى شريطة القدرة، حيث العاجز لا يدفع، لا بالتي هي أسوء و لا الأحسن، فإنه ضعيف على أية حال، «ادْفَعْ‏ ... فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ».

هنالك دفع للسيئة و هو واقع بالتي هي أحسن و إن بقي العدو على عداءه كامنا، و ليس «انه ولي حميم» إنما «كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» يندفع عن ظاهر عداءه و إيذاءه كولي حميم، و قد يدفعه إلى مرحلة «وَلِيٌّ حَمِيمٌ» فالإصلاح درجات كما الإفساد دركات، إذا دفعت بالأحسن، بالفعل ينقلب الهياج و الغضب إلى وداعة و سكينة، و التّبجح إلى حياء و لينة، و أنت ما دفعت إلّا بكلمة طيبة، و نبرة هادئة، و بسمة حانية أمّاهيه من التي هي أحسن حسب ما يقتضيه علاج الواقعة، طريقة مثلي و حكمة عليا تدفع واقعة السوء بها، و قليل هؤلاء الأعداء الذين يظلون على عدائهم و جاه تلكم الواجهة الوجيهة و الخلق العظيم، اللّهم إلا عداء عريقا عميقا ممن لا يرجى ولايته و حمته على أية حال، و الهدف الرئيسي من التي هي أحسن دفع السيئة، و إن بقيت العداء في باطنها، ثم إزالة العداء، ثم اجتلاب الحمة، و أما إذا دفعت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 81

سيئة بسيئة أم زاد يزداد عدوك هياجا، فيخلع حياءه نهائيا إذ يتفلت زمامه فأخذته العزة بالإثم.

إن تلك السماحة مع القدرة على انحصارها في حالات الإصلاح و هي في الأغلبية الساحقة شخصية، إنها بحاجة إلى تصبرّ و معرفة و عطوفة و دراية زائدة و تلقية إلهية:- وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35).

صبر من اللَّه و حظ عظيم من اللَّه هما جناحان لذلك الدفع العظيم:

«وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ لا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ» (28: 80) و من أعظمهم الرسول الأعظم (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ» (27:) 6) و لقد لقّاه اللَّه و المحمديين من آله الطاهرين الصبر العظيم و الحظ العظيم، فكانوا يواجهون الأعداء بكل حنان ما أمكن و من ثم غضب الحليم.

هنا «حَظٍّ عَظِيمٍ» في تنكير التعظيم بعد «الَّذِينَ صَبَرُوا» توحي بعظمة ذات أبعاد: صبر و حظ ذي بعدين من العظمة، و ما أعظمه العظيم في ميزان اللَّه، و ما أكرمه من يلقّاه من عند اللَّه، و في الحق هم القلة القليلة من سابقين و أصحاب اليمين: «مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً».

و من أعظم الحظ العظيم الخلق العظيم‏ «وَ إِنَّكَ لَعَلى‏ خُلُقٍ عَظِيمٍ» و قد يتبناه علم عظيم و معرفة واسعة و سماحة فاسحة و تصبر عظيم.

وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 82

«وَ قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً» (17: 53) و النزغ هو الدخول في أمر لإفساده، فإذا قلت التي هي أحسن دفعا للسيئة بالحسنى لم يكن هناك مدخل لشيطان ليجعل السوء سوائى أم يبقي على سوء، «وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ» حين يفلت منك فالت، و هكذا يكون دور الشيطان أن يدخل في الأمور لإفسادها، فهنالك‏ «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ» من نزغه‏ «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ» استعاذتك و ندائك‏ «الْعَلِيمُ» حاجتك و استدعاءك.

الغضب قد ينزغ فلا يتصبّر صاحبه على إساءة، أماذا من نزغات في مختلف الحالات مهما كنت صبورا حليما إلّا من عصمه اللَّه، فإذا نزغك نزغ‏ «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» و صيغة الاستعاذة هنا «أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم».

وَ مِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37).

«لا تَسْجُدُوا ..» نهي مؤكد انحصارا للمسجود له في اللَّه و انحسارا عما سواه، سواء أ كان المسجود له هو الشمس و القمر كما هنا، و الخطاب موجه الى الساجدين لهما، ام سواهما من أصنام و طواغيت أم أولياء و ملائكة كرام، و لأن السجود لغير اللَّه تسوية له باللَّه و هو ضلال مبين، و «الَّذِي خَلَقَهُنَّ» إشارة إلى سبب المنع وسعة الممنوع بدليل الجمع «خلقهن» الشمس و القمر و سواهما من خليقته.

ثم و «إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» تعليق على عبادتهن، فالعابد للَّه ليس ليعبد خلق اللَّه، و لا سيما «إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ ..» ترمي إلى التوحيد، و السجود لغير اللَّه ينافي التوحيد.

و كضابطة توحيدية كلّ تسوية لغير اللَّه باللَّه إشراك باللَّه، في معرفة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 83

و عقيدة، ام فعلة و قولة، أم أية حالة على أية حال، مهما اختلفت دركات ذلك الإشراك.

و السجدة هي صورة عبادة، فان كانت لغير اللَّه بنية العبادة و سيرتها فمن أسفل دركات الإشراك باللَّه، و إن كانت صورة دون سيرة و هي أحيانية و إنما احتراما للمسجود له، فمن أدنى دركاته، و إن كانت مستمرة فعوان بين ذلك، و ذلك الثالوث على اختلاف دركاته مشترك في الشرك! فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُمْ لا يَسْأَمُونَ (38).

ليس الكون قاحلا عمن يسبحون له و له يسجدون، «فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا» عن عبادته و سجوده، إلى سجود الشمس و القمر و هما آيتان من آياته، إلحادا فيها بافراط «فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ» عندية القرب مكانة تربوية لا مكانا، من ملائكة و إنس و جان، سابقين أو مقربين، فإنهم عند ربك، لا «اللَّه» فليس عند ذاته أحد، و لا «رَبِّ الْعالَمِينَ» حيث الربوبية العامة ليست بذلك الزلفى، بل‏ «عِنْدَ رَبِّكَ» بتلك الربوبية القمة التي أنت فيها بأعلى قمة «يُسَبِّحُونَ لَهُ» لا سواه‏ «بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ» في كل وقت لحدّ أصبحت ذواتهم و صفاتهم و أفعالهم و خطراتهم تسبيحا للَّه‏ «وَ هُمْ لا يَسْأَمُونَ»: لا يملّون من هذه الكثرة الكثيرة، و إنما يسأمون لو يغفلون.

وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى‏ إِنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (39).

«وَ مِنْ آياتِهِ» قدرته على إحياء الموتى مسرح الأرض الخاشعة الخامدة القاحلة حيث تحيى بإنزال الماء فتربو و تهتز، فمن ذا الذي يربيها و يهزّها بعد خشوعها إلّا اللَّه‏ «إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى‏» و بأحرى‏ «إِنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 84

فإذا كان إحياء الأرض لانتفاع الأحياء فضلا من ربك عطاء حسابا، فإن في إحياء إنسان الأرض لانتفاعه بما قدم، و جزاءه بما ظلم أم ظلم، إن في ذلك لعدلا بعد فضل، فواقع الحياة المكرورة المتتابعة للأرض الخاشعة يوقّع بأحرى واقع الواقعة، لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ، خافِضَةٌ رافِعَةٌ»! و كما اللَّه ينزّل على خاشعة الأرض نازلة من ماء السماء إحياء لها للأحياء، كذلك اللَّه ينزل على خاشعة الأبدان نازلة الأرواح من سماء الرأفة و العدالة و هو أحق و أحرى.

[سورة فصلت (41): الآيات 40 الى 54]

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَ فَمَنْ يُلْقى‏ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (41) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42) ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (43) وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (44)

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَ ما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (46) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ ما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى‏ وَ لا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48) لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (49)

وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى‏ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى‏ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (50) وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى‏ بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (51) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (52) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ (53) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ مُحِيطٌ (54)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 87

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَ فَمَنْ يُلْقى‏ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40).

اللّحد حفرة مائلة عن الوسط، فالإلحاد هو الإمالة عن الوسط الحق إلى حفرة إفراط أو تفريط، و «آياتنا» تعم التكوينية كسائر الآيات الدالات على اللَّه بما فيها آيات النبوات و حملتها، و التدوينية كسائر كتابات الوحي بما فيها القرآن، فالإلحاد في تكوينية الآيات السائرة هو إمالتها عن كونها آيات كأنها لا تدل على اللَّه تفريطا فيها، ام إشراكها باللَّه كأنها له أنداد إفراطا في شأنها، و في التكوينية الخاصة كما الإفراط في أسماء اللَّه تحويرا لها و تحريفا عن معانيها المعنية، أم اختلاقا لأسماء لم يسم بها نفسه‏ «وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ فَادْعُوهُ بِها وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (7: 18) و التفريط في‏ «لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (16: 103) و الإفراط فيه أنه منه دون اللَّه! و في كيان الرسل و آياتهم المعجزات إفراطا كما في عيسى و عزير من بعضهم و تفريطا كما في سائر المرسلين من آخرين، و قد يكون إفراط الإلحاد في آيات اللَّه من حصائل التفريط فيها و كثير ما هو، فمن أبصر إلى آيات اللَّه مستقلات دون اعتبار بها تفريطا فيها، فقد أفرط فيها أن يجعلها أندادا للَّه تعالى، و من أبصر بها بصرته لمعرفة هي أسمى فلا تفريط إذا و لا إفراط، فإنهما من حصائل الإبصار إليها دون الإبصار بها و كما يروى عن الإمام علي (عليهم السلام) في شأن الدنيا، «من أبصر بها بصرته و من أبصر إليها أعمته».

ثم الإلحاد في كتابات الوحي منه لفظي كالتحريف بزيادة هي الإفراط أم نقيصة هي التفريط، و قد فعلوهما في التوراة و الإنجيل، و لم يستثن عن الإلحاد فيه هكذا إلّا القرآن كما تستثنيه الآية التالية، و منه معنوي يعمه حيث التحريفات المعنوية في القرآن سائرة في كل زمان و مكان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 88

هنا «لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا» تهديد لهم أوّل أنه عليهم رقيب عتيد، بجزاءهم‏ «يُلْقى‏ فِي النَّارِ» ثم تهديد ثان نهيا شديدا بصيغة الأمر «اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» فقد بدء التهديد ملفوفا- يخيف‏ «لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا» فهم مكشوفون لعلم اللَّه، مأخوذون بما يلحدون في اللَّه مهما غالطوا و التووا و حسبوا أنهم مفلتون من يد اللَّه كما قد يتفلتون من حساب الناس! و ثم صراح التهديد «أَ فَمَنْ يُلْقى‏ فِي النَّارِ ..» و في النهاية لفتة أخرى علها أقوى منها «اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ ..»! أ تراهم يغلبون آيات اللَّه في هذه الإلحادات و لكيلا تبقى حجة بالغة على الناس؟ كلّا! مهما فعلوا ما افتعلوا، فإن اللَّه يحافظ على آيته الأخيرة الخالدة «القرآن» تداوما لحجة اللَّه البالغة على الناس و تدليلا على ما فعلوه في الزبر:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (41) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42).

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ» الأخير، كل الذكر و هو القرآن العظيم، كفرا في مختلف دركات الإلحاد في آياته‏ «لَمَّا جاءَهُمْ» و قد خيل إليهم أنه كسائر الذكر، فبإمكانهم كل تحريف فيه و تجديف، «وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ» غالب على كل إلحاد فيه أيا كان‏ «لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ» من أي مبطل‏ «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ» لأنه‏ «تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»! أ ترى ما هو الخبر عن هذا المبتدء؟ علّه محذوف مستفاد من‏ «يُلْقى‏ فِي النَّارِ» للذين يلحدون في آياتنا حيث الإلحاد في القرآن هو من أبرز مصاديقه و أحقها إلقاء في النار، «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ» إلحادا فيه‏ «يُلْقى‏ فِي النَّارِ» فإنهم كفروا به حال‏ «وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 89

ذكر عزيز، هو تنزيل من حكيم حميد، كيف يغلب بمن يريد فيه إلحادا، فلو تطرّق إليه التحريف بزيادة أو نقصان لقضي على الذكر في تاريخ الرسالات، و لكان ذكر اللَّه مغلوبا لا ينتصر له، و لم يكن اللَّه حكيما في تنزيله و لا حميدا، فإن في الحفاظ على الذكر الأخير حفاظا على سائر الذكر، و في تحريفه- و قد حرف قبله سائر الذكر- تحريف لشرعة اللَّه ككلّ، و قضاء على حجة اللَّه البالغة بأسرها.

إن في صيانة القرآن عن التحريف صيانة لسائر كتب السماء، و حجة بالغة دامغة على المتمسكين بها على تحرّفها عن جهات أشراعها، و دافع لهم إلى التفتيش عن شرعة غير محرفة يلجئون إليها «1».

انه «الذكر» الذي يحمل معه كل ذكر في كتابات السماء، فبحفظه تحفظ و بضياعه تضاع‏ «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» (15: 9) تأكيدات تسع لا مثيل لها في سائر الذكر و لا ايّ من حقايق الدين الحق بأصوله و فروعه، و لأنه ضمان له بأصوله و فروعه.

«وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ» تاكيدان لعزة الكتاب كما اللَّه منزّله عزيز، عزيز من عزيز يغلب و لا يغلب! إنه عزيز في لفظه و معناه، عزيز في حكمه و مغزاه، عزيز في مبتدءه و منتهاه، لا يذل و لا يغلب مهما تربصوا له الدوائر، عزة في مثلث الزمان بطوله و عرض المكان، «لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ» مهما هاجمه المبطلون‏ «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ» و هي كل كتابات الوحي فضلا عن سواها، و كل رجالات الوحي فضلا عن سواهم، بل هي مصدقة له كما هم، و هو مصدق لما بين يديه، و هذا تعبير دائب في سائر القرآن عما نزل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا «المقارنات العلمية و الكتابية بين الكتب السماوية».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 90

قبله من كتاب بما بين يديه‏ «1» و علّه لأنه ينظر إليها نظرة تصديق، إذ ليس بدعا من الكتب، كما أن رسوله ما كان بدعا من الرسل! «مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ» (5: 48) إذا فالأصل في‏ «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ» ما نزل قبله.

و مما بين يديه ما كان حال نزوله من كتب و أشخاص، فهو يشمل الماضي و الحال، ف «من خلفه» إذا يخص الاستقبال، فهو في صيانة إلهية في مثلث الزمان عن أية دائرة سوء من الإنس و الجان.

أ ترى لماذا «لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ» دون «المبطل» و الآتي إياه إبطالا له و إعطالا مبطل له و ليس فقط الباطل؟

لأن المبطل، المحاول لإبطاله، قد أتاه و يأتيه على أية حال، و لكنه لم يسطع و لن أن يبطل، «لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ» مهما أتاه المبطل او يأتيه، إبطالا لمعجزته بما يفوقه أو يوازيه، أو فصما لحجته بما يناوئه و يعاديه، أو تحريفا و تجديفا بنقيصة عنه او زيادة فيه، أمّاذا من باطل في ألفاظه و معانيه، في تأليفه و تركيبه، فلا تعلق به الشبهة من طريق المشاكلة، و لا الحقيقة من جهة المناقضة، فهو الحق الخالص الواجب الذي لا يشوبه شائب و لا يلحقه طالب، فلا يأتيه الباطل مهما أتاه المبطلون! فالشيطان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في 2: 97- 3: 3- 5: 48- 6: 92- 10: 37- 12: 111- 34:

31- 35: 31- 46: 30 و

في نور الثقلين 4: 553 ح 67- القمي و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ .. يعني القرآن: لا يأتيه الباطل من بين يديه قال لا يأتيه الباطل من قبل التوراة و الإنجيل و الزبور و لا من خلفه اي لا يأتيه من بعده كتاب يبطله‏

، و

فيه عن المجمع روى عن أبي جعفر و أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في معنى الآية ليس في اخباره عما مضى باطل و لا في اخباره عما يكون في المستقبل باطل بل اخباره كلها موافقة لمخبراتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 91

و الإنسان لا يقدران على أن ينقصا منه حقا أو ينتقضاه، و لا يزيدا فيه باطلا و يفتعلاه.

فأي كتاب في مثلث الزمان و أي إنس أو جان و أي تقدم في علم في مستقبل الزمان، ليس ليبطل حجته أو ينقضها او ينقصها، و الكتابان في كل زمان تدوينا و تكوينا يجاوبانه و يؤيدان، لأنه الإمام و سواه المأموم، و هو العزيز و سواه تعزيز له أم لا يوازيه، لأنه الذكر العزيز «.. تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» و المتدبر في القرآن يلمس منه هذه الحقيقة الخالصة، من نصه و ظاهره و إشارته، يجدها في كل بساطة و يسر حقا ناصعا فطريا يخاطب أعماق الفطرة و يطبعها و يؤثر فيها عجيب التأثير.

أ ترى هذا «لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ‏ من خلفه»؟ فما هو إتيان الباطل من بين يديه و ليس المبطل إلّا في حال او استقبال؟ من إتيانه الباطل مما بين يديه تفوّقه على القرآن في لفظه أو معناه أو مغزاه و ليس، و منه إخباره بكذبه كما القرآن يكذب كل ما يأتيه معه أو من بعده لأنه خاتمة الوحي، و لا مبطل له في كتابات السماء فضلا عن سواها، بل تصدقه‏ «1» كما يصدقها، تصادقا فائقا كالتصادق فيمن جاء بها.

فالقرآن في صيانة ذاتية و خارج الذات من كافة الجهات و الجنبات، حق ناصع ناصح، خالص لائح، فهو المرجع الوحيد في كل شارد و وارد، لا ينوبه نائب و لا يشوبه شائب، «لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا. «رسول الإسلام في الكتب السماوية» تجد فيه نصوصا من تصديق الكتب السماوية للقرآن و نبيه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 92

كتاب اللَّه العزيز هو المخرج عند الهرج و المرج لا سواه‏ «1» و

مثل القرآن و مثل الناس كمثل الأرض و الغيث بينما الأرض ميتة هامدة ثم لا يزال ترسل الأودية حتى تبذر و تنبت و يتم شأنها و يخرج اللَّه ما فيها من زينتها و معايش الناس، و كذلك فعل اللَّه بهذا القرآن و الناس» «2»

و

«إنكم لن ترجعوا إلى الله بشي‏ء أحب إليه من شي‏ء خرج منه» «3»

«و إنه المهيمن على الكتب كلها و إنه حق من فاتحته إلى خاتمته ..» «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 366- اخرج ابن مردوية عن علي رضي اللَّه عنه قال‏ قيل لرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) او سئل ما المخرج منها فقال كتاب اللَّه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

(2)

الدر المنثور 5: 366- اخرج ابن مردويه عن ابن سعد لا احسبه إلا أسنده ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: مثل القرآن ..

(3)

المصدر- اخرج الحاكم و صححه و البيهقي في الأسماء و الصفات عن عقبة بن عامر ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) تلا هذه الآية فقال: .. و فيه اخرج البيهقي عن أبي ذر قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) .. بشي‏ء أفضل .. و فيه اخرج عن عطية بن قيس عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: ما تكلم العباد بكلام أحب الى اللَّه من كلامه و ما أناب العباد الى اللَّه بكلام أحب اليه من كلامه بالذكر قال بالقرآن.

(4)

عيون اخبار الرضا في باب ما كتبه الرضا (عليه السلام) للمأمون في محض الإسلام و شرايع الدين و فيه: و التصديق بكتابه الصادق العزيز الذي‏ «لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» و انه المهيمن .. نؤمن بمحكمه و متشابهه و خاصة و عامة و وعده و وعيده و ناسخه و منسوخه و قصصه و اخباره لا يقدر أحد من المخلوقين أن يأتي بمثله.

و

فيه بسنده عن محمد بن موسى الرازي قال حدثني أبي قال‏ ذكر الرضا (عليه السلام) يوما القرآن فعظم الحجة فيه و الآية المعجزة في نظمه قال: هو حبل اللَّه المتين و عروته الوثقى و طريقته المثلى المؤدي الى الجنة و المنجى من النار لا يخلق على الازمنة و لا يغث على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 93

ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (43).

قيلات على الرسالات و حملتها طول التاريخ الرسالي هي كلها ويلات متناسقة مع بعض و متشابكة، و شريطات مكرورة تدار من حماقى الطغيان و الجهالات على أصحاب الرسالات، كلما كانت الرسالة أقوى، و دعايتها أعرض و أنبى، كانت القيلات عليها أوسع و أشجى، و لأن هذه الرسالة السامية تجمع الرسالات كلها و زيادة، فالقيلات عليها تجمع تلكم القيلات كلها «ما يُقالُ لَكَ» يا حامل الرسالة الأخيرة «إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ» و قد قيل عليهم كل قيل، فلتصبّر نفسك على كل قيل‏ «فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ» «فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا» مهما كان مرساهم «و لتصنع على على عيني» ف «بأعيننا» تجمع جماع الرقابات حفاظا على رسالتك، لأنها محطة القيلات.

«إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ» يغفر قيلات عليك سترا لها و سدا عليها فلا يأتيها الباطل بما يبطلون، و كما «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ» كذلك ليغفر لك كل باطل يأتيك من بين يديك و من خلفك، إذ لا يسطع على إبطال حجتك، و إغراقك في لجتك.

ثم هو «لَذُو مَغْفِرَةٍ» لمن تاب معك أو يتوب‏ «وَ ذُو عِقابٍ أَلِيمٍ» لمن يصر في إبطال أمرك.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الألسنة لأنه لم يجعل لزمان دون زمان بل جعل دليل البرهان و الحجة على كل انسان‏ «لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 94

وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (44).

«وَ لَوْ نَزَّلْناهُ عَلى‏ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ، كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ، لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ» (26: 201).

آيتان في سائر القرآن تفصحان عن النخوة العربية و جاه وحي القرآن أن لو كان أعجميا لزادوا في النكران، مما يدل على مدى شقوتهم و تصلّبهم في قوميتهم لحد يجعلونها أصلا و حتى لصرح الإيمان، فأولئك ينادون من مكان بعيد، لتباعدهم عن طريق الرشد، و إعراضهم عند دعاء الحق، كأنهم من شدة التوائهم و الذهاب بأسماعهم و الانصراف بقلوبهم ينادون من مكان بعيد، فالنداء غير مسمع لهم و لا واصل إليهم، و لو سمعوه لضلّ عنهم فهمه للصد المنفرج بينهم و بينه، إذ فصلت قوميتهم بينهم و بين سماع الحق و الخضوع لديه، و حتى حين نزّل عليهم القرآن عربيا فضلا عن جعله أعجميا إذ قالوا «لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ»! فما هم بصاغين اللَّه لا عربيا و لا أعجميا.

و الأعجمي من العجمة خلاف الإبانة، و الإعجام هو الإبهام، و الأعجم من في لسانه عجمة عربيا كان أم سواه، و منه قيل للبهيمة عجماء، و لصلاة النهار عجماء، إذ لا يجهر فيها بالقراءة، و سميت الحروف المفردة معجمة لأنها لا تدل على ما تدل عليه الحروف الموصولة.

فالأعجمي بصورة عامة هو اللغة التي لا تفهمها، من بهيمة فهي أعجمية، أم فارسية أما ذا من لغات لست تفهمها، أم و عربية لا تعرفها، فكل لغة بالنسبة لمن لا يعرفها أعجمية، فاللغات كلها أعجمية لغير أصحابها، عربية لأصحابها، و كما يعبر التوراة عن القرآن العربي بين العبرانيين أنه بلغة لكناء أعجمية كالنص التالي:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 95

إت مي يوره دعاه و إت مي يابين شموعاه غكمولي محالاب عتيمي مشادايم (9) كي صولا صاو صولا صاو قولا قاو قولا قاو زعير شام زعير شام (10) كي بلعجي شافاه و بلاشون أحرت يدبر ال هاعام هذه (11).

لمن ترى يعلّم العلم و لمن يفقّه في الخطاب أ للمفطومين عن اللبن المفصولين عن الثدي (9) لأنه أمر على أمر أمر على أمر فرض على فرض ثم فرض على فرض هنا قليل و هناك قليل (10) لأنه بلهجة لكناء بشفاه أعجمية و بلسان غير لسانهم يكلم هذا الشعب» «1» و الأعجمي على ضربين، ضرب أوّل ما فيه عجمة نسبية ككل لغة لا تعرفها، و ضرب آخر ما فيه إبهام و إجمال و هو لغتك إما بلكنة في لسان ناطقها، أم غرابة في نظمها و نسجها كالقائل «ما لكم تكأكأتم كتكأكؤكم على ذي جنة افرنقعوا عني».

و كأنهم تطلّبوا إليه أن ينزل لهم قرآنا أعجميا «2» في اي بعد من العجمة، كسائر تطلباتهم الجاهلة الهراء فجاء الجواب: «وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ..»

هنا لهم اعتراضان اثنان‏ «لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا» 1 «لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ» حيث أجملت فلا نفهمها كما يجب، و التفصيل هو الإفصاح عن المعنى كما هو الآن في القرآن، فخلافه أعجمي أيا كان و لا سيما إذا كان بغير لغة القرآن، و لكنه‏ «كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد فيه تفصيل هذه البشارة بشأن القرآن، و هذا النص نقلناه عن كتاب اشعياء النبي حسب الأصل العبراني.

(2) الدر المنثور 5: 367- اخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن سعيد بن جبير قال قالت قريش لولا انزل هذا القرآن أعجميا و عربيا فانزل اللَّه‏ «لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ‏ آياته: اعجمي و عربي و انزل اللَّه تعالى بعد هذه الآية بكل لسان حجارة من سجيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 96

2 «ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ» و الأعجمي هو الكتاب لو جعل أعجميا، و العربي هم العرب، يستنكرون و يتناكرون أن يجعل كتاب شرعتهم بغير لغتهم لا لشي‏ء إلّا لأنهم عرب، يتأنفون غيرهم و غير لغتهم، و يتأنقون لأنفسهم و لغتهم، فبالإمكان أن تترجم كل لغة بلغتهم لو كان القرآن بغير لغتهم، و كما سائر المكلفين المرسل إليهم بشرعة القرآن، يستعجمون لغة القرآن فإنها غير لغتهم و لكنهم لا يتأنفون، فهم بين من يتعلم لغة القرآن، أو يتعلم من عارفها فيتفهم بذلك القرآن، و كما ترى الرعيل الأعلى من الأدباء العرب هم من غير العرب.

إن كتابا كالقرآن، الموجه إلى العالمين كافة، لا بد أن ينزل بلغة من اللغات عربية كانت أم أعجمية، و لكنما العرب هم الذين يتنكرون لو جعل قرآنا أعجميا.

لذلك ترى الجواب ألّا منعة هنا إلّا اللّاإيمان، حيث الإيمان يجد سبيله إلى شرعة القرآن بأية لغة كان: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ» أيا كان لغتهم‏ «وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» و إن كان بلغتهم‏ «فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى» كما قالوا «لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ»! «أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ» نداء يوم الدنيا إذ فصل بينهم و بين هدي القرآن كفرهم البعيد، فكأنهم‏ «يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ» و هم قريبون إلى المنادي و قريبون إلى لغة النداء، و لكن بعّدهم العداء فهم بعاد عن النداء! و من ثم‏ «يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ» يوم الأخرى، حيث المنادي الملائكي لا يقربهم، فيناديهم من بعد ترذيلا لمكانتهم، و المنادي الإلهي يناديهم من بعيد كمنادى رذيل لا يعبأ به.

و قد تكون حكمة نزول القرآن باللغة العربية أنها أفضل اللغات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 97

و أعربها، و أنهم مبتدء الدعوة فلتكن بلغتهم، و أنهم قوم لّد ليسوا يتقبلوا قرآنا بغير لغتهم و لا يقلبوا إليه! وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45).

«كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ» تربية لهم على ضوء تربيتك، فإنها الميزان لكل العالمين، أ تراها هي‏ «وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ (7: 27)؟ و نحن نرى عذابات الاستئصال تترى في المكذبين بآيات اللَّه طيلة التاريخ الرسالي، فلما ذا قضي عليهم دون قوم موسى! هنا «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» و الاستئصال قاض عليهم، فإنما القضاء بينهم إزالة للاختلاف بخارقة مارقة تجلي لهم الحق عيانا بعد بيان، و تلجئهم إلى الإيمان بعد شك قاصد مريب، و لكنما الدار دار ابتلاء و امتحان، و ليست دار فصل و حسبان، إذا يذرهم و اختلافهم في خوضهم يلعبون، و في غيهم يترددون.

ثم الشك منه مريب و هو أشره و منه لا يريب، فهم يظهرون شكهم بمظهر المريب، ثم و ليس العمل الصالح لصالح الرب، إلّا لأنفس المربوبين يوم الدنيا و يوم الدين‏ «وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» أن يسيّر على غير الصالح ثم يحاسب عليه، ظلما ذا بعدين يجعل من ربك ظلاما للعبيد! صحيح أن من أساء تعديا على من سواه فقد أساء على من سواه، و لكن المحور الرئيسي في ردة فعله ليس إلا المسي‏ء نفسه، و كما العمل الصالح على سواء.

فالإساءة و الإصلاح غير المتعديين هما لزام المسي‏ء و المصلح دون سواهما، و المتعدي منهما فيه ضعف لهما إن خيرا فخير و إن شرا فشر، فصاحبه هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 98

الأصيل في فعله و افتعاله، ثم اللَّه لا نصيب له من خيره أو شره، «وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ».

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ ما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى‏ وَ لا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) علم الساعة مردود إليه، محفوظ لديه، لا يعدوه إلى سواه حتى رسل اللَّه، فإذا سئلوا عنه ردوا علمه إليه، و ليس فقط علم الساعة، بل‏ «وَ ما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ» من أوعيتها الأكمام، «وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى‏» نباتية أم حيوانية أم انسانية أماهيه‏ «وَ لا تَضَعُ» حملها «إِلَّا بِعِلْمِهِ».

هنا «من ثمرات» و «من أثنى» تستغرق الكل من كل دونما استثناء، أنها بحيطة علمية إلهية و لا تسامى، مهما علم العالمون شيئا ضئيلا من هذه و تلك.

و ذلك توحيد لربوبية العلم و القدرة «وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ» إذ تقطعت الأسباب و حارت دونه الألباب‏ «أَيْنَ شُرَكائِي»؟ الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، «قالُوا آذَنَّاكَ» إعلاما و إعلانا «ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ» لا هنا فأنت أنت اللَّه الواحد القهار، و لا يوم الدنيا مهما خبطنا و أخطئنا.

و هنا «مِنَّا مِنْ» ضاربة إلى عمق بعيد من سلبية الاستغراق، فلا أحد منا يشهد أن لك شركاء! و هنالك:

وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48).

فهنالك ظهور الحقايق، فليضل الشركاء المختلقون، فذواتهم هناك موجودة، و صفاتهم مفقودة، و ذلك ضلالهم و الضلال عنهم، أم و ذواتهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 99

مخبوة لترذّلها، اللّهم إلّا الأولياء الذين اتّخذوا للَّه شركاء.

و لماذا هنالك «ظنوا» و احتمال المحيص لهم ساقط بما يرون من عذاب اللَّه؟ علّهم لنكرانهم الشهداء من ناحية، و لمسة المسرحة الرحيمية للَّه من أخرى، قد يخلد بخلدهم أن لهم «من محيص» «ظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ».

لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (49).

«لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ» و لا يملّ‏ «مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ» أن يدعوه طلبا في حال و فعال و قال، أو يدعى له، فدعاء الخير يعم دعاءه الخير بنفسه أم دعاء غيره له بالخير، و سواء عنده أن يدعو ربه أم سواه، بل قد يفضل عليه سواه، و لمّا ييأس عن سواه يدعوه مخلصا و لكي يحصل على مناه.

فكل ما يراه خيرا يكدح في طلبه كدحا بكل صنوف الدعاء، و لكنه‏ «إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ» كأن لم يكن هناك خير، ففي لمسة من شر ينسى كل خير قبله كأن لم يعطه من ذي قبل.

مجرد مس الشر يقنطه عن كل خير مأمول، و هو رسم دقيق واقع صادق للنفس البشرية لاغترارها الكادح بالسراء، و جزعها بمس الضراء.

وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى‏ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى‏ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (50).

و ما أحمقه في قولته الخواء «هذا لي» نكرانا أنه للَّه و من اللَّه، دونما استحقاق له من رحمة اللَّه، فإن كانت لك فلما ذا سلبت عنك فأنت يؤس قنوط، ثم الدنيا ليست دار جزاء يجزى فيها أهل الحق برحمة، فحتى لو كنت منهم ف «هذا لي» غلطة ثم‏ «وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً» ثانية «وَ لَئِنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 100

رُجِعْتُ إِلى‏ رَبِّي» ثالثة، فهل أنت بثالوثك المنحوس تستحق رحمة ربك، و المؤمنون لا يستحقون؟

و هنا في «ربي» اختصاص لربوبيته تعالى بنفسه كأنه ليس ربأ لسواه، و في «إن لي للحسنى» تاكيدان اثنان أن له حسنى الحياة، و لماذا هذه الإشراكة باللَّه، و نكرانه يوم لقاء اللَّه، إذا فالموحدون المؤمنون هنالك يحرمون، و هؤلاء الغباوى يكرمون؟ «تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى‏»!.

وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى‏ بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (51).

و هذه حالته الغفلانة الرديئة إلّا من هداه اللَّه.

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (52).

فهلا يكون ذلك احتمالا يستحق الاحتياط، فما ذا أخذتم لأنفسكم من وسائل الاحتياط، فإن لم يكن القرآن من عند اللَّه فنحن و إياكم شرع سواء، لا يضرنا ما صمنا و صلينا، و لا ينفعكم متعة الحياة الدنيا.

و أما إن كان من عند اللَّه كما تدل عليه دلائله‏ «ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ» فمن أضل منكم حيث عشتم في شقاق بعيد.

و ذلك دليل عند فقدان الدليل، أم تعنّت خانق أمام الدليل، لا ينكره حتى المجانين، فالأخذ بالحائطة طريقة العقلاء، حيث الاحتياط طريق النجاة، كلما كان المحتاط له أهم فالاحتياط له أتم و أعظم.

سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ (53) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ مُحِيطٌ (54).

هنالك آيات ترى بعين الفطرة و العقل و الحس أمّاذا من جوارح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 101

و جوانح، فلا حاجة إلى إرائتها، و آيات أخرى غامضة يريها اللَّه بما يبين في كتاباته و ألسنة أنبيائه أم إلهامات غيبية، و هي حالة حالية و ماضية على أية حال، فما هي الثالثة التي «سنريهم»؟ و تبين الحق في القرآن لزام كل مكلف على أية حال، و إلّا لم تكن حجته بالغة على كل حال! ضمير الغاب في «أنه» هو اللَّه العزيز و كتابه العزيز، و «آياتنا» تعم التدوينية القرآنية و التكوينية الكونية، و لأن «في أنفسهم» تعم دواخل نفوسهم، و إياهم فيما بينهم، ف «في الآفاق» تعم خوارج نفوسهم، و الخارج عما بينهم، ف «نفوسهم» تخص الدواخل، «و أنفسهم» تعمها و ما بينهم.

صحيح أن بصر العين و بصيرة العقل و الفطرة كافية لتبنّي أصل الإيمان باللَّه و كتابه، ثم الإرائه الإلهية تزيد إيمانا على إيمان: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا» و هدى على هدى: «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً» إلا أن لكل مستقبل من الزمن إشراقة تبيّن و إرائة فوق إرائة، هي من عوامل تبيّن الحق في زاوية ثالثة للذين اهتدوا، و من الأسباب القاطعة القاصعة لتبيّنه للذين جحدوا بها، كالأخبار المستقبلة، فوقوعها كما أخبر عنها إراءة مستقبلة، و كالتقدمات العقلية و العلمية الناصعة التي ترى عيانا ما لم يكن يرى من ذي قبل إلّا بعين البصيرة ف «إن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن».

فالتقدمات العقلية و العلمية هي من الآيات الأنفسية الأولى، فآفاقيتها هي الكشوف العلمية التي تكشف- دوما- النقاب عن وجه كتاب التكوين حيث تجاوب كتاب التدوين.

و الانتصارات الإسلامية هي من الأنفسية الثانية كفتح مكة و غلب الروم الكتابيين على المشركين: «الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 102

بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ» و قد حصل، أماذا من غلبات و انتصارات و سواها من ملاحم أخبر عنها القرآن‏ «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» «1».

و الانهزامات لغير المسلمين هي من الآفاقية الثانية لهم، و قد يجمعها خير جمع و أفضله: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ..» (24: 55) حيث يعز أولياءه و يذل أعداءه، آفاق فائقة للذين آمنوا، بائقة للذين كفروا.

فالمسلمون و سواهم من الناظرين إلى القرآن يعيشون دوما آيات اللَّه تدوينا و تكوينا في الآفاق و في أنفسهم، حيث يريهم اللَّه إياها، فهما يبيّنان لنا الحق في اللَّه، و الحق في كتاب اللَّه في مثلث التبيين- أم لأقل تقدير- في زاوية أولى، و من ثم ثانية لتبين الحق أمام الطالبين، و إذ لم يكف‏ «أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 555 ح 73 في كتاب الاحتجاج روى عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسن بن علي (عليه السلام) قال: ان يهوديا من يهود الشام و أحبارهم قال لعلي (عليه السلام) فان هذا موسى بن عمران قد أرسله اللَّه الى فرعون و أراه الآية الكبرى قال له علي (عليه السلام): لقد كان كذلك و محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أرسله اللَّه الى فراعنة شتى مثل أبي جهل بن هشام و عتبة بن ربيعة و شيبة و أبي البختري و النضر بن الحرث و أبي بن خلف و منبه و نبيه ابني الحجاج و الى الخمسة المستهزئين الوليد بن المغيرة المخزومي و العامر بن وائل السهمي و الأسود بن عبد يغوث الزهري و الأسود بن المطلب و الحارث ابن الطلاطلة فأراهم الآيات في الآفاق و في أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق.

(2) الواو هنا عطف على مثل ما ذكر حيث يصلح لان يكفي بربك ارائة لآياته في الآفاق و في أنفسهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 103

إن شهادته على كل شي‏ء كما في آيات عدة كهذه‏ «1» هي حضوره علميا و قيوميا و تلقيا لأعمال و حالات، و حضوره تربويا، فربوبيته ناصعة في كل شي‏ء و «على» هنا تشهد أن شهادته تعالى عالية محيطة هي لزام ذوات الأشياء كيفما كانت و أنّى و أين، منذ خلقت و حتى القيامة و الفناء لما يفنى! و «ربك» حيث تعني التربية الإلهية القمة «عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» هي في قمة الشهادة المحيطة علوا فيها علميا و قيوميا و تلقيا و تدليلا له عليه، و هذه الشهادة المربعة دائبة طول الزمان و عرض المكان لكل إنس و جان.

و «العبودية جوهرة كنهها الربوبية فما فقد من العبودية وجد في الربوبية و ما خفي في الربوبية أصيب في العبودية قال اللَّه‏ «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ»: أي موجود في غيبتك و حضرتك» «2».

و من تبين الحق في اللَّه و في القرآن و في كل حق ما يريه من آيته العظمى و حجته الكبرى الحجة القائم المهدي من آل محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «وَ أَنْتَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» 5: 117 «إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» 22: 17 «وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» 34: 47 «وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» 58: 6 و 85: 9 «إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيداً» 4: 41 و 33: 55- و بالنسبة للأعمال:

«وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى‏ ما تَعْمَلُونَ» 3: 98 «ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى‏ ما يَفْعَلُونَ» 10: 46.

(2) مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام).

(3)

نور الثقلين 4): 555 ح 74 في روضة الكافي عن الطيار عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الآية قال: خسف و مسخ و قذف قال قلت «متحاربتين لهم»؟ قال: دع ذا ذاك قيام القائم و فيه عن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 104

و هكذا يتجاوبان و يتناظران كتاب التدوين القرآن و كتاب التكوين أيا كان على طول الخط منذ نزل القرآن حتى القيامة الكبرى، تجاوبا في رؤية و إرائة «آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ»؟

«ألا» حذارهم حذار «إِنَّهُمْ» غارقون‏ «فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ» هنا و يوم يقود الأشهاد «ألا» تنبها و حضورا «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ مُحِيطٌ» كما هو على كل شي‏ء شهيد، إحاطة في مربع الشهادة، و شهادة في مربع الإحاطة لا مفلت عنه، و لا مناص عن لقائه! أ ترى بعد ذلك كله أن «هم» في سنريهم تخص الحاضرين؟ كلا إنه يعمهم و الذين يلحقون بهم من خلفهم و إلى يوم الدين، يعيشون إرائة الآيات الآفاقية و الأنفسية تدوينية و تكوينية! و من المستقبل المعني في «سنريهم» عند الموت و عند النشور، لمن عمي عن آيات اللَّه رغم رؤيتها و إرائتها، فلا أحد إلّا و قد يرى آيات اللَّه في الآفاق و الأنفس‏ «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال سألته عن هذه الآية قال: نريهم في أنفسهم المسخ و نريهم في الآفاق انتقاض الآفاق عليهم فيرون قدرة اللَّه عز و جل في أنفسهم و في الآفاق قلت له‏ «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»؟ قال: خروج القائم هو الحق عند اللَّه عز و جل تراه الخلق لا بد منه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 105

سورة الشورى مكيّة و آياتها ثلاث و خمسون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 107

[سورة الشورى (42): الآيات 1 الى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

حم (1) عسق (2) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4)

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5) وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6) وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏ وَ مَنْ حَوْلَها وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7) وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (8)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 108

هنالك حواميم سبع تترى تلو بعض، ثالثتها هذه، و تزيد على الست الأخرى «عسق» و كلها مكية، تتلو حواميمها ذكر الكتاب إنزالا و تنزيلا بيّنا و مبينا، إلّا هذه، حيث تذكر مطلق الوحي او الوحي المطلق إلى هذا الرسول و الذين خلوا، كما و يعقبه دون فصل كتاب التكوين إيحاء بتجاوب الكتابين، و تلائمهما، كما هما مع الحواميم.

ترى و ما هو السر في تتابع الحواميم السبع المكية و اختصاص ثالثتها ب «عسق» «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ»! و مهما يكن من شي‏ء فلتعن «عسق» هنا زائدا عما عنت‏ «حم» في الست الأخرى، و علّ من الزائد ما يوحيه‏ «وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ» أو «و علم كل شي‏ء في «عسق» «1» ف

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 557 في تفسير علي بن ابراهيم‏ «حم. عسق» هو حروف من اسماء اللَّه الأعظم المقطوع يؤلفه الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الإمام (عليه السلام) فيكون الاسم الأعظم الذي إذا دعي اللَّه به أجاب،

حدثنا احمد بن علي و احمد بن إدريس قالا حدثنا محمد بن احمد العلوي عن العمركي عن محمد بن جمهور قال: حدثنا سليمان ابن سماعة عن عبد اللَّه ابن القاسم عن يحيى بن ميسرة الخثعمي عن أبي جعفر (عليها السلام) قال: سمعته يقول: حم عسق عدد سني القائم صلوات اللَّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 109

«كَذلِكَ يُوحِي» إجمال عن الوحي كله، أم ماذا؟، و الحروف المقطعة في كل سورة إذا كانت عدة تجمع ك «المر- كهيعص» و كيف فصلت هنا «حم» عن‏ «عسق» اللهم لا علم لنا إلّا ما علمتنا!.

أو ترى أن‏ «كَذلِكَ»: الوحي البعيد البعيد في مكانته و محتده، إشارة إلى ما بعدها من الشورى أو القرآن كله؟ كما في‏ «ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ»؟ و لكن الإشارة إلى ما مضى أحرى منها إلى ما يأتي! و ما أوحي إلى الذين من قبله ليس كمثل الشورى أو القرآن كله اللهم إلّا في أصل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عليه و قاف جبل محيط بالدنيا من زمردة خضراء فخضرة السماء من ذلك الجبل و علم كل شي‏ء في «عسق»،

و في تفسير البرهان 4: 115 باسناده عن ابن عباس قال: حم اسم من اسماء اللَّه عز و جل و عسق علم على تفسير كل جماعة و نفاق كل فرقة، و

فيه في معاني الاخبار باسناده الى سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه: و اما حم عسق فمعناه الحكيم المثبت العالم السميع القادر القوي.

و

في تفسير البرهان 4: 115 باسناده عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: حم: حتم و عين: عذاب، و سين: سنون كسني يوسف، و قاف: قذف و مسخ يكون في آخر الزمان منه بالسفياني و أصحابه و ناس من كلب ثلاثون ألف يخرجون معه و ذلك حين يخرج القائم (عليه السلام) بمكة و هو مهدي هذه الأمة.

أقول: ليس لنا ان نتأكد بشي‏ء من هذه المعاني المروية في روايات آحاد، كيف و لا نصدق تفسيرا للكتاب المفصل الا ما وافقه او ثبت وروده قطعيا عن اهل بيت القرآن، فبأن نحتاط في تفسير صفوة القرآن أحرى و أوجب، و رواياته آحاد و متضاربة، فلا نصدق الا ما يصرح أو يلوح به القرآن أو ثبت وروده عن اهله الخصوص المعصومين (عليهم السلام).

و قد نصدق طرفا من «علم كل شي‏ء في‏ «عسق» اعتبارا بالآيات التي تليها و لا سيما «كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ» ان‏ «حم عسق» يرمز الى الوحي كله، ما نزل من قبل و في هذا، اللهم لا علم لنا الا ما علمتنا.

ثم‏ «تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ..» لعلها توحي بتفطر ما توحيه‏ «حم عسق» كما في دولة المهدي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 110

الوحي دون شاكلته و مراتبه و مادته، حيث القرآن يفوق سائر الوحي في هذا المثلث.

أو أن «كذلك» تشير إلى‏ «حم. عسق» في وحيها الخاص بالرسول محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن النبأ الذي تحمّله أوحي إلى الذين من قبله كما أوحي إليه.

أو أن «كذلك» تعني أمثال هذه الحروف المقطعة التي هي رموز تخص أصحاب الوحي- لا خصوص حم. عسق-؟ و لا نرى في سائر كتابات الوحي هكذا وحي مقطّع! إلّا أن يعني أصله الموحى إليهم دون كتبه في كتاباتهم.

أو أنه إشارة إلى أصل الوحي في بعد يعم سائر الوحي لسائر المرسل إليهم دون خصوص المرسلين، لا الوحي الثنائي الذي هو وحي في وحي‏ «حم. عسق»؟

أو أنه يعم الجميع. ف «كذلك» الذي يوحي إليك ربك في الشورى و سائر القرآن يوحي إلى الذين من قبلك، وحي كسائر الوحي في السنة الرسالية كأصل مهما اختلفت مراتبه كيفية و مادة أم ماذا؟: «إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى‏ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» (4: 163) فالدين الوحي واحد في الكيان مهما اختلفت الشرايع إليه شكليا و في علو الكيان، لحد قد يعتبر سائر الوحي الأصيل إلى سائر أولي العزم من الرسل و جاه الوحي القمة المحمدي وصية: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ..» (43: 13) و كثيرة هذه الآيات التي تبرز مشاركة غير مشاكسة بين مدارج الوحي، اللّهم إلّا بميّزة الكمال القمة في خاتمة الوحي.

و «كذلك» مثل‏ «حم. عسق» من الوحي الخاص المنحصر في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 111

أصحاب الوحي: المنحسر عن سواهم‏ «يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ» مهما لم تثبت هذه الرموز في كتاباتهم و ثبتت في القرآن.

فالوحي منه ذو بعد واحد كالمجرد عن الألفاظ مثل ما أوحي من محكم القرآن على قلب الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ليلة القدر، أو ذو بعدين ثانيهما بعد الألفاظ المفصلة كالقرآن المفصل، أو ذو أبعاد ثلاثة ثالثتها الحروف التلغرافية المقطعة، فإنها مثلث الوحي: أصل المعنى- أصل اللفظ- و رمز اللفظ، و «كذلك» ككلّ أو كبعض‏ «يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

و كما أن الآية توحي بعامة الوحي إلى عامة أصحاب الوحي بمختلف مدارجه، فقد تعلّله الأسماء الخمسة الحسنى التي تليها: «و هو 1- الْعَزِيزُ 2- الْحَكِيمُ. 3- لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ‏ 4- وَ هُوَ الْعَلِيُّ 5- الْعَظِيمُ» فهذه الخماسية المجيدة تعلل موجهة الوحي الرسالي إلى عامة المرسلين.

فبعزته يوحي إذ لا صادّ يصدّه‏ «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ» (12: 21) و الوحي من مظاهر العزة الإلهية حيث يهدي به اللَّه من اتبع رضوانه سبل السلام، و العزة الملكية بارزة في عزة وحيه إلى أعزة من خلقه ليعزز حكمه عليهم.

و بحكمته لم يوح إلى عامة المكلفين، حيث القلوب أوعية و خيرها أوعاها، فلا وحي إلّا إلى أوعاها، ثم بحكمته أوحى إلى كل قلب أوعى قدر وعيه و حاجة الموحى لهم، المرسل إليهم أم ماذا؟

و لأن‏ «لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ» اختصاص للملكية و المالكية الحقة الحقيقية العامة للكون كله، فهو هو الموحي لتدبيره كله تشريعا كما هنا و تكوينا كما «وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها ..» (41: 12)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 112

و كل سماء تشمل فيما تشمل كل أرض من السبع، و الأمر الموحى في الكل يعم التدبير تكوينا و تشريعا.

و لأنه «العلي» في عزته و حكمته و ملكيته و مالكيته، فلا ينال من دونه إلّا ما منحهم، فهم لا يملكون وحيا إلّا ما أوحي‏ «كَذلِكَ يُوحِي ..».

و لأنه «العظيم» فيها و في علّوه فليعل و ليعظم وحيه، و ليعز و ليحكم وحيه، و ليملك و يسيطر وحيه على الموحى إليهم و الموحى لهم.

هنالك تتقرر وحدة الوحي في أصله، و وحدة مصدر الوحي، فالموحي هو اللَّه العزيز الحكيم الملك العلي العظيم، و وحدة الموحى إليهم على مدار الزمن‏ «كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ ..» الوحي المثلث الوحدوي، قصة بعيدة المدى، قريبة الهدى، ضاربة في أعماق الزمن و أطواءه، متشابكة الحلقات و ليست متشاكسة، في مناهج ثابتة الأصول مهما اختلفت الفروع.

فاللَّه واحد، و الرسالة واحدة، و الأمة واحدة: «يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (23: 53).

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5).

إن لتفطر السماوات من فوقهن موقع في القيامة الكبرى بما يفطرها اللَّه: «إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ. وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ ..» (82: 2)

حيث العلي العظيم يقضي بذلك التفطّر، و من قبلها و منذ خلقت موقع للتفطر «تكاد» كما هنا، و حين خلقها موقع حيث فطرت من المادة الأمّ:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 113

«فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» (6: 14) «... فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ. (4: 12).

و تفطّر السماوات حيث تكاد هو بين الواقعين: تعميرا و تدميرا، ثم و هو بين العلوّ و العظمة الإلهية: «وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ» و بين الاتخاذ من دونه وليا: «وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ» كما «وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا. تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً. وَ ما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً. لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا» (19: 94).

و الفطر هو الشق، شقا إلى الخلق كما شق السماوات و الأرض من المادة الأم.

و المادة الأم شقّها لا من شي‏ء إلّا ارادته، أو شقا إلى الخراب‏ «إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ» فهناك فطر الإيجاد و التعمير، و هنا فطر الإعدام و التدمير، و يختص الأخير بالانفطار التفطر «1» كما الاول بالفطر «2» حيث الأولان تقبّل لفعل الفطر التدمير، و الأخير هو هو الفطر للإيجاد أو التعمير.

ثم و «تَكادُ السَّماواتُ» هنا قد تعني اقتراب الساعة فيما تعنيه من الحالة الكائنة بين فطرها و تفطرها، و إن كانت لا تعني إلّا الثانية في آيتها الثانية، و كيف لا تكاد تتفطر من فوقهن! و العظمة الإلهية من ناحية، و اتخاذ أولياء من دونه من أخرى، تقتضي أن تتفطر قبل قيامتها، لولا أن‏ «الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ» و

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما «السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ» (73: 18)

(2) ك «فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» 12: 101 و 14: 10 و 35: 1 و 39: 46 و 42: 11.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 114

«إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» «وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى.» (16: 61) «وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى‏ ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ ..» (35: 45).

و كما للعظمة الإلهية- و أن دعوا للرحمن ولدا و من دونه اولياء- موقعها في‏ «تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ» كذلك للوحي الإلهي المعلّل بخماسية الأسماء الحسنى و أخراها «العظيم» أن يفطر القلوب و يقلبها غيرها، «لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى‏ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (59: 21) فيا لقلوبنا من قساوة لا تتخشع و تتصدع من خشية اللَّه!.

و لماذا هنا «يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ» و في مريم «يتفطرن» دون فوقهن؟

علّه لان تفطرها في مريم‏ «أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً» و هنا إضافة إليها، العظمة الإلهية من فوقهن، و عظمة الوحي تكوينا و تشريعا من فوقهن‏ «وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها» (41: 12)، شاملا لسماء الدنيا حين تشمل أرضنا، حيث الوحي قول ثقيل أيا كان و أيان: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا» (73: 5) فهاتان الفوقيتان مع‏ «أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً» تسبّب أن‏ «تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ..»!

ثم‏ «مِنْ فَوْقِهِنَّ» كما تعني فوقية العظمة و الوحي الإلهي، تعني كذلك نفس الفوقية السماوية أنها تتساقط بأجواءها و أجرامها.

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6).

إن ولاية التشريع و التكوين المستفادة من هذه الآيات الخمس و أشباهها في سائر القرآن، هي خاصة باللَّه كسائر الولايات الإلهية، و لا تعدوه إلى سواه، فإنها ولاية ذاتية هي لزام ألوهيته و ربوبيته، ثم و لا يولي رسله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 115

و أولياءه إلّا ولاية بلاغ الشرع، و الأولوية في المرجعية الروحية السياسية، كما يحددها سبحانه و يتخذهم أولياء لخلقه، فلا ولاية ذاتية أيا كان لمن سواه، و لا غيرها إلّا بجعله.

فمن يتخذ من دون اللَّه أولياء: ولاية إلهية من دون اللَّه، أم جعلية من دون إذن اللَّه‏ «اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ» على هؤلاء المتخذين فكرتهم و فعلتهم الخاطئة و سوف يحاسبهم عليها، و على الأولياء الزور الطواغيت حيث ادعوها أو قبلوها، و على الأولياء الأوثان و هؤلاء، فاللَّه حفيظ عليهم بولاية التكوين و التقدير، فكيف يتخذون من دون اللَّه أولياء؟ «وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ () ؤلاء هؤلاء) بِوَكِيلٍ»: أن تمنع الطالب و المطلوب من فعلته و حالته وكالة تكوينية، و إنما لك رسالة بلاغيّة عذرا أو نذرا.

فهنا «اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ» إنذار و احتجاج ما أخصرهما و أجملهما، فالحفاظة الإلهية على من اتخذوا من دونه أولياء حفاظة أنفسية حيث هم في حفظ اللَّه و إن يشاء يذرهم دون حفظ فيتهدرون، و حفاظة على أعمالهم السيئة حيث تشهد عليهم يوم يقوم الأشهاد. و هذا إنذار لأولاهم و أخراهم، ثم هو حفيظ على المتخذين من دونه أولياء، لولا حفظه لهم لم يظلوا في كونهم و كيانهم فكيف يتخذون أولياء ذاتيا من دون اللَّه أندادا، أم جعليا في سائر الولايات إلّا التكوينية و التشريعية، فالحفيظ عليهم كما يحفظ كونهم كذلك يحفظ كيانهم، فولاياتهم غير الإلهية ليست إلّا بإذن اللَّه فكيف يتخذون من دون للَّه أولياء؟ و إذا كانوا طواغيت جمع عليهم الإنذار و الإحتجاج.

وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏ وَ مَنْ حَوْلَها وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7).

«و كذلك» البين المبين من آيات كما هنا و في سائر القرآن‏ «أَوْحَيْنا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 116

إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا» يعرب بفصيح آياته و بليغها لأعلى القمم عن أعلى القيم التي تقوّم و تقيم المكلفين على صراط مستقيم، واضحا لا تعقيد فيه و لا ريب يعتريه‏ «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏ وَ مَنْ حَوْلَها»: ترى ما هي أم القرى و من هم من حولها؟

أم القرى هي مكة المكرمة «1» و هل إن من حولها هي القرى العربية من شبه الجزيرة، حيث الحول هو القرب الدائر مدار الأصل؟ أم و سائر القرى العربية من الجزيرة و سواها المتصلة بها، المجاورة لها؟ و عربية القرآن بمعنى اللغة تشمل العرب عامة من حول أم القرى أم البعيدة المنفصلة عنها! أم ان حولها تشمل كل القرى في هذه المعمورة؟ و كيف تشمل غير العربية منها و وحي القرآن عربيا لتنذر أم القرى و من حولها لا يحمل إنذار غير العربي، و إن حمل و شمل فلا اختصاص لإنذاره بقرى هذه المعمورة! أم لا ذا و لا ذاك و لا .. فعربية القرآن لا تعني خصوص اللغة حتى تختص بأصحابها، و إنما تعني وضوحها بين اللغات و على حدّ تعبير باقر العلوم في تفسير «عَرَبِيٌّ مُبِينٌ»: يبين الألسن و لا تبينه الألسن- حيث يعرب دون تعقيد و قصور عن أعمق المعاني و أعضلها: (علم اللَّه النازل إلى المكلفين أجمعين) بأوضح بيان و أجمله.

هنا لسان عربي مبين، و هناك لغة «وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (16:) 103) «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلى‏ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» (26: 195) «فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 29- اخرج ابن مردوية قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): ام القرى مكة.

أقول و تمر عليك أحاديث بهذا المعنى تحت الأرقام 1- 2 و 4- في الصفحة الآتية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 117

(19: 97) «فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (44: 58) فاللسان هو لغة البيان، و اللغة أعم من البيان و اللّابيان: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (14: 4) و لسان قومه، غير لغة قومه، و إنما ما يعرب عن الحق دون أي خفاء، لحد يفهمه كل مكلف حيث التعبير عربي مبين واضح لا تعقيد فيه.

و لأن اللغة العربية أعرب اللغات و أوضحها، لذلك سميت عربية، ثم اللَّه أنزل هذا القرآن بأفصحها و أبلغها كما يفهمه كل متفهم ليكون الإنذار و التبشير به شاملا لا تبقي حجة و لا تذر.

فكما القرآن حكم عربي لا يختص بالعرب: «وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا ..» (13: 37): حكما واضحا لا تعقيد فيه تفهما تعقلا و توافقا للعقل و الفطرة و الحياة ككل، ثم و تطبيقا على الطول التاريخي و العرض الجغرافي ..

كذلك هو قرآن عربي لعلكم تعقلون و تعلمون: «إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (12: 2) «كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (41: 3) «قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» (39: 28) حيث لا عوج فيه تعبيرا و إعرابا عن الحق، و لا معنويا و لا في أية ناحية من نواحي البلاغ.

كما و أن الإعراب إظهار الحالة الأدبية للكلمة، و الأعراب هم أهل البدو الظاهرون المتكشفون حيث لا تظلهم إلا السماء أم ماذا؟ غير البنيان في المدن- «الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً» (9: 97) لا تعني من يتكلم بهذه اللغة، و إنما من يعيش في البوادي، حيث البعد عن مراكز التمدن الإسلامي يجعلهم بعيدين عن الإسلام فهم أشد كفرا و نفاقا و أجدر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 118

ألّا يعلموا حدود ما أنزل اللَّه على رسوله.

ثم «القرى» هي كافة المجتمعات من سائر المكلفين من الجنة و الناس أجمعين أم من ذا؟ في كافة المدن الأرضية «1» و السماوية دون استثناء، و أمها هي مكة المكرمة زادها اللَّه شرفا.

ان الكعبة المشرفة هي اوّل بيت وضع للناس: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ» (3: 96) «2» و اللَّه تعالى بك الأرض و مكّها من مكة، حيث حركها من حيث هي كنقطة أولى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تفسير البرهان 4: 115 القمي قال قال: ام القرى مكة لأنها اوّل بقعة خلقها اللَّه من الأرض لقوله: ان أوّل بيت وضع للناس ..

أقول: ان امية الرسول من جهات عدة منها انه من ام القرى، و منها انه لم يقرأ و لم يكتب قبل النبوة، و ان كان أقرأ القراء و اكتب الكتاب بعدها «ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» و الروايات التي تكذب النسبة الاخيرة انما تعني بعد النبوة لا قبلها كما

في تفسير البرهان 1: 541 باسناده عن علي بن حسان عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قلت له ان الناس يزعمون ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لم يكتب و لا يقرأ؟ فقال: كذبوا لعنهم اللَّه أنّى يكون ذلك و قد قال اللَّه عز و جل: هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ...

فكيف يعلمهم الكتاب و الحكمة و ليس يحسن ان يقرأ و يكتب؟ قال: قلت فلم سمي الامي! قال: نسب الى مكة و ذلك قوله: لتنذر ام القرى و من حولها- فأم القرى مكة فقيل: امي لذلك.

(2)

نور الثقلين 4: 557 عن تفسير علي بن ابراهيم القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله عز و جل‏ «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏- مكة- وَ مَنْ حَوْلَها: سائر الأرض!

أقول: و هذا بيان لأوسط المصاديق ل «مَنْ حَوْلَها» كما فسرت باقر بها «الطائف»

في رواية أخرى رواها العياشي عن علي بن أسباط قال: قلت لأبي جعفر (عليهما السلام) لم سمي النبي الأمي؟ قال: نسب الى مكة و ذلك من قول اللَّه: لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏ وَ مَنْ حَوْلَها.- و ام القرى مكة وَ مَنْ حَوْلَها الطائف (تفسير البرهان 4: 540)

و في الدر المنثور 3: 29- اخرج جماعة عن ابن عباس في تفسير «مَنْ حَوْلَها» قال: يعني ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 119

لحراكها «1»: «وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها» (79: 31) «وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها» (91: 6) «2».

ثم الأرض هي ايضا امّ لسائر الكرات لسبقها في خلقها عليها بمرحلتين: «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (41: 12).

فمكة المكرمة من الناحية التكوينية هي أم القرى، ثم و كذلك من الناحية التشريعية حيث الشرعة الإسلامية هي أم الشرائع و تلك أطفالها المتطفلة عنها و إن كانت قبلها، فهي هي المركز الرئيسي للرسالات الإلهية أولا و أخيرا، و هي الركيزة القويمة المتينة الدائبة للرسالة الإسلامية طول الزمان و عرض المكان، و من أمية الرسول أنه من ام القرى‏ «3» و أن رسالته أمّ الرسالات كلّها و لكل القرى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

حولها من القرى الى المشرق و المغرب.

(1).

في عيون الاخبار و الإرشاد للديلمي‏ ان شاميا سأل عليا (عليه السلام) عن مكة المكرمة لم سميت مكة؟ فقال (عليه السلام): لأن اللَّه مكّ الأرض من تحتها اي دحاها.

و

في رواية اخرى عنه (عليه السلام): فلما خلق اللَّه الأرض دحاها من تحت الكعبة ثم بسطها علي الماء.

. (2)

القمي عن الباقر (عليه السلام) قال: ام القرى مكة، سميت ام القرى لأنها اوّل بقعة خلقها اللَّه عز و جل من الأرض لقوله عز و جل: ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا ...

(3)

في تفسير البرهان 4: 115 محمد بن الحسن الصفار عن احمد بن محمد عن البرقي عن جعفر بن محمد الصيرفي قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الرضا (عليه السلام) قلت له: لم سمي النبي الأمي- الى ان قال: و انما سمي الامي لأنه من اهل مكة و مكة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 120

و لان «القرى» جمع محلّى بلام الاستغراق، فهي تستغرق القرى المكلفة بهذه الشريعة العالمية في كافة أنحاء العالم بأرضه و سماءه، «وَ مَنْ حَوْلَها» لا تعني الحول القريب، و إنما الحول من حيث التبعية الشرعية، و هذا يتبع في حده ما تقرره الشريعة من حدود، ف «القرى» بجمعيتها الاستغراقية من ناحية، و الحول بكونه حول الأمّ من ناحية أخرى تدلان على هذه السعة العالمية في‏ «مَنْ حَوْلَها».

و من المعروف و الطبيعي أن من حول العاصمة في كل منطقة هم أتباع العاصمة و إن بعدوا عنها، و الأولاد هم حول الأم أيا كانوا، فلا تعني الحول هنا و هناك المكان القريب من الأم و العاصمة، و إنما التبعية للأصل مهما كان المكان قريبا أو بعيدا، و الرسالات الإلهية في القرى ليست إلّا في أمها: «وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى‏ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا» (28: 59) فأم القرى هي العاصمة الوحيدة للرسالة الإسلامية العالمية-: رسالة إلى الناس كافة: «وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً.» (34: 28) «قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ..» (7: 158) و ليس الناس فحسب بل و الجنّة أيضا: حيث تذكر مع الإنس أم وحدها في نطاق الرسالات الإلهية في عشرات من الآيات‏ «1» ثم و لا الجنة و الناس فحسب بل و العالمين أجمعين:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

من أمهات القرى و ذلك قول اللَّه في كتابه: لتنذر ام القرى و من حولها، و فيه عن القمي قال قال: أم القرى مكة سميت.

(1). و نماذج من هذه الآيات البينات كالتالية: «يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي ..» (6: 130) «وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ ..» (7: 179) «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى‏ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ..» (17: 88) «وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 121

«تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى‏ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً» (25: 1) «وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (21: 107) «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» (81: 28) فوحي القرآن ضارب إلى الأعماق في طول العالم و عرضه، من حضر و من بلغته دعوته أيا كان و أيان: «وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ» (6: 19) و أم القرى هي المركز الرئيسي و العاصمة الوحيدة الوطيدة الخالدة لهذه الرسالة و الدعوة الاخيرة، فالجنة و الناس أجمعون، و العالمون أجمعون أيا كانوا و أيّان تشملهم هذه الدعوة العالمية دونما استثناء، و هم كلهم من «من حولها».

إذا فآية أم القرى- و هي الآية الأم في التعريف بسعة هذه الرسالة- إنها تعتبر مكة المكرمة المركز الرئيسي للرسالة المحمدية (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حيث صدرت و انتشرت عنها هذه الدعوة المباركة و على طول الزمن، و القرى هي المجتمعات العالمية و المكلفة في شتى أرجاء الكون، في هذه المعمورة أم سائر المعمورات في الأنجم، و هي كلها «من حولها» حيث الحول تعني هنا ما يناسب عمومية القرى المستفادة من مستغرق الجمع فيها، و لو أن «من حولها» يخص القريب منها دون الجمع، لكانت القرى هي هذا البعض فقط لا الجمع، فالمعنى: لتنذر أم بعض القرى! ..

إذا فدعوة الام و رسالتها تشمل القرى كلها و إلا لم تكن من قراها، و القرى هم العالمون أجمعون حيث اللَّه ربهم أجمعين: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» (1: 3) إذا فالخارجون عن هذه الدعوة ادعاء و تعنتا هم خارجون عن الناس إلى النسناس، و هم خارجون عن العالمين الأحياء،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ» (41: 25) «وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى‏ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ» (46: 29) «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ..» (72: 1).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 122

المتخلفون عن ربوبية اللَّه! و كما أن مكة أم القرى تكوينا و تشريعا، كذلك الرسول الأقدس و أحرى، حيث القلوب قرى و أمها و مركزها الأصيل عبر الرسالات و إلى يوم القيامة هو القلب المحمدي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هنا الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يبدأ بإنذار نفسه و اصطناعه بالقرآن، ثم سائر القلوب من سائر المكلفين، خوضا في أغوار البحار المتلاطمة من كافة المكلفين لينجي الغرقى: «يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ‏ ..

إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا»: فبقيام الليل و الترتيل يعد نفسه نهارا للسبح الطويل! ..

ثم و هنالك شهادات كتابية تصدق ما شاهدنا في آية «أم القرى» ففي الأصل الانقلوسي من نبؤت هيّلد «محمد .. كليليا»: محمد هو الكل- في كله:» في رسالته و دعوته، كما في صفاته أم ماذا من محمدياته؟.

و في الأصل العبراني من فرع توراتي: حكّي النبي «وهر عستي ات هغويم و بائو حمدت كال هغويم و ملؤتي ات هبيت هزه كابود آمر يهواه صبائوت»:

اهيّج كل الأمم و يأتي محمد كلّ الأمم و مرغوبهم و املأ هذا البيت من الجلال هذا امر رب الجنود».

و في إنجيل برنابا الحواري: (96: 8) أجاب يسوع: لعمر اللَّه الذي تقف بحضرته نفسي إني لست مسيّا الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد اللَّه أبانا إبراهيم قائلا: بنسلك أبارك كل قبائل الأرض.

و بركة هذا النسل المبارك مصرحة في الأصل العبراني من التورات:

تكوين (17: 20) «و ليشمعيل شمعتيخا هينه برختي أوتو و هيفرتي أوتو و هيربتي أوتو بمئد مئد شنيم عاسار نسيئيم يولد و نتيو لغوي غادل»:

«و لإسماعيل سمعته: (إبراهيم) ها أنا أباركه كثيرا و أنميه كثيرا و أثمره‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 123

كثيرا و أرفع مقامه كثيرا بمحمد (صلى الله عليه و آله و سلم) و اثنى عشر إماما يلدهم إسماعيل و أجعله أمة كبيرة .. أبارك العالم بهم» «1» «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏ وَ مَنْ حَوْلَها وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» (7) عطف الإنذار الثاني إلى الأول يوحي بأنه غيره، فما هو الإنذار بغير يوم الجمع؟ إن هنا نذارة ليوم الفرق الدنيا و أخرى ليوم الجمع الأخرى و كما البشارة تعمهما، إذ ليس الدين- فقط- ينحو نحو الإصلاح للأخرى حتى يختص إنذاره و تبشيره بها، بل و يبتدء بالأولى و ينتهي إلى الأخرى، حيث الأولى مزرعة الأخرى، و انتفاع الزارع أو خسرانه يعمهما، .. و قد يعني الإنذار الأول- فيما يعني- إنذار المبدء قبل المعاد، أو أن الإنذار الأول يعمهما كليهما، فلأن الثاني أهمهما يختص هو بالذكر دون الاوّل، حيث النكبات الدنيوية تتحمل بطيّات شهواتها الحاضرة، و لكنما الأخروية صارمة لا تحمل بطياتها شهوات، فالإنذار لها هي هي الأصل و للأولى الفرع.

ثم الجمع‏ «يَوْمَ الْجَمْعِ» يحوي جموعا عدة: جمعا لأجزاء كل إنسان و عظامه: «أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ» (75: 3) و جمعا للخلائق المكلفين: «هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ» (77: 38) و جمعا بين الرسل الأشهاد و المرسل إليهم المشهود عليهم: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ» (5: 109) و لكي يفتح و يحكم بينهم: «قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ» (34: 26) ثم و جمعا لأصحاب الجحيم في الجحيم: «إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً» (4: 140) و كما يجمع أصحاب الجنة فيها: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» (33:)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد تفاصيل هذه البشارات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 124

23).

و بالجمع بين العمال و أعمالهم، بينهم و بين كتبهم و شهودهم، حتى يحقق الجمع بين كل عمل و جزاءه ..: «لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ».

ثم الإنذار كتحقيق و إن كان مرحليا من حيث التطبيق منذ العشيرة الأقربين: «وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (6: 214) إلى قوم لدّ و هم الألداء من العرب: «لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا» (19: 97) و إلى من بلغ: «لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ» (6: 19) ثم الى العالمين أجمعين: «تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى‏ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً» (25: 1).

و لكنما الإنذار بالقرآن ككل ليس مرحليا، بل‏ «وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى‏ رَبِّهِمْ» (6: 51) «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏ وَ مَنْ حَوْلَها وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ» (6: 92). و المؤمن بالآخرة لا يحصر في أم القرى و القريبة منها، بل و يعم كل من سبيله الإيمان أيا كان و أيان.

ثم في المرحلية أيضا إنما يترحّل الإنذار من عشيرته إلى قومه اللّد أيا كانوا، لا في القرى المجاورة لأم القرى، فلا العشيرة الأقربون محصورون فيها، و لا القوم اللد مخصوص بها، فالأقرب الأحرى في الإنذار هم الأقربون قرابة لا مكانا، ثم الألداء الأشداء تعنّتا و مكانة لا مكانا، و لا تصريحة أو إشارة في القرآن أن الأقرب مكانا أحرى و أقرب في الدعوة.

ثم و للإنذار مرحليا و سواه- كما سبق- موضع في الأولى و آخر في الأخرى كما في طيات آياته‏ «1» ثم و كذلك التبشير و لكن الإنذار يحتل الموقع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و الاكثرية الساحقة من آياته تنحو منحى الأخرى لأنها أحرى و اكثر تأثيرا، و قليل منها تخص الأولى و ثالثة تعمها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 125

الأعلى و الركيزة الأولى في الدعوات الرسالية، فإن حمله على التقوى أقوى من التبشير، فكثير هؤلاء الذين لا يهمهم ما يبشّرون به من نفع و يهمهم ما ينذرون به من ضر، و دفع الضرر أولى من جلب النفع، و الجمع أحرى! وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (8).

ماذا تعني وحدة الأمة المستحيلة بما توحيه «لو»؟ أ وحدة تشريعية في شرعة و هي الشرعة الكاملة الأخيرة أن يكلف المكلفين عامة بهذه الشرعة منذ آدم إلى الخاتم؟ «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» (5: 48).

أم وحدة في ضلالة كما هم قبل البعثة: «كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (2: 213) أم وحدة في هداهم تكوينيا «وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى‏ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ» (6: 35) جمعا لهم على الهدى و العصمة «1» دون اختيار؟ فهو انتقاص حيث الإختيار في الاهتداء اكتمال و ليس كذلك الاضطرار.

أم يجمع من لا يهتدي بسوء الإختيار إلى من يهتدي بحسن الإختيار، أن يجبر الأولين على الهدى؟ و هذه تسوية بين المتقين و الفجار!:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 559 في تفسير علي بن ابراهيم في الآية قال: لو شاء ان يجعلهم كلهم معصومين مثل الملائكة بلا طباع لقدر عليه و لكن يدخل من يشاء في رحمته ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 126

«أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» (38: 28) ثم و لا إكراه على الهدى‏ «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ» (10: 100) «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ» (11: 118) «وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْها جائِرٌ وَ لَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ» (16: 9).

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ» (45: 21). وحدة في الثواب أو العقاب في الأخرى على اختلاف في الهدى و الضلال في أولاهم! ام يجبر الكلّ على الضلال حتى من يختار الهدى لولا الإجبار، فهذا إدخال من النور إلى الظلمات لمن يهتدي لولا الإجبار، ثم تسوية ظالمة بين المهتدي و الضال، و كذلك أيّة تسوية بين الناس تكوينا أو تشريعا في ضلال أو في هدى في الأولى او الأخرى، كل ذلك بين انتقاص و ظلم تعالى اللَّه عن ذلك علوا كبيرا، و قد تعني آيتنا إحالة كافة هذه الوحدات.

و لماذا قوبلت «و الظالمون» ب «من يشاء» دون «العادلون»؟ .. لأن «من يشاء» يعم العادلين و القاصرين غير المكلفين أو يسامح عنهم من الأطفال و المجانين و المستضعفين الذين لا يجدون حيلة و لا يهتدون سبيلا، «فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً» فالعذاب يخص الظالمين، و الرحمة تعم العادلين و غير المكلفين و الذين يحق العفو عنهم منهم و قد سبقت رحمته غضبه، فالغضب قضية العدل و هو محدد بحدود الظلم ما لم يصح العفو، و الرحمة قضية اللطف، فهي واسعة ما لم تناف العدل.

ثم و ل «من يشاء» هنا ايحاء آخر هو أن الرحمة الإلهية لأهلها ليست‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 127

مستحقة لهم واجبة على اللَّه إلّا أن يشاء اللَّه و قد شاءها و وعد: «كَتَبَ عَلى‏ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ..» و لكنما العدل مستحق لأهله واجب على اللَّه بربوبيته، دون إلزام من فوق إذ ليس عليه فوق، و إنما بألوهيته و ربوبيته.

[سورة الشورى (42): الآيات 9 الى 16]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِ الْمَوْتى‏ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (9) وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (10) فاطِرُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ مِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (12) شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13)

وَ ما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14) فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15) وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (16)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 129

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِ الْمَوْتى‏ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (9).

تعني الولاية هنا- بما توحيه «هو الولي»- الولاية الخاصة الإلهية في التكوين و التدبير و التشريع أم ماذا؟ فهذه الآية أخص من الأولى‏ «أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ..» و قد يكون التكرار هنا توطئة لبيان مصاديق هذه الولايات الخاصة من أن اللَّه هو المرجع في كافة الاختلافات، و أنه فاطر الأرض و السماوات و ليس كمثله شي‏ء في الأفعال و الذات و الصفات، و أن له مقاليد الأرض و السماوات يبسط و يقدر، و أنه الشارع من الدين شرائع ..

وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (10).

إن الاختلاف- أيا كان و من ايّ و أيّان- لا مرجع فيه إلّا اللَّه، فالشي‏ء المختلف فيه يعم كل شي‏ء، فإن «من شي‏ء» توحي باستغراق، و «فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ» تحصر الحكم الفصل فيه في اللَّه و تحسره عمن سوى اللَّه: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (12: 40) اللهم إلّا رسول اللَّه أو وليه الذي يحمل أمره عن اللَّه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْ‏ءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا» (4: 59) فالقاعدة في مثلث الطاعة هذه هي طاعة اللَّه، ثم الرسول و قد فصلت طاعته عن طاعته انفصال الفرع عن الأصل‏ «1» و وحّد هذا الفرع مع فرعه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في الآيات التالية: «وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا» (5: 92)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 130

«أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» كما وحّد ثانية في الرد إلى الرسول، ثم جمعت الثلاث في طاعة اللَّه‏ «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ..»!.

فهنا تعنى من طاعة اللَّه طاعته في كتابه، و من طاعة الرسول طاعته في سنته، و من طاعة أولى الأمر طاعتهم في حمل السنة كما حمّلوا.

و قد توحّد طاعة الرسول مع اللَّه حين تعني مطلق الطاعة: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ ..» (3: 32) «1» «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ» (4: 80) كما قد يوحد الحكمان: «وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ» (24: 48).

و الحكم في آيتنا كأضرابها يعم التكويني و التشريعي في الأولى وفي الأخرى، فكما اللَّه هو الحام يوم الدنيا، كذلك هو الحاكم يوم الدين: «أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (39: 46) «فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (2: 113) «وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ» (13: 41) «2».

إذا فلا حكم في أي خلاف إلّا للَّه، يستفاد متنا من كتاب اللَّه، و هامشا و شرحا من سنة رسول اللَّه، ثم لا حكم لسواه، حيث الرجوع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«قل‏ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ» (47: 33) «وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى‏ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ» (64: 12) «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ» (24: 54).

(1). كما في التالية ايضا: «وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (3: 132) «وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا» (20: 90) «وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ» (24: 52).

(2) نور الثقلين عن تفسير القمي‏ «وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ» من المذاهب و اخترتم لأنفسكم من الأديان فحكم ذلك كله الى اللَّه يوم القيامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 131

فيما اختلف فيه إلى غير اللَّه لا يزيل الخلاف، و قد يزيد خلافات على خلاف، حيث الحيطة العلمية و الحكمة العالية و الرحمة الواسعة خاصة باللَّه، و هي هي التي تزيل الخلافات.

فالرجوع إلى القياسات و الاستحسانات أم ماذا مما لم يأمر به اللَّه أو نهى عنه رجوع إلى آجن ماجن، كما الرجوع إلى من لا يتبنّى من الفقهاء في حكمه كتاب اللَّه و سنة رسول اللَّه رجوع إلى الطاغوت، فلا حكم إلّا للَّه!.

إن كتاب اللَّه هو المرجع الرئيسي في أي حكم و في أية خلافات، يتبنّى في كل شارد و وارد، يعرف به الغث عن السمين و الخائن عن الأمين، فما وافق كتاب اللَّه هو وارد و ما خالفه فهو مارد.

«ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي» ذلك المولى في التكوين و في التشريع و في كل شي‏ء «اللَّه» لكل شي‏ء «ربي» حيث رباني ما لم يرب أحدا من العالمين «عليه» لا سواه «توكلت» في أموري كلها «و إليه» لا سواه «أنيب»: رجوعا إليه عما سواه، و توكلا عليه دون من سواه، توكلا و إنابة في التكوين و التشريع سواء.

هذه الآية بما قبلها و ما بعدها إلى الآية (16) تستعرض جذور الولاية الإلهية في التكوين و التشريع، و أنه لا ندّ له و لا ضدّ فيهما و في سائر شؤون الألوهية، اللهم إلّا الدعوة إلى اللَّه فهنا الولاية الشرعية لمن يصطفيه من عباده.

فاطِرُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ مِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11).

آية عديمة النظير من محكم القرآن ترجع إليها ما تشابه منه في كيان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 132

الألوهية، تستأصل كل مماثلة بين اللَّه و سواه، في ذات او صفات او افعال، تبين خلقه عنه مباينة كينونة في ذات و صفة، و أنه باين عن خلقه و خلقه باين عنه، لا هو في خلقه و لا خلقه فيه.

فالمثل هو الشبيه أيا كان و إن بعيدا شبها واحدا في مليارات او اللّانهايات، فعالم الخلق أشباه في أشباح مهما اختلفت الصور و الماهيات، حيث المادة لزامها الذاتي التركّب و التغير و الحركة و الزمان أيا كان و ايّان، و اللَّه مجرد عن المادة و الماديات فلا يشبهها في ذوات او صفات ام ماذا إلا في مقام تحبير اللغات دون الحقيقة و الذات،

«سبحان من لا يحد و لا يوصف‏ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين عن اصول الكافي سهل عن ابراهيم بن محمد الهمداني قال: كتبت الى الرجل (عليه السلام) ان من قبلنا من مواليك قد اختلفوا في التوحيد فمنهم من يقول جسم و منهم من يقول صورة فكتب بخطه: سبحان ...

أقول: هنا العجب العجاب من التفاسير الاثرية بين الفريقين، من كثرة أحاديث الشيعة الإمامية حول الآية كما نذكر طرفا منها، و قلة او عدم اثر من الأحاديث حول نفي المماثلة بين الله و خلقه من السنة و هذا مما يحير العقول كيف لم يرووا و لا حديثا واحدا يشابه آية نفي المثل عن الله تعالى، سبحانه و تعالى عما يصفون! و

عن امير المؤمنين (عليه السلام) انه قال له رجل: اين المعبود؟ فقال (عليه السلام) لا يقال له: اين؟ لأنه أين الأينية، و لا يقال له: كيف؟ لأنه كيف الكيفية، و لا يقال له: ما هو؟ لأنه خلق الماهية. سبحانه من عظيم تاهت الفطن في تيار أمواج عظمته و حصرت الألباب عند ذكر أزليته و تحيرت العقول في ا فلاك ملكوته.

و

قال (عليه السلام): اتقوا ان تمثلوا بالرب الذي لا مثل له او تشبهوه بخلقه او تلقوا عليه الأوهام او تعملوا فيه الفكر و تضربوا له الأمثال او تنعتوه بنعوت المخلوقين فان لمن فعل ذلك نارا.

و

عن الإمام الرضا (عليه السلام) من شبه الله بخلقه فهو مشرك و من وصفه بالمكان فهو كافر ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 133

«لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ» و ان كان له مثل، و كل شي‏ء مثل له من أدنى و أعلى: «وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى‏ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (16: 6) «وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى‏ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (30: 27) فمثله مستحيل ذاتيا و جعليا، و مثله كافة الكائنات جعليّا على درجاتها و كما يعنيه‏

الحديث القدسي‏ (عبدي أطعني حتى أجعلك مثلي ..) «1»

و هذا من المثل الأعلى الذي يحصل بالعبودية، فمن المثل للَّه ما هو حاصل بأصل الخلق، فإنه الآية، و في كل شي‏ء له آية تدل على أنه صانع، و منه ما يحصل في تكامل الخلق بما يسعى كالعبودية، فإنها جوهرة كهنها الربوبية، أن العبد يصل في مراتب العبودية و المعرفة إلى درجة يرى بفقره غنى اللَّه، و بجهله علم اللَّه، و بعجزه قدرة اللَّه، فالكنه المعرفي للعبودية عرفان الربوبية.

هذه الآية تنفي أية مماثلة بينه و بين خلقه استغراقا لهذا النفي دون إبقاء، و قد يعني ما تعنيه «خارج عن الحدين حد التعطيل و حد التشبيه»: موجود لا كوجوداتنا، قادر لا كقدراتنا، عالم لا كعلومنا، حي لا كحياتنا، فالخلق بذاته و أفعاله و صفاته كله صفات سلبية عن ذاته و أفعاله و صفاته تعالى، فلا توجد ذاته و لا صفاته الثبوتية في خلقه أيا كان،

«إذا كان الشي‏ء من مشيته فكان لا يشبه مكونه» «2»

و على الخلق أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

عن علي بن أبي حمزة قال‏ قلت لأبي عبد اللَّه (عليه السلام) سمعت هشام بن الحكم يروي عنكم ان اللَّه جل و عز جسم صمدي نوري معرفته ضرورة يمن بها على من يشاء من خلقه، فقال (عليه السلام): سبحان من لا يعلم كيف هو الا هو ليس كمثله شي‏ء و هو السميع البصير لا يحد و لا يحس و لا يجس و لا يمس و لا يدركه الحواس و لا يحيط به شي‏ء لا جسم و لا صورة و لا تحفيظ و لا تحديد.

(1). فمن يقرأه «مثلي» فهو جاهل بمحكم القرآن، و من يتردد فيه و في «مثلي» يتجاهل بمحكم القرآن و إليكم أحاديث حول عدم التشبيه ماضية و آتية

(2) مصباح الشريعة خطبة مروية عن امير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 134

يعرفوا «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ» كما عليهم عرفان وجوده و وحدته- لعلل شتى يجمعها: فساد الخلق و إبطال الربوبية، لو لم يعرف بعدم المثل‏ «1» و لا شي‏ء فيه من جوهرية اللَّه شي‏ء» «2».

و ترى أن اللَّه شي‏ء تنفى عنه مماثلة كل شي‏ء؟. أجل إنه شي‏ء لا كالأشياء: «قُلْ أَيُّ شَيْ‏ءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ ..»

(6: 19).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين عن عيون اخبار الرضا (عليه السلام) في باب العلل التي ذكر الفضل بن شاذان في آخرها انه سمعها من الرضا (عليه السلام) مرة بعد مرة و شيئا بعد شي‏ء: فان قال: فلم وجب عليهم الإقرار بأنه ليس كمثله شي‏ء؟

قيل: العلل: منها ان يكونوا قاصدين نحوه بالعبادة و الطاعة دون غيره غير مشتبه عليهم امر ربهم و صانعهم و رازقهم، و منها انهم لو لم يعلموا انه ليس كمثله شي‏ء لم يدروا لعل ربهم و صانعهم هذه الأصنام و رازقهم هذه الأصنام التي نصبها لهم آباؤهم و الشمس و القمر و النيران إذا كان جائزا ان يكون عليهم مشتبه، و كان يكون في ذلك الفساد و ترك طاعاته كلها و ارتكاب معاصيه كلها على قدر ما يتناهى من اخبار هذه الأرباب و أمرها و نهيها، و منها انه لو لم يجب عليهم ان يعرفوا انه ليس كمثله شي‏ء لجاز عندهم ان يجري عليه ما يجري على المخلوقين من العجز و الجهل و التغير و الزوال و الفناء و الكذب و الاعتداء و من جازت عليه هذه الأشياء لم يؤمن فناءه و لم يوثق بعد له و لم يحقق قوله و امره و نهيه و وعده و وعيده و ثوابه و عقابه و في ذلك فساد الخلق و ابطال الربوبية.

و

في البحار 3: 287 عن الأمالي للشيخ الطوسي بسند عن محمد بن سماعة قال: سأل بعض أصحابنا الصادق (عليه السلام) فقال: اخبرني اي الأعمال أفضل؟ قال:

توحيدك لربك، قال: فما أعظم الذنوب؟ قال: تشبيهك لخالقك.

(2)

البحار 3: 392 عن رجال الكشي بسند عن يونس بن بهمن قال‏ قال لي يونس:

اكتب الى أبي الحسن (عليه السلام) فأسأله عن آدم هل فيه من جوهرية اللَّه شي‏ء؟

قال: فكتب اليه فأجاب (عليه السلام): هذه المسألة مسألة رجل على غير السنة، فقلت ليونس فقال: لا يسمع ذا أصحابنا فيبرءون منك، قال: قلت ليونس يتبرءون مني او منك؟!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 135

إنه شي‏ء بحقيقة الشيئية و خلقه شي‏ء بمجازها اللّاحقيقية، و الشي‏ء اللَّه- هو لا سواه- خالق للشي‏ء المألوه: «قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ» (13: 14) إذا يجوز أن يقال اللَّه شي‏ء، أن‏

تخرجه عن الحدين حد التشبيه و حد التعطيل» «1»

أو ترى إذا كان اللَّه شيئا لا كالأشياء، فهل يصح القول (إنه جسم لا كالأجسام) «2» أقول: كلّا! حيث الشي‏ء منه جسم و منه مجرد عن الجسم، فهو شي‏ء لا كالأشياء يعني شي‏ء مجرد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 561 ح 29 عن التوحيد باسناده الى الحسين بن سعيد قال: سال ابو جعفر (عليه السلام) يجوز ان يقال للَّه انه شي‏ء؟ فقال: نعم تخرجه ...

(2)

البحار 3: 292 عن امالي الصدوق ابن الوليد عن الصفار عن ابن معروف عن علي بن مهزيار قال: كتبت الى أبي جعفر الثاني (عليه السلام) جعلت فداك اصلي خلف من يقول بالجسم .. فكتب: لا تصلوا خلفهم و لا تعطوهم من الزكاة و ابرءوا منهم برأ اللَّه منهم.

و فيه 302 ح 37 باسناده عن محمد بن حكيم قال وصفت لابي ابراهيم (عليه السلام) قول هشام الجواليقي و حكيت له قول هشام بن الحكم انه جسم فقال: ان اللَّه لا يشبهه شي‏ء، اي فحش او خناء أعظم من قول من يصف خالق الأشياء بجسم او صورة او بخلقة او بتحديد و أعضاء تعالى اللَّه عن ذلك علوا كبيرا.

و

فيه 305 ح 43 عن عبد الملك بن هشام الخياط قال‏ قلت لأبي الحسن الرضا (عليه السلام) اسألك جعلني اللَّه فداك قال (عليه السلام): سل يا جبلي عماذا تسألني فقلت جعلت فداك زعم هشام بن سالم ان للَّه عز و جل صورة و ان آدم خلق على مثال الرب فيصف هذا و يصف هذا أو أومأت الى جانبي و شعر رأسي و زعم يونس مولى آل يقطين و هشام بن الحكم ان اللَّه شي‏ء لا كالأشياء و ان الأشياء بائنة منه و انه بائن من الأشياء و زعما ان اثبات الشي‏ء ان يقال: جسم فهو جسم لا كالأجسام شي‏ء لا كالأشياء ثابت موجود غير مفقود و لا معدوم خارج عن الحدين حد الابطال و حد التشبيه فباي القولين أقول؟ قال: فقال ابو عبد اللَّه (عليه السلام) أراد هذا الإثبات و هذا شبه ربه تعالى بمخلوق تعالى اللَّه الذي ليس له شبه و لا مثل و لا عدل و لا نظير و لا هو بصفة المخلوقين لا تقل بمثل ما قال هشام بن سالم و قل بما قال مولى آل يقطين و صاحبه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 136

سرمدي لا كالأشياء المادية الحادثة، و لكنما الجسم أيا كان يشبه سائر الأجسام في الجسمانية تركبا و تغيرا و حركة و زمانا، و إن اختلف عنها في العوارض غير الأولية، ف «جسم لا كالأجسام» لا تنفي عنه المماثلة في أصل الجسمانية و إنما في البعض من ماهياتها.

ثم ترى لماذا «كمثله» لا «مثله»؟ فهل إن الكاف زائدة؟ و لا زائدة على المثل في القرآن البالغ آياته (75) و إن كانت على المثل في (13) من (63) حيث المعنيان يختلفان! فهذه قولة زائدة ان الكاف هنا زائدة!.

أم تعني ما تعنيه الوارد على المثل من المشابهة؟ إذا فهي تعني نفي أية مشابهة عن مثله تعالى لا عنه نفسه، إثباتا لند له مثله، و نفيا عن مماثلة اي شي‏ء لمثله! و قد يجاب ان هناك حقيقة و افتراضا، فالحقيقة هي انتفاء المشابهة في هذا البين، و الافتراض أنه لو كان له مثل فلا مثل لمثله، و لكنه ليس له مثل، مبالغة في انتفاء المثل، حال أنه لو كان له مثل واحد لجاز تعدد الأمثال، و الآية في نفيها كمثله تحيل هذا الجائز على افتراض أن يكون له مثل‏ «1».

أو أن الكاف تأكيد من وجه آخر لنفي المثل، «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ» إنما تنفي واقع المماثلة، التي قد يظن أنها المماثلة التامة فلا تنفي غيرها، و موقف الكاف استئصال أية مماثلة بينه و بين كل شي‏ء، أن لا مثيل له و لا ناقصا كواحد او كسر لغير النهاية في مليارات أو اللّانهايات من كيانه سبحانه.

و علّ الجمع بين الوجهين أجمل، مع العلم أن الكاف ليست زائدة على أية حال.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما يقال فلان لا مثيل لظله و ان لم يكن له ظلّ نفيا مبالغا لأية مماثلة، مستأصلا كافة جذورها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 137

و ضمير الغائب في «كمثله» و إن كان راجعا إلى الذات، و لكنه ذات فاطر الأرض و السماوات بما فطر و جعل و ذرء، فكما ليس كمثله شي‏ء في ذاته كذلك ليس كمثله شي‏ء في صفاته ذاتية و فعلية، فنفي المماثلة عن ذاته و فعاله، نفي مضاعف عن صفات ذاته، فصفات الذات هي عين الذات، فهي إذا في حكم الذات، و صفات الفعل صادرة عن صفات الذات، فنفي المماثلة فيها نفي- بأحرى- عن صفات الذات.

«سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ»: سبحانه عما يصفون من صفات لم يصف به نفسه، و سبحانه من صفات وصف به نفسه و هم يعنون بها مثل ما يعنون في أنفسهم‏ «إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» حيث يصفونه بما وصف به نفسه، قاصدين جهة السلب المعلومة، و تاركين جهة الإثبات المجهولة، فهم يسبحونه بحمده دون أن يحمدوه ناظرين إلى جهات الإثبات بالحيطة أو الإشارة العلمية، فليس للخلق من صفات اللَّه الثبوتية إلّا أنه «خارج عن الحدين حد التعطيل و حد التشبيه». ف

«للناس في التوحيد ثلاثة مذاهب: نفي و تشبيه و إثبات بغير تشبيه، فمذهب النفي لا يجوز، و مذهب التشبيه لا يجوز لان الله لا يشبهه شي‏ء، و السبيل في الطريق الثالثة: إثبات بلا تشبيه» «1»

: «خارج عن الحدين حد التعطيل وحد التشبيه».

«لا له مثل فيعرف بمثله» «2»

حيث‏

«حد الأشياء كلها عند خلقه إياها إبانة لها من شبهه و إبانة له من شبهها» «3»

«لا يخطر ببال أولى الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته لبعده من أن يكون في قوى المحدودين لأنه خلاف خلقه» «4»

انه‏

«غير معقول و لا محدود، فما وقع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 561 ح 28 من كتاب التوحيد باسناده الى محمد بن عيسى بن عبيد الله انه قال قال الرضا (عليه السلام): ..

(2- 3- 4) المصدر عن كتاب التوحيد خطب ثلاث لعلي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 138

و همك عليه من شي‏ء فهو خلافه لا يشبهه شي‏ء و لا تدركه الأوهام كيف تدركه الأوهام و هو خلاف ما يعقل و خلاف ما يتصور في الأوهام إنما يتوهم شي‏ء غير معقول و لا محدود» «1».

فالقول إن لنا وجودا كما اللَّه موجود، فهذه مماثلة في الذات، ثم لنا صفات العلم و القدرة و الحياة كما للَّه، ثم لنا أفعال كما للَّه أفعال، مهما اختلف الخلق عن الخالق في الكمال و النقص، إلّا أن المماثلة كائنة و إن في شي‏ء من ذات او صفات او أفعال؟! إنه هراء جارفة و هرطقة خارفة!.

حيث إن هذه مماثلة في التعبير، و أما المعبر عنه هنا و هناك ففي غاية المباينة، فلا يعنى من «الله واحد» إلا أنه أحدي المعنى و الإنسان واحد ثنويّ المعنى: جسم و عرض و بدن و روح، فإنما التشبيه في المعاني لا غير «2» كما لا يعنى من «الله موجود» وجود كوجود الخلق فإنه تشبيه في الذات، و إنما يعنى: أنه ليس بمعدوم، ثم لا نفهم من وجوده شيئا، و كذلك علمه و حياته و قدرته، فلا نفهم منها إلّا نفي الجهل و الموت و العجز، لا النفي المطلق، فلا تعني وجوده و صفاته فيما نفهم إلا أنه «خارج عن الحدين حد التعطيل وحد التشبيه».

.. «وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»: سميع لا بآلة بصير لا بأداة، خارج عن تصرف الحالات‏

«سميع لا بأذن، بصير لا ببصر» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر باسناده الى عبد الرحمن بن أبي نجران قال: سألت أبا جعفر الثاني عن التوحيد فقلت: أتوهم شيئا؟ فقال: نعم غير معقول ..

(2) البحار 30: 304 في جواب سؤال اليهودي عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

(3)

نور الثقلين 4: 561 ح 30 في عيون الاخبار في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) من الاخبار في التوحيد حديث طويل يقول فيه (عليه السلام): و قلنا إنه سميع لا يخفى عليه أصوات خلقه ما بين العرش الى الثرى من الذرة الى اكبر منها في برها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 139

فالآيات التي تحمل صفات إلهية تشابهها صفات خلقية تتجرد عما للخلق إلى ما يخص الخالق كالسميع- البصير- على العرش استوى أم ماذا؟

و امّا التي تحمل صفات إلهية خاصة فلا مثيل لها في التعبير من صفات الخلق، كالسرمدي- الأزلي- عليم قدير بكل شي‏ء أم ماذا؟

و كذلك التي تحمل صفات خلقية لا تشابه الإلهية و لو في التعبير كالماشي- الراكض- الآكل- الشارب أم ماذا؟

إن الصفات من النوع الثاني و الثالث لا تشابه فيها من الخالق للخلق و لا من الخلق للخالق، و إنما النوع الأول هي المتشابهة من الصفات التي لا بد من تجريدها عما لا يليق بساحة الربوبية: فيا

«إلهي تاهت أوهام المتوهمين، و قصر طرف الطارفين، و تلاشت أوصاف الواصفين، و اضمحلت أقاويل المبطلين عن الدرك لعجيب شأنك أو الوقوع بالبلوغ إلى علوك، فأنت الذي لا تتناهى و لم يقع عليك عيون بإشارة و لا عبارة، هيهات ثم هيهات يا أولي يا وحداني يا فرداني، شمخت في العلو بعز الكبر، و ارتفعت من وراء كل غورة و نهاية بجبروت الفخر» «1».

لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (12)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و بحرها و لا يشتبه عليه لغاتها فقلنا عند ذلك: سميع لا بإذن، و قلنا: انه بصير لا ببصر، لأنه يرى اثر الذرة السمحاء (السوداء) في الليلة الظلماء على الصخرة السوداء و يرى دبيب النمل في الليلة الدجنة (الظلمة) و يرى مضارها و منافعها و اثر سفادها و فراخها و نسلها فقلنا عند ذلك: انه بصير لا كبصر خلقه.

(1). البحار 3: 298- التوحيد للصدوق عن الإمام الحسن بن علي بن محمد (عليه السلام) انه قال: الهي ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 140

آية نفي المثل تتوسط آية المقاليد و آيات الولاية في التكوين و التشريع، فالمماثلة المنفية لا تختص بالذات و صفات الذات، بل و صفات الفعل كلها من ولاية و حكم و خلق و رزق أم ماذا، فالمماثلة منفية عن صفات الفعل كما عن الذات و صفات الذات.

و القلد هو الفتل فالمقلاد آلة الفتل و سببه، فالمقاليد هي وسائل و آلات الفتل و التطويق، من علم و قدرة و حكمة محيطة بالسماوات و الأرض كأنها قلادة لعنق الكون لا تدعه يتلفت شماسا دون حراس و اكتراس.

له هذه المقاليد لا لسواه. «اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَكِيلٌ. لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» (29: 63) .. مقاليدها غيبا و شهادة كمفاتيحها: «وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ ..» (6:) 59) و من فروع هذه الحيطة الربانية «يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ».

ليس بسط الرزق و قدره بمحاولة زائدة أو ناقصة منا فحسب، و لا جزافا دونما حكمة من اللَّه، فرب محاول كثيرا لا يبسط في رزقه، و رب محاول قليلا أو معاطل يرزق كثيرا، و إن كان يرزق كل قدر سعيه، و لكن الرزق المبسوط هو فوق قدره، و من قدر عليه رزقه يؤتاه قدر سعيه، أو و أقل منه حين تقتضي الحكمة، فلا تسوية في الرزق مهما كان السعي سواء أو لا سواء: «وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ» (42: 37) فاللَّه يقبض لحكمة و يبسط لحكمة: «وَ اللَّهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (2: 245) «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ وَ فَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ» (13: 36) «أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 141

وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (30: 37) «قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (34: 36) و «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ»:

فمحاولة التسوية التامة و إزالة الطبقية المالية أم ماذا، إضافة إلى أنها خلاف العدل حيث الاستعدادات فالمساعي فالاستحقاقات ليست على سواء، إنها خلاف الإرادة و الحكمة الإلهية فلا تكون!.

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13).

هذه الآية توحّد الدين الحق و تخمّس الشرائع إليه، و في الحق إنها تحقق حقائق عدة عديمة النظير أو قليلته في الذكر الحكيم.

منها أن دين اللَّه واحد و الشرائع إليه خمس، و قد توحيه‏ «.. لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ‏ «1» شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً. وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» (5: 48) «2» و قد يعبر عن الدين بالأمر حيث الدين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «منكم» هنا كافة المكلفين طوال تاريخ الرسالات لا الأمة الإسلامية إذ ليست لها إلا شرعة واحدة هي الإسلام.

(2) ان الدنيا دار بلاء و ابتلاء و الدين ابتلاء، و اختلاف الشرعة ابتلاء، و على المسلم للَّه في هذا البين ان يستسلم لشرعة اللَّه دون ان يثّاقل الى ما تعوّد عليه من شرعة عنصرية أو إقليمية أم ماذا! «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ» و هي شرعة اللَّه الجديدة بعد التي مضت، استبقوا في الحصول عليها تسابقا في تصديقها دون تباطئ، كما و هي داخل الشرعة ان تتسابقوا في تعلم خيراتها و التأدب بها و التخلق و التطبيق و نشرها، «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 142

هو الطاعة و هي ائتمار الأمر: «وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى‏ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» (45: 18) كما و فيما يهدد و يندّد بالمشركين يربط أيّة شرعة من الدين بإذن اللَّه: «أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ..» (42: 21). و في آية الشرعة تشريف لهؤلاء الخمسة من الرسل الذين دارت عليهم الرحى و كما في آية الميثاق: «وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً. لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (33: 8) و هؤلاء هم أولوا العزم من الرسل: «فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ» 46: 35) «1».

و قد سبقت إلى هذه الوحدة الجذرية الإشارة في مطلع السورة:

«كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» إذ كانت إيحاء إجماليا إلى وحدة المصدر و الصادر و وحدة المنهج و الناهج و الاتجاه في الدين كل الدين، و هنا يفصل ما أجمله من قبل.

«شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى ..» توحي فيما توحي أن هذه الشرائع الخمس مثل بعض مصدرا، و كذلك صادرا، في الجذور و كثير من الفروع، فالشرعة الإسلامية هي شرعة نوح و إبراهيم و موسى و عيسى مهما اختلفت في ظواهر طقوس أم ماذا؟. حقيقة الأصل الواحد و النشأة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

جَمِيعاً» فاللَّه واحد و دينه واحد و الرسالة لهذا الدين الواحد واحدة و أنتم امة واحدة مهما اختلفت الشرائع الى هذا الدين الواحد.

(1). راجع ج 26 من الفرقان ص 73 تفسير آية اولي العزم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 143

الضاربة في أعماق الزمان و أصوله، فكلّ من حملة الشرائع الخمس امتداد رسالي لما سلفه، و كما أن الكل لهم شرائع من دين واحد، إذا ففيم يتقاتل و يتضارب أتباع كل شرعة مع الأخرى أو و مع شركائها في نفس الشرعة، و لماذا لا يتضامّ الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التي تحملها رسالة واحدة إلى إله واحد، و أخيرا لماذا لا يجتمع الكل تحت الراية المحمدية التي تشمل الدين كله و الشرائع كلها؟ و هي هي الراية التي قدم لها و لرفعها الأربعة الأوّلون؟!.

فهنالك دين و أمر واحد، و هنا و هناك شرعة و شرعة إلى خمس من الدين الأمر، فلأن اللَّه واحد فدينه و أمره واحد و رسالته كذلك واحدة و المكلفون كذلك أمة واحدة لهذه الرسالة الواحدة مهما اختلفت قشور و صور من شرعة وجاه شرعة: «يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ. فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ» (23:) 57).

إن الشرعة هي الطريقة الواضحة البينة حيث توصل متشرعها إلى غايته القصوى و هي دين اللَّه و أمره، أمره و الائتمار به، و كما الدين هو للَّه و من اللَّه كذلك المشرع الشرعة إليه هو اللَّه، و كما اختلاف العبادات أم ماذا صوريا في شرعة واحدة ينحو منحى هذه الشرعة، كذلك الاختلاف بين شرعة و أخرى لا ينحو إلّا منحى دين واحد هو الأمّ للشرائع كلها، فمهما اختلفت الصور ضرورة أو ابتلاء فالجذور واحدة هي الطاعة لأمر اللَّه.

و ترى من هم المخاطبون في‏ «شَرَعَ لَكُمْ» أهم الحاضرون زمن الوحي؟ و هم شرذمة قليلة من المكلفين طوال الزمن! و ليست الشرعة منهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 144

إلى سواهم! فإنما هي للعالمين، إذا ف «كم» هم أم القرى و من حولها دون اختصاص بالحاضرين، و إنما الخطاب صادر من مصدر رب العالمين، فوارد- كقضية حقيقية- مورد العالمين أجمعين، ضاربا إلى اعماق الزمان و المكان أيا كان منذ بزوغه إلى يوم الدين.

ثم و لماذا «شرع» المفرد الغائب- للَّه- و «لكم» الحاضر للعالمين؟

علّه لان وحي الشرع غائب عن العالمين، و أما العالمون فعليهم الحضور علميا و عقائديا و أخلاقيا و تطبيقيا للوحي الشرع، فهو غائب الصدور و حاضر الورود، ثم و لأن في خطابهم دون الآخرين تشريفا للأمة المحمدية على الأمم بما أن شرعتهم برسولهم أشرف من سواها و سواه.

و إذ توحي غيبة الفعل «شرع» بغياب الوحي، فهل توحي‏ «وَصَّى بِهِ نُوحاً» أن وحي الشرعة إلى نوح كان وحيا غائبا عنه؟ فكيف إذا هو نبي!.

إن الغيبة هنا غير الغيبة هناك، ففي‏ «شَرَعَ لَكُمْ» غيبة الوحي حقيقة إذ لم يوح القرآن إلى العالمين دونما وسيط، و أما في‏ «ما وَصَّى بِهِ نُوحاً» فوحي حاضر إلى قلب نوح (عليه السلام) و لكنه لبساطته أمام سائر الوحي إلى الاربعة الآخرين، و علوّه لهم دونه، كأنه من غائب الوحي، كما و أن سائر الوحي و جاه الوحي إلى محمد كأنه ليس وحيا، و إنما هو وصية حال أن الكل وحي حيث الكل أنبياء عظام عليهم دارت الرحى.

هنا نستوحي من مثلث التعبير: «ما وصى- و الذي أوحينا إليك- و ما وصينا» درجات ثلاث لوحي الشرعة إلى اولى العزم الخمسة، فأوسطها أعلاها و أولاها أدناها «1» و آخرها أوسطها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تمتاز صيغة التعبير عن الوحي الى محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على نوح بميزات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 145

في سائر القرآن حيث يذكر الوحي إلى أصحابه الخصوص إنما يؤتى بصيغة الوحي حيث المقصود أصله دون درجاته بالقياس إلى بعض: «إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى‏ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِيسى‏ وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَيْمانَ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً. وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى‏ تَكْلِيماً» (4: 163) حيث جمع بين سائر الوحي إلى سائر المرسلين لأن المقام مقام استعراض أصل الوحي إلى أصحابه لا التفاضل فيه.

و أما آية الشرعة حيث تبين الشرائع الخمس إلى أولي العزم الخمسة فهي تستعرض في إشارات مراتب الوحي، فتعبّر عن وحي القرآن بالوحي، ثم عن سائر الوحي إلى الأربعة الآخرين بالوصية.

فالوصية هي التقدم إلى الغير بما يعمل مقترنا بوعظ، و هي لم تستعمل في سائر القرآن في الوحي اللهم إلّا بدائيا كما أوحي إلى المسيح في المهد صبيا: «وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا» (19: 31) حيث المسيح لم يكن حينذاك نبيا و إنما نبئ بهذا ذودا عن أمه الطاهرة و بشارة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اربع:

1- «الذي» بدلا عن «ما» دلالة على ضخامة الوحي على محمد دونه على نوح.

2- حضور الوحي في «إليك» و غيابه في «وصي».

3- جمعه في «أوحينا» و إفراده في «وصى».

4- لفظة الوحي في «أوحينا» و الوصية في «وصى».

كما تمتاز صيغة الوحي على الثلاثة الآخرين عن نوح بالجمع و الحضور في «أوحينا» و ان كان حضور «نا» أوفى من حضور «إليك» فيمتاز إذا وحي محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على الثلاثة ب «الذي» «أوحينا» «إليك» حضوران في أوحينا إليك إضافة إلى الوحي و الذي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 146

بنبوته الآتية، إذا فهذه الوصية كانت وحيا قبل الرسالة، و علّها كما أوحي إلى أم موسى أم ماذا؟.

هذا! ثم اللهم إلّا آيتنا هذه حيث قارنت بين الوحي على محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)- و هو في أعلى القمم- و بين الوحي إلى سائر أولي العزم من الرسل، فعبرت عن الأول بالوحي‏ «الَّذِي أَوْحَيْنا» و عن الثاني بالوصية «وصى- وصينا» إيحاء بمدى البون بين الوحين، و كما عبر عن الوحي على أولهم «نوح» (عليه السلام) بالمفرد الغائب و عن الآخرين بالجمع الحاضر إيحاء بالبون بين هذين أيضا كما بينهما و بين الأول.

«شَرَعَ لَكُمْ‏ .. أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» إنه ما شرع هذه الخمس حتى تتشجروا متفرقين، و إنما «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ» بكل شرعة في دورها «وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً .. لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ ..» (5: 48) فلكل شرعة دور يجب على المكلفين كافة إتّباع الشرعة الحاضرة، لا متابعة الغابرة تعّودا عليها أو تعصبا عنصريا أم ماذا؟ فإن إقامة الدين في كل دور هي إقامة طاعة اللَّه في أمره الحاضر، في شرعته الحاضرة، فالتصلّب على الغابرة عصيان للأمر و تضييع للدين.

فالتفرق في الدين: إلى هود و نصارى و مسلمين راحة للمشركين، حيث يروننا أمثالهم في تفرق الدين، متضادين متفرقين أيادي سبا كما هم، و «كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ» من وحدة الدين! و ترى المخاطبون في‏ «أَقِيمُوا الدِّينَ» هم المسلمون؟ و هم مسلمون لا يتفرقون! ام هم عامة المكلفين؟ فإقامتهم للدين أن يقيموه في شرعته، أن يتبع الكل في كل دور شرعته الواحدة، فالترسب على شرعة سابقة نكرانا للّاحقة تضييع للدين الأمر و الطاعة، فإنهما الآن في الشرعة الحاضرة دون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 147

الغابرة «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ» (3: 19) و قضية التسليم لأمر اللَّه و طاعته السليمة هي الاجتماع على شرعة حاضرة للدين دون اختلاف.

فليس إقامة الدين في إقامة أصوله، و الفروع متشجرة، حيث الدين يعم الأصول و الفروع، فعلى المكلفين عامة أن يقيموا الدين كله في الشرعة الحاضرة: أن يتضامّ الجميع تحت راية واحدة: نوح ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد صلوات اللَّه عليهم أجمعين، و لا يتفرقوا في الدين، حيث التفرق في الشرائع تفرق في الدين الطاعة الى المعصية.

«كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ» يا محمد! من وحدة الدين و دينك الموحد بين صفوف المكلفين، سواء أ كانوا مشركين و ثنيين أم كتابيين متحزبين: «.. وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (30: 32).

كبر على المشركين الأولين أن ينزل عليك القرآن و لا ينزل على رجل من القريتين عظيم! كبر عليهم ان ينتهي سلطان الشرك المفرّق الى سلطان الإسلام الموحّد!: «أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشي‏ء عجاب» (88: 5).

كبر عليهم القول: إن آباءهم ماتوا على ضلالة الجاهلية فأخذتهم العزة بالإثم! ثم كبر على المشركين الآخرين، على المتعصبين المتعنتين من أهل الكتاب، أن ينزل هذا الدين على رجل إسماعيلي، لا إسرائيلي، فتضمحل السلطات الإسرائيلية العنصرية، و السلطات المسيحية القومية أم ماذا.

و لكن رغم أولاء و هؤلاء و أضرابهم‏ «اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 148

إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» و قد اجتبى محمدا (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و اصطفاه لهذه الرسالة السامية، و ليفتح الطريق الأخيرة و الشرعة الأبدية الى الدين المتين، و يهدي به اللَّه من ينيب.

وَ ما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14).

«وَ ما تَفَرَّقُوا» في الدين: ابراهيمين- هودا- نصارى أم ماذا- رغم وحدة الدين: الأمر و الطاعة «إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ» بوحي الكتاب أن كل شرعة بعد أخرى هي شرعة من ذلك الدين، تتفق مع بعض في جذور واحدة، و الشارع لا يرتضي في كل دور من الخمس إلّا شرعة واحدة.

فما تفرق الذين أوتوا شرعة من الدين إلّا بغيا بينهم، اللّهم إلا القاصرين الأتباع منهم: «وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ» (98: 4) «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْ‏ءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ» (6: 159).

إن التفرق في الدين شرك و تمزّق من سنة المشركين، و الواجب الجماهيري لعامة المكلفين إقامة الوجه للدين فطرة و شرعة «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (30: 32).

إن دين الفطرة و دين الوحى الشرعة متجاوبان في تلائم تامّ، فالتحزب في شرعة الدين تخلّف عن دين الفطرة و دين اللَّه: دين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 149

التكوين و دين التدوين المكتوبين بقلم الربوبية الصادقة، إذا فهو في الحق شرك برب العالمين!.

و إذا كان التفرق في شرائع الدين شركا رغم تفرقها في قسم من طقوسها، فليكن التفرق في شرعة واحدة، تشجرا في مذهبيات و تشاجرا فيها رغم وحدة الشرعة، ليكن هذا التفرق إلحادا إذا كان بغيا:

«وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا. (103). وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» (3: 105).

فهنالك تفرق عن دين اللَّه شركا أو إلحادا في اللَّه، ثم تفرق في دين اللَّه تحزبا في شرعة و شرعة هودا أو نصارى أم ماذا، ثم تفرق في شرعة اللَّه كما تفرقوا في كل شرعة، فاليهود إلى فرق و النصارى إلى فرق و المسلمون إلى فرق، و كل هذه التفرقات محكومة في ميزان اللَّه.

إن للدين حملة أولين و متحملين آخرين، و في الأكثرية الساحقة يختلف تفرق الآخرين عن الأولين، فالحملة الأولون- في الأكثر- لا يختلفون و يتخلفون إلا بغيا بينهم: ظلما قاصدا بالنسبة لبعض في شرعة، أو لآخرين في شرعة أخرى، حسدا بينهم و ظلما للحقيقة و لأنفسهم، حيث تفرقوا أيادي سبا تحت تأثيرات الأهواء و الشهوات.

«وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى»: «وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» (3: 36) «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» بما تفرقوا، أن يهلكهم بعذاب الاستئصال، و فيما أهلك قرونا ليس لمجرد الاختلاف، و إنما للتطرف في الترف و التخلّف عن شرعة اللَّه لحدّ لا يتحمله المجتمع.

هم أولاء حملة أوّلون عليهم ما عليهم و لهم ما لهم، و لكنما المتحملون الآخرون‏ «الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 150

أولئك اختلفوا على علم و يقين بغيا بينهم، ثم الذين ورثوا الكتاب اختلفوا على شك مريب، و لا يصدق هذا الفرق بين الأولين و الوارثين إلّا في كتابات الوحي قبل القرآن، حيث حرفها الأولون على علم، فتفرق فيها الوارثون على شك مريب، و هو المسنود إلى ما يعتبر كحجة «1».

فالتفرق الحاصل عن شك مريب أهون ضلالا من التفرق عن شك غير مريب أو عن علم، و إن اشتركت في ضلال، و لكن اين ضلال من ضلال! ثم التفرق الحاصل قصورا دون تقصير لا عن علم و لا شك كما يحصل عند المجتهدين إذا كان عن اجتهاد صحيح يتبنى الكتاب أصلا و السنة فرعا، هذا التفرق ليس محظورا و لا يفرّق حيث الكل يستنبطون أحكام اللَّه من كتاب اللَّه و سنة رسول اللَّه، (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) للمصيب أجران و للمخطئ اجر واحد، فلا عليهم و لا لهم أن يتباغضوا، و انما عليهم التشاور لكي ينقصوا من الخلافات ثم يرجع من سواهم إلى الأكثر بعد التشاور، كمرجعية واحدة هي الأكثرية بين المتشاورين.

و آية التفرق إنما تندّد بالتفرق بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، ثم الذين ورثوهم فهم في شك مريب، و أما العلماء الربانيون المسلمون فهم لا يجتهدون على شك مريب و لا تخلفا عن علم بغيا بينهم، و إن كان بين من يجتهد مقصّرون حيث لا يستندون كما يجب إلى كتاب اللَّه، و فيما تعودوا على ترك الكتاب اعتمادا على الأقوال و الروايات فأصبحوا قاصرين في الرجوع الى كتاب اللَّه فهم أيضا مقصرون في قصورهم تشملهم على أقل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الشك المريب ما يجعل الإنسان في ريب بما فيه من مشكك في ظاهر الحجة كآيات توراتية او انجيلية دخيلة او محرفة يحسبها وارث الكتاب من الوحي، و الشك غير المريب ما لا يستند الى حجة مشككة، كشك المتجادل العارف بالحق مثل الأولين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 151

تقدير «وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ» إذا لم تشملهم- و لا سمح اللَّه- «وَ ما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ»! و إن العقيدة هي الصخرة الصمّاء الصلبة التي يقف عليها صاحبها، فلا مأخذ لها إلّا قاطع البرهان دون شك مريب أو غير مريب، و لا يزعزعها أقاويل الأولين أم من ذا من القائلين.

المسلمون الذين يعيشون الوحي الأخير: القرآن العظيم، أولئك هم دوما من الحملة الأولين، إذ لا تحرّف في القرآن و لا في حرف او نقطة او اعراب ام ماذا، فقد جاءهم علم خالص و حجة بينة كافية شافية لا تدع لهم مجالا لشك مريب أم غير مريب، و لا لأي تفرق فيما الحجة من الكتاب قاطعة لا ريب فيها، و لو أنهم تبنّوا القرآن كأصل أصيل لزال الكثير من خلافاتهم و لكن! ...

فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15).

آية يتيمة عديمة النظير تأمر صاحب هذه الرسالة السامية إلى الدعوة و الاستقامة كما امر، و إلى عشرة كاملة من مناهي و أوامر هامة تتبناها الرسالة الإسلامية كأصول الدعوة: 1- دعوة 2- و استقامة 3- و تركا فيها لأهوائهم 4- «وَ قُلْ آمَنْتُ» 5- «و أُمِرْتَ ..» 6- «اللَّهُ رَبُّنا ..» 7- «لَنا أَعْمالُنا ..» 8- «لا حُجَّةَ بَيْنَنا ..» 9- «اللَّهُ يَجْمَعُ ..» 10- «وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ»! و قد تشبهها آية أخرى في أصل الاستقامة إضافة إلى من تاب معه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 152

و تركا للبعض من هذه العشرة قضية الشركة كما أضيفت أمور أخرى لنفس القضية:

«فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ وَ لا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ. وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى‏ لِلذَّاكِرِينَ. وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» (11: 115).

«فلذلك»: لأجل ذلك التفلك العارم بين الأمم، و التحزبات المفرقة في شرعة و شرعة، و كذلك في نفس كلّ شرعة رغم أن اللَّه واحد و الدين واحد و الشرعة واحدة كما الرسالة، لذلك «فادع» إلى وحدة الدين و الشرعة، و شرعتك هي الدين كله، و هي كل شرعة من الدين قبلك، و إنها شرعة القرآن‏ «لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (41: 42) «فلذلك» يا قائد القيادة الجديدة الحازمة الحاسمة المديدة .. «فادع» إلى هذه الوحدة العريقة الرفيقة الضاربة إلى أعماق الزمن» «و استقم» في هذه الدعوة الوطيدة دون لفتة الى الأهواء المصطرعة حولك و حول دعوتك الموحدة إعلانا بجديد الايمان بقديم الدين المتين الذي شرعه اللَّه للنبيين أجمعين.

و لأنك النبيون أجمع حيث تجمع كافة النبوات، و أن هذه أمتهم امة واحدة، فالمكلفون أجمع أمتك أمة واحدة «فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ».

هنالك دعوة تجمع دعوات الرسالات كلها، فاستقامة في هذه الدعوة تجمع الاستقامات كلها، كما أن نبوتك تجمع النبوات كلها، و شرعتك هي الدين كلّه، و هي الشرائع كلّها!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 153

فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ‏ إذ هي تهري إلى هوّاة الخلافات و التحزبات المذهبية، إلى شفا جرف الهلكات‏ «فَلِذلِكَ فَادْعُ»: «ادْعُ إِلى‏ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» (16:) 125) «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلى‏ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى‏ هُدىً مُسْتَقِيمٍ» (22: 67) «وَ لا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَ ادْعُ إِلى‏ رَبِّكَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْ‏ءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (28: 87).

هنا يمنع شرعته عن كيان الشرك أن يقول: أنا على شرعتي و أنتم على شرائعكم إبقاء على التحزبات المذهبية- لا! و إنما هذه الدعوة دعوة إلى توحيد الأمم أن يتضامّوا تحت راية واحدة.

1- 2 فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ‏ اطلب القوامة: لزوم المنهاج القائم دون عوج و عرج، طلبا من ربك أن يقيمك كما أمر، و من الأمم أن يستقيموا كما أمر، دون مواربة و لا مسايرة و لا أنصاف حلول، و من استقامتك‏ «أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (10: 105) «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ» (30: 43) «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» (81: 28) حيث الاستقامة في هذه الدعوة و الداعية و المدعوة، إنها كيانها و قوامها، دون أن يحرفها حارف أو يجرفها جارف‏ «فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ»:

«إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (46: 13) «.. تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 154

الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ. نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ. وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (41: 33).

لقد أمرت الأمم قبلئذ «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» فلم يأتمروا إلّا قليلا، ثم الرسول محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يؤمر أخيرا أن يحقق هذا الأمر «وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ» و من ثم‏ «وَ مَنْ تابَ مَعَكَ» فقد حمّل هو و من معه تحقيق هذه الرسالة الموحّدة و قد حقق كما حمّل في دعوته الصارمة، و على الذين معه حمل هذه الرسالة حتى يحققوها كما و سوف تتحقق في الدولة المباركة المهدوية عليه آلاف التحية و السلام.

و لقد كانت هذه الرسالة الجمة الهامة حملا عليه ثقيلا لحد «قال:

شمروا فما رؤي ضاحكا» «1» و كما

يروى عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «شيبتني هود و أخواتها» و الشورى كبيرة أخواتها حيث تخصه آيتها بالاستقامة إذ قيل له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لم ذلك يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)! فقال: لأن فيها «فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ» «2»

و لم يذكر و من تاب معك و إنما «كَما أُمِرْتَ» فهي في الشورى أعلى منها في هود، و لن تطيق الأمة الإسلامية تحقيق الاستقامة التي امر بها الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلّا على حدها، لأنها الخروج من كافة المعهودات، و القيام بين يدي الحق على حقيقة الصدق المطلق لتحقيق كافة الرسالات و لبّها في العالمين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 351- اخرج ابن أبي حاتم و ابو الشيخ عن الحسن (رضي اللَّه عليه) في قوله تعالى‏ «فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ» قال. شمّروا .. أقول: فإذا هو شمر بعد نزول هذه الآية المشتركة بينه و بين من معه فما كانت إذا حالته لمّا نزلت آية الاستقامة الخاصة به (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)!.

(2) تفسير روح البيان للحقي ج 8 ص 299.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 155

الدخول في أمر اللَّه- لا سيما إذا كانت الرسالة العليا- هو طبعا صعب، و لكنما الاستقامة فيه أصعب فإنه التمكن في المأمور به لحد يصبح المأمور راسخا فيما امر به غير محتمل الزوال و لا الخمول، و حتى يصبح هو هو الأمر و الاستقامة في الأمر كما أمر، و

قد روي‏ «ما نزلت آية كانت أشق على رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) من هذه الآية» «1»

حيث تحمل إثباتات و نفيا: 3- وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ‏ و إنما هوى واحدة هي هدى اللَّه: «قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» (6:) 56) «وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ» (2: 120) «.. إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ» (2: 145) «وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ» (23:) 171).

4- وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ‏ دون فرق في هذا الإيمان و إنما في التطبيق، حيث الكتاب الأخير يحتل دور التطبيق فلا يبقى بما أنزل قبله إلّا إيمان و تصديق، ردا لإيمان العالمين كلهم إلى أصل واحد، وردا على المفرقين بين اللَّه و رسله: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا. أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً. وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» (4: 153).

فالرسول يؤمن هكذا إيمان، و يأمر الأمم أن يؤمنوا هكذا إيمان:

«آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ..» (2: 285)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير بيان السعادة ج 2 ص 342.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 156

«قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ وَ ما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ» (2: 128).

5- وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ‏ «لأعدل» تعني كلا العدل و العدل، فقد أمرت لاجعلكم عدل بعض في هذه الدعوة الموحدة، كأسنان مشط على سواء، دونما ترجيح لجماعة على آخرين، و كذلك أن اعدل بينكم بحكم عدل.

ف «بينكم» حيث توحي إلى بينونات في هذه الأمم، يؤمر الرسول أن يدعو عدلا و يحكم عدلا لكي يزيل هذه البينونات فيجعلهم امة واحدة، فيا لها من دعوة عادلة عاقلة لا تتبنى عنصرية أو قومية أو طائفية أو إقليمية أم ماذا، اللّهم إلّا «صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ» (2: 138).

إنها تسوية بين كتب اللَّه إيمانا، و تسوية بين عباد اللَّه دعوة إلى هذا الإيمان.

6- اللَّهُ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ‏ لا أرباب متفرقون لكي نتفرق هنا و هناك و إنما هي إعلام عام بربوبية واحدة فعبودية واحدة، فنحن كلنا كعبيد سواء في هذه الربوبية الواحدة: «قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى‏ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (3: 64) .. و بعد إعلان الربوبية الواحدة تعلن فردية التبعة:

7- لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ‏ لا ينفعنا صالح أعمالكم و لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 157

يضرنا طالح أعمالكم، و كما لا تنفعكم أو تضركم أعمالنا، فليست هذه الدعوة الموحدة لنا تجارة أو لكم خسارة، و إنما «سَلامٌ عَلَيْكُمْ»: «وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ» (28: 55).

إنها ليست دعوة استثمارية لصالح هذه الشرعة الأخيرة أو رسولها و المتشرعين لها، و إنما هي بسط الرحمة الإلهية و «ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» «إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى‏ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ» (36: 113) «ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ» (6:) 52).

8- لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ‏ و ترى و ما هي الحجة المنفية في هذا البين؟ و هذه كلها حجج إلهية على هؤلاء الانعزاليين! أقول: إنها قد تعني بعد هذه الحجج الموحّدة للدين، التي سلفت، حيث أزالت البينونات، فلم تبق حجة لازمة لإزالة البين إلّا بيّنت‏ «لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ» .. أم و تعني حجة- بعد ذلك- تبيّن و تفرق .. فبأية حجة نتفرق أيادي سبا إلى مسلمين و هود و نصارى، فقد استجيبت الحجة الموحدة لمن استسلم للَّه و أسلم وجهه للَّه، فلم تبق- إذا- حجة إلّا داحضة:

«وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ ..» ف «لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ» تنفي الحجة الحقة، سواء المثبتة لهذه الوحدة و قد تمت، أو المفرقة فليست اللهم إلّا داحضة! أم و لا حجة بيننا و بينكم تثبت رجاحة شرعة على شرعة حيث الكل شرائع اللَّه من دين واحد للَّه، أم و لا خصوم بيننا و بينكم، و لماذا نتخاصم و الوحدة لائحة، اللهم إلّا أن يخاصم داعي الوحدة الدينية دعاة التفرقة.

9- اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا و بينكم إله واحد يجمعنا بجمع واحد في صعيد واحد بحساب واحد، «قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ هُوَ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 158

الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ» (34: 26) «قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ» (45: 26) «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ» (64: 9) و كما «الله- هناك- يجمع بيننا و بينكم» إنه ربنا جميعا «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ». إنه يجمع بيننا و بينكم ليوم الجمع التغابن كما جمع بيننا و بينكم هنا ليوم الفرق و التعاون، جمعا في دينه و شرعته، و سوف يفتح بيننا فيما كنا فيه مختلفين و هو الفتاح العليم.

10- وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ إليه وحده لا شريك له، لا إلى ارباب متفرقين، «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» شرعة واحدة- سير واحدة- إله واحد و مصير واحد ففيم إذا نتباغض و نتعارض؟

وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (16).

الحجة هي الدليل القاصد لإثبات أمر أو إبطاله، و المحاجة هي تبادل الحجة و تضاربها، فقد تكون حقا بالتي هي أحسن عن علم و حلم، أو تكون باطلا فيما ليس لهم به علم: «ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ» (3: 66).

و المحاجة في اللَّه قد تكون في كونه أو توحيده و كيانه، أو وحيه و شرعته: «قُلْ أَ تُحَاجُّونَنا فِي اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ وَ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ» (2: 139) «فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ» (3: 20).

هنا توحي‏ «مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ» أن المحاجة كانت في شرعة اللَّه الأخيرة، و اعتبرت الاستجابة الصادقة له حجة قاطعة لا مرد لها و لا حاجة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 159

معها إلى حجة أخرى، لا مثبتة حيث ثبتت بالاستجابة، و لا نافية فإنها عند ربهم داحضة.

و ترى أن استجابة جماعة لشرعة هي برهان أنها إلهية؟ فلتكن كل شرعة حقة و إلهية! أم لهذه الاستجابة شروط و مقومات، فما هي مقوماتها حيث كانت في الشرعة الأخيرة فلا محاجة- إذا- إلّا و هي داحضة؟!.

و لأن الدحض هو الزلق، فالحجة الداحضة هي الزالقة، الضعيفة غير الثابتة و لا متماسكة، الواطئ الذي تضعف قدمه فيزلق عن مستوى الأرض و لا يستمر على الوطء، و داحضة بمعنى مدحوضة بنفسها أنها تدحض نفسها بنفسها لضعف سنادها و وهاء عمادها، فهي هي المبطلة لنفسها من غير مبطل غيرها، لظهور أعلام الكذب فيها و قيام شواهد التهافت عليها، و إنما اطلق تعالى اسم الحجة عليها و هي شبهة واهية لاعتقاد المدلي بها أنها حجة، و تسميته لها بذلك في حال النزاع و المناقلة حيث يوردها موردها مورد الحجة، و يسلكها طريقها و يقيمها مقامها.

حجج داحضة

: من حجج اليهود و النصارى أن التوراة أو الإنجيل متفق عليه بينهم و بين الذين أسلموا، و القرآن مختلف فيه، فليأت المسلمون لوحي القرآن ببرهان دوننا حيث الاستجابة للتوراة و الإنجيل تجمعنا دون القرآن.

فيقال لهم: إن هذه الحجة داحضة: باطلة زائلة في ميزان الحق لا تستحق إلفات نظر، نسألهم أولا ما هي ماهية الاتفاق بيننا و بينكم في الكتابين؟ أ لأننا كلنا نؤمن بآله واحد، فاستجابتكم لكتاب سابق من اللَّه بآيات صدقه و بينات رسوله تحملنا على تصديقه، فعليكم كذلك تصديق القرآن لاستجابتنا له بآيات كمثلها أو هي أحرى و أهدى سبيلا، إذا فحجتهم داحضة!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 160

أم لأن القرآن المستجاب لنا ببينات صدقه القاطعة يحملنا على تصديق الكتابين دون حجة أخرى، حيث الحجة المصدقة لهما ليست فيهما، فإنها منفصلة عنها و هي معجزات موسى و عيسى حيث تحمل من شاهدها بتصديق كتابيهما، إذا فاستجابة حجة القرآن هي التي تحملنا على تصديق الكتابين فكيف تنقلب حجة علينا تتطلب حجة أخرى بعد المتفق عليها و لا حجة لنا إلّا هيه، إذا فحجتهم داحضة.

ثم القرآن لا يحملنا إلّا على تصديق الكتابين المبشرين به و بنبيّه:

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ‏ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ‏. قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ..

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (7: 158)، «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (2: 146) «.. الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (6: 12)!.

إذا فلا نشارككم في تصديق الكتابين دون شروط، إنما نصدق الذي بشّر بنبينا و بكتابه، إذا فحجتهم داحضة «1».

ثم الذي يستندون إليه في استجابتهم لتورات او إنجيل ليس إلّا معجزات من الرسولين شهدها من حضرها دونهم، و إنما استجابوهم دون حجة حاضرة، و إنما لحسن الظن بأسلافهم، و الكتابان محرفان لا حجة فيهما و حتى قبل التحرّف إذ لا معجزة فيهما، فهذه إذا استجابة فاشلة، و لكنما المسلمون يستجيبون دعوة القرآن لأنه معجزة بنفسه و هو أوضح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و في حوار بين الإمام الرضا (عليه السلام) و جاثليق عظيم النصارى ....».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 161

برهان لرسالة رسوله، فقد استجابوا و على مر الزمن لوحي القرآن بحجة حاضرة غير محرفة، إذا فحجة اليهود و النصارى داحضة زائلة عند ربهم، إن في اثبات وحي الكتابين أو في رد وحي القرآن، فلما استجيبت دعوة القرآن بحجته الحاضرة لم يكن نكرانهم لما استجيب له إلّا كفرا باللَّه و آياته، إذا «حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ»!

[سورة الشورى (42): الآيات 17 الى 28]

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزانَ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (18) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19) مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَ لَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (21)

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22) ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏ وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى‏ قَلْبِكَ وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (24) وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (25) وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ الْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (26)

وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27) وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 163

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزانَ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17).

ترى أليس الكتاب هو الميزان فكيف يردف به الميزان؟ أم هو ميزان ثان؟ «1» لقد ذكر الميزان هنا و في الحديد عدلا للكتاب‏ «وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. (57: 25) و من ثم ميزان موضوع في الرحمان مع رفع السماء «وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ» (55: 9) «2».

فهنالك ميزان هو القرآن، أصلا يرجع إليه كل ميزان حتى نبوّة نبي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 27 الفرقان ص 170 حول آية الميزان.

(2) المصدر ص 18- 20 حول آية الميزان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 164

القرآن، ثم ميزان فيه و في السنة المحمدية يعرف بهما معارف القرآن، و من ثم ميزان متصل به كيانا منفصل عنه كونا للتعرف الى القرآن و تطبيقه و تأسيس دولته: هو نبي القرآن (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و خلفاءه المعصومون (عليهم السلام) و العلماء الربانيون، و من قبل ميزان الفطرة و العقل و العلم يعرف بها وحي القرآن و أهل بيت القرآن‏ «1»، و ميزان العدل و القسط حيث يكرّسهما القرآن، و يكرّسان لتطبيق القرآن في الاولى، و للحساب يوم يقوم الحساب قسطا و عدلا و كتاب الأعمال و كتّاب الأعمال و قلب محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و قلوب المحمديين المعصومين الطاهرين: (عليهم السلام): «وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَ كَفى‏ بِنا حاسِبِينَ» (21: 47) موازين متصلة كيانا بالقرآن مهما كانت منفصلة كونا عن القرآن، حيث القرآن هو الأصل في الميزان ثم الفروع هي سائر الميزان.

و قد يعني الكتاب هنا جنس الكتاب قرآنا و ما قبله من كتاب، فمن الميزان إذا المعجزات التي تثبت وحي الكتاب كما سوى القرآن، و أما القرآن فهو أمّ المعجزات كما هو أم الكتاب.

و «بالحق» هنا تبيّن موقف الكتاب أنه يصاحب الحق، و أن نزوله بسبب الحق تبيانا و تطبيقا للحق، ثم الحق في الكتاب الأخير ثابت لا ينسخ، فهو حق مطلق مطبق مهما كان الحق في كل كتاب قبله لردح من الزمن غير مطلق.

«وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 568 في تفسير القمي في الآية قال: الميزان امير المؤمنين (عليه السلام) و الدليل على ذلك قوله عز و جل في سورة الرحمن‏ «وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ‏ قال: يعني الإمام».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 165

(يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً) (33: 63) (وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هُوَ قُلْ عَسى‏ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً) (17: 51) إن «لعل و عسى» ترجّ في ظرف الشك، ظنا دون علم، «إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ» في الأحزاب بيان لحالة الشك في أنها متى؟ أ قريب أم بعيد؟ ثم «لعل» فيها و فيما هنا و «عسى» في الأسرى ترجّ في قربها يخرجه عن الشك إلى و شك اليقين و أشرافه بأنها قريب، و ما يدريه إلّا من أدراه كل ما دراه من وحي الرسالة أنه قريب، كما و أدراه أخيرا بقربها: (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً. وَ نَراهُ قَرِيباً) (70: 6) قريبا في واقعها كقربها في ميزان الفطرة و العقل و العلم و العدل لزمن بعيد أم قريب و كل آت قريب. «لعل و عسى» هنا و هناك لا تعني ترجّي اللَّه، و إنما ترجّي الرسول بما أدراه اللَّه، و من ثم العلم حيث أتم ترجيّه، و علّ «لعل و عسى» فيما يؤمر الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هنا أن يقول مماشاة مع خصومه الناكرين ليوم الدين.

ترى ما هو المأخذ هنا في قرب الساعة حيث الوسط هو زمن نبي الساعة؟ «1» هل هو بداية الخلقة؟ و الساعة الحساب الجزاء لا تعني ايّ كائن! أم بداية خلقة المكلفين من النسل الأخير جنا أو إنسانا أو أيا كان فإنه موضوع هذا البيان؟ و لا يخصهم يوم الجمع مهما خصهم هذا البيان! أم هم المكلفون أجمع بمن فيهم هذا النسل الأخير؟ و قد يقربنا أن الخطاب موجه إلى هذا الأخير، ثم لا يجدينا قرب الساعة إذا كان المبدء بداية خلق المكلفين، إذ لا نعلمها- و إن على وجه التقريب- حتى تفيدنا أن الساعة قريب، فلتكن الساعة أقرب إلى نبي الساعة منه إلى بداية النسل الأخير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تأتي الساعة في 48 موضعا تعني القيامة الا «ساعَةِ الْعُسْرَةِ» و «ساعَةً مِنْ نَهارٍ» و «ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ» و «لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً» ف 44 موضعا تعني القيامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 166

من الإنس، حيث الجن موقفه كمن سلف من أنسال لا يدرى متى خلقوا.

يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (18).

يستعجلون بها حيث لا تحس قلوبهم هو لها فلا يحومون حولها إلا هزوا لو أنها آتية فمتى؟ و لماذا لا تأخذنا «وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ..» (22: 47).

و امّا الذين آمنوا فهم‏ «مُشْفِقُونَ مِنْها» و لأن الإشفاق هي العناية المختلطة بخوف حيث يحب المشفق المشفق عليه و يخاف ما يلحقه تقصيرا منه لا من المشفق عليه، إذا فهم لا يستعجلونها بل قد يستأجلونها ليتهيئوا لها حيث‏ «يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ»!.

ثم العناية قد تربو الخوف كأنه لا خوف: «إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ» (52: 26) أم الخوف يربوها كان لا عناية: «تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ» (42: 22) «وَ وُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ» (18: 49) أو الخوف يربوها و هي موجودة: «فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها» (33: 72) أم هما سيان حيث الخوف و الرجاء يتساويان كما هنا «وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها ..» و في أضرابها: «وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ» (70: 27) ضروب أربعة من الإشفاق تشارك فيها العناية و الخوف.

ثم المستعجلون بها يمارون فيها، ظلمات بعضها فوق بعض في نكرانها: «ألا» فانتبهوا «إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ» جدالا في حجج داحضة، إنهم‏ «لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ»: بعيد عن النجاة حيث أوغلوا فيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 167

معاندين متعنتين، و بعيد عن الفطرة و العقل و العلم و العدل، فلا يماري في الساعة إلّا من غرب عقله، و حجبت فطرته، و برزت شقوته.

فالضلال القريب هو الضلال القاصر حيث يرجى بوصول البينة زواله، و الضلال البعيد هو المقصر بعد تمام الحجة فلا يرجى إذا زواله، حيث المماراة هي الجدال في الحق كأنه باطل فيه مرية، و لكي يستأصل فلا تبقى له باقية.

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19).

اللطيف هو صاحب اللطف الدقيق الذي لا يعزب عن علمه و قدرته و حيطته شي‏ء و اللَّه لطيف في ذاته حيث لا تدركه الأبصار، و لطيف بعباده حيث يدرك الأبصار، و لان اللطيف بعباده عليم بهم خبير لم يوصف اللطيف فيما وصف إلا بالخبير «1» و لأنه‏ «هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» (12: 100). إنه‏ «يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ» لأنه‏ «لَطِيفٌ بِعِبادِهِ» و الرازق اللطيف حيث يعلم الحاجة و المصلحة فيلطف قد لا يكون قويا على مرامه عزيزا، و لكنه‏ «هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» فعلمه بعباده و عطفه و قوته و عزته تجعل رزاقيته تامة لا حول لها دون أن يمنعه مانع منه أو سواه، فلا بسط الرزق لمن يبسط له لمزيد اللطف و القوة و العزة، و لا من قدر عليه رزقه لنقصان هنا أو هناك، و إنما كل لكل حسب الحكمة، و الرزق يعم المعنوي منه كالرسالة و ولاية الأمر الإمامة «2» و المادي منه كسائر النعم غير الروحية.

و ترى ما هي الرباط بين آية اللطف و ما قبلها من آية الساعة و ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2).

نور الثقلين 4: 568 في اصول الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قلت: اللَّه لطيف بعباده يرزق من يشاء؟ قال: ولاية امير المؤمنين؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 168

بعدها من حرث الدنيا و الآخرة؟.

هي أن الساعة الحساب الجزاء هي قضية اللطف القوة العزة، و كذلك إيتاء حرث الدنيا لمن يريدها، و زيادة الحرث لمن يريد الأخرى:

مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20) «1».

تشبيه عجيب و تمثيل مصيب، فحرث الآخرة و الدنيا هو كدح الكادح لثواب الآجلة و حطام العاجلة، حيث الحارث المزدرع إنما يتوقع عاقبة حرثه فيجني ثمار غراسه و يفوز بعوائد ازدراعه.

إن الدنيا بما يسعى فيها مزرعة قد تعنى لها نفسها او تعنى للآخرة «فالدنيا مزرعة الآخرة» و لذلك يتقدم هنا «حَرْثَ الْآخِرَةِ» رغم تقدم الدنيا بحرثها في نقدها على الآخرة، «إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» (29: 64).

إنما الدنيا زرع‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» فمن كان يريد منه حرث الآخرة يزد اللَّه له في حرثه و لا يحرمه دنياه كما يصلح لآخرته، و من كان يريد منه حرث الدنيا يؤت منها، شيئا مما أرادها لا كلها، و ما له في الآخرة من نصيب.

فانظر إلى طلاب حرث الآخرة و الأولى تكشف عن الحماقة الكبرى في إرادة حرث الدنيا، و هو آت لا محالة لمن أرادها أو لم يردها، فلكلّ نصيبه من حرث الدنيا وفق المقدّر له في حكمة اللَّه ثم يبقى حرث الآخرة خالصا لمن أراده و عمل له‏ «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). للاطلاع على تفصيل البحث راجع آية العاجلة في الأسرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 169

وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى‏ لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً. كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً. انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا» (17: 20) «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (11: 18).

من طلاب حرث الدنيا نجد أغنياء و فقراء، و من طلاب حرث الآخرة نجد فقراء و أغنياء، و أين فقراء من فقراء و أغنياء من أغنياء، فكل ذلك محسوب حسب أسباب الرزق المتعلقة بالأوضاع العامة و الاستعدادات الخاصة، و إن كان الأغنياء في طلاب الدنيا أكثر من طلاب الآخرة، و ترى كم عمق هذا الحمق الذي يحصر الهم في إرادة حرث الدنيا و يحسره عن إرادة حرث الآخرة؟

إن الزيادة في حرث الآخرة مزيد رحمة من اللَّه لطلابها في تقواهم و التسوية أو النقيصة في حرث الدنيا كذلك مزيد رحمة على العباد «وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ» (42: 27) و ترك لتأييد أهل الدنيا في طغواهم.

ثم و إرادة حرث الدنيا قد تكون بعمل الآخرة فهي أردأ و أنكى و أضل سبيلا:

«من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب و من أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا و الآخرة» «1»

و

«ان المال و البنين حرث الدنيا و العمل الصالح حرث الآخرة و قد يجمعهما الله لأقوام فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه و اخشوه خشية ليست بتعذير و اعملوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 569- ح 52 عن اصول الكافي بسند عن أبي عبد الله (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 170

في غير رياء و لا سمعة» «1»

و

«من كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره و جعل الفقر بين عينيه و لم يأته من الدنيا إلا ما كتب له و من كانت نيته الآخرة جمع الله شمله و جعل غناه في قلبه و أتته الدنيا و هي راغمة» «2»

و

قد قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «بشر هذه الأمة بالسنا و الرفعة و النصر و التمكين في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب» «3»

قال تعالى: «ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى و أسد فقرك و إلا تفعل ملأت صدرك شغلا و لم أسد فقرك» «4».

و

لما يصل امير المؤمنين علي (عليه السلام) إلى هذه الآية يبكي و يقول: «اللهم إني اسألك إخبات المخبتين و إخلاص الموقنين و مرافقة الأبرار و استحقاق حقائق الإيمان و الغنيمة من كل بر و السلامة من كل إثم و رجوت رحمتك و الفوز بالجنة و النجاة من النار «5».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر ح 54 بسند خطب امير المؤمنين (عليه السلام) و قال: اما بعد- الى ان قال-: ...

(2) مجمع البيان و روي عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ...

(3) الدر المنثور 6: 5- اخرج احمد و الحاكم و صححه و ابن مردويه و ابن حبان عن أبي بن كعب ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: ....

(4)

المصدر- اخرج الحاكم و صححه و البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: تلا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من كان يريد حرث الآخرة ... ثم قال: يقول اللَّه: ابن آدم ...

(5)

اخرج ابن النجار في تاريخه عن رزين بن حصين قال: قرأت القرآن من اوّله الى آخره على علي بن أبي طالب (عليه السلام) فلما بلغت الحواميم قال لي قد بلغت عرائس القرآن فلما بلغت اثنتين و عشرين آية من حم عسق بكى ثم قال: اللهم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 171

أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَ لَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (21).

إنما الدين كله للَّه، و الشارع من الدين كله هو اللَّه، لا شريك له لا في الدين و لا في شرع الدين، و إنما المرسلون حملة دين اللَّه و شرائعه، و مبلغوا شرعة اللَّه و مؤسسوا دولته تطبيقا لها و ذودا عن ساحتها و سماحتها.

ترى ما هو موقف «أم» هنا و هي لعطف الإعراض؟ .. قد يكون المعطوف عليه مما يلي: أ ليسوا هم بحاجة إلى شرعة من دين اللَّه إذ لا يعبدون اللَّه و إنما أوثانهم و طواغيتهم؟ أم هم شرعوا لأنفسهم من الدّين ما أذن اللَّه أو ما لم يأذن به اللَّه؟ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به اللَّه؟ و شركائهم هم الذين اتخذوهم شركاء للَّه فهم إذا شركائهم لا شركاء اللَّه.

ليس من المعقول أن الدين الطاعة للَّه، ثم يشرع من دينه من سواه دون إذنه، تدخلا عارما طاغيا في طاعة اللَّه، ويكأن اللَّه لا يملك شرعة من دينه فشركائهم شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به اللَّه! فاللَّه وحده هو الشارع لعباده من دينه و طاعته، فإنه مبدئهم و مبدعهم و الكون كله، يدبره بالنواميس التكوينية و التشريعية سواء، و ليست الحياة البشرية الّا ترسا صغيرا في عجلة هذا الكون الشاسع الواسع، فليتحكمها شرعة تتمشى مع تلكم النواميس و تمشّي الإنسان إلى قمم الكمال المعدة له في هديه، فكيف يشرع من دين اللَّه من سوى اللَّه، أ ولاية على اللَّه؟

و هو الولي الحميد! أم حيطة على النواميس و متطلبات الحياة؟ و لا يحيطون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أقول: هذه الآية حسب ما عندنا هي العشرين و لعله (عليه السلام) حسب البسملة آية ثم آية اخرى في هذا البين آيتين فأصبحت هذه الآية الثانية و العشرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 172

بأنفسهم علما! أم ماذا.

مع وضوح هذه الحقيقة لحد البداهة فمن الحماقة و البلاهة المحاولات الطائلة لسنّ القوانين لإدارة شؤون الأفراد و الجماعات حتى من أعقل العقلاء و أعدل العدول، و حتى المرسلين، فما هم بمشرعين من الدين، إنما هم رسل يحملون شرائع من الدين شرعها اللَّه، ثم لا تدخّل لهم في أية كبيرة أو صغيرة.

و ليس لمن يستنبط إلّا استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجيات الحياة، على ضوء القرآن و السنة الرسالية و الرسولية، دون سنّ لاي صغيرة أو كبيرة من عند أنفسهم، و إنما استنباط و اجتهاد لأهله على شروطه.

هكذا تدخّل عارم في شرعة اللَّه مما لم يأذن به اللَّه يحق له القضاء الصارم من اللَّه‏ «وَ لَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ»: كلمة التأجيل لأجل إلى الساعة، دون تعجيل قبل الساعة.

يوم الدنيا ليس يوم الفصل و إنما هو يوم الأخرى: «هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (37: 21) «إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ» (44: 40) «هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ» (77: 38) «إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً» (78: 17).

كلمة الفصل تحمل ميقات يوم الفصل، و الإمهال و التأجيل ليوم الفصل، كما تحمله آيات الإمهال و التأجيل إلى يوم الفصل، حيث يقضي بينهم و يفصل ففريق في الجنة و فريق في السعير «وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» و هؤلاء من أظلم الظالمين حيث يتدخلون في ولاية اللَّه بعد إشراكهم باللَّه: أن شرع لهم شركائهم من الدين ما لم يأذن به اللَّه.

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 173

الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22).

ترى الظالمين وجلين ما كسبوا على عناية علّهم ينجون و هو واقع بهم، لا جزاءه انتقاما، بل إن ما كسبوا هو واقع بهم وقوع الشاهد القارع، حيث الأعمال و الأقوال تشهد شهادة ذاتية عينية على عامليها، و من ثم وقوعا لحقائقها التي تبرز يومها و لا يظلمون نقيرا، حيث ينقلب عذابا لا مخلص منه و لا محيد.

هؤلاء الظالمون المشفقون مما كسبوا، و من ثم مؤمنون مشفقون‏ «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ» كما قدموها بما كسبوا و عند اللَّه مزيد «لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ» (50: 35) عما يشاءون، «وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ» (21: 102) «وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ» (43: 71) «وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ» (41: 31).

«ذلك» من روضات الجنات و لهم ما يشاءون عند ربهم‏ «هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ»! فهناك جنات هي لسائر أهل الجنة، و هنا روضات الجنات و هي البقاع الشريفة المتميزة فيها للذين آمنوا و عملوا الصالحات، لا الذين‏ «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً» (9: 102).

و ترى ان ثواب الجنات بروضاتها ليس عن استحقاق فلا يجب على اللَّه حتى يكون فضلا كبيرا؟ أقول: نعم و كلا .. كلّا حيث الإيمان و عمل الصالحات لا يرجعان بفائدة إلى اللَّه إلّا إلى العاملين فلا استحقاق لأجر، و نعم: حيث‏ «كَتَبَ عَلى‏ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» و وعد الذين آمنوا و عملوا الصالحات الجنة، فقد فرض على نفسه الفضل، حيث لا أصل الفضل واجب عليه و لا كبيره، فهو فضل على فضل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 174

ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏ وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23).

بشارة عظمى بعطية كبرى لعباد اللَّه المؤمنين الصالحين، أ ترى أن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يسألهم على عنت الدعوة بوعثاءها و أعباءها و البشارة بعقباها في أولاها و عقباها، أ يسألهم عليه أجرا؟ ..

«قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏»! و هذه سنة اللَّه الدائبة في رسله ألّا يسألوا المرسل إليهم أجرا، و لا جزاء و لا شكورا، لا ماديا و لا معنويا، فأجرهم مضمون لهم عند اللَّه، و هم ليس لهم أجورهم‏ «أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ» (52:) 40).

و هكذا نسمع الرسل منذ نوح يواجهون الأمم بأمر اللَّه بالقول: «وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى‏ رَبِّ الْعالَمِينَ» (26: 109) و هود (127) و صالح (145) و لوط (164) و شعيب (180) و من قبلهم و بينهم و بعدهم من المرسلين: «اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» (36: 21) كعامة المرسلين و حتى يوصل و بأحرى إلى خاتم المرسلين:

«قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏» و ليست هذه المودة- أيا كان- أجرا و إن كانت بصيغة الأجر: «قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» (34: 47) فهو إذا أجر لا يرجع بفائدة إلّا لهم في سبيل الإيمان بربه: «قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى‏ رَبِّهِ سَبِيلًا» (25: 57) بعد قوله:

«وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً» لا تاجرا تتعامل ببلاغ الرسالة، و الصيغة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 175

المجردة في سلبية الأجر سارية دون تكلف: «قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ» (38: 88) «أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ» (52: 40)؟

«وَ ما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» (12: 104).

آيات ثلاث تنفي عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) سؤال الأجر كاستمرارية للسنة الرسالية، و ثلاث أخرى تعالج موقف المودة في القربى أنها ليست في الحق أجرا و إنما «هو لكم» و سبيل إلى ربكم، و دخول إلى مدينة علم الرسول من أبوابها المقررة لكم.

إذا فلتكن المودة في القربى لصالحهم كمسلمين، و سبيلا إلى رب العالمين، فلتكن مودة في أبواب مدينة علم الرسول، و استمرارية لرسالة الرسول، لا مودة في أقرباءه بسبب القرب سببيا أو نسبيا أم ماذا من القرابات التي لا يحسب لها حساب في ميزان اللَّه.

و من المعلوم دون ريب أن وجهة الخطاب هم المؤمنون المبشر لهم بروضات الجنات حيث آمنوا و عملوا الصالحات، دون الظالمين المشفقين مما كسبوا، إذ الناكرون لأصل الرسالة لا يعقل طلب الأجر منهم جزاء لهذه الدعوة و هم ناكروها حتى يقول‏ «لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً» ثم يطلب منهم بدل الأجر مودتهم له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هم ألدّ أعداءه حيث يسب آلهتهم.

ثم هل من المعقول سؤال الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) المؤمنين برسالته أن يودوه في قرابته منهم، و ليسوا هم كلهم من قرابته، و لم يكونوا يعادونه بعد الإيمان حتى يطلب ودّه نفسه لقرابته! أم ماذا من تأويلات عليلة.

إن القربي هنا كما تقول آياتها ليست إلّا القربى التي تقربهم المودة فيهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 176

إلى اللَّه زلفى: «إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى‏ رَبِّهِ سَبِيلًا» فإنما هي لهم لا له: «قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ» إذا فهم الأقربون إلى بيت الرسالة المحمدية «علي و فاطمة و الحسن و الحسين» تنزيلا «1» و «التسعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 7- اخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قالوا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم؟ قال: علي و فاطمة و ولداهما و رواه مثله احمد بن حنبل في مسنده عن ابن عباس عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الثعلبي في تفسيره بسند صحيح عنه و ابراهيم الحمويني من اعيان علماء السنة بسنده عنه و ابو نعيم صاحب حلية الأبرار بسنده عن الأعمش عن سعيد بن جبير عنه و المالكي في كتاب الفصول المهمة عنه و صاحب المناقب الفاخرة في العترة الطاهرة بسنده عنه- كل ذلك يرويه ابن عباس عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و في احقاق الحق ج 14: 106- اخرج مثله جماعة من أعلام القوم منهم العلامة ابن المغازلي في مناقبه ص 112 مخطوط عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و منهم الحسكاني في شواهد التنزيل ج 1: 130 ط بيروت بعدة طرق اخبرنيه الحاكم الوالد ... و اخبرنيه ابو بكر السكري ... و أخبرناه ابو عبد اللَّه الشيرازي .. و حدثنيه ابو حازم الحافظ من اصل سماعه ... و أخبرنا ابو نصر المفسر .. و أخبرنا محمد بن عبد اللَّه الرزجاهي ... و حدثنا الحاكم ابو عبد اللَّه الحافظ .... و أخبرنا ابو سعد ابن علي .. و منهم العلامة الحضرمي في وسيلة المال ص 66 نسخة الظاهرية بدمشق، و منهم العلامة الشيخ عبد القادر الشافعي السنندجي في تقريب المرام في شرح تهذيب الأحكام ص 332 مطبعة الأمرية ببولاق، كل ذلك عن ابن عباس ام غيره عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «هم علي و فاطمة و ولداهما»!.

و

في المصدر عن العلامة الحسكاني في شواهد التنزيل ج 2: 142 بإسناد متصل عن علي (عليه السلام) قال: فينافي «آلم حم» آية انه لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن ثم قرأ «لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏» و رواه ايضا مصبح بن هلقام عن عبد الغفور

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 177

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فأسنده الى النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)! و روى مثله العلامة باكثير الحضرمي في وسيلة المآل ص 65 نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق من طريق أبي حيان و الواحدي عن علي بعين ما تقدم.

و اخرج ابو نعيم و الديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى- ان تحفظوني في اهل بيتي و تودوهم بي، و اخرج سعيد بن منصور عن سعيد بن جبير إلا المودة في القربى قال: قربي رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)

و روى ما يعنيه من ان القربى قربى رسول اللَّه و آل محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في الجمع بين الصحاح الستة

عن ابن عباس و على بن الحسين بن محمد الاصبهاني في كتاب مقاتل الطالبين في خطبة للحسن بن علي (عليه السلام) بعد استشهاد أبيه (عليه السلام) انا ابن من فرض اللَّه مودتهم في كتابه حيث قال: و من يقترف حسنة نزد له فيها حسنا و الحسنة حبنا اهل البيت،

و

المالكي عن السدي عن ابن مالك عن ابن عباس عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ان الحسنة هنا هي مودة آل محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و ابن المغازلي الشافعي في كتاب المناقب بسنده عن الحكم بن طهير عن السدي مثله، أخرجه كله في علي و فاطمة و الحسنين و في قربى رسول اللَّه و آل محمد و اهل البيت السيد هاشم البحراني في كفاية الخصام ص 395- 396- الباب 72، ثم اخرج من طريق اهل البيت (عليهم السلام) انهم هم و الأئمة (عليهم السلام) كلهم اثنين و عشرين حديثا و كما المخرج من طريق إخواننا سبعة عشر حديثا و كما اخرج في البرهان و نور الثقلين أحاديث متواترة في هذا المعنى فراجعها.

و

اخرج ابن جرير عن أبي الديلم قال: لما جي‏ء بعلي بن الحسين (عليه السلام) أسيرا فأقيم على درج دمشق قام رجل من اهل الشام فقال: الحمد للَّه الذي قتلكم و استأصلكم فقال له علي بن الحسين (عليه السلام) أ قرأت القرآن؟ قال: نعم- قال: أقرأت آلم حم؟ قال: لا- قال: اما قرأت: قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى؟ قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 178

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فانكم لأنتم هم؟ قال: نعم‏ و رواه مثله الثعلبي في تفسيره عن أبي الديلم مثله و بسند آخر عن ام سلمى مثله و في تفسير البرهان 4: 126 ح 25 الثعالبي بسند متصل عن أبي الديلم مثله.

و ينقل الآلوسي في تفسيره روح المعاني ج 25 ص 32 شعرا في حب آل البيت عن الإمام الشافعي قائلا: و انا أقول قول الشافعي الشافي العي:

يا راكبا قف بالمحصب من منى و اهتف بساكن خيفها و الناهض سحرا إذا فاض الحجيج الى منى فيضا بساكن خيفها و الناهض ان كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان اني رافضي و

في مجمع البيان باسناده الى القاسم الحسكاني مرفوعا الى أبي امامة الباهلي قال: قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ان اللَّه تعالى خلق الأنبياء من أشجار شتى و خلقت انا و علي من شجرة واحدة فانا أصلها و علي فرعها و فاطمة لقاحها و الحسن و الحسين ثمارها و أشياعنا أوراقها فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا و من زاغ عنها هوى و لو ان عبدا عبد اللَّه بين الصفا و المروة الف عام ثم الف عام حتى يصير كالشن البالي ثم لم يدرك محبتنا كبه اللَّه على منخريه في النار ثم تلى‏ «قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏».

و

في الدر المنثور 61: 7 و اخرج الترمذي و حسنه و ابن الانباري في المصاحف عن زيد بن أرقم قال: قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر كتاب اللَّه حبل ممدود من السماء الى الأرض و عترتي اهل بيتي و لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما،

و

فيه اخرج الترمذي و حسنه و الطبراني و الحاكم و البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): أحبوا اللَّه لما يغذوكم به من نعمه و احبوني لحب اللَّه و أحبوا اهل بيتي لحبي‏

و اخرج البخاري عن أبي بكر الصديق قال: ارقبوا محمدا (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في اهل بيته، و

اخرج ابن عدي عن أبي سعيد قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): من أبغضنا اهل البيت فهو منافق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 179

المعصومون من ولد الحسين» تأويلا، و كما أخرجه زهاء اثنين و خمسين من فطاحل إخواننا «1» و كثير من أصحابنا عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

ينقل الفخر الرازي في تفسيره الكبير عن صاحب الكشاف انه يروى عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): قوله‏ «من مات على حب آل محمد مات شهيدا الا و من مات على حب آل محمد مات مغفورا له، الا و من مات على حب آل محمد مات تائبا، الا و من مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الايمان، الا و من مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر و نكير، الا و من مات على حب آل محمد يزف الى الجنة كما تزف العروس الى بيت زوجها، الا و من مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان الى الجنة، الا و من مات على حب آل محمد جعل اللَّه قبره مزار ملائكة الرحمة، الا و من مات على حب آل محمد مات على السنة و الجماعة، الا و من مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة اللَّه، الا و من مات على بغض آل محمد مات كافرا، الا و من مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة.

أقول: ثم يعلق الفخر الرازي على هذا الحديث قوله: «و لا شك ان فاطمة و عليا و الحسن و الحسين كان التعلق بينهم و بين رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أشد التعلقات و هذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب ان يكونوا هم الآل، و ايضا اختلف الناس في الآل قيل هم الأقارب و قيل هم أمته فان حملناه على القرابة فهم الآل و ان حملناه على الامة الذين قبلوا دعوته فهم ايضا آل فثبت ان على جميع التقديرات هم الآل و اما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل فمختلف فيه.

(1). منهم احمد بن حنبل في صحيحه و الطبري في تفسيره بثلاثة أسانيد و الحاكم في المستدرك و الزمخشري في الكشاف و اخطب خوارزم في مقتل الحسين و ابن الأثير في جامع الأصول و الرازي في تفسيره و ابن بطريق في العمدة و ابن طلحة في مطالب السؤول و الكنجي في كفاية الطالب بسندين و البيضاوي في تفسيره و الطبري في ذخائر العقبى بسندين و النسفي في تفسيره و الحمويني و صاحب المناقب الفاخرة و النيسابوري في تفسيره و ابو حيان في البحر المحيط و ابن كثير في التفسير بسندين و الهيثمي في مجمع الزوائد و المهايمي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 180

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الهندي في تفسير تبصير الرحمان و ابن حجر العسقلاني في الكافي الشاف بثلاثة أسانيد و ابن صباغ المالكي في فصول المهمة و السيوطي في الدر المنثور بثلاثة أسانيد و في الإكليل بتسعة أسانيد و في احياء الميت باربعة أسانيد و ابن همام في حبيب السير و ابن حجر في الصواعق المحرقة بثلاثة أسانيد و الخطيب الشربيني في السراج المنير و البركرى في الأربعين و المير محمد صالح الترمذي في مناقب مرتضوي و المحلى في الحدائق الوردية و المولى حسين الكاشفي في روضة الشهداء و في المواهب و الشبراوي في الاتحاف بثلاثة أسانيد و الصبان في اسعاف الراغبين من (3) و الشوكاني في فتح الغدير (6) و الآلوسي في روح المعاني (4) و أرجح المطالب و القندوزي في ينابيع المودة (8) و البرزندي و الطبراني و ابن حنبل في المناقب و ابن أبي حاتم في التفسير و الحاكم في المناقب و النيسابوري في الوسيط و ابن جرير في جامع البيان و الحقاني و الشبلنجي في نور الأبصار و السيد صديق حسن خان في هداية السائل في ادلة المسائل (2) و الحضرمي في رشفة الصادي و التونسي في السيف المسلول و الحداد في القول الفصل (17) و الخوارزمي في المقتل و الطبري في ذخائر العقبي هؤلاء الفطاحل رووا عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) نزول آية ذوي القربى في الخمسة الطاهرة (عليهم السلام).

و في ملحقات الاحقاق 9: 92 يستدرك ما أخرجه في 3 كما هنا بقوله و منهم الثعلبي في الكشف و البيان و الخواجة محمد پارسا البخاري في فصل الخطاب على ما في الينابيع 368 و البدخشي في مفتاح النجا 13 و القندوزي في ينابيع المودة 106 و الطبراني في المعجم الكبير 131 و ابو نعيم الاصبهاني في نزول القرآن مخطوط و الزمخشري في تفسيره 3: 4020 و الأمر تسرى في أرجح المطالب 62 و الحضرمي في القول الفصل 1: 482 و عبد الكافي الحسيني في السيف اليماني المسلول 64 و الخوارزمي في مقتل الحسين 57 و الطبري في ذخائر العقبى 25 و ابن تيمية في منهاج السنة 3: 250 و التفتازاني في شرح المقاصد 2: 219 و القسطلاني في المواهب اللدنية 7: 3 و 123 و العسقلاني في الكاف الشاف 145 و محمد صديق حسن خان ملك بهوپال في فتح البيان 8: 270 و السيوطي في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 181

و سلم) لأنهم أبواب مدينة علمه و هم الثقل الثاني: عترته، و هم خلفاءه في أمته، كما تواترت بذلك الروايات من طريق الفريقين، مهما يهرف الهارفون و يخرف الخارفون في اختلاق روايات تناقضها أو تأويلات، حيث القرآن هو الميزان لا سواه، و هنا «الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏» لا «للقربى» و لا «مودة القربى» حيث القربى جعلوا مكانا للمودة، أن تتمكن المودة فيهم كسبل إلى اللَّه، لا مودتهم و المودة لهم لكي يتخذوا أصولا و أهدافا، لا! و إنما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

احياء الميت 110 و الميبدي في شرح ديوان امير المؤمنين مخطوط و الخضرمي في رشفة الصادي 22 و الشبراوي في الإتحاف 5 و 13 و الشافعي في المناقب 70 مخطوط و الأمر تسرى في أرجح المطالب 57 و البدخشي في مفتاح النجا 12 مخطوط و البلخي في ينابيع المودة 261 و الادريسي في رفع اللبس و الشبهات 8 و القاضي بهجت افندي في تاريخ آل محمد 44 و النبهاني في الشرف المؤيد 72 و في الأنوار المحمدية 433 و الساعاتي في بلوغ الاماني المطبوع ذيل الفتح الرباني 18: 265 و ابن حنبل في فضائل الصحابة 218 مخطوط و في مسنده على ما في الينابيع و الزمخشري في تفسيره 3: 402 و الخوارزمي في مقتل الحسين 1 و 75 و الرازي في تفسيره 27: 166 و ابن بطريق الحلي في العمدة 23 و الكنجي في كفاية الطالب و الشافعي في مطالب السؤول 8 و البيضاوي في تفسيره 4: 123 و النسفي في تفسيره 95 و الحمويني في فرائد السمطين و النيسابوري في تفسيره 25: 31 و ابو حبان في البحر المحيط 7: 516 و ابن كثير في تفسيره 4: 112 و البيهقي في مجمع الزوائد 9:

103 و الكوكنى في تفسيره تبصير الرحمن 3: 247 و الصباغ في الفصول المهمة «و السيوطي في تفسيره 6: 7 و في اكليله 190 و في احياء الميت 110 و خواند مير في حبيب السير و الترمذي في المناقب المرتضوية 49 و الكاشفي في المواهب 2: 243 و الشبراوي في الاتحاف 5 و الطبراني في المعجم الكبير و ابن أبي حاتم في تفسيره و الحاكم في المناقب و الواحدي في الوسيط و ابو نعيم في حلية الأولياء و الزرندي في نظم درر السمطين و ابن حنبل في المناقب و الحقاني في فلك النجاة و الطبري في جامع البيان و عبد الكافي الحسنى في السيف المسلول 9 و الحداد في القول الفصل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 182

هم السبل إلى اللَّه و الأدلاء على مرضات اللَّه، إذا فليس واجب المودة هنا «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏» حيث توصلكم إلى اللَّه!.

إن «القربى» هي مؤنث الأقرب كما و هي مصدر- و بطبيعة الحال- هي بمعنى الأقربية، و لا تخلو في سائر القرآن عن كونها فعلى التفضيل او مصدر «1» و لا تجد القربى مجردة عن «ذي- ذوي- أولي» إلّا هنا، حيث الأقربية الرسالية هي المعنية دون ذويها و أوليها، و لذلك قال «في القربى» لا «للقربى» أو «القربى».

فحاصل المعني من المودة في القربى هو المودة في القربى إلى الرسول كمدينة علم الرسالة، فإلى اللَّه حيث الرسالة تكرّس ككلّ إلى اللَّه: «.. إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى‏ رَبِّهِ سَبِيلًا» فكانوا هم السبيل إليه و المسلك إلى رضوانه.

فليست القربى إذا- فقط- أقربية الرسول إلى اللَّه ممن سواه و إن كانت تشملها كأصل، و لكنما المودة في القربى إنما تكون لهم كسبيل كاملة إلى اللَّه إذا اتخذوا إلى مدينة علمه سبيلا هي أبوابها: «وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى‏ يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا. يا وَيْلَتى‏ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَ كانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا» (25: 29).

فالرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هو أفضل السبل إلى اللَّه، فالسبيل مع الرسول ليس هو الرسول و إنما سبيل مع الرسول إلى اللَّه، هل لأن الرسول لا يكفي سبيلا إلى اللَّه حتى يثنّى بسبيل معه؟ أم إن السبيل معه هو القرآن؟ و القائل: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا، لا ينقصه إلّا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في ستة عشر موضعا من «ذي القربى» و «ذوي القربى» و «أُولُوا الْقُرْبى‏» و «ذا قربى» و «اولى قربى».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 183

سبيل مع الرسول، و أما الرسول و القرآن فهما توأمان، حيث الإيمان بأحدهما إيمان بالآخر، و القرآن هو الدليل لرسالته، فكيف يتخذ الرسول سبيلا دون القرآن، فالسبيل هنا ليس هو الرسول و لا القرآن، و إنما هو سبيل إلى رسول القرآن. و قرآن الرسول فإلى اللَّه، و ليس إلّا «الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏»: الأقربين إلى الرسالة، فإن مودتهم- لأنهم أبواب مدينة علم الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)- تتبع اتخاذهم سبيلا مع الرسول و كما تواتر

عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «أنا مدينة العلم و علي بابها».

ثم و لا تعني القربى- و بأحرى- أقربية الرسول إليهم‏ «1» و لا أقربيتهم إليه، لو تعني قرابة نسبية أم ماذا من غير الرسالية، فإنها ليست لهم و لصالحهم في اتخاذها سبيلا إلى ربه، على أن المخاطبين و هم المؤمنون برسالته آمنوا به لرسالته و هي قربى روحية فهي أقرب و أحرى في المودة من القربى غير الروحية الرسالية. «2»

فالمودة في القربى- التي لها صلة بأجر الرسالة و ليست به فإنها لهم، و هي ممن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا- إنها ليست هي الرسالة حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في الدر المنثور 6: 6- اخرج ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال لهم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لا اسألكم عليه اجرا الا ان تودوني في نفسي لقرابي منكم و تحفظوا القرابة التي بيني و بينكم-

أقول و هذا خلاف المستفاد من القربى كما عرفناها من الآية و خلاف النقل المتواتر عن ابن عباس نفسه و خلاف اجماع اهل البيت (عليهم السلام).

. (2)

نور الثقلين 4: 578 ح 85 في روضة الكافي باسناده عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: و قال لأعداء اللَّه اولياء الشيطان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 184

صدقوها، و ليست أجرا لنفسها، اللهم إلا تعرّفا سليما إلى الرسالة و استمرارية لها و ليس إلّا ب «الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏» عترته (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الأقربون إليه في معرفة الرسالة و حملها.

هنالك مودة في الرسالة تجعلهم يتعلمون من الرسول و يطيعونه كما يستطيعون حسب ما يودون رسالة اللَّه و يحبون اللَّه: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» (3: 31) و هذه المودة تتطلب مودة السبل إلى الرسالة و مدينة علم الرسول، و ليست إلّا «الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏» حيث تقربهم إلى الرسول فإلى اللَّه زلفى، ثم لا نجد قربى إلّا هيه، اللهم إلّا واهية، إلّا قربى اللَّه و ليست لغير المعصومين اللّهم إلا سبلا إلى اللَّه، و هم السبيل الأعظم و الصراط الأقوم، و هم أهل بيت النبوة، و موضع الرسالة، و مهبط الوحي، و معدن الرحمة، و هم الدعوة الحسنى، و حجج اللَّه على أهل الدنيا و الآخرة و الأولى، و هم الدعاة إلى اللَّه، و الأدلّاء على مرضات اللَّه، و المستقرين في أمر اللَّه و التأمين في محبة اللَّه.

في الحق إن المودة في القربى ليست أجرا للرسالة، و إنما هي طلب المزيد من تصديق الرسالة بالمودة في الملاصقين الأولين بالرسالة، ودا تحملهم على ملازمتهم في الأخذ عنهم أهل البيت، فأهل البيت أدرى بما في البيت!.

فلأن الأجر هو أجر الرسالة لا أجر محمد إلا كرسول، فلتكن المودة في القربى هي في قربى الرسالة: من هو أقرب إليها من بيت الرسالة، ثم و هو لهم كمؤمنين بالرسالة و هو ممن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا، لا قرب محمد كسائر البشر إليهم و لا قربهم إليه، فإن المودة في هذا القرب و ذاك ليست إسلامية و لا تمتّ بصلة لرسالته أم ماذا؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 185

ثم المودة في قرباه إليكم ليست إلّا له لا لهم‏ «قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ» كذلك هي و المودة في قرباهم إليه ليست اتخاذ سبيل إلى الرب اللهم إلّا قربى الرسالة، سبيلا إليها فإلى اللَّه و هي الأئمة من عترته (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

فلئن قلت لا قربى أقرب من قربى اللَّه فلتكن هذه المودة في قربى اللَّه‏

«أن تتقربوا إليه بطاعته» «1»؟

قلنا: كما المودة في طاعة اللَّه تحملكم عليها ثم قربى بها إلى اللَّه، كذلك المودة في الأدلّاء إلى الرسول فإلى اللَّه، فلولا معرفة الرسول و الرسالة كاملة لم تعرفوا طاعة اللَّه حتى تقربكم إلى اللَّه زلفى‏ «قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى‏ رَبِّهِ سَبِيلًا» فلو كان السبيل إلى الرب هي الطاعة المعروفة لكل أحد فكيف يسألهم المودة فيها كأجر الرسالة، فإنما هذه سبيل جديدة يعرّفها لهم حيث هم يعلّمونهم ما خفي عنهم و عزب عن علمهم فهم أبواب مدينة علم الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

«وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً» تصديقا للرسالة الإلهية، و تذرعا بالمودة في القربى إليها فإلى اللَّه زلفى، أم ماذا من حسنة عقائدية أو عملية؟

«نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً» حسنا على حسنة نورا على نور «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» حيث التقصير و القصور في اقتراف حسنة لمن استغفر و أناب‏ «شَكُورٌ» لمن يقترف حسنة، و لمن يتوب بعد السيئة و قد «يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ» (25: 7).

و لقد كانت هذه الآية الغرة اليتيمة تذكرة لهم أمام مشهد روضات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 6- اخرج احمد و ابن أبي حاتم و الطبراني و الحاكم و صححه و ابن مردوية من طريق مجاهد عن ابن عباس عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في الآية: قل لا اسألكم على ما اتيتكم به من البينات و الهدى اجرا إلّا ان تودوا اللَّه و ان تتقربوا اليه بطاعته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 186

الجنات و حرية المشيآت فيها، و هي حصيلة الدعوة الرسالية الصعبة الملتوية ليل نهار، ذكرى أنه لا يسألهم على هذا أجرا إلّا المودة في القربى و هي لهم، و إلّا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا.

لقد كان الاستثناء منقطعا معنويا حيث المودة هذه لم تكن أجرا، و إن كان متصلا لفظيا حيث سماها أجرا و ما هي بأجر، ثم و ليس مجرد عدم تناول الأجر بل و يتناولون هم أجرا و زيادة «وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً ..»! ثم و من بعد الأجر و زيادته غفرا و شكرا.

فخصيصة هذه المودّة أنها ليست أجرا له، و هي لهم، و هي السبيل إلى ربهم، و ليست القربى أشخاصا، و إنما هي الأقربية إلى الرسول رساليا و إلى اللَّه بعد الرسول معرفيا و عبوديا، المتمثلة في الأئمة من عترته المعصومين صلوات اللَّه عليه و عليهم أجمعين، و الحمد للَّه الذي هدانا لهذا و ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللَّه.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى‏ قَلْبِكَ وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (24).

هذه الآية لا تمت بصلة لآية الأجر إلّا كونها موضع ريبة لجماعة من المسلمين، كما القرآن كله عند الناكرين، قولة في الجو الإسلامي الذي لم يسلم تماما عن الانحراف ممن ثقلت عليهم المودة في القربى‏ «1» حيث قلبها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 576 ح 82 في تفسير علي بن ابراهيم بسند عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول‏ في قول اللَّه عز و جل: قل لا اسألكم عليه اجرا .. الى ان قال: ففرض اللَّه عليهم المودة في القربى فان أخذوا أخذوا مفروضا و ان تركوا تركوا مفروضا قال: فانصرفوا من عنده و بعضهم يقول: عرضنا عليه أموالنا فقال لا- قاتلوا عن اهل بيتي من بعدي و قالت طائفة: ما قال هذا رسول اللَّه و جحدوه و قالوا كما حكى اللَّه عز و جل: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً»- فقال عز و جل: «فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 187

بعضهم الى العداوة كما عادوا النبي كالمنافقين، و آخرون مذبذبون عوان دون عناد و لا وداد إلّا مودة كسائر المسلمين أو هي أعلى دون أن تتخذ إلى الرب سبيلا، ثم قليل منهم متعهدون.

ثم قولة لغير المسلمين إن القرآن ككلّ مفترى على اللَّه، «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» (10: 38) «.. فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ» (11: 13) «.. إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَ أَنَا بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ» (11: 35) «.. إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» (46: 8).

أو أن بعضه مفترى كالمودة في القربى عند البعض من المسلمين، أم ماذا من غير المرغوب عندهم حيث يقولون: «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ ..» (10: 15) و الجواب الحاسم هنا و في الحاقة: «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ. وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» (49).

و «أم» هنا عطف إعراض عما لا يستحق الذكر كأن كذب اللَّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يَخْتِمْ عَلى‏ قَلْبِكَ» قال: لو افتريت‏ «وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ» يعني: يبطله‏ «وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ» يعني بالائمة و القائم من آل محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ».

و

في الدر المنثور 6: 7- اخرج الطبراني و الخطيب من طريق أبي الضحى عن ابن عباس قال: جاء العباس الى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال: انك تركت فينا ضغائن منذ صنعت الذي صنعت فقال النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لا يبلغوا الخير او الايمان حتى يحبوكم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 188

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ ..». فهنالك مفترون على اللَّه الكذب من غير رسل اللَّه، و هم مفضوحون إذ لا حجة لهم- فيما يفترون- باهضة، إلّا داحضة، و هم لا يصدّقون في صدقهم على اللَّه دونما رسالة إلهيه أم ماذا، فكيف يصدّقون في فريتهم على اللَّه.

و أما أن رسولا صادق الرسالة بآياته يفتري الكذب على اللَّه، ثم اللَّه يستمر في رسالته دون أن يأخذ منه بيمين القدرة و يقطع عنه وتين الرسالة، فهذه خيانة إلهية ان يأتمن الخائن في رسالته، و إضلال في موقف الهداية.

«إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» لا يرسل و يأتمن الخائن، و لو أرسل من تتأتى منه الخيانة فليختم على قلبه، قلبا لقلب الرسالة و لسانها و أحوالها و آياتها إلى غيرها، حسما لمادة الخيانة، ثم قلبا إلى غير الايمان جزاء بما خان.

و سنة اللَّه دائبة على محو الباطل و إحقاق الحق أيا كان و من أي كان، فهلا يمح الباطل من رسول الحق، و هلا يحق الحق في رسول الحق؟ أجل:

«وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ» بكلماته‏ «وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ».

علمه بذات الصدور لا يدعه يرسل الخونة، و لو أرسل فلأنه يعلم موضع الخيانة يختم على قلب الخائن، و لأنه يعلم الحق و الباطل ككل، «يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ» و دلالاته.

فما كان اللَّه ليخفى عليه ما يدور بخلد الرسول قبل أن يرسله أو يقول، فكيف بما بعده‏ «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ»! وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (25) وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ الْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (26).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 189

و «هو» لا سواه‏ «الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ» فلما ذا القنوط من رحمته و اللجاج في معصيته او اللجوء إلى سواه، فباب التوبة مفتوحة على مصراعيها لمن تاب إلى اللَّه، و قبول التوبة لمن أرادها، أن يتوب اللَّه على العاصي ليتوب إلى اللَّه ثم يتوب اللَّه عليه ليقبلها عنه: «ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (9: 118) «وَ أَرِنا مَناسِكَنا وَ تُبْ عَلَيْنا» (2: 128) و التوبة الصالحة هي بعد الاستغفار: «وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» (11: 3) و من بعد التوبة الإيمان و الاهتداء و العمل الصالح: «فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ» (5:) 39) «وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى‏» (20:) 82).

و قد تنتهي التوبة إلى الاجتباء كما في آدم: «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» (20: 122) فقد عصى فتاب إلى اللَّه فتاب اللَّه عليه ثم هداه هدى ثانية بعد ما اهتدى في توبته ثم اجتباه بالرسالة.

«وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ» و ترى العفو هنا عن السيآت بتوبة؟ و قبول التوبة يشمله! أم دون توبة فكيف هو؟! إن السيآت هي ما دون الكبائر، و العفو عن السيآت دون توبة موعود شريطة اجتناب الكبائر: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (4: 31) فمقترف الكبائر و السيآت دون توبة لا تعفى عنه السيآت دون توبة.

«وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» اللَّه فيما دعاهم إلى دينه و التوبة إليه كما «وَ يَسْتَجِيبُ» اللَّه دعاءهم و توبتهم‏ «وَ يَزِيدُهُمْ» في استجابتهم إياه و استجابته إياهم‏ «مِنْ فَضْلِهِ» و أما «الْكافِرُونَ» «لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ» إذ لم يستجيبوا لربهم فلا يستجيبهم ربهم، و لهم عذاب شديد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 190

و قد تعني التوبة هنا- و الاستجابة فيما تعني- توبة من تقوّل عليه أنه افترى آية القربى على اللَّه كذبا و استجابته‏ «1».

وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27). و لكن:

«يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً» (17:) 30) «إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى‏. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى‏» (96: 7).

فلأنه تعالى بعباده خبير ما هي طبيعتهم، و بصير إلى ما تصير حالتهم لو بسط في رزقهم ككل، لذلك جرت سنته على أن ينزل من رزقه لهم بقدر: كميّة معيّنة معنيّة، و هندسة خاصة مقضية، من سعة و قدر و عوان بين ذلك.

فغزارة الحياة الأخرى للمؤمنين أن رزقهم كما يشتهون ولدي اللَّه مزيد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين في المجمع و ذكر ابو حمزة الثمالي في تفسيره حدثني عثمان بن سعيد بن عمير عن سعيد بن جبير عن عبد اللَّه بن عباس‏ ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حين قدم المدينة و استحكم الإسلام قالت الأنصار فيما بينهم: نأتي رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فنقول له ان تعرك امور فهذه أموالنا تحكم فيها غير حرج و لا محظور عليك فأتوه في ذلك فنزلت‏ «قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏» فقرأها عليهم و قال: تودون قرابتي من بعدي فخرجوا من عنده مسلمين لقوله فقال المنافقون: ان هذا شي‏ء افتراه في مجلسه أراد ان يذللنا لقرابته من بعده فنزلت‏ «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً» فأرسل إليهم فتلاها عليهم فبكوا و اشتد عليهم فأنزل اللَّه‏ «وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ» الآية فأرسل في اثرهم فبشرهم و قال: و يستجيب الذين آمنوا- و هم الذين سلموا لقوله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 191

مصلحة لهم إذ لا تنازع هناك و لا طغوى و بغي حيث يخرج أضغانهم فهم صالحون.

و نزارة الحياة الدنيا بجنب تلك الغزارة لحد لا تحسب بشي‏ء، هذه النزارة مهندسة مقدرة لهم بقدر، فإن الخبير البصير يعلم أن عباده كهؤلاء البشر لا يطيقون الرزق إلّا بقدر، فهم صغار لا يملكون التوازن حيث هم في بلاء الأرض، فسيبقى فيضه المبسوط بغير حساب لمن ينجحون في محنة الدنيا و ابتلائها، و قد يبسط هناك لمن لا ينجحون و يبغون بسنن أخرى حاكمة على هذه السنة، كسنة تعجيل العاجلة لمن كان يريدها دون الآجلة توفية الجزاء فيها: «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (11: 18).

و سنة الاستدراج و الإملاء: «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (7: 182).

فسنة الإصلاح ككلّ بتقدير الأرزاق، سنة ابتدائية عامة تتبنى صالح المجموعة، و سنة الاستدراج و توفية الجزاء، سنة هامشية خاصة لمن يستحقونها.

ففي حديث قدسي: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم و لو صححته لأفسده و إن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة و لو أسقمته لأفسده و إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى و لو أفقرته لأفسده و إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر و لو أغنيته لأفسده و ذلك اني أدبر عبادي لعلمي بقلوبهم» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 579- عن مجمع البيان روى انس عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عن جبرئيل عن اللَّه:.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 192

«لو فعل لفعلوا و لكن جعلهم محتاجين بعضهم إلى بعض و استعبدهم بذلك و لو جعلهم أغنياء لبغوا و لكن ينزل بقدر ما يشاء مما يعلم أنه يصلحهم في دينهم و دنياهم إنه بعباده خبير بصير «1».

و

قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا و زينتها فقال له رجل يا رسول الله أو يأتي الخير بالشر؟ فقال إن الخير لا يأتي بالشر و إن مما ينبت الربيع يقتل حبطا او يلم إلا آكلة الخضر فإنها أكلت حتى امتلأت خاصرتاها فاستقبلت عين الشمس فثلطت و بالت ثم رتعت، و إن المال حلوة خضرة، و نعم صاحبها المسلم هو ان وصل الرحم و أنفق في سبيل الله و مثل الذي يأخذه بغير حقه كمثل الذي يأكل و لا يشبع و يكون عليه شهيدا يوم القيامة» «2».

و في نص آخر عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) جواب آخر هي هذه الآية «وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ ..» ثم استمر في جوابه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر في تفسير علي بن ابراهيم في الآية عن الصادق (عليه السلام).

(2)

الدر المنثور 6: 8- اخرج احمد و الطيالسي و البخاري و مسلم و النسائي و ابو يعلي و ابن حبان عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و بين سؤال السائل و جوابه- فسكت عنه رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فرأينا انه ينزل عليه فقيل له ما شأنك تكلم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و لا يكلمك فسرى عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فجعل يمسح عنه الرخصاء فقال: اين السائل فرأينا انه حمد فقال: ...

(3) المصدر اخرج ابن جرير عن قتادة في الآية ذكر لنا ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 193

وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28).

الغيث هو ما يغيث العطاش نشطا بعد فتور الى نعاش، إن روحيا فأنبل و أحرى، و إن جسميا عن كبد حرّى، فهو المغيث هنا و هناك لا سواه، «مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا» عن ريّ، و دخلوا في غيّ‏ «وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ» بغيث يغيث جسما أم روحا «وَ هُوَ الْوَلِيُّ» الذي يلي من أمر عباده ما لا يليه إلّا هو، و لا يقدر عليه إلّا هو، «هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ» حميدا في ولايته دون قصور و لا تقصير.

«وَ مِنْ آياتِهِ» في ولايته الحميدة الرحيمة «خَلْقُ السَّماواتِ ..»:

[سورة الشورى (42): الآيات 29 الى 53]

وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (29) وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (30) وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (31) وَ مِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (32) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى‏ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33)

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34) وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35) فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36) وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَ الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورى‏ بَيْنَهُمْ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (38)

وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (42) وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43)

وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى‏ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (44) وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ قالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (45) وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَ إِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (48)

لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50) وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51) وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لا الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 197

وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (29).

آية غرة بين الغرر، تأتي بملاحم غيبية لم تسطع البشرية حتى الآن أن تتطلعها فتطّلع عليها، رغم سبرها الأغوار العميقة الواسعة في أرجاء الكون بالأسفار الجوية و سواها من وسائل حديثة، فلم تسطع إلّا على أشراف مما تحمله هذه الآية القصيرة من غرر:

1- إن في السماوات دوابا كما في الأرض: هذه أم سائر الأرض من السبع، كما في السماوات السبع- 2- و منها عقلاء كإنسان هذه الأرض- 3- و اللّه سوف يجمع بين عقلاء السماوات و الأرض!!!.

أسرار مستسرة لم ينفذ إلى طبيعتها أحد، فضلا عن التطلّع إلى إنشاءها و كيفياتها، فكل المحاولات العلمية التي بذلت للبحث عن حياة في السماء حتى النباتية، فضلا عن أحياء فيها حيوانية أم إنسانية أم ماذا إنها أغلقت دونها الأبواب، و انحسرت عندها الأسباب، حيث انقلب البصر إلى أهلها خاسئا و هو حسير.

إنسان الأرض لم يحط علما لحد الآن بدواب الأرض و هو ساكنها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 198

و ماكنها، فكيف له التطلّع إلى السماء ليرى ساكنها و ماكنها، اللّهم إلّا أن يطلعه إله الأرض و السماء كما في هذه الآية و أضرابها، حيث تبث فيهما من دابة بعد خلقها، ثم تجمعهما هنا و ليوم الجمع في هذه اللمحة اللامعة، فيشهد القلب مشاهد ثلاثة أو أربعة قبل أن ينتهي اللسان من آية واحدة قصيرة من الذكر الحكيم!.

و ماذا تعني دابة السماوات و الأرض؟ ... إن الدبّ- لغويا- مشي خفيف، و الدابة و هي المبالغة فيه، تعني الماشية فوق الخفيف، و أرض مدبوبة: كثيرة ذوات الدبيب فيها، فالدابة- إذا- حيوان يمشي على أرض مّا في أرض أم سماء: «وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى‏ بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى‏ رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى‏ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» (24: 45).

إذا فكل دابة تمشي، فلا تطير في جو الأرض: «وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ..» (6: 38) و لا في جو السماء كالملائكة: «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ» (16: 49) و هذه الآية تكفي نصا على أن الدابة لا تشمل الملائكة، و تأخر الملائكة هنا ذكرا على تقدمها شأنا علّه للإطاحة باحتمال تخصص الدابة بالأرض.

و فيما تطلق الدابة تعني كل دابة في الكون، بثّا لها كما هنا، أو أخذا بناصيتها: «ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها» (11: 56) أو خلقا لها من ماء مشيا على بطن أو رجلين أم أربع (24: 45) أم قضاء عليها كلها لولا أجل مسمى بظلم ناسها: «وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى» (16: 61) أم رزقا لها حيث لا تحمل رزقها: «وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 199

وَ إِيَّاكُمْ» (29: 60).

اللّهم إلّا بقرينة قاطعة تحصرها بالأرض: «وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ..» (6: 38) و 11: 6) «فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ..» (2: 164) هذه الأرض أم كل السبع إلّا بقرينة تخصها: «فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى‏ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ» (34: 14) «وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ» (27: 82).

«ما بَثَّ فِيهِما» هنا و في أضرابها تدلنا على وجود دواب في السماوات كما في الأرض، أ ترى أن فيها دابة الإنسان حيث يمشي على رجلين أم ماذا كما في الأرض؟

أجل! لمكان «هم» في «جمعهم» هنا حيث ترجع إلى ذوي العقول دون «ها» فإنها لغير ذوي العقول، و قد يكون من «هم» ناس‏ «وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى» (16: 61) فحيث لا مرجع هنا للضمير «عليها» فلترجع إلى الدنيا كلها من أرضها و سماءها، كما و هما تذكران بآيات قبلها «وَ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً ..» (52) فالناس المأخوذون هنا لولا أجل مسمى هم ناس السماوات و الأرض، و دليلا ثانيا إن دواب السماوات لا تؤخذ بما ظلم ناس الأرض، فأخذ الدابة بما يظلم الناس أخذ لما ينفع الناس مع الناس.

و قد تعني آية الحج من ثالث الثلاثة في المساجد كثيرا من ناس السماوات و الأرضين: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ ..» (18) «مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 200

ملائكة أو إنسان أم أية دابة أم من ذا؟ «وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ» و غيرهما من نجوم السماء «وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ» من الأرض و السماء. «وَ الدَّوَابُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ» فيهما اختيارا «وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ» تكوينيا و اضطرارا.

و إذا السجدة هنا تعم ذوي العقول و سواهم ففي النحل يخصهم دون سواهم: «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» (50) حيث تتأخر الملائكة الساجدة لكي تعم الدابة الساجدة السماوات و الأرض» و هم لا يستكبرون يخافون ..!

ثم الدابة العاقلة بين دواب السماء قد تكون إنسانا يمشي على رجلين أم ماذا؟ فلا مشاحة في الأسماء، أم تكون أيا كان من العقلاء من جان أمن ذا، فالعالمون في آياتهم دليل على فرقة ثالثة بعد الإنس و الجان- لأقل تقدير- قضية أقل الجمع.

ففي (73) موضعا من آي الذكر الحكيم يأتي العالمون و العالمين جمع العالم و هو العاقل ممن سوى اللّه، نعرف من هذا الجمع عالم الإنس و الجن و لا نعرف ثالثا أم زاد إلا إجمالا من آية البثّ و البعض من آيات الدابة و آيات العالمين: ك «رَبِّ الْعالَمِينَ» و «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ» (3: 33) مما يدل على أفضلية هؤلاء المرسلين على مرسلي الجن و سائر العالمين، كما القرآن و رسوله: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى‏ لِلْعالَمِينَ» (6: 90) ذكرا و رسالة لعامة المكلفين و رحمة: «وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ» (21: 107) و نذارة: «تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى‏ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً» (25: 1).

و قد تدلنا روايات عدة على مدن سماوية كما

يروى عن الإمام علي (عليه السلام): «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 201

الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمودين من نور طول ذلك العمود في السماء مسيرة مائتين و خمسين سنة» «1».

و

عن الإمام الصادق (عليه السلام) في كل واحدة من السماوات السبع خلقا كثيرا و كذا في ما بينها» «2».

و كما

عن الرسول الأقدس (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «رأيت في السماء السابعة ميادين كميادين أرضكم هذه» «3»

فالميادين كميادين أرضكم و المدائن مثل التي في الأرض و الخلق الكثير و البقاع الكثيرة و المساكن الطيبة، كل ذلك تؤيد أن «هم» في آية البث تعني وجود عقلاء في السماوات كما في الأرض و كما تدلنا متظافر الروايات‏ «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير علي بن ابراهيم القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عنه (عليه السلام).

(2) بحار الأنوار عن كتاب مثنّى ابن الوليد الحفاظ عن أبي بصير عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

(3) البحار عن الفخر الرازي باسناده عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

(4) و

عن الصادق: «ان اللّه تعالى خلق بقاعا كثيرة و مساكن طيبة فخلف مغربكم هذا تسعة و ثلاثون مغربا، مدينة تشرق فيها الشمس و تغرب و هي مملوءة من خلق عقلاء يتمتعون بمعرفة اللّه و نعمته لم يدنس ساحتهم اثم و لا خبرة لهم عنه.

و

عن باقر العلوم (عليه السلام): «ان وراء شمسكم هذه أربعون عين شمس بين كل واحدة أربعون سنة و في كل منها خلائق كثيرون لا يدرون هل خلق اللّه آدم ام لا، و ان وراء قمركم هذا أربعون قمرا و بين كل واحدة أربعون سنة فيها خلائق كثيرون لم يطلعوا على خلق الإنسان و لقد الهمهم اللّه كمثل النحل غريزة سنن المعيشة (تفسير القمي).

و

في مجمع البحرين نقلا عن الفخر الرازي في جواهر القرآن عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان للّه أرضا بيضاء تسير الشمس فيها ثلاثين يوما وسعتها ثلاثين اضعاف أرضنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 202

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و روى الشيخ ابو الليث السمرقندي (373 ه) في كتابه عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مثله بزيادة ان هذه الأرض مليئة من الأحياء.

و

في بحار الأنوار و بصائر الدرجات عن الإمام الصادق (عليه السلام) ان وراء أرضنا هذه ارض بيضاء نورها منا يعيش فيها خلق يعبدون اللّه و لا يشركون به أحدا.

و

يروى المفيد في الاختصاص عن الإمام الصادق (عليه السلام) ان عليا (عليه السلام) سار الأرضين السبع ثلاث خربة و اربع عامرة، و روى مثله في بصائر الدرجات، و عن الإمام الباقر (عليه السلام) مثله في ذو القرنين.

و

يروى الصفار في البصائر عن الإمام الباقر (عليه السلام) ان صاحبكم يركب الصعب و يرقى في السماوات السبع و الأرضين السبع خمس عوامر و اثنتان خربتان.

و

في زيارة العاشور «فلقد عظمت بك الرزية وجلت في المؤمنين و المسلمين و في اهل السماوات و اهل الأرضين أجمعين.

و

يروى الصدوق في كتاب التوحيد عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان لسائر الأرضين السبع سكنة و قرء: «خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ».

و

في البحار عن السرائر باسناده عن بريدة الأسلمي عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في حديث المعراج: يا علي! ان اللّه أشهدك معي سبع مواطن- الى ان قال- في الموطن الثاني اتاني جبرئيل فأسري بي الى السماء ... فكشط لي عن السماوات السبع و الأرضين السبع حتى رأيت سكانها و عمّارها و موضع كل ملك منها فلم أر شيئا من ذلك الأوقد رأيته كما رأيته.

أقول: ليس السكان و العمار هنالك من الملائكة فإنهم لا يمشون في الأرض: «قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا» (17: 97).

و

في البحار (6: 507) عن أبي بصير عن الصادق (عليه السلام) ان جبرئيل احتمل رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)- الى ان قال في حديث المعراج- .. ثم صعد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 203

و ترى ان استعمال «هم» أحيانا في غير ذوي العقول بمحسنات مجازية، يهدم صرح دلالتها على ذوي العقول دون قرينة كما قيل‏ «1».

كلّا، و إنها ضابطة لغوية أن «هم» أيا كان لا تعني إلّا ذوي العقول، أو هم مع غيرهم من غير ذوي العقول قضية التغليب، اللهم إلّا بقرينة قاطعة تصرف «هم» عنهم إلى سواهم، و لا نجد هذا الأخير إلّا في‏ «وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (36: 40) حيث السباحة العاقلة هكذا تسمح إرجاع ضمير العاقل إلى هذه السابحات، إذ تسبح دون فتور و لا اصطدام و أعقل من العقلاء، حيث تسبح بأمر خالق العقلاء! ثم و نجد الجمع بين العقلاء و سواهم في آيات: «وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْ‏ءٍ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» (6: 38) ف «هم» راجع إلى «دابة» إذ تشمل العقلاء و سواهم، و كذلك «من» في آية النور «وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ» .. من .. من .. فإن «كل دابة» تشمل الإنسان و سواه من دابة عاقلة و سواها، فليكن موصوله موصول ذوي العقول.

إذا ففي السماوات دواب عاقلة و سواها و كما في الأرض‏ «وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ»:

فهل إن هذا الجمع يعني جمعهم يوم الجمع؟ و يوم الجمع لا يخص‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بي الى السماء السادسة فإذا فيه خلق كثير يموج بعضهم في بعض، ثم صعد بي الى السماء السابعة فإذا فيه خلق كثير و ملائكة .. و فيها الكروبيون.

و

فيه عن مثنى بن وليد الخياط عن الصادق (عليه السلام) قال: في كل من السماوات السبع خلق و بينها خلق، قلت: و كيف الأرض؟ قال: سبع أرضون في خمس منها خلائق و ليس في الأخريين.

(1). القائل هو العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 204

العقلاء كما تدلنا آية الأنعام‏ «ثُمَّ إِلى‏ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ»: كل دابة، و لم يستحقوا هنا ضمير العاقل إلّا لأنهم أمم أمثالنا في الأولى و من ثم يحشرون يوم الأخرى! أم يخص الجمع يوم الدنيا في أسفار جوية متقابلة بين عقلاء الأرض و السماء؟ فلأنه جمع بعد البث، و أنه جمع للبعض من المجموعين ليوم الجمع‏ «1» فليكن في الأولى، أم نجمع بين الجمعين، في الأولى للعقلاء و في الأخرى لكل دابة.

فقد جمعت هذه الآية على اختصارها ملاحم غيبية من وجود دواب في السماوات كما في الأرض، و لزامها الماء و الكلاء و الهواء حيث تتبنى حياة الدواب، و من عقلاء الدواب إنسانا أم من ذا، و ان اللّه سوف يجمع بين عقلاء السماوات و الأرض، هل في تسافر إلى بعض بالسفن الفضائية فيجتمعان بين السماوات و الأرض، أم يسبق إنسان الأرض إنسان السماء إلى السماء أم إنسان السماء إلى إنسان الأرض؟ لا ندري!.

و ترى الأوامر التشريعية خاصة بأرضنا هذه أم تعم كافة العقلاء المكلفين في أرجاء الكون؟ .. في بحث مسبق عن الآية «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏ وَ مَنْ حَوْلَها ..» عرفنا أن الرسالة الإسلامية تشملهم كلهم كما الرسالات التي قبلها، و فيما

يروى عن الإمام الرضا (عليه السلام) «فأما صاحب الأمر فهو رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و الوصي بعد رسول الله قائم على وجه الأرض فإنما يتنزل الأمر إليه من فوق السماء من بين السماوات و الأرضيين» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حيث الجمع هناك يخص الدابة بل و الطير و الملائكة و غيرهما من غير الدابة.

(2)

رواه علي بن ابراهيم القمي عن أبيه عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 205

و قد يعنيه ما

يرويه ابن عباس‏ «سبع ارضين في كل ارض نبي كنبيكم و آدم كآدم و نوح كنوح و ابراهيم كإبراهيم و موسى كموسى و عيسى كعيسى» «1».

إن وجود الحياة العاقلة و سواها في سائر العوالم قد يكون من الواضح و في صورة مبهمة قبل أن يدل عليه دليل الوحي أم دليل علمي آخر، فمن البعيد كل البعد انحصار الحياة في هذه الكرة الصغيرة الهزيلة، ثم لا حياة في بليارات من الكرات!.

نظرة ثانية إلى الآية:

«وَ مِنْ آياتِهِ» آيات علمه و رحمته و قدرته، و آياته الدالة على أن هذا القرآن نازل بعلمه، و آياته الدالة على وجوده أم ماذا من دلالات بينات:

«خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» جنس الأرض الشامل لسائر السبع‏ «2».

«وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ»: أخلقا ثم بثّا لما خلق؟ أم بث الخلق أن خلق في كلّ ما خلق؟ .. إن بثه تعالى يعمهما، و قد يشهد الواقع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(عليه السلام) حول الآية «الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ» قلت: نحن على ارض واحدة؟ قال: نعم.

(1). الدر المنثور 6: 238- اخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه و البيهقي في الشعب و في الأسماء و الصفات عن أبي الضحى عن ابن عباس في قوله: «وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ»: ...

أقول: راجع ج 28 من الفرقان ص 418- 424 تفسير الآية «وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ».

(2) قد يطلق الأرض و يراد بها هذه الأرض بقرينة تصرفها عن جنسها، او تطلق و يراد بها جنسها الشامل للسبع، كما السماء قد تعني جو الأرض، او السماء الأولى او السماوات السبع كلها، كما السماوات تعني السبع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 206

الملموس عندنا أنه بث الخلق، إذ لم نر خلقا هنا يصعد إلى السماء! و لكنما الآية بمضيّها تعني ماضي البث‏ «ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ..» (18: 51) فضلا عن أن يلمسوا بث الخلق أم بثا لما خلق- اللهم إلّا أبا البشر و أمه حيث القرآن يهبطهما إلى الأرض- لا بثهما بعد خلقهما، أو يقال: اسكتوا عما سكت اللّه عنه، اللّهم إلّا أن كل دابة تحتاج جوا يناسبها، فإنسان الأرض لا يسطع الحياة على القمر أم ماذا، فأحرى بالبث أن تعني هنا بث الخلق.

وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (30).

المصيبة في الأصل هي الرمية التي تصيب الهدف، ثم اختصت بالنائبة، اعتبارا أنها ليست رمية من غير رام، و هذه الآية تختص كل نائبة بما كسبت أيديكم، و إن كانت من عند اللّه، فإنها من أنفسكم، يرميكم بنصلكم الذي كسبتم، إذا فهي رمية قاصدة برام عادل و أن اللّه ليس بظلام للعبيد.

هناك فرق بين الحسنة و السيئة أن الحسنة من اللّه و من عند اللّه، و لكنما السيئة هي من أنفسكم ثم من عند اللّه: «ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» (64: 11) «وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً. ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ..» (4: 79).

و ترى إذا كانت المصيبة الداهية هي بما كسبتها و رمتها أيدي المصابين بها جزاء بما كسبت، فكيف تلائم كون الدنيا دار عمل و الآخرة دار جزاء؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 207

و الجواب: أن الدنيا دار عمل ككل و يجزى فيها أحيانا، و الآخرة دار جزاء ككل، و مصائب الدنيا قد تمحو من سيئات او تحذّر أصحابها من عقوبات‏ «أَ وَ لَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هذا» (3: 165) أو أنها إصابة استئصال لسيئات موبقات لا تحمل حيث لا تحملها الحياة الجماهيرية: «فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» (16: 34) «فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ» (39: 51).

ذلك و لكن اللّه ليس ليصيب الذين كسبوا السيآت بكل ما كسبوا، فقد «يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» هنا حتى يستوفيها في الأخرى، أم‏ «يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» إذا اجتنبوا كبائر ما ينهون عنه: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ» (4: 31) ثم الإصابة ببعض ما كسبوا إنذار عليهم كيلا يتورطوا.

و ترى هؤلاء المسيؤون تصيبهم بعض ما كسبوا فما بال المعصومين يصابون بما لم يكسبوا، و ما بال غيرهم من الصالحين يصابون فيما تصاب جماهير بينهم عصاة، أو من يصابون في سبيل للّه جرحا او قتلا او تشريدا أم ماذا؟.

الجواب: أن «كم» في‏ «ما أَصابَكُمْ» و في‏ «فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» قد تعني الجمع و جاه الجمع، في فتنة و مصيبة «لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» (8: 25) فبما كسبت أيدي الظالمين هم يصابون مع غير الظالمين، أولاء لهم رحمة و هؤلاء عليهم نقمة، فقد أصابتكم مصيبة بما كسبت أيديكم فليست إذا داهية و مصيبة من اللّه دون رامية، فالظالمون يرمون و هم يصابون مع غير الظالمين، ف «كم» في الرامية أخص من «كم» في المصابين، ثم الذين يصابون في سبيل اللّه ليس اللّه ليجرحهم او

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 208

يقتلهم بسيئاتهم، و إنما هم يصابون بسيئات الظالمين الصادين عن سبيل اللَّه، ف «كم» في‏ «فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» هم الرامية الظالمون، و في‏ «ما أَصابَكُمْ» هم المرميون المظلومون، أولاء لهم ما لهم، و هؤلاء عليهم ما عليهم،

«إن الله يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب» «1»

او يقال إن إصابة البريئين أيضا هي بما كسبت أيديهم من حسنات، فقد تكسب اليد حسنة يمانعها السيئون، و هذه الممانعة و المطاردة نتيجة طبيعية في هذه الحياة الدنيا، و على الذين يصابون مظلومين الدفاع الصارم ما أمكن‏ «وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ» (42: 39) و التصبّر على المصيبات في سبيل اللَّه: «ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها ..» (57: 22) «.. وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ. أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» (3: 57) «وَ اصْبِرْ عَلى‏ ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» (31: 17) «فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ما ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكانُوا.» (3: 146) «الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ» (3: 172) «الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلى‏ ما أَصابَهُمْ» (22: 35).

فقد يصيب الإنسان داهية في جماعة بما رماه البعض منهم، أو تصيبه بما رماه نفسه، أو تصيبه في سبيل اللَّه بما يرميه الصاد عن سبيل اللَّه، و قد تشمل كلها «وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ ..» على اختلاف درجات الدلالة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 581 ح 98 عن الكافي باسناده عن علي بن رئاب قال: سألت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) عن هذه الآية «أ رأيت ما أصاب عليا و اهل بيته (عليه السلام) من بعده اهو بما كسبت أيديهم و هم اهل بيت طهارة معصومون؟ فقال: ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كان يتوب الى اللَّه و يستغفر في كل يوم و ليلة مائة مرة من غير ذنب ان اللَّه يخص ... و عن قرب الاسناد عن عبد اللَّه بن بكير مثله‏

الى- من غير ذنب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 209

و إنها أرجى آية للمؤمنين الذين يرجون رحمة اللَّه‏

«ما أصابك من مرض او عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم و الله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة و ما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه» «1»

فذلك للمخاطبين المؤمنين.

و إنها أنكى آية للذين لا يرجون رحمة اللَّه حيث تنبّههم ببعض ذنوبهم و يعفو هنا عن كثير و من ثم العذاب الأليم.

ثم قد لا تشمل الآية المعصومين (عليهم السلام) «2» أو تشمل بخفاء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 9- اخرج احمد و ابن راهويه و ابن منيع و عبد بن حميد و الحكيم و الترمذي و ابو يعلي و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الحاكم عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: الا أخبركم بأفضل آية في كتاب اللَّه حدثنا بها رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): و ما أصابكم ... و سأفسرها لك يا علي: ...

و

فيه اخرج جماعة عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) انه قال: و الذي نفسي بيده ما من خدش عود و لا اختلاج عرق و لا نكبة حجر و لا عثرة قدم إلّا بذنب و ما يعفوا اللَّه عنه اكثر و اخرج مثله جماعات آخرون.

(2)

نور الثقلين 4: 580 ح 95 في تفسير علي بن ابراهيم قال الصادق (عليه السلام) لما دخل علي بن الحسين (عليه السلام) على يزيد نظر اليه ثم قال له: يا علي! ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم، فقال علي بن الحسين (عليه السلام) كلا! ما هذه فينا نزلت، إنما نزل فينا: ما أصاب من مصيبة في الأرض و لا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على اللَّه يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم و لا تفرحوا بما آتاكم، فنحن الذين لا نأسى على ما فاتنا من امر الدينا و لا نفرح بما أوتينا.

أقول: انما تحوّل الإمام (عليه السلام) إلى هذه الآية لأنها أوسع دلالة على الإصابات الظالمة غير المستحقة و أما آية «ما أَصابَكُمْ ..» فلا يبلغ تفهمها مثل يزيد، و الرواية (98) دليل شمول الآية لهم بما بينت و بينّا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 210

«وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» بالنسبة لهم انه يصد كثيرا من كيد الظالمين عليهم فما تصيبهم هي قليل من كثير.

إن إصابات المؤمنين خير لهم و حظوة، تنبيها في الدنيا و عفوا عن كثير في الدارين‏

«ما عاقب اللَّه عبدا مؤمنا في هذه الدنيا إلّا كان أحلم و أجود و أمجد من أن يعود في عتابه يوم القيامة .. «1»

و مهما يكن من أمر فالمؤمنون المسيئون هم أظهر مصاديق هذه الآية- إذا ف «توقوا الذنوب فما من نكبة و لا نقص رزق إلّا بذنب حتى الخدش و الكبوة و المصيبة، فما زالت نعمة و لا نضارة عيش إلا بذنوب اجترحوها إن اللَّه ليس بظلام للعبيد، و لو أنهم استقبلوا ذلك بالدعاء و الإنابة لما نزلت، و لو أنهم إذا نزلت بهم النقم و زالت عنهم النعم فزعوا الى اللَّه عز و جل بصدق من نياتهم و لم يهنوا و لم يسرفوا لأصلح لهم كل فاسد و لردّ عليهم كل صالح‏ «2».

و هذه سطوة إلهية على البر و المسي‏ء و الفاجر تطهيرا للحياة عما يقضي عليها، و سنة إلهية للدعاة إلى اللَّه تصبّرا على ما يصيبهم في سبيل اللَّه، فالإصابات إذا هي خيرات و ألطاف خفية إلهية تصلح الحياة «3» و لا رادّ لها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 580 ح 94 في تفسير علي بن ابراهيم عن الأصبغ بن نباته عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال: اني سمعته يقول: اني أحدثكم بحديث ينبغي لكل مسلم ان يعيه ثم اقبل علينا فقال: ... ثم قال: و قد يبتلي اللَّه عز و جل المؤمن بالبلية في بدنه او ماله او ولده او اهله ثم تلا هذه الآية «وَ ما أَصابَكُمْ ...».

(2)

نور الثقلين 4: 582 ح 101 في كتاب الخصال فيما علم امير المؤمنين (عليه السلام) أصحابه من الأربعمائة باب مما يصلح المسلم في دينه و دنياه: توقوا ...

و المصيبة قال اللَّه تعالى: «وَ ما أَصابَكُمْ ...» «وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إذا عاهدتم» فما زلت ...

(3)

المصدر ح (105) عن اصول الكافي عن أبي السامة عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 211

إلا اللَّه:

وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (31).

لا أنتم: أهل الأرض بمعجزين اللَّه في الأرض في تخلفاتكم عن حكم اللَّه، حيث لا تضر إلّا أنفسكم دون مسّ من كرامة الألوهية، و لا أنتم بمعجزين اللَّه إذ يصيبكم ببعض ذنوبكم، و ما لكم من دون اللَّه من ولي يلي أموركم و لا نصير ينصركم و جاه الإصابة الإلهية، فأين يذهب هذا الذليل الحقير إلّا أن يلتجي إلى الولي النصير!.

وَ مِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (32) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى‏ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34) وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35).

إن الجوار المنشآت في البحر كالأعلام من آياته، فإنها له: «وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ» «1».

و الجواري جمع الجارية و منها «الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ» (3: 164) و منها الجارية في البحر المحيط: «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال: سمعته يقول: تعوذوا من سطوات اللَّه بالليل و النهار قال: قلت و ما سطوات اللَّه؟ قال: الأخذ على المعاصي‏

و

ح 104 عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: ما من نكبة تصيب العبد الا بذنب و ما يعفو اللَّه اكثر و عنه (106) قال: ان العبد ليذنب الذنب فيزوى عنه الرزق.

(1). راجع تفسير الآية في 27: 32- الفرقان‏ «وَ لَهُ الْجَوارِ ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 212

حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ» (69: 11) و منها الكواكب الجارية في الفضاء أم ماذا: «فَالْجارِياتِ يُسْراً» (51: 3) و منها الطائرات الجارية في خضمّ البحر السماوي و منها ما لا نعلمها ..

«وَ مِنْ آياتِهِ» هنا «الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ» الماء- لا الفضاء «كَالْأَعْلامِ» فإنّ سكن الريح إنما يركد جواري البحر دون الفضاء، فإنه يساعد على جريها كما يراد دون التطام بصدامها.

إن لجريان الريح دخلا حيويا في جريان الجوار في البحر، إن يشأ اللَّه يسكن الريح فيظللن الجواري على ظهر البحر رواكد لا تجري، فما ذا يصنع الإنسان الضعيف الضعيف إذا على ظهر البحر؟ «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» آية القدرة الإلهية في الريح و حراكه برحمته، و سكونه بنقمته، فليصبر الساكن نظرة الرحمة، و ليشكر الجاري لواقع الرحمة.

و ترى أن القرآن يواجه فقط المكلفين زمن الجواري التي تجري بالريح، حتى ينذر بسكونه ركودها على ظهر البحر؟ .. كلّا! و إنما يأتي بعامل حراكها الطبيعي الذي لا صنع للإنسان فيه، و قد يأتي بما يشمله و سواه مما كان أو هو كائن أم سوف يكون: «وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ» (16: 8) فالفلك تجري بأمر اللَّه‏ «وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ» (14: 32) «رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» (17: 66) و بنعمته‏ «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» (31: 31).

فليست الريح- فقط- من نعمة اللَّه، بل الكون كله من نعمة اللَّه، فلجري الجواري في البحر نعم سابقة و على مر الزمن: (الريح) و نعم سابغة بعدها من بترول ام ماذا، و قد تشمله الآيات لكل صبار شكور، حيث التصبر في محاولة دائبة لاستكشاف نعم الهية ينتج طاقات أخرى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 213

للسفن الجارية.

ثم قد تشمله‏ «أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا» حيث الإيباق: الإهلاك، ليس من مخلّفات سكون الريح فركودها على ظهره او يقل و على فرض بعيد، و هو كائن في نفاد سائر الطاقات التي يخترعها الإنسان لجريها أم ماذا؟ من غرقها في خضمّ البحر الملتطم، بريح عاصف، أم تصارعها في عراك الريح دون بترول و لا وسائل أخرى تهديها بها الرياح أم ماذا من أسباب الهلاك‏ «بِما كَسَبُوا» المهلكون أم سواهم‏ «وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ» مما كسبوا دون تعجيل، و إنما تأجيلا إلى يوم الحساب، أم عفوا للذين يستحقونه فلهم محيص عن كثير «وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ»:

ثم‏ «لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» كما نجدها في أربع‏ «1» كيف يقترن فيها صبار بشكور؟ إن الصبر هو على الابتلاء، و الشكر على النعماء، و هما قوام النفس المؤمنة المطمئنة في الضراء و السراء، تصبّر في محنة البحر أم ماذا نظرة النعمة، و يشكر في نعمته مخافة النقمة.

فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36).

آيات أربع- هذه و الثلاث التي بعدها، تحمل صفات عشر للصالحين، من إيمان و هو الركيزة الأصيلة- و الأولى و «الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ» هي الأخرى، و بينهما متوسطات ثمان و من أهمها سابعها: «وَ أَمْرُهُمْ شُورى‏ بَيْنَهُمْ»!.

فهنا إيمان بالرب و توكّل على الرب يحافظان الإنسان في معترك الحياة الدنيا بمتاعها، فهنا التوكل على اللَّه بعد الإيمان باللَّه هو للإبقاء على الإيمان و الاستزادة فيه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما هنا و في لقمان (31) و ابراهيم (5) و سبأ (19).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 214

و كيف نعلم ما لنا عند اللَّه؟

قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «من أحب أن يعلم ما له عند الله فليعلم ما لله عنده» «1».

«فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ» تشمل كل شي‏ء لنا: من أنفسنا و ما أوتيت، في ذواتنا، أم منفصلة عنها مربوطة بها حيث تملكها «2»، كل ذلك‏ «فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا» ترى و ماذا تعني «متاع» و «الْحَياةِ الدُّنْيا» فهل لهما صلة بالحياة الأخرى‏ «وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏» فلتؤخذ ذريعة للوصول إليها، أم هما تطاردانها فتطردان فلما ذا أوتينا إياهما؟.

المتاع هو كل ما ينتفع به و يتمتع على وجه مّا، اما بنفسه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 583 ح 110 في محاسن البرقي عنه عن الحسين بن يزيد النوفلي عن إسماعيل بن زياد السكوني عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) عن آبائه (عليه السلام) قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ..

(2) ان قال قائل ان المخاطبين في‏ «فَما أُوتِيتُمْ» هم المؤتى لهم فما يؤتى لهم هو غيرهم ضرورة اختلاف المؤتى و المؤتى له، و أن الإيتاء بحاجة طبيعية إلى المؤتى له؟

فالجواب: ان المخاطب في الإيتاء التكويني لا يجب له كون قبل الإيتاء كما في سائر التكوين‏ «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» فقوله فعله و هو كلمة التكوين، حيث التكوين قد يعني إيجاد ما لم يكن، او تحويل الكائن إلى حالة او ماهية أخرى، و لا يتعلق بالمستحيل ذاتيا و مصلحيا، حيث الأول ليس شيئا و الثاني شي‏ء لإمكانية وجوده ذاتيا و استحالته مصلحيا، فالشي‏ء المتعلّق للتكوين و القدرة الإلهية قد يكون كائنا فتكوينه تحويله، و هذا هو الشي‏ء الحقيقي، و قد يمكن تكوينه ذاتيا و مصلحيا فهو شي‏ء باعتبار ما يؤول، و هو المعني في الآية التكوين‏ «إِذا أَرادَ شَيْئاً ..» اي أراد تكوينه، و كذلك المعنى في آية الإيتاء «فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ ..» فمن المؤتى هم المخاطبون و منه ما لهم من نعم أنفسية و آفاقية، ثم المستحيل الذاتي ليس شيئا حتى يتعلق به القدرة و اللَّه على كل شي‏ء قدير، و المستحيل لا شي‏ء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 215

«وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» (2: 36) فهو إذا متاع الغرور: «وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ» (3: 185) فالمغترون به باغون على أنفسهم: «إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا» (10: 23).

أم هو متاع للمعاملة المزايدة تجارة رابحة لن تبور: «فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (9: 28) قليل يجزى به كثير «وَ فَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ» (13: 26) «قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى‏» (4: 77).

و الحياة الدنيا قد تعني أدنى الحياة العقلية لنا و هي هي دنوا إلينا، أم تعني الأفعل من الدانية الرذيلة و هي هي لمن أبصر إليها و أخلد إلى شهواتها، و قد تعنيهما كما هنا «فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَمَتاعُ» بمعنييه‏ «الْحَياةِ الدُّنْيا» كذلك الأمر، نتمتع بها مبصرين بها نتذرعها إلى‏ «ما عِنْدَ اللَّهِ» فإنه‏ «خَيْرٌ وَ أَبْقى‏» فإذا كان متاع الحياة الدنيا باقيا بقاء عمرك، أم بقاء الدنيا، فما عند اللَّه أبقى، و إذا كان فيه خير فما عند اللَّه خير منه حين تتذرعه إلى ما عند اللَّه‏ «خَيْرٌ ... لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فبإيمانهم يجعلونه متاعا في الآخرة، و بتكلانهم على اللَّه يوفقون في هذه المهمة.

فمهما كان متاع الحياة الدنيا خيرا للمؤمنين المتوكلين على ربهم‏ «ما عِنْدَ اللَّهِ» جزاء عما قدموا من متاع قليل‏ «خَيْرٌ وَ أَبْقى‏». و كما الإيمان الصالح ليس إلّا باللَّه وحده، كذلك التوكل فيه ليس إلّا على اللَّه وحده، كما يوحي به تقديم الجار «عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فالإيمان بالرب يقتضي التوكيل في تداومه، أن يكون على الرب و لكي ينجح الإيمان و يفلح المؤمن.

و ترى لماذا التوكل على ربهم بعد الإيمان بربهم بدل العمل الصالح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 216

الذي هو لزام الإيمان في سائر القرآن؟.

هنا التوكل و ليس الاتكال، فالإتكال بعد الإيمان أن يبقى المؤمن صفر اليد عما يقتضيه الإيمان، و لكنما التوكل بعد الإيمان يقتضي تكريس كافة الطاقات للحفاظ على الإيمان و تداومه و الاستزادة فيه و تطبيقه، ثم الاستنجاد باللَّه و التوكل عيه إعانة له على ما يقصر أو يقصّر، إذا فالتوكل بعد الإيمان هو عمل الإيمان و يزيد.

إنه ليس بعد الإيمان بالرب إلّا التوكل على الرب في عقيدة الإيمان و عمله، ثم تبنّي الحياة الإيمانية على اجتناب كبائر الإثم و الفواحش ..:

وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37).

إن اجتناب كبائر الإثم و الفواحش هو ضمان إلهي في تكفير السيئات:

«إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (4: 31) و شرط آخر في هذه السبيل‏ «وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» فكما اللَّه يغفر السيئات كذلك المؤمنون يغفرون سيئاتهم بعضهم لبعض دون توبة، و يغفرون كبائرهم بعضهم لبعض بتوبة

«المؤمن مرآة المؤمن»

و

«من كظم غيظا و هو يقدر على إمضائه حشا الله قلبه أمنا و إيمانا يوم القيامة و من ملك نفسه إذا رغب و إذا رهب و إذا غضب حرم الله جسده على النار» «1»

و إنه‏

«خير خلائق الدنيا و الآخرة» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 583 ح 111 في تفسير علي بن ابراهيم القمي في الآية قال ابو جعفر (عليه السلام) من كظم غيظا ...

(2)

المصدر ح 112 في اصول الكافي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في خطبة: ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا و الآخرة: العفو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 217

و الفواحش افحش و اكبر من كبائر الإثم فاجتنابهما لزام الايمان و التوكل على الرب.

وَ الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورى‏ بَيْنَهُمْ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (38).

بعد الإيمان باللَّه فالتوكل على اللَّه و اجتناب كبائر الإثم و الفواحش و الغفران إذا ما غضبوا، بعد هذه الخطوات الخمس إلى اللَّه يأتي دور الاستجابة لربهم و .. أ لأنهم لم يستجيبوا لربهم و حتى الآن؟ إذا فما هذا الإيمان بإيمان بما فيه جانبان إيجابيان و سلبيات ثلاث‏ «آمَنُوا ... يَتَوَكَّلُونَ‏- يَجْتَنِبُونَ‏ .. وَ إِذا ما غَضِبُوا ..»؟!.

إن الاستجابة للرب هنا هي المكينة المتينة التي لا عوج لها، فكثير هؤلاء الذين يؤمنون و على ربهم يتوكلون، و كبائر الإثم و الفواحش يجتنبون و إذا ما غضبوا هم يغفرون، و لكنهم بعد لم يستجيبوا بكيانهم ككل لربهم، إلّا أن يستجيبوا حقا تداوما لما استجابوا: «الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ» (3: 172) «لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى‏ ..» (13: 18)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عمن ظلمك و تصل من قطعك و الإحسان إلى من أساء إليك و إعطاء من حرمك‏

و 113

عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: الندامة على العفو أفضل و اليسر من الندامة على العقوبة

و

ح 114 عن سيف بن عميرة حدثني من سمع أبا عبد اللَّه (عليه السلام) يقول: من كظم غيظا و لو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ اللَّه قلبه يوم القيامة رضاه‏

و ح 115

عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): من أحب السبيل الى اللَّه عز و جل جرعتان: جرعة غيظ تردها بحلم و جرعة مصيبة تردها بصبر

و ح 116

عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: كان علي بن الحسين (عليه السلام) يقول: انه ليعجبني الرجل ان يدركه حلمه عند غضبه».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 218

استجابة لا تقف لحد العقيدة و مظاهر من الأعمال الإيمانية و إنما التي تحيي: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ» (8: 24).

هنا على محور الاستجابة لربهم يأتي دور إقام الصلاة أولا كصلة عريقة بين المستجيب و ربه، ثم أمر جماعي لصالح المسلمين: «وَ أَمْرُهُمْ شُورى‏ بَيْنَهُمْ» حفاظا على كيانهم، و من ثم‏ «مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ» في كلتا الصلتين الإلهية و البشرية، تكريسا لكافة الإمكانيات.

وَ أَمْرُهُمْ شُورى‏ بَيْنَهُمْ‏.

آية لا ثانية لها في القرآن كله إلّا ما تأمر الرسول أن يشاورهم في الأمر: «فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» (3: 159) فهذه في شورى الرسول معهم و تلك في شوراهم فيما بينهم و أين شورى من شورى؟!.

ليست مشاورة الرسول إياهم في الأمر إلا تشجيعا لهم و تدريبا لحاجتهم إليه كمعلم يشاور، لا حاجة منه إليهم فإنه كرسول وحي كلّه فكيف يشاور غيره فيتبعهم؟

و نص الآية «فَإِذا عَزَمْتَ» يرجع الأمر إليه في النهاية كما البداية» «1» و كما

قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حين نزلت هذه الآية:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 405 ح 414 في تفسير العياشي احمد بن محمد عن علي بن مهزيار قال: كتب الي ابو جعفر (عليه السلام) ان سل فلانا ان يشير علي و يتخير لنفسه فهو يعلم ما يجوز في بلده و كيف يعامل السلاطين فان المشورة مباركة قال اللَّه لنبيه في محكم كتابه‏ «.. وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ..» فان كان ما يقول مما يجوز كنت أصوّب رأيه و ان كان غير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 219

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ذلك رجوت ان أضعه على الطريق الواضح ان شاء اللَّه‏ «وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» يعني الإستخارة.

و

في النسائي قسامة 40 «ان النبي استشار الناس» و في حم 3- 243 «استشار رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) في الأسارى يوم بدر»

أقول: و لا تعني استشارته إياهم إلا ما تعنيه استشارة اللَّه إياه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كما في حم 5/ 393:

«ان ربي تبارك و تعالى استشارني في أمتي».

و

في سنن الترمذي عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إذا كانت أمراءكم خياركم و أغنياؤكم سمحاءكم و أموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير من بطنها.

و

في الوسائل 8: 224 عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) استرشدوا العاقل و لا تعصوه فتندموا، و فيه عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لمّا سئل عن الحزم ما هو؟ قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مشاورة ذو الرأي و اتّباعهم.

و

فيه 8: 409 عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لا مظاهرة أوثق من المشاورة و لا عقل كالتدبير.

و

في النهج الخطبة 214 عن الإمام علي (عليه السلام) فلا تكفوا عن مقالة بحق او مشورة بعدل.

و

في الوسائل 8: 429 في وصيته (عليه السلام) الى ابنه محمد بن الحنفية: اضمم آراء الرجال بعضها الى بعض ثم اختر أقربها من الصواب و أبعدها من الارتياب قد خاطر بنفسه من استغنى برأيه و من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ.

و

عنه (عليه السلام) و استشر العاقل من الرجال الورع فإنه لا يأمر إلا بخير و إياك و الخلاف فان في مخالفة الورع العاقل مفسده في الدين و الدنيا.

و

عن الامام زين العابدين في الحقوق الخمسين: و اما حق المستشير فان حضرك له وجه رأي جهدت له في النصيحة و أشرت عليه بما تعلم انك لو كنت مكانه عملت به و ذلك ليكن منك في رحمة و لين فان اللين يؤنس الوحشة و ان الغلطة يوحش موضع الانس و ان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 220

«أما إن الله و رسوله الغنيان عنها و لكن جعلها الله رحمة لأمتى من استشار منهم لم يعدم رشدا و من تركها لم يعدم غيا» «1».

ان الرسول يحكم بين الناس بما أراه اللَّه: «إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً» (4:) 105) و لا يعني الحكم بينهم- فقط- أحكام العبادات و العلاقات الشخصية و إن كان يشملها، و لكن‏ «بَيْنَ النَّاسِ» تلمح او تصرح بالأحكام الجماعية، سياسية أمّاذا، إذا فأحكامه بين الناس كلها مما أراه اللَّه، فهل هو بعد بحاجة إلى ما أراه الناس؟.

كل ما يقوله الرسول أو يفعله وحي يوحى‏ «وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏» (53: 4) و إذا كانت صناعة فلك نوح بأعين الوحي و فيها نجاة الأبدان، أ فليست إذا صناعة الأمة الإسلامية بقيادة حكيمة بأعين الوحي و فيها نجاة الأبدان و الأرواح:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

لم يحضرك له رأي عرفت له من تثق برأيه و ترضى به لنفسك دللته عليه و أرشدته اليه فكنت تأله خيرا و لم تدخر نصحا و لا حول و لا قوة الا بالله و اما حق المشير عليك فلا تتهمه فيما وافقك عليه من رأيه إذا أشار عليك فانما هي الآراء و يصرف الناس فيها و اختلافهم فكن في رأيه بالخيار إذ اتهمت رأيه فاما تهمته فلا تجوز لك إذا كان عندك ممن يستحق المشاورة و لا تدع شكره على ما بدا لك من إشخاص رأيه و حسن رأيه و حسن وجه مشورته فإذا وافقك حمدت الله و قبلت ذلك من أخيك بالشكر و الارصاد بالمكافأة في مثلها ان فزع إليك و لا قوة الا بالله‏، الوسائل 8: 426

و

عنه (صلى الله عليه و آله و سلم) ما يستغني رجل من مشورة و من أراد امرا فشاور فيه و قضى هدي لأرشد الأمور

و

في النهج باب الحكم الرقم 321 قال‏ و قد أشار ابن عباس على الامام علي ما لم يوافق رأيه: لك ان تشير علي و أرى فإن عصيتك فأطعني.

(1). كتاب الشورى بين النظرية و التطبيق ص 30.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 221

«فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا» (23: 27).

و كيف يتبع الرسول رأى الشورى تاركا رأي الوحي و «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ ..» (10: 15) «قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى‏ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (7: 203).

ثم و كيف يكون للمؤمنين التقدم بين يدي اللَّه و رسوله‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» (49: 1) «وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (28: 67) «وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً» (23: 36).

ثم و ما هي المصلحة في إرجاع أمر المسلمين إلى الشورى و بينهم الرسول و الوحي متواتر يقضي كل حاجة، فلما ذا يكلّف حامل الوحي أن يستوحي المؤمنين في الأمر، هل في أمر الرسالة؟ و هو وحي يوحى! أم أمر المرسل إليهم؟ و يكفيهم أمر الرسالة! أو أمر الأحكام‏ «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» (6: 57) أم أمر القيادة السياسية و هو مما أراه اللَّه!.

فلا شورى يتخذ الرسول رأيها و إنما تشير الشورى لمن بعد الرسول و الوحي منقطع كما

يروى عن علي (عليه السلام): قلت يا رسول اللَّه الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن و لم يسمع منك فيه شي‏ء؟ قال:

اجمعوا له العابد من أمتي و اجعلوه بينكم شورى و لا تقضوه برأي واحد» «1»

فهنا جمع للعابد من الأمة، أن يجعلوا أمرهم شورى بينهم،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 10- اخرج الخطيب في رواة مالك عن علي رضي اللَّه عنه قال: ... أقول: هنا الرسول ناظر الى مجموعة المسلمين حيث ليس بينهم واحد من المعصومين، فليس يشمل واجب الشورى بين العابدين من امة الإسلام زمن الأئمة المعصومين كما لا يشمل زمن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 222

شورى جماهيرية تجمع العابد من أمة الإسلام لكي يتشاوروا في المشكوك حكمه، و لا يعني العابد القشريّ المتقشّف، و إنما الذي يعيش عبادة اللَّه و طاعته، و يتبنّى شرعة اللَّه في حياته علميا و عقائديا و أخلاقيا و عمليا أم ماذا.

فليس كل مسلم أهلا للشورى في الأحكام شرعية أو سياسية، و إنما الواجب على الجماعة المسلمة انتخاب النخبة العابدة و لكي يتشاوروا فيما يحتارون من أمر الأمة.

ثم «و أمرهم» يبحث عنها في أمرين: «هم» و «أمرهم» أما «هم»، فهم المؤمنون أجمع بسند الإيمان، و شورى بينهم هو أوضح سبل الإيمان، فلا يعني إلّا أمر الإيمان.

و أما «أمرهم» فهل تعني شيئهم فإنه من معانيه؟ و لا محصّل له شيئا أيا كان! أم «أمرهم» وجاه نهيهم؟ و ليس إلّا لأولي الأمر، و لا يختص أمرهم بالأمر فإنه يعم النهي و الأمر! و ليس فيه شورى.

أم «أمرهم» في ولاية الأمر؟ و هو تضييق لأمرهم دون دليل، مهما كان من أمرهم و أهمه!.

أم «أمرهم» هو فعلهم في جانحة و جارحة، شخصية أم جماعية؟

و ليس كل فعلهم بحاجة إلى شورى بينهم! فمنه الواضح الذي لا غبار عليه، و منه ما يتضح بتأمل دون حاجة إلى شورى، و منه ما لن يتضح على أية حال، و لا مجال في هذه الثلاث للشورى.

ثم و منه الغامض المختلف فيه بينهم، من أمور شخصية أم جماعية، سياسية، و سواها، فلأن المؤمن غير المعصوم- أيا كان- ليس مطلقا في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 223

العلم و العرفان فليستعن بالشورى الصالحة، و من أهم الأمور الإيمانية انتخاب النخبة الصالحة لقيادة الأمة في كل مجالاتها، و منها أحكام القيادة المختلف فيها، سواء السياسية منها و الأحكامية، فإنهما من أصدق مصاديق «أمرهم» حيث يتطلبان‏ «شُورى‏ بَيْنَهُمْ» فلا أمر لهم هكذا إلّا شورى بينهم، كما هو قضية الحصر في‏ «وَ أَمْرُهُمْ شُورى‏ بَيْنَهُمْ» فالأمر الذي يمضي دون شورى ليس إلّا إمرا و غيّا!.

و «الشورى» من شار العسل: استخرجه من الوقبة و اجتناه، و أشرني على العسل أعنّي، و المشور: عود يكون مع مستشار العسل، فحصالة الشورى الإسلامية هي العسالة المستخرجة من وقبة آراء النخبة الصالحة.

و ترى الشورى مصدر الشّور، مثل الرجعى؟ أو هو الأمر الذي يتشاور فيه اسما لمادة الشّور؟ أم هي فعلى من الأشور صفة للمراجعة أو الحوار، ف «أمرهم- حوار- شورى» يستشيرون بعضهم البعض ممن له رأي في حوار متواصل شورى كأفضل و أحوط ما يكون، و لكي يتّبع من الأقوال أحسنها: «فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ» (39: 18) إذا فأمرهم لا يتخطى‏ «شُورى‏ بَيْنَهُمْ» أن يستبد أحدهم برهانه، او يستقل ببرهانه، و إنما الشورى و الشورى فقط هي سبيل المؤمنين في معتركات الآراء الحيوية.

ترى و ما هو أمرهم الشورى؟ هل هي الأمور الشخصية، أو الجماعية، أم هما؟ قد تعنيهما «أمرهم» حيث تعني الجميع و المجموع، و هي لمكان «هم .. بينهم» نص في المجموع ظاهر في الجميع.

و ما هو «أمرهم» حيث يتطلّب إيمانهم أن يكون شورى بينهم؟ إنه ولاية أمر السياسة و الديانة! حيث الأمر منه الإمارة، و منه فعلهم، و طبعا لا كل فعلهم و إنما المشكوك صوابه و نجاحه، يزيحون شكه بشورى بينهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 224

حيث يتبناها العلم و الإيمان على ضوء القرآن و السنة، فليس كل أمرهم شورى، فمنه ضروري الصواب لا يحتاج إلى شورى، و إنما أمرهم المشكوك صوابه بعد الإياس عن الحصول على صوابه من مصادره، هذا الأمر شورى بينهم.

فالشورى إذا سبيل المؤمنين و من أفضلها فيما لا سبيل إليه قاطعا- لتبين الحق، لا سيما في الأمور الجماعية الإسلامية- إلّا بالشورى الصالحة، سواء أ كان أمر الولاية الإسلامية من المرجعية الدينية و السياسية و من سائر الأمور، و من أهمها أمر الفتوى في معترك آراء الفقهاء، فعليهم إزالة المفاصلات أو تقليلها بالشورى بين الرعيل الأعلى منهم، و لكي يحصل على الوحدة بينهم، أو يؤخذ برأي الأكثر منهم، فاتّباعه هو اتباع الأحسن.

هذا النص على مكيته يتبنى حياتا جماعية متراصة في دولة كريمة إسلامية تدير شؤونها الشوراءات الصالحة بين من لهم آراء صالحة، لكل حقل أهله و لكلّ أهل حقله، أن يجعلوا أمرهم في حوار بالتي هي أحسن لكي يستخرجوا رأيا صائبا ثاقبا ليس فيه خطأ أو يقل.

و لكي يتأدبوا بأدب الشورى و يتدربوا فيها يؤمر الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على عصمته‏ «وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» تدريبا لهم فيما عليهم كسبيل دائبة لا حول عنها و الرسول فيهم، فكيف إذا غاب عنهم و ذووه المعصومون، فهم إذا بأمس الحاجة إلى الشورى.

و الروايات القائلة أن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) شاورهم في بعض الأمور فترك رأيه إلى آراء الاكثرية أمّاهيه، إنها مخالفة لعقلية الوحي الحافلة لكل المصالح الجماهيرية، الكافلة لحاجيات الأمة و مطاليبهم كما تخالف نصوصا من الكتاب و السنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 225

و «أَمْرُهُمْ شُورى‏ بَيْنَهُمْ» تصبغ الحياة الإسلامية بهذه الصبغة المتكاملة المتكافلة لصالح المسلمين، كطابع مبتكر ليس له مثيل، حيث المشاركون في الشورى ليس في كل أمر كل من يشهد الشهادتين، و إنما «العابد من أمتي» على حدّ تعبير الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لكي يشير فيما يستشار بما عرفه من عقلية إسلامية أم ماذا.

فالشورى طابع ذاتي للجماعة المؤمنة، و سمة مميزة لهم، و سبيل إيماني يسلكونها في حياتهم‏ «وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى‏ وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً» (4: 115).

ليس يعني‏ «وَ أَمْرُهُمْ شُورى‏ بَيْنَهُمْ» ألا أمر لهم و لا شغل إلّا شورى، و إنما الأمر الذي فيه يتحيرون، و يتخيرون لصوابه بعد قصور العقليات الفردية و لا سيما في الأمور الجماعية، يتخيرونه‏ «شُورى‏ بَيْنَهُمْ» استخراجا لصالح الرأي من وقبة الآراء، كما يستخرج العسل من وقبته فيصبح خالصا دون خليط، كذلك الأمر في الشورى الصالحة.

و الشورى في أمور المسلمين درجات، شورى لصالح الجماعة المسلمة، و للدولة الإسلامية، و شورى لصالح الأفراد، و تلك ممتازة عن هذه و أهم منها أهمية الجماعة على الفرد، و في القسمين لا شورى في الضروريات المتفق عليها، و إنما فيما تختلف فيه الفتيا لاختلاف الاستنباطات عن أدلتها، أحكاما شرعية أم سياسية، أصلية أم في شاكلة تطبيقها، فليس الشكل الذي تتم به الشورى مصبوبا في قوالب حديدية لا تتغير، و إنما يترك للصورة الملائمة لكل زمان و بيئة، كما النّظم الإسلامية كلها ليست أشكالا جامدة.

في الشوراءات الفردية إنما يستشار المؤتمن‏ «1» الأخصّائي فيما يستشار،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في د- ادب 114 عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: المستشار مؤتمن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 226

و في الجماعة انما يتشاور الجماعة المعنية العارفة بما يتشاور فيه، ثم يؤخذ بالأكثر رأيا فإنه أحسن قولا، و لا تعني الأكثرية في الكمية هنا إلّا دعما للكثرة الكيفية.

فللشورى ضوابط عدة تجمعها «العابد من أمتي» كما في حديث الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حيث يتبنّى طاعة اللَّه و عبادته في الشورى، أن تكون على خبرة و عقلية و علم و اطلاع و أمانة و اضطلاع‏ «1»

«لا ظهير كالمشاورة «2»

إذا، كما أنها تكسر الظهر إذا لم تتوفر فيها شروطها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

في المجمع روي عنه (صلى الله عليه و آله و سلم): ما من رجل يشاور أحدا إلا هدي الى الرشد (5: 584 نور الثقلين).

(1). و

في الدر المنثور 6: 10 قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): من أراد امرا فشاور فيه و قضى هدي لأرشد الأمور و قال سليمان بن داود (عليه السلام) لابنه يا بني! عليك بخشية الله فانها اعانة كل شي‏ء يا بني لا تقطع امرا حتى توامر مرشدا فانك إذا فعلت ذلك رشدت عليه يا بني عليك بالأول فان الأخير لا يعدله.

و

في سفينة البحار 718 عن الصادق (عليه السلام): لا تستشر السفلة في أمرك و إياك و الخلاف فان خلاف الورع العاقل مفسدة في الدين و الدنيا و قيل لرسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ما الحزم؟ قال: مشاورة ذوا الرأي و اتباعهم و عن الصادق (عليه السلام) ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قبل له به ان يستشير رجلا عاقلا له دين و ورع و قال: ان المشورة لا تكون إلا بحدودها فمن عرف بحدودها و إلا كانت مضرتها على المستشير اكثر من منفعتها له فأولها أن يكون الذي يشاوره عاقلا ثانيها ان يكون حرا متدينا ثالثها ان يكون صديقا مواخيا و الرابعة ان تطلعه على سرك فيكون علمه به كعلمك بنفسك ثم يستر ذلك و يكتمه فانه إذا كان عاقلا انتفعت بمشورته و إذا كان حرا متدينا جهد نفسه في النصيحة لك، و إذا كان صديقا مواخيا كتم سرك إذا أطلعته عليه و إذا أطلعته على سرك فكان علمه به كعلمك تمت المشورة و كملت النصيحة».

(2) نهج البلاغة ح 54 و في ح 113 لا ظهير أوثق من المشاورة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 227

و إذا كانت المشورة في أمور شخصية بحاجة إلى هذه الضوابط، ففي الأمور الجماعية أحق و أحرى.

فالشورى في الفتيا الأحكامية تقتضي الرعيل الأعلى من أهل الفتوى حتى يحاوروا في جد و اجتهاد و قوة و سداد للحصول على رأي واحد فأحسن، أو اكثرية فحسن، فاتباعها إذا إتباع للقول الأحسن، فلا يصلح إتباع رأي واحد و إن كان أفضلهم.

كما الشورى في الفتيا السياسية تتطلب ذلك الرعيل من أهلها على ضوء الكتاب و السنة، و هم نواب المجلس النيابي للشورى الإسلامية.

و بما أن الزمالة بين الدين و السياسة عريقة جوهرية أم هو هي و هي هو، فعلى الرعيل الأول أن يكونوا ساسة و إن لم يصبحوا بتلك المثابة، و إن كان الأخصائيون في السياسة الإسلامية لهم الأولوية من الأخصائيين في الفتيا الأحكامية، فيحكم- إذا- الفقهاء فقهيا و الساسة سياسيا على رعاية الفقهاء الأحكامية ف «العلماء حكام على الملوك و الملوك حكام على الناس» و كما نرى في طالوت إذ بعثه اللَّه ملكا على بني إسرائيل لقيادة الحرب على رعاية نبي لهم.

ترى و من ذا الذي يعرفهم فيعرّفهم للجماعة المسلمة، من أولاء و هؤلاء حيث يجمعها «العابد من أمتي»؟ طبعا إنهم العارفون من المسلمين في كل من الحقلين «اجمعوا له العابد من أمتي» و كيف يجمعون؟

طبعا بالشورى بينهم «و اجعلوه»: هذا الجمع «بينكم شورى» و المخاطبون- بطبيعة الحال- هم العارفون ميزانية العلم و التقوى في الرعيلين على اختلاف مراتبهم.

إن معرفة التقوى السياسية و التقيّ السياسي لا تتطلب أكثر من لمس للسياسة الإسلامية و إخلاص إيماني ممن ينتخبونه، فنواب المسلمين ف

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 228

مجلس الشورى الإسلامية هم نخبة سياسة إسلامية، يجعل المسلمون ككل أمرهم شورى بينهم، ثم هم يجعلون أمور المسلمين شورى بينهم.

و لكن معرفة التقوى العلمية بحاجة إلى ارتحال مراحل من علم الدين يميز بها الغث عن السمين، فالرعيل الأعلى من أهل الفتوى هم نخبة ينتجها أهلوها أم أهل العلم أجمع.

هذان من أهم الأمور الإسلامية التي يجب أن تحصل بالشورى الصالحة، حيث يتبنّيان الخلافة الإسلامية في حقلي الفتوى و السياسة فتديران أمور الدولة الإسلامية و تدبّرانها.

ثم المسؤوليات الجماعية الأخرى في هذه الدولة المباركة أيضا تكون‏ «شُورى‏ بَيْنَهُمْ» لكل حقل اهل، فوزير الصحة لا ينتخبه إلّا الأطباء المسلمون العارفون بشؤون الصحة و متطلبات الوزارة فيها، كما وزير التربية و المالية و الدفاع أم من ذا؟ فلكلّ شورى خاصة تصلح لانتخاب نخبتها للحصول على بلغتها دون هرج مرج لا يدري أي من أين.

و لماذا الشورى و الشورى فقط تتبنّى أمرهم، و فيهم الأعاظم من فقهاءهم و هم خلفاء الرسول و الأئمة من عترته (عليهم السلام)، فبأيديهم إذا أزمة الأمور؟.

هناك في حل الأمور أبعاد أربعة: 1- الوحي الرسالي، و هو مختص بالرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)- 2- العلم الرسالي و هو خاص بأئمة أهل البيت (عليهم السلام)- 3- وحي الشورى في الرعيل الأعلى من الخلفاء العامين للرسول و الأئمة- 4- الفتاوى الخاصة لكلّ من هؤلاء.

نحن عيش زمن انقطاع الوحي و خلافة العصمة، فهل نأخذ بفتوى واحد من ذلك الرعيل: الأعلم الأورع الأتقى الأشجع الأبصر أم من ذا؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 229

و التعرّف إلى شخصية هكذا غير يسير، و قد يكون من المستحيل، أولا تجتمع عليها الآراء، و بذلك تنفصم عرى الوحدة الإسلامية، و إذا عرفت و توحدت الكلمة في اتباعها، فلا يخلوا هذا العبقري من أخطاء، و علينا أن نزيلها أو نقللها بالشورى، حيث الطاقات المتداخلة المتشاورة أقرب إلى الصواب، و هي أحسن قولا، كما و توحّد القيادة الروحية السياسية في أهل الشورى، حيث البعد الثاني فيها هو الأخذ بالأكثر، فعلى المسلمين أجمع اتّباعه، و إن كانت القلة من أهلها لا يتبعونها إلّا في الأحكام الجماعية السياسية أم ماذا؟.

فكل أمر ينزل بالمسلمين بعد زمن الوحي و زمن حملة الوحي، ما لم ينزل فيه قرآن في نصه، و لم يسمع من الرسول بخصوصه، فليجمع المسلمون العابد من أمة الإسلام بشورى عامة، حتى يحل العباد المنتخبون مشكلة هذا الأمر ب «شُورى‏ بَيْنَهُمْ»: حيث تقرّبهم إلى الحق زلفى، و تنوب مناب عقلية العصمة شيئا كثيرا.

و لان ضمير الجمع في‏ «شُورى‏ بَيْنَهُمْ» راجع إلى‏ «لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ. وَ الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ ..» فإنما الشورى الصالحة لأمرهم بين من يحمل هذه المواصفات الخمس، و هم النخبة الصالحة من شورى الأمة الصالحة، ثم و هؤلاء الأكارم ينتخبون فيما بينهم الرعيل الأعلى من فقهاء الأمة، الأحسن رأيا و قولا حيث هم أفضل فقها و عدلا و فضلا.

ثم و هؤلاء ينتخبون فيما بينهم رئيس الشورى و قائد الأمة، شورى ثالثة هي سلالة الأخريين، ثم هناك الشوراءات المتواصلة على رعاية القائد المنتخب لتقرير مسير الأمة و مصيرها أحكاميا و سياسيا دون أن يستبد القائد برهان القيادة لفقدان العصمة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 230

و لا موقع للأكثرية في ميزان الحق، إلّا الأكثرية بين الأقلية الصالحة.

فإن‏ «أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (7: 187) و «لا يَشْكُرُونَ» (2: 243) و «لا يُؤْمِنُونَ» (11: 17) و «لا يَعْقِلُونَ» (6: 37) و «يَجْهَلُونَ» (6: 111) «وَ ما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا» (10: 36) «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» (12: 106) «وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ» (7: 102) «وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ» (43: 78) «فَأَبى‏ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً» (17: 89) «وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» (6: 116) «وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ» (7: 102).

إذا فالشورى الصالحة ليست إلّا بين الأقلية الصالحة العالمة الشاكرة العاقلة المؤمنة المتبعة علما العادلة المحبة للحق الهادية المتعهدة، و يجمعها الفقيه الزاهد البصير الخبير.

«وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ» إنفاقا في هذه السبيل و كل سبل اللَّه، إنفاقا لعقلياتهم و تجريباتهم، أفكارهم و علومهم، أموالهم و كل ما يملكون من طاقات ذاتية أو منفصلة، و لكي يحلّوا مشاكلهم التي لا حول عنها و لا مرجع معصوما لها.

إن مكية آية الشورى- و لم تكن هناك دولة إسلامية و لم تخلد بخلد احد الا الرسول- و ان المسلمين يعيشون الرسول. و حصر أمرهم في‏ «شُورى‏ بَيْنَهُمْ»- تدلنا على مدى أهمية الشورى، حيث تعم الحيوية الإسلامية في كل عصر و مصر، و مهما كان في غنى عنها زمن قيادة العصمة، و لكن عليهم التدرب فيها فقد نرى الشورى في شاكلتها و نتاجها في أبعاد اربعة.

1- يستشير المحتار ذا رأي صائب لكي يحصل على الرأي المختار

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 231

دون خطاء كما يستشار المعصوم‏ «1»، او قليل الخطاء كما يستشار غيره.

- 2- يشاور المعصوم غيره ليدله على خطاءه و يرشده الى صوابه، و يبتليه كيف يفكر و كيف يحصل على الحق، و لكي تصبح الشورى سنة دائبة للمسلمين، و عقلية منفصلة لهم تساعد عقلياتهم الذاتية، و لكي تنبع فكرتهم فتنبغ بالتقاء الآراء و اصطكاكها، كما امر الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» و لا رأي مطاعا فيها إلا رأيه و عزمه:

«فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ».

- 3- يتشاور من هم على سواء أو كاد، و لكي تجتمع عقلياتهم على ركيزة واحدة، إزالة لأخطاء و خلافات، فتوحيدا للرأي أم تقريبا للآراء، و أخيرا إذا بقي اختلاف أخذا بأكثرية الآراء، حين تدل على أقربية الرأي إلى الحق، فلا مكانة للعدّة إلّا إذا دلت على عدّة، و لا نفضل الأكثر عدّة هنا إلّا لدلالته على الأكثر عدة، فإذا تساوى الفريقان عدّة نفضّل الأقوى رأيا و هو الذي فيه الأقوى رأيا، و حتى إذا اختلفا عدة قد نفضل الأقل لو كان فيه الأعلم الأعقل، و هكذا نتابع القول الأحسن، و في الأكثر هو مع الأكثر حيث المتشاورون أضراب.

- 4- يتشاور من ليسوا على سواء، ليفيد الأقوى من دونه كما و يستفيد ممن دونه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 4: 128 علي بن ابراهيم القمي قال قال في اقامة الإمام‏ «وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورى‏ بَيْنَهُمْ» اي يقبلون ما أمروا به و يشاورون الإمام فيما يحتاجون اليه في امر دينهم كما قال اللَّه‏ «وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلى‏ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ».

أقول: «بينهم» لو خص بشورى الإمام كان حق التعبير و أمرهم ان يشاوروا .. و لكنها لشمولها كافة الشوراءات الأربع فالجامع بينها هو «بينهم».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 232

و الشورى فيما سوى الأولى بحاجة إلى تحضير قبلها، أن يفكّر أهلوها قبلها فيما يتشاورون، ثم بالشورى يتفاوضون و يستنجدون.

و حصالة البحث في حقل الشورى أنها سبيل دائبة هي لزام الإيمان فيما لم يتبين رشده بوحي أم سواه، من أحكام شرعية أم سياسية، و من انتخاب النخبة في كل حقل، يتبنّى في كل ذلك العقلية الإسلامية في كاملها بكافة الجهات، و لكي يحصل بالشورات الإسلامية ركامات من العقليات المجتناة من وقباتها، من عسيلات الآراء حيث تستخلص من مزيجات لا تصلح.

فلا شورى في انتخاب الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الأئمة بعد الرسول حيث الانتصاب بوحي اللَّه يغني عن الانتخاب، و لا في الأحكام الضرورية شرعية و سياسية، حيث الشورى ضرورة عند الاضطرار، و إنما الشورى في انتخاب النخبة التي تتشاور فيما تحتار فيه الأمة الإسلامية و هم «العابد من أمتي» ثم هم يتشاورون فيما يصلح الأمة و يخرجها عن الحيرة، حيث يوضّح الحق جماهيريا و يوحد كلمة المسلمين على القول الأحسن، دون تفرّد و استبداد.

فالشورى تنوب مناب ما نخسره من غياب العصمة، فإنها اجتهاد متراصّ دائب يجعل من المسلمين مفكرين متفاوضين في أفكارهم، دون أن يظلوا أجسادا بلا أرواح لا يفكرون و لا يتدبرون.

فكما العصمة في القيادة صالحة ضرورية لتبني أساس الإسلام، كذلك الشورى النائبة عن العصمة حيث تسد عن كل نائبة، هي أيضا صالحة لاستمرار الحيوية البنائة الإسلامية، غير الجامدة.

فحين ما نخسر قيادة العصمة زمن الغيبة، نربح بديلها استمرارية عصمة الشورى حين تعصمنا عن التمزق و الانزلاق، و تقليلا من أخطاء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 233

القيادة غير المعصومة، ثم لا يضر الأمة الإسلامية أخطاءها القليلة و جاه عوائدها الكثيرة، و من أهمها صراع العقليات الإسلامية و سباقها على ضوء الكتاب و السنة و السياسة حيث تصنع أمة صارمة متكاملة غير جامدة.

و كما نرى القرآن المبين- على بيانه النور المتين- يخرّضنا على التدبر في آياته، و لكي نستنبط من خفياته، سبرا لأغواره، و لكي نحصل بكل جد و اجتهاد، على ما أسرّه، دون أن يوضّح لنا كل شي‏ء وضح النهار، كيلا تبطل عقولنا، أو تجمد أفكارنا، بل نكون دائبين في التدبر و التفكير، و لكي يصنع أمة لها حيويتها البنّائة، في استقلاليتها و قوامتها، قائمة على سوقها على ضوء القرآن و السنة المحمدية (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

فعصمة القرآن ثم السنة القاطعة تعصم المسلمين عن التفلّت و الانحراف، إذا عاشوا القرآن في شورى دائبة من النخبة العابدة، دونما استبداد و استقلال فاستغلال الكتلة المؤمنة، و إنما الشورى و الشورى فقط تكفل تلك الحيوية المجيدة المستغنية عن كل شارد و وارد، حضورا لمختلف شعوب المسلمين في مصالحهم الجماعية، أخذا لأزمّتهم بأيديهم، فلا يحكمهم إلّا اللَّه و من يحكم بحكم اللَّه، «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ»!.

فلنكرّس طاقاتنا كلها للشوراءات المتواصلة عبر زمن غيبة القيادة المعصومة، و لكي نقوم على سوقنا و نحيى حياة طيبة سلمية إسلامية، لا استسلامية تقليدية ذليلة.

و ترى إذا كانت الشورى هي المرجع زمن الغيبة الكبرى فما هو موقف ولاية الفقيه؟.

أقول: إن ولي الأمر أيضا هو منتخب الشورى يرأسها على ضوء الشورى، و هو يلي أمر المسلمين ولاية محددة بها دون استقلال له فيما يرتإيه، فقد يتفق رأي الشورى أو أكثريتها المطلقة على واحد من أهلها، فهو الذي يرأسها، أم يتفقون أو أكثرهم على أكثر من واحد، إذا فحصيلة الشورى هي شورى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 234

الولاية و القيادة.

إنّ ولي الأمر- واحدا أو اكثر- هو الذي يحكم، لكنما الحكم ليس إلّا بالشورى، حيث تجبر الأخطاء الطارئة لشخص او اشخاص يولّون أمور المسلمين، دون استقلال لأحد و لا استبداد برأي.

إتباع الأحسن هو سبيل المؤمنين حيث يبشرهم اللَّه و يأمرهم‏ «فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ» (39: 18).

أ ترى أن رأي الواحد غير المعصوم أحسن، مهما كان أعلم ممن سواه، أم الأكثرية من الرعيل الأعلى نتيجة الشورى؟ لا ريب أنها الأحسن فاتباعه قضيّة اللب و الهداية الإلهية.

أ ترى إذا تساووا أعضاء الشورى في فريقين اثنين فأي الفريقين أولى بالاتّباع؟ هنا الأولوية للفريق الذي فيه القائد بميّزة القيادة، و أنه هو الذي ينظر إلى الأصلح بحال الأمة عند تضارب الآراء فعلى المؤمنين- ككل- الشورى العامة لانتخاب النخبة الصالحة لانتخاب أعضاء الشورى، و ليكونوا الأمثل بين الأمة و الأمثال فيما بينهم للحصول على الرأي الأحسن و ليكون في العدد الأكثر عند التضارب دلالة على الأحسن و الأقرب إلى الحق.

ثم على هؤلاء انتخاب القائد الرئيسي للشورى، فان اتفقوا على رأي و إلّا فالأكثر عددا، و إلّا فالفريق الذي فيه القائد لأن فيه الرجاحة عند تساوي العدد، و هكذا تسير الشورى مصيرها إلى انتخاب الأحسن فالأحسن لتقليل الأخطاء فالقيادة الأصلح لصالح الأمة «وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ» إنفاقا لكافة الطاقات و الإمكانيات الصالحة لهذه القيادة المباركة على ضوء الكتاب و السنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 235

و إذا مات منهم واحد أم سقط عن الصلاحية فأمر الانتخاب البديل إلى سائر أعضاء الشورى.

ثم الشورى القيادية بحذافيرها ليست لها الولاية المطلقة على الأمة فلهم أن يخطّئوها، و لا أولوية إلا ترجيحا لصالح المجتمع على صالح الأفراد إذا تعارضا، كما و لا ولاية لهم على الفقهاء.

و هنا أصلان أصيلان، أصالة الولاية لكل مؤمن بالنسبة للآخرين، بمعنى المحبة و النصرة و المعاضدة، و أصالة عدم الولاية بمعنى الأولوية على النواميس الخمسة إلّا في مقام الضرورة، و هي ضرورة الحكم و فرض القرارات الحاكمة لرئيس الدولة الإسلامية على الجماهير المسلمة ترجيحا لصالح الجماهير على الأشخاص، و أما الأشخاص على الأشخاص فلا ضرورة و لا ولاية و لا سيما على أشخاص الفقهاء، إشخاصا لهم عما هم عائشوه.

وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39).

ليس البغي: التجاوز إلى غيرك- فقط- محظورا، بل و كذلك التصبّر عليه دون انتصار محظور.

حيث الظلم و الانظلام كلاهما من المحظورات في شرعة اللَّه، و هكذا مظلوم هو مع ظالمه في النار.

و ترى ألّا تناحر بين صفتي المؤمنين، هذه‏ «وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ»؟ الغضب قد يكون بباطل فالغفر عنده صفة الإيمان، أو يكون بحق حيث بغي عليه، فإنما البغي بغيان، بغي يعفى أثره إذا غفرت و هو الغفر المصلح: «... فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» و غفر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 236

يفسد حيث لا يتحمله المؤمن لإيمانه كأن يفترى عليه و هو يسكت، ظلما بنفسه، أم سكوتا عن حقه و حق الغير إذ يسكت، ظلما ذا بعدين، فالانتصار إذا من صفات الإيمان، كما الغفر حين يصلح من صفات الإيمان.

آيات ثلاث تأمر بالانتصار بعد الظلم، هذه و التي بعدها: «وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ..» و في الشعراء «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ» (227) و كما اللَّه ينتصر لهم إلا ابتلاء «وَ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ» (47: 4) «وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» (30: 47).

و يا لها من آية مكية تتبنّى الإنتصار في البغي و المؤمنون في مكة ما كانوا يستطيعونه أبدا، فهي ذات دلالة لصفة أساسية في المؤمنين: عدم التصبّر على الظلم و التخاذل أمام الظالم حسب المستطاع، و إن كانت هناك في مكة فترة مقتضية للتصبر، و لكنها متقضّية بعد ردح قصير، ثم المؤمنون لا يتصبرون.

لقد كانت هناك اعتبارات في العهد المكي تقتضي سياسة المسالمة و الصبر، مع تقرير الطابع الإسلامي غير الاستسلامي لهم: «وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ».

فالانتصار البنّاء، صدا عن تفشي الظلم يتبناه الإسلام كأصل من أصول الحياة الإيمانية، سواء كان البغي عليك أم سواك أم على جمهرة أو جماهير من المسلمين، لأن أنفس المسلمين نفس واحدة بعضها من بعض، فلم يقل «و الذي إذا أصابه البغي هو ينتصر» و إنما «أَصابَهُمُ‏ ..

يَنْتَصِرُونَ» لتشمل الجميع و المجموعة، أن ينتصر المؤمن لمظلوم غيره كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 237

ينتصر لنفسه، و أن ينتصر الفرد للجماعة كما تنتصر الجماعة للفرد، فالانتصار عند البغي صفة الإيمان جماعات و فرادى.

إن الانتصار لإزالة البغي أو مكافأته ضابطة عامة لكل من بغي عليه، و لكن حسب ما يقتضيه العدل، و العفو خير إن كان في محله و ليس العفو المصلح او الصالح غير المفسد إلّا في البغي على الأشخاص، و أما البغي على الدين أو جموع أهل الدين فلا عفو فيه، و حتى إذا تاب الباغي اللهم فيما أصلح و بيّن أنه بغى، و لا يعني الإنتصار عند البغي إلّا صدا عن البغي، ممن بغي عليه و من تتطاول أيدي البغي عليه لولا الإنتصار.

وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40).

هنالك قضية العدل مماثلة بين سيئة و جزاءها في كل شي‏ء، و لا يصلح العفو عن المسي‏ء إلا إذا أصلحه و يصد عن ظلمه، و إذا «فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» «1» و اما العفو المفسد ان يتجرأ المسي‏ء على ظلمك، او تتطاول يده على سواك، فهذا العفو ظلم على نفسك و سواك‏ «إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» و كما إذا اعتديت على المسي‏ء اكثر مما أساء، انه جزاء ظالم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 11- اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إذا كان يوم القيامة امر اللَّه مناديا ينادي ألا ليقم من كان له على اللَّه اجر فلا يقوم الا من عفا في الدنيا و ذلك قوله‏ «فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» و في نقل آخر زيادة «فيقال لهم ادخلوا الجنة بإذن اللَّه،

و

اخرج ابن مردويه و البيهقي عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ينادي مناد يوم القيامة لا يقوم اليوم احد الا من له عند اللَّه يد فيقول الخلائق سبحانك بل لك اليد فيقول بلى من عفا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 238

«إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» و انما عدل: «جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها» «مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى‏ إِلَّا مِثْلَها» (40: 40) «وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ» (16: 126) او فضل: «فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ» دون ظلم مفرط او مفرّط.

آية الجزاء ترسم ضابطة عادلة عامة في كافة الموازين، فالمماثلة بين السيئة و جزائها قاعدة لا تستثنى، اللهم إلا عفوا فيما يصلح، أم لا يصلح و لا يفسد، فهما إذا من الفضل و الأفضل، و أما ان تربوا جزاء سيئة عليها، فهذه الربوة ظلم من أيّ كان و أيا كان و أيان، إذا فكيف يفترى على أرحم الراحمين أنه يجازي بعض العصاة دون نهاية في الآخرة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

في الدنيا بعد قدرة،

و

بنفس السند عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال موسى بن عمران (عليه السلام) يا رب من أعز عبادك عندك قال من إذا قدر عفا،

و

اخرج احمد و ابو داود عن أبي هريرة ان رجلا شتم أبا بكر و النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) جالس فجعل النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يعجب و يتبسم فلما اكثر ردّ عليه بعض قوله فغضب النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و قام فلحقه ابو بكر فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كان يشتمني و أنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت و قمت؟ قال: انه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان فلم أكن اقعد مع الشيطان ثم قال يا أبا بكر نلت من حق ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها للَّه الا أعز اللَّه بها نصره و ما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة الا زاده اللَّه بها كثرة و ما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة الا زاده اللَّه بها فلة.

و

في نور الثقلين 4: 585 ح 123- الكافي العدة عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عليكم بالعفو فان العفو لا يزيد العبد الا عزا فتعافوا يعزكم اللَّه‏

و 124

في كتاب الخصال عنه (عليه السلام) قال: ثلاث من كن فيه فقد استكمل خصال الايمان من صبر على الظلم و كظم غيظه و احتسب و عفى و غفر كان ممن يدخله اللَّه الجنة بغير حساب و يشفعه في مثل ربيعة و مضر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 239

و هل هناك مماثلة بين سيئة محدودة في زمن محدود و أثر محدود من مسي‏ء محدود، و بين سيئة لا محدودة من إله غير محدود؟ و أدنى المماثلة بين سيئة و سيئة مماثلة النهاية في سيئة محدودة في الكيف و الأثر و إن لم يكن في الكم و الزمن.

جزاء سيئة سيئة مثلها عدلا، و سيئة دونها أو عفو و إصلاح فضلا و رحمة، فإذا يأمرنا اللَّه تعالى بالعفو عن السيئة إصلاحا أم جزاءها المثل عدلا فكيف يجازي هو ظلما أن يخلّد بسيئات أهلها إلى غير نهاية، و ما هذا إلا كذب مفترى‏ «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ»!.

ثم المماثلة بين السيئة و الجزاء و السيئة المجازى بها لا تقتضي إلّا اعتداء بالمثل، و ليست هي اعتداء، و أما إذا كانت سيئة بنفسها دونما استثناء فلا، فمن ضربك تضربه كما ضرب مراعيا كمّه و كيفه، و أما من زنى بحليلتك فليست جزاءه أن تزني بحليلته، و إنما هي الحد المحدد له في الشرع، و الضابطة العامة هي أن السيئات المتعدية التي لا حدّ لها في الشرع تجازى بمثلها ممن أسيئ إليه، إذا لم يكن الجزاء محرما، و أما المحرمة كمثل اللواط و الزنا و السباب و الإضلال ام ماذا فلا، و قد توحي‏ «فَمَنْ عَفا» أن السيئة هنا تعني ما تقبل العفو ممن أسي‏ء إليه، فلا تشمل إذا مثل اللواط و الزنا و الإضلال، و إن شملت مثل القتل و السباب أم ماذا؟.

فإذا قال لك: أخزاك اللَّه، تقول له مثل قوله: أخزاك اللَّه، و إذا قال لك: أنت فاسق إهانة دون حجة، تقول له: أنت فاسق جزاء بحجة ...

و أما إذا قذفك بما يوجب الحد، فليس لك أن تقذفه حيث يوجب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 240

الحد، و انما جزاءه الى اللّه حيث سن حدا للقذف، و كما إذا زنى أو لاط أم أساء سيئة من أضرابهما مما يوجب الحد فجزاءه إلى اللَّه فيما حدّد.

فلا تعني مماثلة سيئة سيئة أنك حرّ أن تجازى أية سيئة بمثلها، و إنما هي كضابطة، فقد يجوز لك أن تجازي بمثلها، و قد لا يجوز فاللَّه هو الذي يجازي بما سنّ من حد أم ماذا، و من ثم فهي محددة بما يجوز العفو عنها.

وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (42) وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43).

ليس على المنتصر بعد ظلمه من سبيل، سواء أ كان انتصاره فرضا أم راجحا أم- و على أقل تقدير- مسموحا، حيث الانتقام أو الدفاع و جاه الظالم حق مشروع على أية حال.

قد يكون الإنتصار بعد الظلم من واجبات الإيمان‏ «وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ» فهنالك الإنتصار و الإنتصار فقط، دون انتظار فإنه احتضار و اهتدار، فحين يظلم القرآن و شرعته و يظلم شعبه و رعيته فالانتصار هنا واجب ذو بعدين، و الانظلام و السكوت محرم ذو بعدين و «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى‏ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ» (8: 53)

«حق من أساءك أن تعفو عنه، و إن علمت أن العفو يضر انتصرت» «1»

كما و القائم (عليه السلام) ينتصر للإسلام‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 585 عن الخصال 125 في الحقوق المروية عن علي بن الحسين (عليه السلام) ... ثم يستدل بالآية «وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ».

(2)

المصدر 127 في تفسير القمي بسند عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في الآية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 241

إن للمظلومين سبيلا معبّدة إلى الدفاع و لا سبيل عليهم، و الظالمون ما لهم من سبيل و إنما السبيل كل سبيل عليهم لتقطع عنهم سبل الظلم و البغي، و «أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» في الدنيا انتصارا عليهم من المظلومين، و في الآخرة من ملجإ المظلومين.

و فيما إذا لم يكن ترك الإنتصار و التصبر على الظالم ظلما، و إنما صنيعة حسنة و محاولة لتوبة الظالم، أو تخجيله حتى يكف عن ظلمه، هنالك‏ «وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ».

ثم للانتصار مراتب عدة حسب المستطاع أقله‏

«من دعى على من ظلمه فقد انتصر» «3»

و أكثره الإنتصار بالقتال، و بينهما متوسطات.

ثم من الإنتصار شخصي أن تكرّس طاقاتك للذود عن الظلم، و منه جماعي أن تستعين بمن يعينك، و لكل مجال حسب ما تقتضيه الحال.

إن الصبر على الظلم و الغفر ليس إلّا عند المقدرة على الإنتصار

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ» قال يعني القائم صلوات اللَّه عليه و أصحابه‏ «فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ» و القائم إذا قام انتصر من بني امية و المكذبين و النصاب هو و أصحابه و هو قول اللَّه تبارك و تعالى‏ «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ..».

و في ملحقات الاحقاق 14: 493 العلامة السيد محمد بن رسول البرزنجي في «الاشاعة في أشراط الساعة ص 69 ط مصر قال: قوله «لمن انتصر بعد ظلمه الآية- اشارة الى الحسين بن علي (رضي الله عنه) و قيامه على يزيد و قتاله على حق الى ان قتل هو و اهل بيته.

(3) الدر المنثور 6: 11- اخرج ابن أبي شيبة و الترمذي و البزاز و ابن مردويه عن عائشة قالت قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) من دعا ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 242

و الجزاء، حين يشعر ظالمك أنك تصبر و تغفر على قدرة فيستحي، و أما أن تصبر على ظلمه مغلوبا عاجزا فليس إلّا تخاذلا، إذا فانتصر في دفع الظلم.

لا تخلو حال المظلوم أنه أقوى من ظالمه أو أضعف أو هما على سواء، ففي الأولى على الأغلب‏ «وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» فإنه عفو على قدرة و هو يصلح، اللهم إلا إذا أفسد، و في الثانية «وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ» حيث الصبر على الظلم تخاذل و تقوية للظالم اللهم إلا إذا أصلح، و الثالثة مورد الآيتين حسب إحدى المصلحتين، و قد يكون الصبر راجحا غير واجب كما يكون محرما أو واجبا حسب مختلف الظروف و المقتضيات.

وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى‏ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (44).

و لا يضل اللَّه إلّا من ضلّ ظالما «وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ» (14: 27) «كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ» (40: 74) «كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ» (40: 34) فليس اللَّه ليضل من لا يضل فإنه ظلم‏ «وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ» (40: 31) «وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» (41: 46).

و ليس إضلاله تعالى من ضل دفعا له إلى ضلال بعد ضلال، و إنما ترك له يستمر في الضلال دون أن يوفقه لترك الضلال حملا له عليه: «وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (7: 186) ثم ختم على قلبه جزاء بما ختم حتى إذا أراد أن يهتدي لم يكن له سبيل» «خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ عَلى‏ سَمْعِهِمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 243

وَ عَلى‏ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» (2: 7)، ترك أو ختم ثم لا دفع إلى ضلال.

اللَّه هو الولي يلي أمور عباده، فإذ يترك ولايته لمن يضل فيضله‏ «فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ» إذ لا هادي إلا اللَّه.

«وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ» و هم بين الموت و الحياة «يَقُولُونَ هَلْ إِلى‏ مَرَدٍّ» إلى الحياة الدنيا «من سبيل» لنعمل صالحا غير الذي كنا نعمل: «حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ. فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ» (23: 104).

ثم‏ «وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ» إذ يدخلون الجحيم‏ «يَقُولُونَ هَلْ إِلى‏ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ»: «وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (35: 37).

وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ قالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ» (45) وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46).

«وَ تَراهُمْ» الظالمين‏ «يُعْرَضُونَ عَلَيْها» النار «خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ» لا خشوع العبادة و الطاعة من العز «يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ» على يأس إلى أية بارقة للخلاص ولات حين مناص، فالطرف منه جلي حين ينظر المتقون إلى رحمة اللَّه و كما وعدوها، و منه خفي حين ينظر الظالمون الآيسون من رحمة اللَّه و قد منعوها، كما و ينظرون إلى النار التي عرضوا عليها من طرف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 244

خفي مغبّة الّا يدخلوها و هم داخلون و لا يجترءون أن يمتلئوا عيونهم بها فيخفون طرفهم كيلا يروها و هم إليها داخلون، فإن نظرهم نظر المخالف الذليل و المرتاب الظنين، فهو لا ينظر إلا مسترقا و لا يغضي إلا مشفقا، من عظيم الخيفة و توقع العقوبة.

هنالك تتهاوى كبريائهم إلى هوات النار، إياسا من خلاص مع كل لهفة و انهيار، منكّسي الرؤوس و الأبصار إلى جهنم يصلونها و بئس القرار.

و ترى كيف لهم بصر حتى ينظروا من طرف خفي و هم عمي: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» (20: 124) علّه لأن آية العرض تعنيه قبل الحشر في سكرة الموت، و في البرزخ، أو يسمح له أن ينظر من طرف خفي يوم القيامة عذابا فوق العذاب، لفترة، كما يحشر أعمى عذابا فوق العذاب، أو أن حشرهم عميا لا يعني إلا حشرهم و لفترة، و أما ان يضلوا عميا فلا و كما و «نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى‏ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا (17: 97) و لو كانوا بكما و صما دوما فكيف التخاصم: «إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ» (38: 68) «قالُوا وَ هُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ. تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ» (26: 96) «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ» (39: 31).

«وَ قالَ الَّذِينَ آمَنُوا» إذ هم يعرضون على الجنة ناظرين إلى أهل النار و منهم أصحاب الأعراف‏ «إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» إذ ضلوا «وَ أَهْلِيهِمْ» إذ أضلوهم خسروا أنفسهم و إياهم‏ «يَوْمَ الْقِيامَةِ».

و هذه مقالة الرسول يرددها المؤمنون به يوم القيامة «.. قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ» (39: 15) فقولهم يوم الأخرى تأويل لقوله (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يوم الدنيا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 245

و ترى هؤلاء الذين خسروا أنفسهم إذ هم ظلموا فما بال أهليهم إذ يخسرونهم؟ .. أهلوهم هنا هم المخسرون و ليسوا معهم خاسرين، فإن كان أهلوهم أمثالهم حيث اتبعوهم فقد خسروهم مع أنفسهم فهما معا في الجحيم، فهم إذا خاسرون أهليهم كما خسروا أنفسهم، سواء أ كانوا معهم أم مفترقين.

ثم القول الفصل الأخير من رب العالمين يصدق مقالة الرسول و المؤمنين: «أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ» يقيم معهم إذ يقيمهم فيه، لا حول لهم عنه و هم فيما قدمت أيديهم خالدون.

أو أنه ايضا من مقالة المؤمنين خبرا ل «إِنَّ الْخاسِرِينَ» و «الَّذِينَ خَسِرُوا.» وصفهم، لا خبرا عنهم، و قد يقربه عدم الفصل ب «هم» «بين الخاسرين الذين» فالمعنى أن الخاسرين الذين خسروا .. ألا ان الظالمين (و هم هؤلاء الخاسرون) فِي عَذابٍ مُقِيمٍ ..» و المعنيان علهما معنيّان حيث تتحملهما الآية.

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ وَ إِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (48).

الاستجابة للرب تمتد في الحياة الدنيا ما دامت قائمة «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ» مهما كان له مرد من نفسه حسب حسبانه، و هو يوم البرزخ و من ثم القيامة، و هل يستجاب للرب قبل القيامة يوم البرزخ؟

«كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها» و إنما هي قبل البرزخ، و هل يستجاب له قبل الموت فينفع الإيمان حتى عند رؤية البأس؟ كلا فيما لا مرد له من اللَّه، حيث الإيمان قشري خوف البأس، «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 246

وَ كَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ» (40: 85) و نعم إذا كان حق الاستجابة و الإيمان حيث له مرد من اللَّه: «فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ» (10: 98) فالمردّ المنفي أيام ثلاثة، يوم البأس زمن التكليف فلا مردّ من استحقاق العقوبة إلى سواها، ثم اليومان الآخران.

فواجب الاستجابة هو كونها في حياة التكليف، حقا حالة الإختيار، لا جزافا في نفاق أم خاويا عند رؤية البأس، فما للمستجيب مرد من اللَّه قبل الموت و بحقها فالإجابة حاصلة و الإيمان ينفع، و إذ «لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ» فلا مرد له ممن سواه: «ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ» تلجؤون إليه من دون اللَّه‏ «وَ ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ»: منكم تنكرون عذابه أو تنكرون أسبابه، حيث الأسباب بارزة يومئذ و العذاب لا محالة كائن، و لا «مِنْ نَكِيرٍ» من سواكم، ينكر عذابكم فإنه‏ «يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ» (11: 105).

«فَإِنْ أَعْرَضُوا» عن الاستجابة فلم يحفظوا أنفسهم عن الكفر اختيارا، «فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً» تكرههم على الإيمان إجبارا «إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ» إراءة الطريق، لا الإيصال إلى المطلوب.

و حالة الإنسان الكفور النسيان‏ «إِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها» شكورا أو يظن أنه يحق لها «وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» لا أيدينا «فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ» يكفر باللَّه و ينسى رحمة اللَّه، فهو في الحالتين كفور، و إن تظاهر حالة النعمة أنه شكور.

لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 247

إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50).

.. لأن‏ «لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» لا سواه، فبيده ملكوت كل شي‏ء و ناصيته لا سواه، فهو «يَخْلُقُ ما يَشاءُ» دون ما يشاء سواه، و مما يخلقه إناث و ذكور كهبة لخلقه في خلقه حيث الأولاد مظهر من مظاهر المنح و العطاء، يقدم هبة الإناث على الذكور

«من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى» «1»

و الناس يتقدمون إلى الذكور قبل الإناث! «وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً» و العقم يكرهه كل الناس و «يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ ..» توحي بأن الأولاد من هبات اللَّه فكأن الوالدين يملكانهم، و هذه الآية هي مصدر ما اشتهر

عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «أنت و مالك لأبيك» و «إن أولادكم هبة الله‏ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ فهم و أموالهم لكم إذا احتجتم إليها» «2».

«وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (28: 68) فإذ يختار لك الذي له ملك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 12- اخرج ابن مردويه عن ابن عمران رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: ... لأن اللَّه قال: يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ».

و

في نور الثقلين 4: 587 عن تهذيب الأحكام باسناده عن زيد بن علي عن آبائه عن علي (عليه السلام) قال: أتى النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) رجل فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ان أبي عمد الى مملوك لي فأعتقه كهيئة المضرة لي؟

فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): أنت و مالك من هبة اللَّه لأبيك أنت سهم من كنانة «يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ ... وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً» جازت عتاقة أبيك، يتناول و الدك من مالك و بدنك و ليس لك ان تتناول من ماله و لا من بدنه شيئا الا باذنه».

(2) الدر المنثور 6: 12- اخرج ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في سننه عن عائشة قالت قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 248

السماوات و الأرض أنثى كهبة و منحة ربانية فهل لك أن تردها او تبغضها؟

أو يختار لك ذكرا فهل لك أن تتبجح حيث لم يهبك أنثى؟ أم إذا جعلك عقيما حرمانا عن هبة الأولاد ذكرانا و إناثا فهل لك أن تغضب لماذا جعلك عقيما؟ كلا ثم كلا! فإن هبات اللَّه كلها مرضية و اللَّه يقدم هنا «إناثا» لكي يقضي على ثورة حمقاء: بغض الإناث، ثم يقدم ذكرانا لكي يفهمك أنها في هبة اللَّه على سواء

«أ رأيت لو أن الله أوحى إليك أن أختار لك أو تختار لنفسك ما كنت تقول؟ (طبعا) يا رب تختار لي، فإن الله اختار لك ..» «1».

و قد يختار اللَّه أنثى هي مفتاح كل خير و بركة كما كانت فاطمة بنت الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أم الأئمة النقباء النجباء، كوثرا عظيما من كوثر الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)، و

قد قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عن البنات‏ «نعم الولد البنات ملطفات مجهزات مؤنسات مباركات مفليات» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

وسائل الشيعة ج 17 ص 102 ح 4 عن الحسين بن سعيد اللحمي قال: ولد لرجل من أصحابنا جارية فدخل على أبي عبد اللَّه فرآه متسخطا فقال له أ رأيت ... ما كنت تقول؟ قال كنت أقول: يا رب تختار لي ثم قال: ان الغلام الذي قتله العالم الذي كان مع موسى (عليه السلام) و هو قول اللَّه عز و جل‏ «فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً» أبدلهما اللَّه عز و جل به جارية ولدت سبعين سنة.

(2)

المصدر ص 100 و فيه 102 ح 3 عن الجارود بن المنذر قال قال لي ابو عبد اللَّه (عليه السلام) بلغني انه ولد لك ابنة فتسخطها و ما عليك منها! ريحانة تشمها و قد كفيت رزقها و كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أبا بنات و ..

و ح (5)

محمد بن علي بن الحسين قال‏ بشر النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بابنة فنظر الى وجه أصحابه فرأى الكراهة فيهم قال: فما بالكم ريحانة أشمها و رزقها على اللَّه عز و جل و كان أبا بنات.

و

ح 8 عيون اخبار عن الحسن بن علي العسكري عن آبائه عن الصادق (عليه السلام)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 249

و ترى‏ «يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً» تخص من يوهب- فقط- البنات‏ «وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ» فقط- الذكور؟ علّه نعم إذ تعني الهبة طيلة العمر، و لكنها قلة قليلة، أن يوهب الوالدان فقط بنات او كذلك البنين! إلّا أن‏ «أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً» تعني الكثرة الكثيرة، أو أن‏ «يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ» تعني كل ولادة و ولادة، فقد تكون أنثى و قد تكون ذكرا و قد تكون توأما «ذُكْراناً وَ إِناثاً»؟ علّ الآية تعنيهما.

«أو يزوجهم» تعني يهب لهم زوجا: «ذُكْراناً وَ إِناثاً» في ولادة أم ولادات.

و ترى‏ «وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً» يعني عقما مّا، و إن كان لمانع ترفعه الدواء أو عملية أخرى؟ و ليس هذا عقما لا هبة فيه، حيث العقيم لمانع مّا حين يرزق ولدا كان من هبات اللَّه فتشمله‏ «يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ ...».

فهذا العقم هو عقم في العمق حيث لا علاج له، و لا عاديا بعلاج، و لا خارجا عن العادة بمعجزة إلهية كما في أم إسحاق على حد قولها «عَجُوزٌ عَقِيمٌ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ان رجلا شكا اليه غمه ببناته فقال: الذي ترجوه لتضعيف حسناتك و محو سيئاتك فارجه لصلاح حال بناتك اما علمت ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: لما جاوزت سدرة المنتهى و بلغت قضبانها و أغصانها رأيت بعض ثمار قضبانها اثداءه معلقة يقطر من بعضها اللبن و من بعضها العسل و من بعضها الدهن و من بعضها شبه دقيق السميد و من بعضها الشياب (النبات) و من بعضها كالنبق فيهوى ذلك كله نحو الأرض فقلت في نفسي اين مقر هذه الخارجات؟ فناداني ربي يا محمد! هذه ابنتها من هذا المكان لاغذو منها ببنات المؤمنين من أمتك و بنيهم فقل لآباء البنات لا تضيقن صدوركم على بناتكم فاني كما خلقتهن ارزقهن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 250

ثم ترى لماذا «الذكور» بعد «إناثا» معرفة و هي منكرة؟ و من ثم‏ «ذُكْراناً وَ إِناثاً» بعكسه و منكرين؟.

تقدّم الإناث هنا جبر لتأخرهن عند الناس، و لأنهن في كونهن مظاهر العطف الرباني أعطف، و الهبة تقتضي في البداية أعطف العطف و كما يستلهم الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من هذا التقدم‏

قوله‏ «من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى لأن الله قال ..».

و تعريف الذكور مجاراة لمن يقدمونهم على الإناث أو للإشارة إلى واقع التقدم، و تأخير ذكرهم يقضي على هذا العرف الخاطئ أو للتعديل في تقدّم و تأخّر، ثم تقديم «ذكرانا» على «إناثا» للتدليل على أنهما سواء، أو جبر لتقدم الإناث قبله، و لم يعرّف هنا «ذكرانا» كيلا يخيل إلى الذكران أنهم فوق الإناث كضابطة، أو لا يزعم أن في تقديمهم تقدّم على «إناثا» و يا لها من صيغة سائغة كأنها صاعقة تحرق التخيلات الجارفة الحمقاء حول الإناث بين هؤلاء الناس النسناس، لحد كانوا يعتبرونهن حيوانا أو أدنى، فقد رفعهن اللَّه كما وضعن، و سوى بين القبيلين إلا فيما يسعى‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51).

هنالك تكليم للَّه في مثلث لا رابع له، فما هو تكليمه، و من ثم ما هو «وحيا» «أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ» «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ»؟

فهل إن‏ «مِنْ وَراءِ حِجابٍ» وحي ك «وحيا» فكيف يقابله؟ ام ليس وحيا فليكن بإرسال رسول فكيف يقابل‏ «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا»؟.

التكليم الإلهي:

إن التكليم الإلهي يعني فيما يعنيه الرباط العلمي وحيا إلى بشر، كلام‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 251

إلى سمع أو معنى إلى قلب، بواسطة أو دون وسيط، بحجاب أو دون حجاب الّا حجاب ذات الألوهية حيث يستحيل ارتفاعه، لارتفاع ذات الألوهية و سموها عن أن يدرك دون حجاب «فلا يحس و لا يمس و لا يجس و لا يدرك بالحواس الخمس».

ليس كلامه بآلة في ذاته لسانا أم ماذا كمن سواه، إنما هو إيحاء يحمل صوتا أو معنى دون صوت، يخلقه اللَّه تعالى كسائر خلقه، إلّا أنه يختصه من يصلح من ملائكته و رسله دون سائر خلقه: «وَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (2: 118) .. و ليس اللَّه مكلم الذين كفروا لا في الدنيا و لا في الآخرة مهما كان مكلّم المؤمنين في الآخرة: «وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ» (3: 77) فلا تكليم إلهيا يوم الدنيا إلّا مع المرسلين.

«ما كانَ لِبَشَرٍ» سلب للكيان البشري، يضرب إلى عمق الماضي أن يتحمل كلام اللَّه مواجهة برؤية أو بسماع لفظة كما يلفظ البشر فيسمع، لا هذا و لا ذاك، و إنما «وَحْياً أَوْ ..» وجوه ثلاثة لا رابع لها و كلها كلام الوحي.

فالوحي و هو الإشارة في رمز قد يكون من أرقاه في أعلى القمم الممكنة، و هو وحي دون حجاب و دون رسول، إلقاء في قلب الرسول دون وسيط من شجرة كما أوحي بها إلى موسى، أو كلام لفظي كما «كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى‏ تَكْلِيماً» أو حجاب المنام، و إنما المعنى و المعنى فقط يلقى دون أي وسيط إلى قلب الرسول، في حين ليس بين الرسول و بين اللَّه أحد حتى نفسه حيث يتناسى حينه عنها، ارتفاعا لحجب الظلمة و النور إلّا نور

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 252

الذات المقدسة حيث تبقى حجابا لن يزول.

هنا لا يبقى حجاب للوحي إلّا حجاب هو لزام ذات الألوهية لمن سواه‏ «1»، فهو وحي دون أي حجاب ممكن الكون و الارتفاع، و كما الوحي إلى الرسول الأقدس محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ليلة القدر و ليلة المعراج كان وحيا بلا حجاب، حيث لا كلام و لا منام و لا شجرة أم ماذا؟

و لا جبريل و لا حجاب نفس الرسول المقدسة النورانية، حيث‏

«لم يكن بينه و بين الله احد» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 587 ح 134 في كتاب توحيد المفضل بن عمر المنقول عن أبي عبد اللَّه الصادق (عليه السلام) في الرد على الدهرية قال (عليه السلام) بعد ان ذكر اللَّه عز و جل، و العجز عن ان يدرك فان قالوا: و لم استتر؟ قيل لهم ما يستتر بحيلة يخلص إليها كم يحتجب عن الناس بالأبواب و الستور، و انما معني قولنا: استتر انه لطف عن مدى ما تبلغه الأوهام كما لطف النفس و هي خلق من خلقه و ارتفعت عن إدراكها بالنظر.

و

في كتاب التوحيد عن الرضا (عليه السلام) كلام طويل في التوحيد و فيه: لا تشمله المشاعر و لا تحجبه الحجاب فالحجاب بينه و بين خلقه لامتناعه مما يمكن في ذواتهم و لإمكان ذواتهم مما يمتنع منه ذاته و لافتراق الصانع و المصنوع و الرب و المربوب و الحاد و المحدود.

و

فيه عن الرضا (عليه السلام) ايضا كلام و فيه‏ قال الرجل: فلم احتجب؟ فقال ابو الحسن (عليه السلام) ان الحجاب على الخلق لكثرة ذنوبها فأما هو فلا تخفى عليه خافية في آناء الليل و النهار.

(2)

في التوحيد باسناده عن زرارة قال‏ قلت لأبي عبد اللَّه (عليه السلام) جعلت فداك الغشية التي كانت تصيب رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إذا نزل عليه الوحي؟ قال فقال: ذلك إذا لم يكن بينه و بين اللَّه احد ذاك إذا تجلى اللَّه له- قال ثم قال: تلك النبوة يا زرارة و اقبل يتخشع.

و

في امالي الشيخ باسناده عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: قال بعض أصحابنا: أصلحك اللَّه كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 253

و لم يسبق هكذا وحي لأحد من المرسلين، و لا الملائكة المقربين، لأنه يتطلب مقام‏ «ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏» حيث لم يسطع الرسول إلى الرسل: جبريل (عليه السلام)، أن يعرج إلى معراج الرسول و لا بجسمه فضلا عن روحه‏ «1».

هذا تكليم إلهي متحلل عن لفظية الكلام و عن أي وسيط، ثم يأتي دور تكليمه‏ «مِنْ وَراءِ حِجابٍ» و لا يعني الوراء وراء مكانيا للمكلّم، و إنما الوراء لكلامه الموحى إلى رسول، سواء كان وراء الكلام اللفظ و هو أبسطه، أم وراء النوم، أم وراء شجرة كما لموسى، أم أي وراء هو حجاب، و ليس رسولا للوحي، و إن كان هو ايضا من الحجاب، إلّا أنّ‏ «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» يختصه بوحي بعد «وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ» فلا يشمله هنا «حجاب» و الوحيان يعنيان ما لا وسيط له رساليا، و من ثم:

«أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» إلى بشر «فيوحي» الرسول الملك إلى رسول البشر «بِإِذْنِهِ»: اللَّه‏ «ما يَشاءُ» اللَّه، فالموحي الأصيل هو اللَّه، و الموحي الملك هو رسول الوحي، يشير في رمز ما تلقاه من اللَّه إلى الرسول البشري.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و سلم) يقول: قال جبرئيل و هذا جبرئيل يأمرني ثم يكون في حال اخرى يغمى عليه؟

فقال ابو عبد اللَّه (عليه السلام) انه إذا كان الوحي من اللَّه اليه ليس بينهما جبرئيل اصابه ذلك لثقل الوحي من اللَّه و إذا كان بينهما جبرئيل لم يصبه ذلك فقال: قال لي جبرئيل و هذا جبرئيل.

و

في الدر المنثور اخرج البخاري و مسلم و البيهقي عن عائشة ان الحارث بن هشام سأل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كيف يأتيك الوحي؟ قال: أحيانا يأتيني الملك في مثل صلصلة الجرس فيفصم عني و قد وعيت عنه ما قال و هو أشده عليّ و أحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول- أقول و هو أشده علّه خاص بما يوحي إليه بواسطة ملك الوحي، فان أشده ككل ما يوحى اليه دون وسيط.

(1). راجع الفرقان ج 27 ص 398- 405 من سورة النجم حول آية التدلّي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 254

إن الوحي- حيث يحمل تكوينا أو تشريعا- ليس إلّا من اللَّه، سواء أ كان رمزا في التكوين: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها» أو في الغريزة: «وَ أَوْحى‏ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ» (16: 68).

أو إلهاما يحمل حكما خاصا إرشاديا: «وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ أُمِّ مُوسى‏ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» (28: 7).

و من ثمّ الوحي التشريعي الذي يحمل أحكاما شرعية للموحى إليه شخصيا، أم له و رسالة إلى جماعة قلوا أو كثروا، أم الى العالمين أجمعين.

و «فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ» حيث يحمل وحي التشريع من ملك الوحي بإذن اللَّه، آية يتيمة في القرآن كله، على احتمال أن الموحي بإذنه هنا ايضا هو اللَّه، حيث الآية تتبنى التكليم الإلهي في هذا المثلث البارع، فليكن المكلّم الموحي في ثالثه هو اللَّه كما في الأولين.

إذا «أو يرسل» اللَّه «رسولا» ملائكيا «فيوحي» بواسطته كحجاب يعقل «بإذنه» تعالى لا بإذن الملك أو الموحى إليه أو مسيّرا في وحيه «ما يشاء» اللَّه- لا ما يشاء الرسول الملك او الرسول البشر «إنه عليّ» عن أن يواجه في كلامه بذاته، أو يكلم غير رسله و أنبياءه «حكيم» يوحي بحكمة بارعة إلى كلّ كما يحق له و يتحمل، و كما يجب في رسالته.

لقد جمع لمحمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بين مثلث الوحي: دون حجاب- و من وراء حجاب المنام او الكلام- و بواسطة جبريل، و وحيه الأول دليل أن الآخرين لم يكونا لحاجة منه إلى حجاب او ملك، و إنما هو تثبيت للمؤمنين حتى لا يقولوا فيه ما قالوه في المسيح (عليه السلام):

«قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 255

لِلْمُسْلِمِينَ» (16:: 102)

«و كان جبرئيل إذا أتي النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) قعد بين يديه قعدة العبد و كان لا يدخل حتى يستأذنه» «1».

و لئن قلت: تنزيل جبريل لم يكن بمشهد للمؤمنين فكيف يصدقونه حتى يثبتوا على الإيمان أنه ليس كما قيل في المسيح (عليه السلام)؟

فالجواب نجده من‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» حيث يصدقونه- لإيمانهم- قوله:

إن تنزيل القرآن بواسطة روح القدس.

أو قلت: هلّا كلم اللَّه تعالى إبليس و كما في مواضيع من خطابه له، فهل يدخل في مثلث الوحي أم ماذا؟.

فالجواب: أن الآية تتحدث عن تكليمه لبشر دون أي كائن من جن و شيطان أم من ذا؟ ثم قد يكون وحيه إلى إبليس من وراء حجاب الغضب و الظلام دون حجب النور الذي كانت لرسل اللَّه، أو أنه لا يدخل في مثلث الوحي إذ لم يكن وحي رسالة و إنما وحي تنديد و تبكيت.

وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (52).

«و كذلك» الذي يوحي ربك‏ «وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» «أَوْحَيْنا إِلَيْكَ» و الوحي إلى محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) شمل هذا المثلث كله‏ «رُوحاً مِنْ أَمْرِنا» إن كان روح القرآن فمحكمه و ما أوحي إليه ليلة القدر و المعراج أم ماذا «وحيا» و مفصله: «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا»: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ..» و عوان بين ذلك في المنام أم ماذا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). علل الشرائع باسناده عن ابن أبي عمير عن عمرو بن جميع عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 256

ام «كذلك» الذي يوحي من وحي الكتاب‏ «أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا» الروح القدسي الرسالي الذي هو سند العصمة و لزام المرسلين و سائر المعصومين، و كل منهما روح من أمر اللَّه و فعله، لا صنع للموحى إليهم فيه و لا أمر، اللهم إلّا تحضيرا مستطاعا لهم بتوفيق اللَّه و جهودهم لكي يستأهلوا لنزولهما عليهم و وحيهما إليهم، وحي التكوين: روح العصمة، و وحي التشريع: روح الكتاب.

و قد يشملهما «كذلك» و كما في سائر القرآن، فالروح القرآن و هو روح الأرواح كلها: «وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 85) و هي تشمل روح القدس أيضا، و لكن الروح المنزّل هو القرآن: «يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ» (16: 2) اللهم إلا أن يعني التنزل التدريج الأرواح العدة التي تتنزل عليهم واحدا تلو الآخر، أو يشملهما معا، ثم الروح الملقى هو روح القدس، و روح الكتاب النازل دفعة كالقرآن المحكم أم ماذا: «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ» (40: 15) فبالروح القدسي الرسالي يتم الإنذار و يطمّ في الجو الملتطم، و بكتاب الوحي يبلغ الروح القدسي، فلو لا عصمة القرآن لم يكف الروح القدس، و لولاه لم تكف عصمة القرآن، فالروحان متجاوبان متناصران في الدعوة الرسالية المتحللة عن أية أخطاء.

و كما أن من وحي القرآن إلى محمد «وحيا» دون حجاب أو رسول، كذلك وحي الروح القدس إليه دون وسيط، فقد يلقيه اللَّه كذلك أو «يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ» حيث يشمل روح القدس.

و قد يختلف‏ «رُوحاً مِنْ أَمْرِنا» عن «روح من أمرنا» ف «نا» حيث تلمح إلى جمعية الصفات تجمع- للموحى إليه في الروح الموحى- كتابا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 257

و روحا قدسيا، تجمع كافة الصفات و الرحمات الإلهية، عصمة فوق العصم، و كتابا فوق الكتب، كما العصمة المحمدية و كتابه يجمعان ما بالإمكان أن يوحى من اللَّه.

ثم الرسول الحامل لوحي الكتاب هو جبريل- روح القدس (2: 87 و 253 و 5: 110) و الروح الأمين (6: 193) و الحامل لوحي العصمة:

- الروح القدسي الرسالي في وحيه الوسيط- قد يكون هو أو الروح الذي ليس من الملائكة و هو يرأسهم، فهو يحمل هذه الروح القدسية إلى المعصومين، أنبياء و سواهم، و يتنزل مع الملائكة ليلة القدر من كل أمر «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» (97: 3) كما «يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً» (78: 38) و «تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» (70: 4)، و لكنما الروح القدس النازل على محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هو كمحكم القرآن نازلان عليه دون أي وسيط، وحيا دون أي حجاب، كما و أن قبض روحه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عند ارتحاله لم يكن بوسيط.

فهنالك أرواح أربع من اللَّه إلى رسل اللَّه، روحان ينزلان وحيا: روح القدس و روح الكتاب، و روحان ينزّلان وحيا:- 1- جبريل- روح القدس: الروح الأمين، وسيطا في وحي الكتاب،- 2- و الروح وسيطا في وحي الروح القدسي أم ماذا من أمر، و الرسول الأقدس محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يتلقي وحي الروح القدسي دون أي وسيط، كما قد يتلقى روح القرآن دون وسيط، و قد يوحى إليه القرآن- كما في مفصله- بوسيط، أو يلقى إليه ليلة القدر من كل أمر بواسطة الروح.

و «رُوحاً مِنْ أَمْرِنا» هنا تشمل الروحين، و علّ أظهرهما روح القرآن، كما تلمح إليه «كذلك» و ألمح منه‏ «ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 258

فالروح القدسي ليس لزامه دراية الكتاب و الايمان القرآني، لأنه أعم، و روح القرآن الموحى اليه لزامه الروح القدسي، و قد يكون تفسير «رُوحاً مِنْ أَمْرِنا» هنا بروح العصمة تفسيرا باللازم او بمصداق خفي‏ «1».

اللهم إلّا ان تعني دراية الكتاب و الايمان دراية اجمالية عنهما كما يحق للقمة الرسالية، و من ثم تفصيل الكتاب، فالروح القدسي بما يوحى اليه من محكم الكتاب يتقدم تفصيل الكتاب، «رُوحاً مِنْ أَمْرِنا» يشملهما أولا الاول و ثانيا الثاني، و هما اللذان يتبنيان الرسالة القدسية المحمدية كسائر الرسالات على شتى مراتبها.

ام يعكس الأمر «رُوحاً مِنْ أَمْرِنا» تعني أولا الروح الرسالي لمكان «أوحينا» الضارب الى اعمق الماضي من زمن الرسالة، فلا يعني إلّا هذا الروح السابق وحيه على وحي الكتاب محكما و مفصلا، ام و وحي الكتاب محكما ليلة القدر بعد بداية البعثة قرابة خمسين ليلة.

ثم‏ «ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ» شاهد ثان أنه قبل هذا الوحي ما كان يدريهما، و لو كان- فقط- روح القرآن المتأخر عن روح الرسالة فانه كان يدري ما الكتاب و الايمان اجماليا قبل وحي القرآن، كما دراهما ليلة القدر أكثر، ثم درى تفصيلهما بنزول تفصيل القرآن، إذا فهو روح الرسالة أولا و من ثم روح القرآن.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 589 ح 139 في اصول الكافي باسناده عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) عن قول اللَّه تبارك و تعالى: و كذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ... قال: خلق من خلق اللَّه عز و جل أعظم من جبرئيل و ميكائيل كان مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يخبره و يسدده و هو مع الأئمة من بعده‏

و

في ح 140 باسناده الى أسباط بن سالم قال: سأله رجل من اهل هيت و انا حاضر عن الآية فقال: منذ انزل اللَّه عز و جل الروح على محمد ما صعد الى السماء و انه لفينا و في معناها روايات عدة و في بعضها انه من الملكوت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 259

و قد يعتبر الروحان واحدا كما هنا «رُوحاً مِنْ أَمْرِنا» و في الخبر «روح القدس فيه حمل النبوة «1» و لأنهما متلازمان كل يلازم زميله في حمل النبوة و تبنّي الرسالة.

و ترى أن الرسول قبل هذا الوحي ما كان مؤمنا كما لم يكن يدري القرآن؟.

إنه كان مؤمنا منذ كان فطيما

«و لقد قرن الله به من لدن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره» «2».

و لكنما الإيمان درجات، و لأن «الكتاب» هنا القرآن أم و سواه «و الإيمان» على ضوء وحي العصمة الرسالية و القرآن، فهو كبشر قبل الوحين ما كان يدري ما هذا الكتاب و لا ذلك الإيمان، على إيمانه العقائدي و العملي بما كان يسلكه الروح الأمين.

فما كان يدري هو من نفسه أو بأيّة دراسة و ارتياض ما القرآن و لا الإيمان القرآني‏ «وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً ...».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

سفينة البحار 1: 537 زع 191 ير عن المفضل عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال‏ يا مفضل ان اللَّه جعل للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) خمسة أرواح روح الحياة فبه دب و درج و روح القوة فبه نهض و جاهد و روح الشهوة فبه أكل و شرب و أتى النساء من الحلال و روح الايمان فبه امر و عدل و روح القدس فبه حمل النبوة.

(2) نهج البلاغة عن الإمام علي (عليه السلام)- راجع «شريعة محمد قبل الإسلام» في ج 30 ص 347- 348 الفرقان.

و

في الدر المنثور اخرج ابو نعيم في الدلائل و ابن عساكر عن علي قال: قيل للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هل عبدت وثنا قط؟ قال: لا- قالوا: فهل شربت خمرا قط؟

قال: لا- و ما زلت اعرف ان الذي هم عليه كفر و ما كنت أدرى ما الكتاب و لا الايمان و بذلك نزل القرآن‏ «ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 260

أجل‏ «وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً» (4: 113) «تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» (11: 49).

لقد كان مؤمنا نبيا أم سواه قبل رسالته، و ما كان يعلم الكتاب قرآنا و سواه: «وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (29: 48) ما كان يتلوا و لا يخط بما أحال اللَّه تعالى عليه قبل الوحي الرسالي‏ «إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» فعدم القراءة و الخط لهذه الغاية كمال حيث يتبني قوام الرسالة.

و ما كان يدري ذلك الإيمان الحاصل بوحي الروحين‏ «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ» (12: 2).

فالإيمان هنا معرّف معروف حسب المقام أنه إيمان خاص، بحاجة إلى تعريف الوحي، كما علم الكتاب بحاجة إلى الوحي، دون أن يملك الرسول قبل رسالته هذا العلم أو يدري هذا الإيمان!.

هنالك بالنسبة لإيمان الرسول قبل رسالته مفرط و مفرّط، قولا أنه كان ضالا لم يؤمن، و آخر أنه كان يعلم ما أوحي إليه قبل أن يوحى، و الحق المستفاد من القرآن عوان بين ذلك‏ «1».

«وَ لكِنْ جَعَلْناهُ» ما كنت تدري و لكن أدريناك بما «جَعَلْناهُ»: روحا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و إذ لم يكن الرسول ليعلم القرآن قبل وحيه فبأحرى لم يعلمه غيره، فالروايات القائلة ان الإمام علي (عليه السلام) قرء سورة المؤمنون حين ولادته مزورة مقحمة تعني تفضيله على الرسول، و نبوته قبل الرسول!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 261

من أمرنا و الكتاب و الإيمان‏ «نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا» هداية الدلالة و الإيصال إلى الهدى، فخصوص الهداية الدلالة عام، و الهداية الإيصال خاص ب «من نشاء» و هم من يشاءون الهدى و يعملون لها «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً» (47: 7). «وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» فقط هداية الدلالة دون إيصال تكويني إلى الهدى‏ «1».

و علّ الهداية الأولى هي الهداية بوحي الروحين، ثم الثانية هي العامة و أين هدى من هدى؟.

صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53).

للَّه صراطان، صراط الربوبية المختص باللَّه‏ «ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (11: 56) و صراط العبودية المختص بعباد اللَّه، حيث رسمه اللَّه و خططه لعباده و جعل عليه الأدلاء اليه و أمرهم أن يدلوا العباد إليه‏ «أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ».

شرعة الرسول قبل الإسلام؟

ترى أن محمدا (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كان نبيّا موحى إليه بشرعة تخصه قبل رسالته؟! أم كان يسترشد فيها بأعظم ملك من ملائكة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 4: 133 ح 9 بإسناد عن جابر الجعفي عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول اللَّه عز و جل: «وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا» قال:

ذاك علي بن أبي طالب- أقول: عله يعني روح القدس النازل على علي (عليه السلام) بعد الرسول، كما القرآن يعلمه علي بعد الرسول فهو (عليه السلام) مزود بالروحيين دون وحي إلا في روح القدس الذي هو مع الأئمة يسددهم كما كان مع الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 262

الوحي دون أن يوحى إليه أم كان متعبدا بالشرعة المحكّمة زمنه: شريعة الناموس التوراة حسب الإنجيل؟ بيد التدليل- وحيا أم ماذا- على مواضع التحريف و التجديف- 3-؟ أم دون تدليل- 4-؟ أم كان على شرعة إبراهيم: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ»- 5- (3: 68) رغم أنها نسخت بشرعة التوراة و الإنجيل؟ فضلا عن شريعة نوح؟ أم لم يكن على أية شرعة و إنما على الفطرة الطاهرة التي فطره اللَّه عليها- 6- ام كان ضالا عن كل هذه الشرائع- 7-: «وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى‏» (93: 7).

من المؤكد قرآنيا و في السنة أن اللَّه اصطفاه بين العالمين على العالمين أجمعين، و فيهم- طول الأربعين- عباد اللَّه المخلصون من اهل الكتاب الموحدين، و اصطفائه عليهم يتطلب- و لأقل تقدير- أنه كان مؤمنا كما هم، و عاملا بالشرعة المحكمة زمنه كما هم، و لكنما الاصطفاء يقتضي أنه كان بينهم اوّل المؤمنين و العابدين، إضافة إلى تحضير رباني و تسديد دائب طول الأربعين و لكي يصلح للرسالة على العالمين أجمعين، هذه الرسالة السامية القمة التي تربوا الرسالات كلها ربوة تطمّها و تتممها، أ فلا يقتضي ذلك لمحمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) نبوءة قبل رسالته، أم استرشادا بأعظم ملك من ملائكة الوحي يسلك به سبيل المكارم و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره، و إن لم يكن بوحي، أم لا أقل من اتباعه شرعة التوراة الأصيلة على ضوء الإنجيل الأصيل، تدليلا بوحي ام سواه في موارد التحريف أم ماذا.

و مهما يكن من شي‏ء فهو كان أفضل المؤمنين العابدين على الإطلاق و إن كان «ما كان يدري ما الكتاب و لا الإيمان» قرآنيا قبل نزوله و نزوح روح القدس عليه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 263

و قد يعني نبوته الشخصية قبل رسالته قوله «كنت نبيا و آدم بين الماء و الطين» واقع النبوة منذ كان فطيما حتى رسالته، و نبأ النبوة و آدم بين الماء و الطين.

أم يعني نبوّته في وجوب تصديقه قبل بعثته طول التاريخ الرسالي للرسل و النبيين أجمعين: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (3: 81)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 265

سورة الزخرف مكيّة و آياتها تسع و ثمانون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 267

[سورة الزخرف (43): الآيات 1 الى 25]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

حم (1) وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4)

أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (5) وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (7) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضى‏ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9)

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (11) وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلى‏ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَ إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (14)

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (17) أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18) وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ (19)

وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (20) أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى‏ أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى‏ آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى‏ أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى‏ آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى‏ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (24)

فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 269

حم‏ رابعة الحواميم السبع، تبدأ بالكتاب المبين و كما في الدخان، إلا أن هنا يجعل قرآنا عربيا، و هناك ينزل في ليلة مباركة، ثم لا إنزال للكتاب في سائر السبع إلا تنزيلا كما يسبقها أيضا تنزيل الزمر دون «حم» إذا ففي مفتتحات الحواميم تنزيلات ست للكتاب، منها ما هنا:

«إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا» ... تعني تفصيل الكتاب، و إنزال واحد في الدخان يعني محكم الكتاب النازل ليلة القدر جملة واحدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 270

أ ترى ما هو الكتاب المبين؟ إن له حسب القرآن مصاديق ثلاثة، أعلاها أمّ الكتاب لدى اللَّه‏ «وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» كما هنا و «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ» «1» كما في الدخان أم ماذا .. و أدناها القرآن المفصل: «قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ» (5: 15) «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ» (36: 69) و أوسطها القرآن المحكم النازل في ليلة مباركة على قلب الرسول محمد (ص) «حم وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ» (44: 2) «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» (97: 1).

فقد يعني الكتاب المبين هنا أم الكتاب فجعله قرآنا عربيا جعل ثان بعد إنزاله في ليلة القدر، أو يعني النازل فيها فجعله جعل أول، و قد يلوح من‏ «وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» أنه الكتاب المبين الأوسط، و هنا يلوح «حم» خطابا ل (احمد- محمد) قسما بالكتاب المبين الذي أنزلناه عليك في ليلة مباركة «إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» إذ لم يكن قبله بمحكمه النازل فيها لا قرآنا: يقرأ بألفاظ، و لا عربيا:

لائحا لغير الرسول (ص)، و لقد كان قبل النزول الأول: المحكم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فان ضمير الغائب المفرد في «أنزلناه» راجع الى القرآن قبل الانزال لا بعده حيث الجمع بين حالتي النزول و قبله محال، ف «ه» يعني ام الكتاب و الله تعالى أنزله من عل الربوبية إلى دنو العبودية حتى تلقاه الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) بصورة محكمة، و من ثم نزل هذا المنزل آيات مفصلات لعلهم يعقلون.

و قد يحتمل ان الضمير راجع الى الحالة الحاضرة لدى الجميع و هو القرآن المفصل و ان كان أنزل و أدنى من المنزل ليلة القدر، فهناك حالة قبل الانزال في ام الكتاب، و حالة الانزال في ليلة القدر و حالة التنزيل في الكتاب المفصل و الحقيقة واحدة، الا ان للكتاب الام فضله حيث الآخران من ولده، فانه علم الله المحيط بكل شي‏ء، و للكتاب للحكم فضله على المفصل بإحكامه و انه يشمل ما يختص بالرسول نفسه، و هذا المختص بارز في الحروف المقطعة التي هي مفاتيح كنوز القرآن، اضافة الى علم التأويل الخارج عن دلالة التنزيل، فهنا اختصاصان للرسول من القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 271

«فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ» من أن تناله الأفهام حتى الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و «حكيم» لا يتخلل حتى للرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)!. إذ لم يكن له سبيل إلى علم اللَّه قبل وحيه اللهم إلا بوحيه بما أنزل عليه من علمه تعالى.

فقد أنزله اللَّه مرة أولى في ليلة مباركة حتى وعاه الرسول محكما، ثم جعله قرآنا عربيا إنزالا ثانيا تفصيلا: «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (11: 1) و ترى ما هو الكتاب المبين الأم؟ و ما هو الفرق بين الكتب الثلاث؟

للكتاب الأم مواصفات عدة في سائر القرآن تميّزه عن الآخرين على وحدة في الثلاثة.

إنه العلم المطلق بكل شي‏ء: «وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها وَ لا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ» (6: 59) و مفاتح الغيب تشمل العلمين الإلهيين الذاتي و الفعلي، ثم يستعرض الثاني‏ «وَ يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ» و الكتاب المبين الثاني: القرآن المحكم، و لا الثالث: القرآن المفصل، لا يشملان العلم الفعلي كله فضلا عن الذاتي الذي هو عين ذاته تعالى فلا يحدث و ينفصل عنه و الفعلي حادث منفصل: «وَ ما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ» (10: 61) هنا الآية تختص باستعراض العلم الفعلي الإلهي ككل، و تختصها بالكتاب الأم:

«وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ» (11: 6) «وَ ما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 272

مُبِينٍ» (27: 75) «.. عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ وَ لا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ» (34: 3) «يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ» (13: 39).

و ذلك الكتاب الأم المبين هو الإمام المبين: «وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» (36: 12) و هو من لوح محفوظ «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» (85: 33) و لوح محفوظ هو الكتاب الأم، لائح لدى اللَّه، محفوظ عند اللَّه، و النازل منه ليلة القدر على لوح قلب الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) المحفوظ بالعصمة الإلهية، ثم المنزل طول البعثة لائح في صدور الحفاظ، محفوظ عن التحريف، و أخيرا في ألواح الأوراق أم ماذا، لائح للقارئين محفوظ عن التحريف، و كتاب مكنون: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ» (56: 78).

و الكتاب النازل بمحكمه و مفصله كانا في الكتاب الأم، فتولد المحكم من محكم الأم، و المفصل من هذا المحكم، كولد ثان لهذه الأم.

فأم الكتاب يعم و يطم كل علم، فما من غائبة في السماء و الأرض و لا رطب و لا يابس، و ما من قرآن و لا عمل و لا من مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء و لا أصغر من ذلك و لا اكبر إلا في كتاب مبين، لا يعزب عنه علم شي‏ء و لا أي شي‏ء، فهو العلم المطلق بكل شي‏ء.

إذا- بطبيعة الحال- ليس الكتاب المبين الثاني: النازل ليلة القدر على قلب الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ليس هو النسخة الثانية عن الكتاب الأم ككل، و إنما هو منه كما هو فيه، و ليس الشي‏ء في نفسه و إنما هو فيما يحويه، كما نطق به آياته.

ثم الكتاب المبين الثاني أم للثالث: القرآن المفصل، فإنه آياته و ليس الأم بتمامها، اللهم إلا ما هو للناس و العالمين أجمعين، اللهم إلا ما تعنيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 273

رموز القرآن و مفاتيح غيبه الخاص بمن أوحي إليه و أهليه و تأويله، إذا فالقرآن المفصل هو هو الأم الثاني برموزه المنحصرة بالرسول المنحسرة عمن سوى الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

ثم المبين الثالث: هذا القرآن ليس إلا آيات الكتاب المبين: «الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ» (12: 1) «الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ» (15: 1) «طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَ كِتابٍ مُبِينٍ» (27: 1).

فهذا الكتاب القرآن و القرآن الكتاب ليس إلا آيات للكتاب، و القرآن الأم، النازل في ليلة القدر، لا يزيد عليه و لا ينقص عنه، إلا بيان ما يختص بالرسول من حروفه الرمزية و تأويله، ثم هما: الأم الثاني بولدها، ليسا هما الكتاب المبين الأول بتمامه، حيث يجري علم الغيب كله دون عزوب أو غروب.

«وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْناهُ ..» دليل أن القرآن المحكم و المفصل واحد لا يختلفان إلا في الإحكام و التفصيل: «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (11: 1).

ثم‏ «وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» دليل أن أم الكتاب الأولى ظرف للثانية بولدها، فهي تحويهما و تحيط بهما، دون تساو، و إنما أنزل منه و نزّل ما يحتاجه النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و العالمون أجمعون إلى يوم الدين، فهو من العلم الرباني و ليس العلم كله، فهو من الغيب و ليس الغيب كله.

و الكتاب المبين الأوّل هو أولا مبين لرب العالمين لا عن جهل، و مبين للنبي و العالمين على حدّهم، و مبين كل شي‏ء علما واقعا.

و المبين الثاني يخص النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حيث لا سبيل لمن سواه إلى ما أوحي إليه ليلة القدر إلا ما بينه أو بينه القرآن المبين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 274

و المبين الثالث من طبعه أنه يبين دون خفاء في قصور دلالي، و على من يستبين دقيق النظر و حديد البصر ليبلغ مدى بيانه‏ «هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ».

إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (3).

الكتاب المبين الأم الثاني فضلا عن الأول، لم يكن قرآنا: يقرأ في آيات، و لا عربيا: بيّنا يعرب عن حقيقته «للعالمين» «إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» و لا يعني «عربيا» إلا واضحا لاخفاء فيه، لا أنه باللغة العربية و ان كان بها. إنه عربي في بعدين: باللغة العربية فإنها أعرب اللغات و أظهرها، بلسان عربي في هذه اللغة حيث لا تعقيد فيه و لا ريب يعتريه، و جملة القول في عربيته أنه يعرب عن حقائقه كأوضح ما يمكن في فصاحة التعبير و بلاغته‏ «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»: تأخذون ما يعرب عنه دون قصور و خفاء فيما يعرب حيث لا يعزب عن دلالة، و لا يغرب عن لمحة إلا و هو بيان له، يعرب كأعرب بيان و أعذب تبيان.

ف «كم» في لعلكم ليسوا هم العرب فحسب، حيث القرآن شرعة للعالمين و بيان للناس أجمعين، بل هم العالمون أجمع شرط أن يعرفوا هذه اللغة، أو يترجم لهم إلى لغتهم: «كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (41: 3) فرب عربي لا يعلمه و رب أعجمي يعلمه، إن بلغته أم مفهومه أم ماذا.

إنه لسان عربي يعرب، لا لغة عربية قد تعرب و قد تغرب‏ «وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (16: 103) «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى‏ قَلْبِكَ. لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» (26: 195).

إنه لسان عربي كما أنه حكم عربي‏ «وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا» (13: 37) دون أن يختص لسانه و حكمه بالإنسان العربي، و إنما هو عبارة تعرب و حكم يعرب دون عوج في حكمه او خفاء في تعبيره: «قُرْآناً عَرَبِيًّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 275

غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» (39: 28).

أ ترى لو نزل القرآن بغير هذه اللغة ما كان يعقل أو يتقى، فإنما يتقى ما يعقل، و يعقل و يقبل الظاهر دلالة، الموافق للعقل و الفطرة و المصلحة مدلولا.

فكم من عبارة عربية لا تعقل فلا تقبل، و كم من أعجمية تعقل فتقبل، و لكنما القرآن جمع بين عربية اللغة و عربية اللسان و عربية البيان و عربية الحقائق التي يتقبلها العقل و الفطرة، و يصدقها الواقع، فهو حكم عربي في كافة المجالات. و «لعلّ» هنا في موقف ترجّي العقل عن القرآن، لا أن اللَّه يترجى، و إنما العالمون المكلفون بشرعة القرآن، فمنهم من يعقله و منهم من لا يعقله، فالقرآن في نفسه بيان لا عوج فيه، فيه رجاء عقلكم أن تأخذوا حقائقه، لا إثبات في عقله مطلق و لا سلب عن عقله مطلق، و إنما هو عوان، يعقل لمن يعقله و يعقل عنه، و لا يعقل لمن لا يعقله و لا يعقل عنه‏ «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً».

وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4).

الكتاب هنا كتاب العلم المحيط من تشريع و تكوين، يحوي كتابات التشريع و مطلق التكوين، و القرآن موقفه في أم الكتاب «علي حكيم».

و «لدينا» هنا تعني: انه لدينا- في أم الكتاب لدينا، إنه في ميزان اللَّه، في أم الكتاب لدى اللَّه «علي حكيم»، «علي» على سائر الكتب السماوية و هي دونه، كما هو علي عن أن تناله الأفهام قبل نزوله و حتى للرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فكيف بمن دونه!.

«حكيم» من أن يتدخل فيه الأوهام، حكيم من النسخ و التحريف،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 276

فكما اللَّه علي لا ينال في علوه، و حكيم لا يغتال، كذلك قرآنه المبين، فعلوه و حكمته لزام له لا يزول، و إن كان كلّ درجات في مثلثة الحالات «لدى اللَّه» «لدى رسول الله» «لدى خلق الله» و لكنما الأمر الثابت أنه عليّ يعلو كل عال، حكيم لا يتطرق إليه أي إدغال، و لا ينفذ إليه غيره في أي مجال على أية حال!.

القرآن هنا «علي» و اللَّه تعالى «علي» في آيات سبع، و أين علي من علي!، حيث القرآن قبس من أم الكتاب لدى اللَّه‏ «لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ».

ثم القرآن هنا «حكيم» و في آيات عدة: «ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ» (3: 58) «1» و اللَّه حكيم في (93) آية، و أين حكيم من حكيم! و لا يعني «علي» هنا عليا (عليه السلام) حيث الضمير في «إنه» راجع إلى‏ «الْكِتابِ الْمُبِينِ» فالكتاب المبين في أم الكتاب لدى اللَّه علي حكيم، و إذا أوّلته إلى ضمير شأن- حيث يتطلب مبتدء و خبرا- لا تجد إلا خبرا موصوفا «لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» بلا مبتدء! حيث المبتدء لا يبتدء بلام التأكيد، و لا يعني رواية «على حكيم» إلا تطرفا جاهلا بعيدا عن أدب اللفظ و المعنى‏ «2» اللهم إلا تأويلا يعني النسخة الثانية من الحكمة المحمدية تمثلا في الإمام علي (عليه السلام) و تداوما في الأئمة من أهل بيته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في‏ «تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ» (10: 1) (31: 2) «يس وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» (36: 2).

(2)

نور الثقلين 4: 592 في كتاب معاني الاخبار باسناده متصل عن حماد بن عيسى عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في قول اللَّه عز و جل‏ «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» قال:

هو امير المؤمنين و معرفته و الدليل على انه امير المؤمنين قوله عز و جل: وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» و هو امير المؤمنين (عليه السلام) في ام الكتاب في قوله‏ «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ»؟!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 277

الطاهرين كما يلوح من الرواية نفسها.

أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (5).

هذا ذكر مبارك أنزل قرآنا عربيا لعلكم تعقلون، رحمة عالية غالية لعلكم ترشدون، فإن عقلتم فأنتم مهتدون، و إن أسرفتم في الجهالة و التجاهل فحقّ عليكم عذاب اللَّه أن يضرب عنكم الذكر صفحا، إعراضا عنكم بنعمته و استعراضا لكم بنقمته، و إنه لتهديد مخيف أن يلوح لهم بعد ذلك بالإهمال من حسابه و رعايته جزاء إسرافهم القبيح.

إن ربكم يحدثكم في هذا الذكر بلسانكم كما يتفهمه كل إنسان، لسان الناس دون تكلف‏ «هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ» فهل إذا تحولتم من الناس إلى النسناس‏ «أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ»؟

فلو أن ضرب الذكر صفحا كان عنكم المسرفين برفعه أو محوه فما ذنب غير المسرفين؟ أو أن ضربه عنكم فقط أن يجعل بينه و بينكم حجابا مستورا، فانقطاع لحجة دائبة عليكم من رب العالمين، فليكن الذكر أمامكم و بين أيديكم تعيشونه بأسماعكم و أبصاركم‏ «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» فتتقون شفاء و رحمة للمؤمنين، أم نكالا و خسارا للظالمين:

«وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً».

وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (7) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضى‏ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ» (8).

«الأولين» هنا تعني من قبل الآخرين المسلمين كما «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ» (15: 10) «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ‏. قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى‏ مِيقاتِ» (56: 39- 49)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 278

«وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ» (37: 71)، و إن كانت تعني أحيانا من قبلكم و قبل الأوسطين: «قالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» (26: 26) فحين تعني الأولين أولية الرسالة و المرسل إليهم فالآخرون هم المسلمون، لمحة لطيفة إلى أن الرسالات كلها تقدمات و تهيئات لهذه الرسالة الأخيرة السامية، لا شأن لها إلا أوليتها و أنها تعبّد طريق هذه الأخيرة.

«وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ» رسالة تترى دونما انقطاع‏ «فِي الْأَوَّلِينَ»: «ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ» (23: 44) سنة دائبة في تواتر الرسالات رغم تواتر التكذيبات دون أن يضرب عنهم الذكر صفحا أن كانوا مسرفين! «ما يَأْتِيهِمْ» هؤلاء المناكيد الأوغاد «مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» و هم أولاء المترفون: «وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ» (34: 34) و من ثم المستضعفون، و الرسالات الإلهية تحارب المستكبرين و تؤوي المستضعفين:

«فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً» أشد منهم بينهم‏ «1» و أشد منكم‏ «وَ مَضى‏ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ» مضيا في واقعه حيث الهلاك الواقع، و مضيا في إنباءه حيث الإنباءات الماضية منذ بزوغ وحي القرآن، و مضيا في إمضاءه ككل إنباء لكم، حيث الإنباءات تترى طول نزول القرآن، و مضيا في تحقيقه بينكم:

«لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ» (84: 19) سنن من كان قبلكم حذوا النعل بالنعل و القذة بالقذة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ف «هم» يعنيهما، أشد منهم بينهم و أشد من هؤلاء الموجودين زمن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 279

«أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً»: حملة على الرسل و الرسالات، و حملة على الأفراد و الجماعات، هؤلاء الأشداء أهلكوا بالطاغية.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» (9) هنالك خطوات ثلاث إلى اللَّه، أولاها أن هناك مخلوقا أو ان العالم كلّه مخلوق، و ثانيتها أن الخالق عزيز عليم، و ثالثتها انه هو اللَّه.

الخطوة الأولى بيّنة مبرهنة نعيشها ليل نهار، و لا أقل من أنفسنا حيث نخلق تلو بعض و مع بعض، فلا ناكر أن هناك مخلوقا بين المختلفين في اللَّه من ماديين و مشركين أم من ذا؟.

فهنا يأتي دور الخطوة الثانية «من خلق»؟ «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْ‏ءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ» (52: 36) فالخالق لهم و لما سواهم غيرهم، فهل يعلم الخالق أم يجهل؟ «أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» (67: 14) فاللطافة الدقة و الخبرة الحكمة باهرتان في الخلق كله:

«وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» فالعزة: القدرة الغالبة، و العلم المطلق: اللطافة و الخبرة، نلمسها كلها في هذا الخلق العظيم‏ «فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ» (67: 4).

فلو أن الحكمة و الإتقان في هذا الصنع البارع البديع دليل الجهل و العجز، أم لا يدل على علم و قدرة، فما هي آثار العلم و القدرة أم ليست لهما آثار؟.

إن القدرة الغالبة غير المغلوبة و العلم النافذ هما لزام هذا الخلق العظيم؟ فلو لا العزة لم تكن قدرة لخلق فضلا عن هذا الخلق القويم،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 280

و لو لا العلم لم تكن حكمة و نظام في هذا الخلق الحكيم، و لو لا هما فلا هما فلا خلق فضلا عن هذا الخلق القويم الحكيم، و آيات العزة و العلم و الخبرة و اللطف و الحكمة نقرءها ليل نهار في هذا الخلق العظيم.

فسواء أ كان هذا السؤال عن المشركين المقرين باللَّه ذي العرش، أم عن الماديين الناكرين اللَّه، حيث الخلق و إتقانه دليل لا مرد له على خالق أتقنه، فالفطرة تجيب: «خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» و العقل يجيب و العلم‏ «خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» و حتى المجانين يعرفون أن العزة و العلم هما لزام الخلق و أي صنع.

كلّ من له أدنى شعور لا ينسب هذا الخلق- بما فيه هذه العقول البارعة- إلى مادة غير ذات شعور، فلو أن العجز و الجهل يأتيان بما لا يقدر عليه فطاحل العلماء و نوابغ المخترعين، فلنحاول في تحصيل العجز و الجهل أم لا نحاول في تحصيل العلم و القدرة، بغية أن نقدر على ما تقدر عليه المادة العاجزة الجاهلة! فليكن الخالق أيا كان أعز و أعلم من كل ما خلق و هو «الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ».

ثم يأتي دور الخطوة الثالثة «لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» «1» يقوله المشركون المعترفون باللَّه، و ليقله الماديون الناكرون اللَّه.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (10).

إن جعل الأرض مهدا بعد ما كانت شموسا محكومة بحراكات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كنص الآية نفسها في 29: 25 و 38 و اضافة «وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ» (29: 61) «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها ..» (29: 63) «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ..» (43: 87).

فهذه الآيات الست في سورتي الزخرف و العنكبوت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 281

مضطربة، و جعل سبل لنا فيها بغية اهتداءنا الى منافعنا، هما من مظاهر العزة و العلم لخالق السماوات و الأرض.

فكما الطفل يربّى في المهد ثم يمشّى في سبل الحياة، كذلك يتربى الإنسان في مهد الأرض و يمشي في سبلها إلى منتفعات الحياة، سواء أ كانت الحياة الأرضية المادية لصالح الجسم، أم حياتا معنوية سماوية هي معرفة اللَّه، فالسبل المجعولة لكم فيها ليست هي السبل الأرضية فحسب، بل و سبل الإنسانية كلها بما كوّن فيها او شرع، فمن شرعة التكوين تهتدون إلى المكوّن و إلى حياتكم الأرضية، و من شرعة التشريع تهتدون إلى مشاريع الإنسانية، و هي حجر الأساس في تبنّي الإنسان كإنسان.

فهناك مثلث من السبل المجعولة في الأرض يعيشها كل إنسان و كل جيل حسب مستطاعه و على ضوء محاولاته الدائبة: سبل المعرفة الإلهية بما أودع في الأرض من بدايع العزة و العلم، و سبل الحياة برّا و بحرا و جوّا، و سبل التشاريع الإلهية، عبر الرسالات، و الإنسان يعيش هذه السبل و يهتدي بها إلى معارج الكمال.

فالأرض بسبلها تكوينية و تشريعية مهد للطفولة الإنسانية حتى تبلغ بالإنسان الى رجولات و رجولات، حسب مختلف الإمكانيات و الإدراكات.

فالأرض مهد بحراكها الذلول بعد أن كانت شموسا، و مهد بحراكها المختلفة المولدة للفصول، و مهد بحراكها التطورية في مختلف الحقول، و مهد متمهد لترقية الناشئة إلى آماد و قمم من الكمال الإنساني ..

«جَعَلَ لَكُمُ» ترى أن «كم» هنا تعني الموجودين زمن الخطاب: ام و من يتلو هم إلى يوم القيامة؟ أم بني الإنسان أيا كانوا و أيان؟ أم كل عاقل ممن سبقنا من إنسان كما نحن؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 282

طبعا ليس مهاد الأرض جديدا يخصنا، فإنه يعم و يطم كل من يحتاج إلى مهاد الأرض من إنسان أمن ذا، و على هامشه سائر النبات و الحيوان! فمهاد الأرض و مهدها و ذلولها و كل ممهدات الحياة الأرضية هي مجعولة بعزة اللَّه و علمه لمحاويجها من إنسان و غير إنسان، مهما كانوا هم في درجات.

فالأرض مهد كما هنا و في طه (53) و مهاد كما في النبإ (78) و ذلول كما في الملك (67) و راجفة (79: 6) و قرار (40: 64) و كفات (77: 25) تسبح كسابحات أخرى في يمّ الفضاء الملتطم (21: 33) أما ذات من دلالات على حركاتها التي هي من مخلّفات عزته تعالى و علمه بحكمته و رحمته، تعبيرات سبع عن حركات عدة في مربع من كونها و كيانها: قبل الحياة عليها، و زمنها و عند موتها و في قيامتها.

و من سبل الحياة الأرضية في الحقل المادي نزول ماء السماء عليها بقدر:

وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (11).

إن ماء الأرض كله نازل من السماء بقدر، لا يزيد فيغرق، و لا يقل فتجف الأرض، و إنما بقدر يقدّره علم اللَّه و ينزله بعزته و حكمته، فالأرض قبل نازل السماء كانت ميتا، «وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها» (2: 164) و لو لا ماء السماء لظلت الأرض ميتا دونما حيات و إنبات: «وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى‏ ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ» (23: 18) و إنما نبات كل شي‏ء نابت بماء السماء المقدر للأرض: «وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» (6: 99) فللأرض ماء من السماء يخصها «وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي» (11: 44) و ليس «ماءك» إلا النازل من السماء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 283

بقدر! فماء السماء النازل على الأرض بقدر دليل على مدبر عزيز عليم، و إنشاءه بلدة ميتا آية له لإخراج ميت البلاد يوم المعاد: «كَذلِكَ تُخْرَجُونَ» رحمة ذات دلالتين لسبل الاهتداء، على المبدء و المعاد.

وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلى‏ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَ إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (14).

الأزواج كلها حسب القرآن و الواقع الكوني هي الخلق كله، فما من خلق إلا و هو زوج و لا زوج إلا و هو مخلوق، فلا فرد حقيقيا إلا اللَّه سبحانه و تعالى عما يشركون.

أجل إن الزوجية التركّب و إن من جزئين فيزيائيين أم هندسيين، إنها قاعدة الكون المخلوق و صيغته الشاملة «كل شي‏ء»: «وَ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» (51: 49) «سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ» (36: 36) فلا تخص الأزواج و الزوجان- إذا- الذكر و الأنثى، و شحنتي السلب و الإيجاب أم ماذا، مما عرفه الإنسان حتى الآن أم سوف يعرفه، حيث الزوجية ضاربة إلى اعماق الكيان المادي أيا كان، و إن في كل شحنة و أجزائها ما دامت مادة، و زوال الزوجية ككلّ هو زوال الكيان المادي فالانعدام المطلق، كما أن الوجود المادي- و كل موجود سوى اللَّه مادي- هو الوجود التركيبي الزوجي مما يعلمون‏ «وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ»!.

و خلق الأزواج بنفسه دليل على عدم الزوجية في خالقها، كما الزوجية بنفسها دليل حدوثها بعزيز عليم.

«خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 284

تركبونه كالأنعام، أو فيه كالفلك و أضرابها، و «من» هنا تلميحة أن ما تركبون لا يخص الفلك و الأنعام: «وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ» (16: 8) من سفن تحت البحرية او طائرات و صواريخ أو سيارات أما هيه.

«لِتَسْتَوُوا عَلى‏ ظُهُورِهِ»: ظهور ما تركبون، «ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ» حيث سخرها لكم بما خلقها، أو رزقكم من عقول بما تصنعون مما تركبون‏ «وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ»: ضابطين، يصبح لنا قرنا نركبه، أو تقرن أسباب اصطناعه فنصطنعه، إلا بفضل من اللَّه و رحمة «وَ إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ»: انقلابا من النكران به إلى الإيمان، و من الخلق إلى الخالق فرارا: «وَ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» (51: 50).

آية الانقلاب تجعله في نطاق الركوب و طبعا في السفر طال أم قصر، و العبد دائم الانقلاب إلى ربه، «كَدْحاً فَمُلاقِيهِ» (84: 6) و لكنما السفر لابتعاده عن الموطن المألوف أم أي مسكن، يتطلب انقلابا إلى الرب أكثر قضية اضطراب هنالك أكثر، و لتقل في السفر حين تركب ضمن ما تقول:

«اللهم أنت الحامل على الظهر و المستعان على الأمر، اللهم بلغنا بلاغا يبلغ إلى خير، بلاغا إلى مغفرتك و رضوانك، اللهم لا طير إلا طيرك و لا خير إلا خيرك و لا حافظ غيرك» «1».

إن الأدب الإسلامي هنا وثيق الصلة بتربية الروح الإنساني، أنه ليس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 593 ح 12 القمي عن معاوية بن عمار عن أبي عبد اللَّه (ع) قال: إذا استويت على راحلتك و استوى بك محملك فقل: الحمد للَّه الذي هدانا للإسلام و منّ علينا بمحمد (ص) «سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَ إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ‏ و الحمد لله رب العالمين اللهم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 285

قولة فاضية، و انما فائضة على القلب، نابضة منه، لا مجرد طقوس لفظية عابرة، و إنما استحياء للمشاعر و استجاشة للضمائر، و لكي يرى الإنسان حياته كلها مربوطة بفضل اللَّه و رحمته، فيصبح دائب الانقلاب إلى اللَّه، فرارا دون قرار و لا ارتجاع إلى دار الفرار.

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15).

رغم أن خالق الأزواج و الزوجين ليس من الأزواج و الزوجين، حيث الزوجية آية الفقر، و من المستحيل أن الفقير الذات يخلق الفقير الذات ..

رغم كل ذلك‏ «وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً» ولدا تجزئوه انفصالا عن ذاته المقدسة من ملك او إنس و جان، ام جزء من الإنسان (روحه) جزء من روحه، و قد يخرصون له بكلامه‏ «وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» (15: 29) رغم أن‏ «الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» (17: 85) لا من ذاته! فقد جعلوا المسيح ابن اللَّه بولادة إلهية، و الملائكة بنات اللَّه، و الجن أبناء اللَّه:

«وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يَصِفُونَ» (6: 100).

و ذلك الجزء المخروق من ذاته سبحانه لا بد و أن يكون مثل ذاته سبحانه، فكيف أصبح مخلوقا كما يقو لون و هو خالقه؟ .. «إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ» نعمة العقل و الوجدان، فيكفر بربه كفرا و كفرانا مبينا.

و ترى الجزء المجعول له من عباده هم فقط الذين ولدهم على زعمهم‏ «وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ»؟ و قد جعلوا! أم تجزئوا عباده فجزء له و جزء لآلهة أخرى؟ و الجزءان عباده كما هم معترفون! و قد جعلوا!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 286

أم تجزئوا الخلق، و التدبير لعباده، فله خلقهم و لآلهة أخرى تدبيرهم؟ .. و قد جعلوا! و الآية تتحمل هذه الثلاث لفظيا معنويا مهما عنت «له» الجزء الذاتي المتجزئ من ذاته كالأول، أو الجزء العبادي ففريق يعبدونه و آخرون يعبدون آلهة أخرى هم من ولده أمّن ذا؟ كالثاني، أو الجزء في كيان العباد خلقا و تدبيرا، فجزء الخلق له و جزء التدبير لآلهة أخرى!. كما و أن «من عباده» تعني في الأول بعض العباد و هم الذين ولدهم في زعمهم، و في الثاني فريق له يعبدونه و فريق لسواه يعبدون سواه، و في الثالث قسم من كيانهم له و قسم آخر لآخر!.

و لأن الجزء في أصله من الكل، فهو قسم من ذات واحدة أو من ذوات، فالمعنى الثاني يصبح في القوة ثالث الاحتمالات، كما الأول أول حيث الأظهر من الجزء هو من شخص لا أشخاص كالثاني و لكنما الجزء في إطلاق عام يعم الثلاثة.

و بصيغة أخرى و «جعلوا» تشمل جعل الولادة أم البنوة التشريفية أو الإعتقاد في جوانب أخرى من الألوهية لغير اللَّه و «له»: لذاته- لخالقيته- لتدبيره- أم لهما- «من عباده» من ذواتهم ككل، أم بعضا كالروح، أم شان المعبودية، أو الخالقية أو التدبير- فتشمل الآية من جعل للَّه ولدا بولادة ذاتية بعضا كالروح أو روح المسيح، أو كلّا كالمسيح عند جماعة، أن اللَّه تنزّل من لاهوت الألوهية إلى رحم مريم فتحول مسيحا و لم يبق منه شي‏ء، أم بولادة تشريفية، و من جعل للَّه شريكا في عبادة أو خلق أو تدبير، فمن الناس من يقول أنه الخالق المدبر وحده و له شركاء في العبادة، و منهم من يقول أنه الخالق لأول الخليقة ثم هو الخالق لسائر الخلق مستقلا أو كوسيلة للَّه، و منهم من يقول أنه الخالق و المدبر غيره،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 287

و منهم من يقتسم الخلق و التدبير بينه و بين خلقه و منهم .. فكل هذه الخرافات و أشباهها داخلة في تنديد الآية!.

أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (16).

«أم» هنا تعطف إلى محذوف من قبيل المعطوف ك «أتخذ جزء له عبدا لنفسه فهو إذا يعبد نفسه في حين يعبد؟ أو اتخذ عبدا له مخلوقا لنفسه ولدا تشريفا له؟ و شرافة في عبوديته، «أم» إذا اتخذ لنفسه ولدا مما يخلق، قسم قسمة ضيزى‏ «اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ» لنفسه «و اصطفاكم» و اختاركم على نفسه «بالبنين»؟ .. أ فهل إيثارا لكم عليه و ليس الإيثار إلا خصاصة و ليست للَّه خصاصة، ثم و لا إيثار إلّا تفضيلا و لا تفضيل على اللَّه، و هل يفضّل اللَّه على نفسه- لو صح تفضيله- من يشرك به إهانة و مهانة لساحته؟ و من ثم لو صح التبنّي فليجعل خلقه جميعا ولده من بنين و بنات، دون أن يقتسم تلك القسمة الضيزى الجاهلة المجنونة، العاجزة الملعونة.

إن البنات أضعف من البنين حيث الأنثى تنشأ في الحلية فهي في الخصام غير مبين حيث لا تسطع حد الخصام، و هذا واقع من البون بين البنات و البنين.

ثم في زعمهم البنات عار تظل وجوههم مسودة إذا بشروا بالأنثى، و هم على هذين النقصين الواقعي و الخيالي يهرفون أن اللَّه اتخذ مما يخلق بنات و أصفاهم بالبنين!.

وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (17).

يسودّ وجهه من الغضب و الاختجال و هو كظيم غيظه لا يظهر حتى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 288

يدسها في التراب! «وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى‏ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ. يَتَوارى‏ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى‏ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ» (16: 58) و إنما «بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا» هنا بدلا عن «الأنثى» كما في سواها؟

لأنهما في سواها بناتهم حيث بهن يبشرون، و هنا لسن بنات اللَّه، و إنما «بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا» ضربا للرحمن باطلا، مثلا: آية تمثّل، و الولد آية لوالده يمثّله، و هم يمثلون في مثلهم الرحمن بمظهر الأنوثة.

أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18).

هنا الواو في‏ «أَ وَ مَنْ» تطوي عن ذكر سائر المفارقات بين البنين و البنات إلى ذكر رعونتهن و عدم رجولتهن، و هم يهتمون في الأولاد بالبطولات التي ليست إلا للأبناء.

أ ترى لو أن اللَّه اتخذ لنفسه مما يخلق ولدا فكيف لم يصطف لنفسه الأفضل:

البنين، و هو الخالق للبنات و البنين، أو لم يسو بينه و بينهم أن يجعل لنفسه بنين و بنات كما جعل لهم!؟

هنا يذكر من المفارقات بين البنين و البنات إيجابية واحدة: «ينشأ في الحلية» حيث تتربى في الزينة و الرعونة و الليونة و هي خلاف البطولة ثم سلبية واحدة: «وَ هُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ» لا في خصام الصراع بدنيا فإنها أضعف من الذكر، و لا الصراع عقليا و في المناظرة، فإن عقليتها في الأغلب أضعف، و لا في أي خصام و عراك يبين و إن بان بين المخاصمين!.

و القوة العقلية و البدنية لقبيل الذكور بالنسبة للإناث في الأغلبية الساحقة مما لا تكاد تنكر، و إن كان في كل ذلك مصلحة جماعية في حقل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 289

الزوجية و سائر الحقول، إلا أن‏ «الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ» لنفس المصلحة.

أ فمن اللياقة و الأدب الإنساني لمن يعترفون باللَّه الخالق للبنات و البنين أن ينسبوا إلى اللَّه من هم يستاءون إذا بشروا به، و يتميزون غيظا يكظمونه، إجلالا عن التصريح بما يكتمونه؟ فهم- على سنتهم السيئة- يرفضون البنات دسا في التراب و يستحيون البنين، ثم هم أولاء يجعلون للَّه ما يدسون، دسا لحرمة رب العالمين و دوسا لكرامته، سبحانه و تعالى عما يقو لون علوا كبيرا.

ثم و هم في تهتّكهم لساحة الربوبية في هذه النسبة الجاهلة يهتكون الملائكة أيضا و لأنهم من عمال رب العالمين إذ يجعلونهم بناته:

وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ (19).

و كيف يجعلون الملائكة و هم عباد الرحمن المكرمون إناثا يهانون؟

و عبوديتهم للَّه تجعلهم من المكرمين عند خلقه، أم و في ظنكم في بنوّة تشريفية تشرّفهم بهذه الكرامة، فليجعلوا- إذا- بنين لا بنات! «أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ» حين خلقهم أم بعد حين؟ و «ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ» (18: 51) فكيف بشهادة من خلقوا قبلهم! «سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ» الكاذبة هذه إذ كانوا مدعين‏ «وَ يُسْئَلُونَ» عنها! و من هنا يعلم أن الشهادة بما لا تعلم تحمل مسئولية كبرى أمام اللَّه، و لا سيما في التي تكذبها العقول، و لا تصدّق في أيّ من الحقول أن الملائكة بنات اللَّه! فالملائكة لا بنات للَّه و لا أبناءه، و هم لا ذكور و لا إناث، خارجون عن القسمين إلى ثالث، فالذكورة بآلتها و حالتها تقتضي إناثا كما الأنوثة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 290

بآلتها و حالتها تقتضي ذكورا، و لا تناسل بين الملائكة و لا تزاوج حتى تكون فيهم ذكورة و أنوثة! و كتابة هذه الشهادة الكاذبة قوليا في قولة البنوة الكاذبة، و فعليا في عبادة بنات اللَّه الملائكة، و اعتقاديا: «لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ» مثلث الشهادة هذه‏ «سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ» عنها سؤال توبيخ لا استعلام. و لماذا «ستكتب» و اللَّه كاتب الشهادات و كافة الأقوال و الأعمال و الأحوال في مثلث الزمان دون مستقبله اللامح من «ستكتب»؟

عله مستقبل استمراري أن هذه الكتابة تلحق الشهادة أماهيه، دوما دون ترك أو فتور، فكتابة الأعمال هي بعد تحققها لزاما لصاقا، كما جزاء الأعمال هي بعدهما جزاء وفاقا.

إنهم عباد الرحمن حيث خلقهم لا ولده، و لو كانوا من ولده فليكونوا من أبناءه إكراما لهم إذ هم عباده الخصوص، لا من بناته.

ثم و من فضيح فعلتهم أنهم يعبدون الملائكة على قولتهم أنهم بنات اللَّه، و كيف يعبدون من يترذلونهم عندهم، ثم هم ينسبون فعلتهم الرذيلة هذه إلى الرحمن؟! وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20).

كفر مربع لهؤلاء المناكيد الأوغاد: 1- إثبات الولد للَّه سبحانه. 2-

أنه بنت 3- الملائكة بنات اللَّه 4- هم يعبدونهم بمشيئة اللَّه: «لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ»! هؤلاء بعد ثالوث كفرهم يحاولون التهرّب حين يحاصرهم الحجج، و تتهافت بين أيديهم الأسطورة فيحيلون عبادتهم لهم على مشيئة اللَّه، لو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 291

شاء الرحمن ألّا نعبدهم ما عبدناهم، أن يمنعنا من عبادتهم تسييرا! و هذه قولة المجبرين، و لكنهم يتقولونها جاهلين‏ «ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ» لا علم بمرضاة اللَّه و مشيئته في عبادتهم، و لا علم بمشيئة اللَّه أنها لا تختص بالتكوينية، و للَّه مشيئتان تكوينية و تشريعية، و الثانية كائنة في توحيد اللَّه عبر الرسالات، و الأولى لا تمنع الإختيار، و هل يشاء اللَّه ما منعته شرعته و تمنعه العقول أن يشرك به‏ «إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ»: يكذبون بما لا يعلمون‏ «قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ» (51: 11) خرص عن جهل في ذلك التهتك المائر لساحة الربوبية.

و أية مشية من الرحمن تبرر فعلتهم هذه، لا تثبت إلا بوحي و كتاب أم حجة قاطعة من العقل، و لا حجة لهم في خرصهم إلا سنة الآباء على أمة الشرك:

أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ. بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى‏ أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى‏ آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (21).

«أم» هنا تعطف إلى محذوف على هذا المعطوف كمثله أو هو أدنى، لا حاجة إلى ذكره. ك «هل تدلهم عقولهم على ما يدعون»؟ «أم أوحي إليهم ما يخرصون»؟ «أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ»؟ فلا وحي العقل يثبت ما يتقولون، و لا وحي خالق العقل بوسيط أم دون وسيط، فلا حجة لهم فيما يخرصون‏ «بَلْ قالُوا ...».

انحسرت حجتهم عما يصح، و انحصرت فيما لا يصح‏ «إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى‏ أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى‏ آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ»! و من الأمة الطريقة و السنة المستمرة التي تقصد و آباءنا القدامى كانوا على هذه السنة و إنا على آثارهم مهتدون إلى الحق.

و لكن إذ تنتقل هذه الحجج البالغة إلى آباءهم، فهل عندهم من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 292

إجابة كهذه؟ فتسلسلا إلى بداية أم غير بداية! أم عندهم إجابات من عقلية أو وحي و كتاب فما هي؟

فمجرد أن الآباء كانوا على أمة، لا يبرر تقليد الأبناء لهم دون دليل، و إنما الإنسان العاقل ابن البرهان أيا كان و من أيّ كان، مهما كان ابن أبيه في الولادة البدنية.

إن الآباء كالأبناء هم كانوا يوما أبناء، فلأي مبرّر يقلّدون إذا، أ لكونهم فقط آباء، فهل ولدوا إلّا الأبناء؟ أم ولدوا مع الأبناء حججا تقنع الأبناء- كذلك!:

وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى‏ أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى‏ آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23).

ثم هب إن آباء من هذا القبيل كانوا على أمة الشرك فأنتم على آثارهم مقتدون، فما لكم لا تقتدون بآباء موحدين إبراهيميين و هو الأب الأكبر لكم الأميين، و أمته أمة التوحيد «وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»! المترفون المنعمون في كل قرية كانت حجتهم الأولى و الأخيرة «إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا ..» حلقات موصولة بعضها ببعض، تحلّق حجتهم الداحضة عليهم عبر الفكرة المشركة باللَّه في الطول التاريخي و العرض الجغرافي.

و مع التنازل عن بطلان هكذا تقليد أعمى، و احتمال أنه حق أم تأكدا من حقه و هداه، فعلى فرض المستحيل في زعمكم أنّ هناك هدى أهدى من هداكم، فهل تقبلون هدى التوحيد؟:

قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى‏ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (24).

«قال» داعية التوحيد: النذير في كل قرية كلمة واحدة موحّدة «أَ وَ لَوْ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 293

جِئْتُكُمْ ..» لو أنكم تفتشون عن هدى و لذلك ترونكم‏ «عَلى‏ آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ»- «لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى‏ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ»- لو كانوا على هدى- فهل أنتم تستمرون فيما أنتم عليه؟ «قالوا» كلمة واحدة موحدة في شركهم‏ «إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ» و لو جئتمونا بأهدى مما وجدنا عليه آباءنا! و يا لها من حجة بارعة أمام هؤلاء الحماقى أنها على فرض إحالة حجة أهدى من حججهم‏ «أَ وَ لَوْ» تجتث جذور كافة الحجج عن أعماقهم حيث «قالوا» على افتراض أن تأتيهم حجة أهدى من أمة آبائهم‏ «إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ‏! و الإنسان العاقل حتى و ذو جنة و حتى الحيوان لا ينفي أمرا أو يثبته فيثبت عليه إلا ببرهان، و أما أن يثبت على تقليد أعمى‏ «إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ» رغم توفر البراهين و تواترها بدحضه و إبطاله، فهو أضل سبيلا من الأنعام، أم‏ «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» (27: 14) كأئمة الضلال، أو حمقا في عمقهم في تقليد أعمى كالمستضعفين المتنازلين عن عقولهم، عن فطرهم و فكرهم في كل حقولهم! فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25).

«فانتقمنا» في صيغة التعبير يخيّل للبسطاء أنه انتقام كما عندنا، نتيجة الغضب و تهدّر الأعصاب، و ليس للَّه غضب كما لنا و لا أعصاب، فإنما يعني عذبناهم بما كفروا كنتيجة عادلة لكفرهم بما يظهر في ملكوت الواقع، هنا يسيرا، و في الأخرى كثيرا، و بينهما في البرزخ عوان، «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» و «بما» في أخرى تعنى «ما» كما هنا، تعبيران عن حقيقة واحدة و نمط واحد من واقع العذاب، فالعذاب هو العمل بما عمل نتيجة الإختيار لعامل العذاب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 294

[سورة الزخرف (43): الآيات 26 الى 45]

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ (29) وَ لَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كافِرُونَ (30)

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى‏ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32) وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (33) وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (34) وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35)

وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (39) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ مَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (40)

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (43) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ (44) وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 296

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26).

اذكروا أنتم المهتدون على آثار آباءكم المشركين تقليدا أعمى، اذكروا من زوايا التاريخ الرسالي بطولات الموحدين و رجولاتهم ضد الآباء المشركين «و» اذكروا من بين هؤلاء الأكارم «إبراهيم» و قد تربى في جوّ الشرك على يدي أبيه آزر «إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ» عصيانا جريئا على جو الشرك رغم أنه تربى فيه، حيث يحاج أباه: عمه أو جده لأمه- حجاجا بالتي هي أحسن فيتغلب عليه! و أنتم دون حجاج مع آباءكم على آثارهم تهتدون! رغم تواتر الحجج ضد أمتهم الشركية؟! وهب إن تقليد الآباء جائز أو يجب، أ فليس إبراهيم أكرم الآباء في العرب فلتقلدوه في ترك تقليد الآباء، ثم تقلدوه في أمة التوحيد و اتباع الحجة على المحجة التي بها تهتدون! ثم هب إن لتقليد الآباء مبررا لأنهم آباء يحترمون، فهل الآباء القدامى أقرب إليكم فأوجب حرمة و أقرب وطئة إن تركتموهم؟ أم الأب الحاضر دون فصل حيث يربيك و يحملك على ما يريد؟ و إبراهيم مسيطر عليه بأب مشرك يصنع الأصنام، و يهدده في ترك الأصنام، و لكنه يرفض باطل التقليد و لا يخاف ضغط المربي، و يتفجر في وجهه بجدال بالتي هي أحسن سلبا للآلهة و إيجابا للَّه.

أم إن للقدمة حرمتها، فالقدامي يحترمون لأنهم قدامي أكثر من الجدد، و لماذا؟ أو لم يكن القدامى قبل ردح من الجدد، أم لا يكون الجدد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 297

بعد ردح قدامي، ثم و من أكارم القدامى إبراهيم أبو العرب فليحترم- على أقل تقدير- لقدمته إضافة إلى حجته! هنالك تقليد مطلق أعمى دون أي دليل بإجمال أو تفصيل، ثم تقليد بصير بدليل مجمل، و من ثم اجتهاد مطلق أماذا؟ و سبيل الحق هو التقليد بدليله، أم إذا استطاع اجتهاد مطلق بدليله.

و كيف يصح للإنسان العاقل أم و المجنون أن يرجح سبيلا على سبيل دون أي دليل؟ و إذا كان سلوك الآباء دليلا و ليس به، فما ذا يصنع بآباء مختلفين في سبلهم؟ فهل ترجح آباء على آباء دون أي دليل إلا أنهم آباء، أ فليس الآباء الآخرون آباء! ام ليس أبوكم الأكبر إبراهيم من الآباء؟

فما ذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون؟.

إبراهيم يتربى في جو ممحض في الشرك، و لكنه لرفضه التقليد و تحرّيه عن دليل يواجه أباه المشرك و هو «بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ»: محض البراءة عن الشرك، حيث البراء مصدر، فهو براءة عن الشرك و مصدر لهذه البراءة، رغم تربّيه في محض الشرك! فإبراهيم البراء مما يعبده هؤلاء و يترأسهم أبوه، لا يتابع أباه و لا يسايره لحظة و لو في ظاهر الحال، إنه محض البراء و صراحه، لا يحاري و لا يداري و لا يجاري أباه في لفظة قول، أو لحظة بصر، أو لمحة فعل إلا «إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ».

إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27).

«إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي» خلقني و جعل فيّ فطرة التوحيد «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» (30: 30) هذه الفطرة فيها الهداية الإجمالية التوحيدية، ثم الذي فطرني في هكذا «سيهدين» هداية الوحي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 298

تكملة تفصيلية لهدي الفطرة لمن جاهد في اللَّه‏ «وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا» (29: 69) و بين الهديين هدى متوسطة «الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ» (26: 78) أ ترى أنّ ذلك المشرك كان والده و الأنبياء هم من أصلاب طاهرة و أرحام مطهرة و أية دناسة أدنس من الإشراك باللَّه؟

كلّا: إنه كان عمه أوجده لأمه و لم يكن والده، إذ تبرء عن أبيه آزر لما تبين أنه عدو للَّه، ثم و هو يبني البيت مع ابنه إسماعيل يستغفر لوالده:

«رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ» (14: 41) فحتى إذا لم يكن إبراهيم معصوما- و هو من أفضلهم-! لم يكن ليستغفر لأبيه آزر، فاستغفاره لوالده يدلنا أنه غير آزر، و إلا كذب كلام اللَّه «تبرء منه» حيث يبرئه عن ذلك الاستغفار طول حياته.

وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28).

دون ان يكتفي بحاضر النضال! ترى و ما هي الكلمة الباقية في عقبه؟ هل إنها الأولى: «بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ»؟ و لا تكفي توحيدا للَّه حيث تحمل الرفض المطلق لعبادة كل معبود حتى اللَّه! أم هي الثانية: «إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي»: عبادة اللَّه؟ و هي دون صلة بالكلمة الأولى بتراء و قد تحمل عبادة اللَّه مع غيره، أم دون نفي مطلق لمن سواه! إذا فهي كلا النفي و الإثبات: كلمة «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» «إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ» تعني «لا إله» و «إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي» تعني «إلا اللَّه» مزودة بدليل فطري: «الَّذِي فَطَرَنِي» لا «اللَّه» فقط، و آخر من هدي الفاطر «فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ»! و لماذا «فطرني» دون‏ «فَطَرَ النَّاسَ» كما في آية الفطرة؟ حيث الفطر درجات، منها المستورة بظلم الشرك و الضلال، و منها مشرقة في درجات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 299

متوسطة، و منها ما هي في درجات عليا كالفطرة الإبراهيمية، إذا فحقّ له «فطرني».

و لأن معنى الإشراك باللَّه هو أن يعبد غير اللَّه مع اللَّه كيفما كانت هذه و تلك‏ «إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي» استثناء متصل ب «مِمَّا تَعْبُدُونَ» أم و إذا كان منفصلا و علّه أنسب، حيث إن عبادة اللَّه بين المشركين لا تليق باللَّه، ف «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» هي المعنية من الكلمتين السلبية و الإيجابية و هما كلمة واحدة تامة.

و بطبيعة الحال ليست هذه الكلمة الباقية هي الأصوات المقطعة و الحروف المنظومة فإنها لا تبقى و هي‏ «كَلِمَةً باقِيَةً» ثم ماذا تفيد هذه الكلمة لو لا واقع المعنى و الالتزام بها! و هل الضمير المستتر في «جعلها» لإبراهيم لا للَّه؟ فهو مصدر الكلام هنا و ركنه! و هو القائل‏ «إِنَّنِي بَراءٌ ... إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي»! و هو الموصي بها بنيه: «وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (2: 132)! فقد وصى بها ولده و أمرهم أن يتواصوا بها ما تناقلتهم الأصلاب و تناسختهم الأدوار! أم للَّه دون إبراهيم؟ حيث الوصية ليست جعلا، فقد تخالف الوصية الإبراهيمية و الجعل الباقي ثابت ليس بيد إبراهيم أم سواه إلّا اللَّه! و إبراهيم و إن كان مصدر الكلمة هناك، و لكنما الهداية الإلهية فيها ليست له إلا من اللَّه: «فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ» فضلا عمن سواه من عقبه و هو لا يملكهم بعد ألا يملك نفسه! أم المعنيان معا معنيّان، فقد جعلها اللَّه كلمة باقية في عقبه حتما لا حول عنه، و لكن بما زرعها إبراهيم في القلوب بأمر اللَّه، و بما دعى اللَّه‏ «وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ» (14: 35) «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 300

وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ» (30: 128) فإبراهيم (عليه السلام) عمل للَّه و دعى اللَّه في بقاء كلمة التوحيد فجعلها اللَّه كلمة باقية في عقبه: نسله و ذريته، فلا يخلو نسله عن موحدين إلى يوم الدين.

ثم و من أبرز الموحدين من نسله أئمة التوحيد و حملته الأعلون محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و عترته الأطهرون، و إلى ذلك تنظر الروايات التي تفسر هذه الكلمة بالولاية العليا و العصمة الكبرى‏ «1» لا أنها هي المعنية دون سواها، و إنما هي المصداق الأجلى الحملة الإبراهيميون لكلمة التوحيد، حيث حملوها أعرق و أعمق مما حملها إبراهيم (عليه السلام)!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 596 ج 23 و في كتاب علل الشرايع باسناده الى أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول اللَّه عز و جل‏ «وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ» قال: في عقب الحسين (عليه السلام) فلم يزل هذا الأمر منذ أفضى الى الحسين ينقل من ولد الى ولد لا يرجع الى أخ و عم و لم يتم بعلم احد منهم الا و له ولد،

و

فيه عن معاني الاخبار عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) عن هذه الآية قال: هي الامامة جعلها اللَّه عز و جل في عقب الحسين باقية الى يوم القيامة:

و

فيه عن الاحتجاج للطبرسي عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حديث طويل يقول فيه في خطبة الغدير: معاشر الناس القرآن يعرفكم ان الائمة من بعده ولده و عرفتكم أنه مني و أنا منه حيث يقول اللَّه عز و جل‏ «كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ» و قلت: لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما،

و

فيه عن المناقب لابن شهرآشوب الأعرج عن أبي هريرة قال‏ سألت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عن هذه الآية قال: جعل الامامة في عقب الحسين و سيخرج من صلبه تسعة من الأئمة منهم مهدي هذه الامة،

و

في احقاق الحق ج 13 ص 306 العلامة الشيخ هاشم بن سليمان في كتاب المحجة على ما في ينابيع المودة ص 437 اسلامبول روى حول الآية عن ثابت الثمالي عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنهم قال: فينا نزلت هذه الآية و جعل اللَّه الامامة في عقب الحسين الى يوم القيامة و ان للغائب منا غيبتين إحداهما أطول من الأخرى فلا يثبت على إمامته إلّا من قوي يقينه و صحت معرفته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 301

فليست هنا بين الآيات لفظة الولاية حتى يرجع إليها ضمير «ها» في «جعلها» و إنما ما قالها إبراهيم المختصرة المحتصرة في: «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ»! المتدرجة في درجات حسب درجات الموحدين! و من في عقبه الموحدون درجات أعلاهم أئمة التوحيد الأعلون محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و خلفاءه المعصومون (عليهم السلام)، و كما التمس لعقبه الإمامة فاستجيب لغير الظالمين‏ «قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» (2: 124).

و قد تعني روايات الولاية أن «ها» في «جعلها» راجعة إلى الهداية الإبراهيمية و «فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ» الضاربة إلى المستقبل تعني هداية الولاية و الإمامة الإبراهيمية، بعد هدايته قبلها بالوحي‏ «الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ» فتلك الهداية المستقبلة باقية في عقبه في مثلث من 1 هدى موسى و عيسى التي علّها كهدي ابراهيم و إمامته، 2 و من هدى من دونهم من الأنبياء الإبراهيميين كأنبياء بني إسرائيل و إسرائيل نفسه و أضرابه، 3 و من هدي من فوقهم كلهم و إمامته، كالهدى المحمدية (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الثابتة في أهل بيت هذه الرسالة السامية إلى يوم الدين ف «عقبه» يشمل العقب العام: كل من يأتي بعد إبراهيم (عليه السلام) من المكلفين حيث لا يخلون من كلمة التوحيد إلى يوم الدين، ثم العقب الخاص: ذريته من موحدين و مشركين، ثم الأخص: الأنبياء الإبراهيميون من إسحاق و إسماعيل، ثم أخص الخاص: الرسول محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و آله المعصومون، و «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» يخص العقب الأول و الثاني.

و على أي الحالين فهذا و ذاك من التأويل و التفسير بأعلى المصاديق و أجلاها دون منعة لسعة الكلمة كلّ موحد من نسل إبراهيم إلى يوم الدين- و «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» في ترجّي رجوعهم إلى كلمة التوحيد تؤيد الشمول، فإن أئمة التوحيد هؤلاء لم يسبق لهم شرك حتى يرجعوا عنه إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 302

توحيد، فلعل «هم» في لعلهم يخص المشركين ممن في عقبه و سواهم و إن كان الصدر «فِي عَقِبِهِ» يزهر كأعلى مصداق في صدور المعصومين منهم و بينهما متوسطون أما ذا؟

بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ (29).

«بل» هنا إعراض عما علّه يفهم من‏ «وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ» أن كلمة التوحيد جعلت عريقة عميقة ثابتة في عقبه، مندغمة في كيانهم لا يتخلفون عنها خلاف من قبل ابراهيم، فالرسل الإبراهيميون منذ إسماعيل و إسحاق و إلى موسى و عيسى و من بينهم من الرسل و سائر دعاة التوحيد رفعوا مشعله و أناروا مناره دون خمول و أفول اتصالا دونما انفصال.

«بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ» و لكن هؤلاء المشركون حيث متّعوا و آباءهم و طال عليهم الأمد فقست قلوبهم زمن الفترة الرسالية بين المسيح و محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) .. هؤلاء من العقب الإبراهيمي تخلفوا عن تلك الكلمة الباقية و تعرقوا في الشرك، حيث طال بهم العهد و متعهم اللَّه جيلا بعد جيل حتى طال عليهم العمر و نسوا ملة ابراهيم، و أصبحت كلمة التوحيد فيهم غريبة .. «حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ» القرآن بعد غروبه زمن الفترة و جاءهم‏ «رَسُولٌ مُبِينٌ» للحق أوضح بيان لحد لم يسبقه سابق، و كأن من سبقه من رسل لم يكن فيهم مبين و كلهم في حدّه مبين.

فهذا الرسول مبين بنفسه و مبين بكتابه و مبني بمعجزاته، مبين بمن قبله في بشاراته و مبين بشاهد منه في تربياته: «أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ» (11: 17)!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 303

و الضرورة البلاغية في رسالة هكذا، خالدة حتى القيامة الكبرى، بازغة في قوم لدّ ما أتاهم من نذير من قبل، تقتضي هكذا حق و رسول مبين! و لكن:! وَ لَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كافِرُونَ (30).

«وَ لَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ» قرآن محمد و محمد القرآن «قالوا» كلمتهم المختصرة عن تفاصيل أقاويلهم المحتصرة في‏ «هذا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كافِرُونَ»! و ليس الحق المبين يختلط بالسحر غير المبين، أو يبين بنفسه أنه سحر، و لا يختلف اثنان من ذوي حجي و من دونهم في تمييز السحر عن المعجزة، و لذلك تراهم لا يعترضون و يتشككون في القرآن الذي يتقولون أنه سحر إلا فيمن جاء به:

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى‏ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31).

هنا الواو تعطف على معطوف عليه كالمعطوف مثل‏ «لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً» ثم التنزل إلى هذا المعطوف، لو كانت النبوة في‏ «لَوْ لا نُزِّلَ ...»؟

فلم تبق من الريبة في هذا الحق إلا نزوله على يتيم غير ذي مال و لا منال، فلو نزل على رجل من القريتين عظيم لكانوا مصدقيه؟ أ ترى إن كان القرآن سحرا- فهو سحر أيا كان و بيد أيّ من الرسل كان- فهل يتحول السحر إلى المعجزة إن تحول من يدلا ترضونها إلى من ترضون، أم يتحول المعجزة إلى السحر لو عكس الأمر، تلك إذا قسمة ضيزى! هؤلاء الحماقي المخلدين إلى الحياة الدنيا و زهراتها و زهواتها، لما اختلت عندهم الموازين، و رأوا العظمة فقط في الجاه و المال و ساير قيم الأرض، استعظموا رسالة السماء أن تنزل إلا على عظيم في ميزان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 304

الأرض، عظمة خيالية و خارجة عن طبيعة الرسالة، بل و منافية لها غير مواتية معها و قد اعتبروها أصلا و محورا للتفاضلات فلتتّبعه فضيلة السماء و لكن‏ «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» يجعلها فيما لها سند من داخله، مساندا لها غير معاند، الخليق المتجرد عن كافة العلاقات و الصلات إلا باللَّه، فلم يختره زعيما و لا صاحب مال أو منال، لكي لا تلتبس واحدة من قيم الأرض بقيم السماء، و لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلي الأرض، او حيلة من حيلها، دونما صلة بينهما إلا إغراء لها بمصاحب خارج عن ذاتها المجردة، فلا يدخلها طامع و لا يتنزه عنها متعفف.

فالدعوة الرسالية مجردة عن كل دعاية إلا الحقيقة البارزة من ذاتها، و الحق البارز في دعاتها، حق يحمل حقا ناصعا صارما إلى من يتحرى عن الحق المطلق، دونما تدجيل و دعاية زائدة تظهر الرسالة بمظهر أعلى مما هي، كما لا تقصر فيها لتخفيها عما هي.

و «رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» هو الوليد بن المغيرة المكي و ابو مسعود عروة بن مسعود الثقفي الطائفي، أمن ذا من الزعماء الأثرياء دوي الأنفة و الكبرياء، و لو أنزل هذا القرآن على رجل منهما، لأصبحت الرسالة السماوية التي هي للمستضعفين في أصلها، أصبحت للمستكبرين، أن يجتلبوا أضرابهم إليها، أم و يخونوا في الدعوة لها، فإنها تناحر الأثرة و الكبرياء، و تنافر المستأثرين الكبراء.

و القرآن يجيب عن هذه التطرفة الحمقاء، و التطلبة الخواء «أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ» الرحمة التي ربتك حتى أصبح قلبك المنير مشرقا، تلك الرحمة العليا الروحية من رسالة السماء، أهم يعرفونها حتى يقسموها، و لو عرفوها و لن! فهي رحمة ربك، فهو الذي يقسمها كما يشاء لمن يشاء ف «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» فلا يجعلها في قلوب خاوية عن الحق،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 305

خاملة بالباطل، قلوب مقلوبة لا تتعلق إلا بزهرات الدنيا و شهواتها، فتضيع الرسالة فتجعل المرسل إليهم هباء! و يا عجبا و ما لهم هم و رحمت ربك العليا أن يقسموها، و ليس لهم أن يقسموا الرحمة الدنيا: «1».

أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32).

فهل إن اللَّه يعجز أن يقسم رحمته الرسالية و هم قادرون؟ أو يجهل و هم عالمون، أو يبخل و هم لا يبخلون، أمّاذا من عطب أو نقص يقتضي أن يتوكلوا عنه قسمة رحمته دون توكيل «أهم» أولاء الحماقى الجهال، العجزة البخال، الأوغال البطال الرّذال‏ «يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ»؟ «نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» و هم يتطلبون قسمة في الحياة العليا، فهم أولاء أهل الدنيا يجهلون قسمة معيشتهم الدنيا، فكيف يطلبون قسمة لمعيشتهم العليا؟! و تفصيل الجواب عن هذه الهرطقة نجدها في مناظرة الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) معهم‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 16- اخرج احمد و الحاكم عن ابن مسعود في قوله تعالى: أهم يقسمون رحمة ربك قال: سمعت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: ان اللَّه قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم و ان اللَّه يعطي الدنيا من يحب و من لا يحب و لا يعطي الدين الا من يحب فمن أعطاه الدين فقد أحبه.

(2)

نور الثقلين 4: 597 ح 28 في كتاب الاحتجاج عن أبي محمد الحسن العسكري عن أبيه (عليه السلام) قال: ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبة إذ قال له عبد اللَّه بن امية المخزومي: لو أراد اللَّه ان يبعث إلينا رسولا لبعث اجل من فيما بيننا مالا و احسن حالا فهلا نزل القرآن الذي تزعم قرآن ان اللَّه أنزله عليك و ابتعثك به رسولا على رجل من القريتين عظيم: إما الوليد بن المغيرة بمكة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 306

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و إما عروة بن مسعود الثقفي بالطائف؟ فقال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): اما قولك: لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم الوليد او عروة فان اللَّه ليس يستعظم مال الدنيا كما تستعظم أنت و لا خطر له عنده كما له عندك، بل لو كانت الدنيا عنده تعدل جناح بعوضة ما سقى كافرا به مخالفا شربة ماء، و ليس قسمة رحمة اللَّه إليك بل اللَّه القاسم للرحمات و الفاعل لما يشاء في عبيده و امائه و ليس هو عز و جل ممن يخاف أحدا كما تخافه أنت لما له و حاله فعرفته بالنبوة لذلك، و لا ممن يطمع في احد في ماله او حاله كما تطمع أنت فتخصه بالنبوة لذلك، و لا ممن يحب أحدا محبة الهوى كما تحب فيقدم من لا يستحق التقديم، و انما معاملته بالعدل فلا يؤثر لأفضل مراتب الدين و خلاله الا الأفضل في طاعته و الأجدّ في خدمته، و كذا لا يؤخر في مراتب الدين و جلاله الا أشدهم تباطئا عن طاعته و إذا كان هذا صفته لم ينظر الى مال و لا الى حال، بل هذا المال و الحال من تفضله و ليس لأحد اكراهه من عباده عليه ضريبة لازب فلا يقال له: إذا تفضلت بالمال على عبد فلا بد ان تتفضل عليه بالنبوة ايضا لأنه ليس لأحد اكراهه على خلاف مراده، و لا إلزامه تفضلا، لأنه تفضل قبله بنعمة، الا ترى يا عبد اللَّه كيف اغنى واحدا و قبح صورته و كيف حسن صورة واحد و أفقره، و كيف شرف واحدا و أفقره و كيف أغنى واحدا و وضعه؟ ثم ليس لهذا الغني ان يقول: هلّا أضيف الى يساري جمال فلان، و لا للجميل ان يقول: هلا أضيف الى جمالي مال فلان؟ و لا للشريف ان يقول: هلا أضيف الى شرفي مال فلان؟ و لا للوضيع ان يقول: هلا أضيف الى مالي شرف فلان؟ و لكن الحكم للَّه يقسم كيف يشاء و يفعل كما يشاء، و هو حكيم في أفعاله محمود في اعماله و ذلك قوله: و قالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم- قال اللَّه:- أهم يقسمون رحمة ربك- يا محمد- نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا- فأحوجنا بعضا الى بعض، أحوج هذا الى مال ذلك و أحوج ذلك الى سلعة هذا و الى خدمته فترى اجلّ الملوك و اغنى الأغنياء محتاجا الى أفقر الفقراء في ضرب من الضروب إما سلعة معه ليست معه و إما خدمة يصلح لا يتهيأ لذلك الملك ان يستغني الا به، و إما باب من العلوم و الحكم هو فقير الى ان يستفيدها من هذا الفقير الذي يحتاج الى مال ذلك الملك الغني و ذلك الملك يحتاج الى علم هذا الفقير او رأيه او معرفته ثم ليس للملك ان يقول: هلا اجتمع الى مالي علم هذا الفقير؟ و لا للفقير ان يقول: هلا اجتمع الى رأيي و معرفتي و علمي و ما أتصرف فيه من فنون الحكم مال هذا الملك الغني؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 307

«نَحْنُ قَسَمْنا ..» «وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ» في المعيشة الدنيا لغاية أسمى هي في تنظيم حياتهم الدنيا عادلة عاقلة:

«لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا» جملة من آية منقطعة النظير و يتيمة في سائر القرآن، تبين حقيقة ثابتة من النواميس الإلهية في هذا الكون، أن هناك طبقية بارادة الرحمن الرحيم لتنظيم الحياة حيث يدور دولابها.

هنالك معيشة في الحياة العليا، الرسالة الإلهية، و «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» في قلوب صافية ضافية تفيض كما تستفيض دونما خيانة.

و هناك عيشة في الحياة الدنيا، كسائر ما يعيّش الإنسان فيما سوى الروحية و المعنوية، من عقلية علمية و استعدادات في تحصيل المال و المنال أم في صناعات أم ماذا مما تدير شؤون هذه الحياة، «لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا» دون أن يكون جميع الناس على سواء في معيشتهم نسخا متماثلة مكرورة تحيل أن تقوم معيشة و حياة في هذه الأرض.

ما هي الطبقية المرفوضة و المفروضة؟

نجد مثلثة من الطبقيات بين المجتمعات، من ظالمة و عادلة و فاضلة، فالطبقية الحصيلة من المظلمات، من أكلة الأرض و مصّاصي الدماء، من هؤلاء الظالمين بحقوق المستضعفين، تلك الطبقية ظالمة تطاردها التشاريع الإلهية، حيث تقرر «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» «وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ» أما ذا من ضوابط اقتصادية عادلة تحارب الفقر المظلوم و الغنى الظالمة، و أما الغنى عن سعي فلا، أو الفقر عن تقصير و عطالة فتحارب فقيره الذي ظلم نفسه، لا الغني الذي لا يظلمه، كما يندد بالفقير المتخاذل الذي يتكاسل عن الأخذ بحقه.

هذه الطبقية ليست من فعل اللَّه لا تكوينا و لا تشريعا، و إنما هي من مظلمات الناس النسناس، دون الناس العدول و لا إله الناس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 308

و من ثم طبقية عادلة في مراعات الناس، إعطاء كل ذي حق حقه، و إعطاء سعي كل ساع حقه، فإن زاد سعيه عن حاجته فإنفاقا على من نقص، و إن نقص سعيه عن حاجته فرحمة عليه ممن زاد دون منّ و لا أذى.

هذه طبقية عادلة تقرّب بين الساعين في عيشتهم رغم اختلافهم في مساعيهم، و هكذا تقرّر الشريعة الإلهية، سعيا حسب المستطاع و تراحما بين الساعين حسب المستطاع! و هذه طبقية الناس.

ثم طبقية فاضلة هي من إله الناس، لا من عدل الناس و لا ظلم النسناس، و هي الحصيلة من مختلف المواهب و الاستعدادات: «وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا» فسمة التفاوت في مقادير الرزق، نتيجة تفاوت الدرجات في استعدادات و فعليات، هذه السمة لا تتخلف أبدا حتى في المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجّهة أن تساوي جميع الأفراد في هذا الرزق أبدا! و الحكمة الأصيلة الإلهية في هذه السمة هي «التسخير» و طبعا التسخير العادل المتعادل، لا الاستثمار الظالم او الاستعمار و الاستكبار و الاستحمار و الاستبداد و الاستضعاف و الاستخفاف: سخريا ظالما هاتكا حرم الإنسانية في أبوابه السبع الجهنمية، حيث التشاريع الإلهية تحاربها و تغلقها دون مواربة و لا مسايرة.

أجل إن «سخريا» لا يعني طبقيا مشكّلا من مسخّر و مسخّر دائبين، فإنه سخري جانبي من النسناس، و إنما السخري من كل الجوانب عدلا و فضلا، فالعامل مسخر للمهندس و لصاحب العمل، و المهندس مسخر للعامل و لصاحب العمل، و صاحب العمل مسخر للمهندس و للعامل على سواء، فكلّ مفضّل على الآخر بما عنده كما الآخر مفضل عليه بما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 309

عنده، فلو كان الكل على سواء في المواهب و الاستعدادات لما مكّن أحد نفسه في شغل لآخر مثله، و لما تمكن أحد من تسخير أحد هو مثله، و حالة الاستغناء هذه تمنع الحياة الجماعية و التساخر بين الأفراد في حاجياتهم فتقف عجلة الحياة.

ف «سخريا» هذه هي التعامل اللازم و اللائق بشأن الحياة كما تقتضيه الشرعة العادلة الإلهية: أن لكل ساع سعيه، ثم الزائد و الناقص في سعيه دون تقصير يتعاملان تعاملا آخر، أن يفيد الأول من سعيه الآخر، و يستفيد الآخر من سعي الأول، إنفاقا دون منّ و لا أذى حتى تحصل طبقية الناس.

فطبقية النسناس تعم ما تحصل من ظلامات، و من ترك الإنفاقات الواجبة و الراجحة، و طبقية الناس تطردهما في ترك الظلامات و فعل الإنفاقات، على ضوء الطبقية الفاضلة من إله الناس!.

فليست الطبقية كلها ظالمة، كما اللّاطبقية ليست كلها عادلة، و إنما الظلم مرفوض في طبقية ام لا طبقية، و العدل مطلوب مفروض- و الفضل- في طبقية أولا طبقية.

أ ترى لو تغاضينا عن آماد المساعي فأعطينا عمالا على اختلاف مساعيهم أجورا متساوية أم قدر الحاجة لإزالة الطبقية بينهم، و لكي لا تحصل، هل هو إذا عدل،؟ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» إذا ظلم؟ كما يقوله الإقتصاد الشيوعي.

أم لو أعطينا كلا كما سعى دون رعاية لقصور الضعاف أن نزيدهم لحد الكفاف، و دون أخذ الضرائب من الأقوياء إنفاقا للضعاف، تطبيقا مكانيكيا لقاعدة السعي، فهل عدلنا ام كما تقول الاشتراكية أم ظلمنا؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 310

أم إذ نجمع- على ضوء الإقتصاد الإسلامي- بين قاعدة السعي و بين رعاية الضعاف القصّر بفرض ضرائب الكفاف على الأثرياء رعاية للمحاويج أفرادا أو جماعات فهل ظلمنا أم عدلنا؟ و هذا ما يقوله الإسلام: «وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا» على ضوء قاعدة السعي و الإنفاق المستحق، لتتقارب الجماعة المسلمة ماديا و معنويا، فسماحة الإنفاق ربوة روحية بين الناس، و تطبيق قاعدة السعي عدل واقعي، و في اختلاف المواهب و الاستعدادات تمازج في تعاون دائب بين الناس، حيث الكل محاويج بعضهم إلى بعض نتيجة اختلاف الدرجات و الموهبات و الحاجيات.

آية السخري تجعل مباعضة في بني الإنسان كافة كأنهم أبعاض لشخص واحد «لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً» و كما أن هناك سخري التساخر العادل المتعادل المتكامل بين أعضاء الفرد الإنساني على درجات في الموهبات و الاستعدادات في هذه الأعضاء، تحكمها روح واحدة باتجاه واحد هو صالح المجموعة، فلتكن كذلك المجموعة الإنسانية بأفرادها، فيعني كلّ كادح صالح حياته ضمن المجموعة، في سخري الترابط التضامن العادل المتكامل قضاء لحاجيات الأفراد ضمن المجموعة و المجموعة ضمن الأفراد.

لا تجد في أية شرعة إلهية سماحا لسخري الاستبداد و الاستكبار و الاستخفاف و الاستعمار و الاستثمار و الاستضعاف و الاستحمار، حيث أغلقت هذه الأبواب السبعة الجهنمية بمصراعيها على بني الإنسان، فاتحة أبواب التعايش العادل السلمي و الحياة التضامنية العادلة الفاضلة.

فلا تجد تسخيرا مسيّرا على عمل، أم مخيرا في سعي لا يوازيه أجره، فحرية العمل و حرية الانتخاب في العمل لا يسلبها «سخريا» إلا عادلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 311

يرجع إلى صالح الأفراد و المجتمعات، تقديما لصالحها على صالح الأفراد، دون تأصّل للأفراد و المجتمع على هامشها، أو تأصّل للمجتمع و الأفراد على هامشه، بل الأصلان مرعيّان تفضيلا لصالح المجتمع عند التعارض، و كما تجده في الحقل الاقتصادي الإسلامي كأفضل ما يمكن على ضوء الكتاب و السنة! ثم إن في اتخاذ بعضهم بعضا سخريا حسب اختلاف الدرجات و مقتضاها منتوجة أخرى بعد قضاء هذه الحاجيات، هي درك الإنسان للكمال و الأكمل فالتحري عنه و الالتذاذ به، و لو كان الناس على سواء جمالا و كمالا و في كافة المتطلبات فغضّا عن شلّ الحركة التضامنية حينذاك، لم يحظ الإنسان حظوة بما عنده حيث يراه عند سائر الناس على سواء، و لم يلتذّ إنسان بنعمة عنده لما يراها عند سائر الناس على سواء، إذا لزالت اللّذات و مرّت الحياة مرّة دون حراك، لو أنها مرت دون تضامن التساخر و التعامل! فالاشتراكية المتساوية خلقة و في استعدادات هي هادمة اللذات، موقفة عجلة السير الدائب المتسابق في الحياة، و لكنما الطبقية العادلة المتعادلة المتكاملة على ضوء التشاريع الإلهية، إنها تضمن عجلة دائبة في صراع عجلة الحياة و سرعتها في صراعها، سباقا سائغا سابغا في ميادينها و سراعا «سابِقُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ‏ .. وَ سارِعُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ ..».

«وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ» الروحية الرسالية «خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» من المادية الدنيوية.

فإن اللَّه يختار ل «رَحْمَةِ رَبِّكَ» و هي الخير المطلق نسبيا إلى سائر الخير، يختار لها من يناسبها و تناسبه، من يحتضنها و تحتضنه، من يعمل بها و يبلغها كما هو أحرى، و لا صلة بينها و بين عرض هذا الأدنى، بل الدنيا بزهرتها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 312

و زخرفتها تنافرها و تتعارض معها، كما الرسالة الإلهية بغيتها الرئيسية هي التزهيد في الدنيا، التحديد لشهواتها، أ ترى المترفين أولي النعمة يتقبلون رسالة تقضي على ترفهم لصالح المحاويج من طرفهم، أم لو تقبلوها يبلغونها كما هو أحرى بلاغا يضاد كيانهم، أم لو سلمت الرسالة من هذا و ذاك، أ ليست هذه الرسالة نفسها بالتي تقرب أهل الدنيا و تبعد أهل الآخرة أم تغري الناس بمغريات الرسول أم ماذا؟

«رَحْمَةِ رَبِّكَ» تلمح إلى قمة الرحمة الروحية في الحياة العليا، و أين هي من معيشة الحياة الدنيا، و إذا هم لا يصلحون لقسمة الحياة الدنيا و هم من أهلها، فكيف يصلحون لقسمة الحياة العليا و هم ليسوا من أهلها، و لا أن لأهليها أن يقتسموها، إنها الربوبية الوحيدة المطلقة في قسمة الحياة دنياها و علياها «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ» حيث السؤال الاستنكار يخص من يجوز عليه الخطأ، و السؤال الاستعلام لا يجوز في كل صغيرة و كبيرة إلا ما عرّفنا ربّنا بحكمته و رحمته‏ «وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ» العليا «خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» من الدنيا و التي لم ينظر اللَّه إليها منذ خلقها! وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ 33 وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ 34 وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35).

إن قاعدتي السّخري و السعي تقتضيان خليطا من الفقر و الغني في قبيلي الإيمان و الكفر، دون اختصاص لأحدهما بأحدهما، مهما كان الكفار بطبيعة الحال أغنى من المؤمنين لأنهم مكبون على الحياة الدنيا دون الأخرى، ثم الإيمان قيد الفتك!.

إلا أن قاعدة ثالثة تناحرهما هي رخاصة الدنيا و دنائتها، و هي مجلبة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 313

الشهوات و مدحرة الطاعات فلا تناسب في ميزان اللَّه إلا لمن يكفر بالرحمن دون المؤمنين، إلا أن فريق الإيمان ليسوا على السواء، صابرين على الفقر المطلق لهم و الغنى المطلقة لفريق الكفر، فهناك قد يتفلت الإيمان، فكرّ على ما يفر منه، خروجا عن الحفرة إلى البئر! لذلك اختلط الفريقان في الفقر و الغنى، و في قبيل الكفر مزيد الغنى في أبعاد: إخلادهم إلى الدنيا فيعطون منها كما أخلدوا: «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ..» (17: 18) «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ..» (11: 15) و أن «الايمان قيد الفتك» و البعدان هما قضية الكفر و الإيمان، و من ثم بعد ثالث من رحمة الرحمن على المؤمنين أنه لا يغنيهم كأصل كما يسعون لكي لا تلهيهم، و أنها لا وزن لها في ميزان اللَّه، كما

يروى عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «لو كانت الدنيا تزن جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء» «1».

«وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً» كما كانوا قبل البعثات الرسالية ضلّالا «لجعلنا ..» إلا أن جعلا هكذا يجعل الناس أمة واحدة بعد الرسالات كما قبلها و «لو» تحيل بقاء فريق المؤمنين على الإيمان، أو رغبة المتحرين عن الإيمان في الإيمان، رغم أن هذا الجعل قضية خسة الكافرين و خسة الدنيا! دون تبعيد لمن يتحرّى عن إيمان.

و قد تعني «لو لا ..» معنى ثانيا: لو لا السنة الدائبة الإلهية على كون الناس أمة واحدة في قاعدي السخري و السعي، لجعلنا .. رفضا لهما ..

حيث خسة الدنيا و زهادتها؟ و لكنما استثناء القواعد التي جعلها اللَّه تعالى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 17- أخرجه الترمذي و صححه و ابن ماجة عن سهل بن سعد قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 314

كونية و تشريعية، إذا كان لصالح الكتلة المؤمنة، هذا الاستثناء راجحة أم لازمة، لو لا مانعة أخرى ك «أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً» ضلّالا بعد الرسالة و بها كما قبلها.

و قد تعنيهما الآية و ما أحسنهما متضامنين، فإن هكذا جعل لمن يكفر بالرحمن خروج عن قاعدتي السخري و السعي، و جعل للناس كلهم ضلّالا لا يحنون إلى إيمان! و «أُمَّةً واحِدَةً» تعنيهما معا، و لكنما الأصل هو الثاني و على هامشه الأول‏ «1» مهما كان الثاني هو الأول و الأول هو الثاني حصولا! إن الثراء بلاء للمؤمن لا بد منها تمشية للحياة الدنيا، و إنفاقا على محاويجها، و أن لا يكون الناس أمة واحدة فما أقل المؤمنين الأثرياء أن يكونوا بمؤمنين صادقين ملتزمين بإيمانهم، و ما أكثر المؤمنين الفقراء أن يظلوا صادقين، حتى أن أحدهم قد لا يتقبل الثراء كيلا يبتلى ببلاء الأثرياء «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 599 ح 31- القمي عن الصادق (عليه السلام) في تفسير الآية «لو فعل اللَّه ذلك لما آمن من أحد و لكنه جعل في المؤمنين أغنياء و في الكافرين فقراء و جعل في الكافرين أغنياء و في المؤمنين فقراء ثم امتحنهم بالأمر و النهي و الصبر و الرضا.

و

ح 32 في كتاب علل الشرايع باسناده الى سعيد بن المسيب قال: سألت علي بن الحسين (عليه السلام) عن الآية قال: عنى بذلك امة محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ان يكونوا على دين واحد كفارا كلهم «لجعلنا ..» و لو فعل ذلك بامة محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لحزن المؤمنين و غمهم ذلك و لم يناكحوهم و لم يوارثوهم:

أقول: امة محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هنا المصداق الاجلى و الآية بإطلاقها تعني كل الناس: و

فيه (34) باسناده الى منصور بن يونس قال قال ابو عبد اللَّه (عليه السلام) قال اللَّه عز و جل: لو لا ان يجد عبدي المؤمن في نفسه لعصبت الكافر بعصابة من ذهب.

(2)

نور الثقلين 4: 601 باسناده عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: جاء رجل موسر الى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) نقي الثوب فجلس الى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فجاء رجل معسر درن الثوب فجلس الى جنب الموسر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 315

و لكن الثراء بنفسها ليست بلاء، و إنما لضعاف الإيمان، فمن قوة الإيمان أن يحاول المؤمن في تحصيل المال توسعة على العيال و إنفاقا للمحاويج و تمشية لعجلة الحياة الجماعية للكتلة المؤمنة.

فالمؤمن بين تزهيد عن الثراء كيلا تلهيه عما يعنيه، و بين تزويد للثراء لكي يطبق ما يعنيه من صالح الجماعة المؤمنة و صالحه في سبيل اللَّه.

فليست الثراء- إذا- مرغوبا عنها بإطلاقها في ميزان اللَّه، كما ليس الفقر مرغوبا فيه بهذا الميزان فقد «كاد الفقر أن يكون كفرا»! أو قد يعكس الأمر، و لكنما الأكثرية الساحقة أن الثراء بلاء أكثر مما الفقر بلاء! فليست الغنى لصاحبه كرامة كما ليس الفقر عليه مهانة، فهما لأصحابهما بلاء و ابتلاء: «فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ. كَلَّا ..» (89: 17)!.

«وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ‏ ... لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ» و لماذا الكفر بالرحمن، دون اللَّه أو الرحيم؟ عله لأن الرحمن أعم الصفات الإلهية التي تشمل عامة رحماته و خاصتها، فالكفر باللَّه خاص بالملحدين فيه او المشركين به، و الكفر بالرحيم خاص برحماته الخاصة، و لكلّ من هذه الثلاث أهل، و أما الكفر بالرحمن فهو يعمها كلها، كفرا باللَّه في شقيه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقبض الموسر ثيابه من تحت فخديه فقال له رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم):

أ خفت ان يمسّك من فقره شي‏ء؟ قال: لا، قال: فخفت ان يصيبه من غناك شي‏ء؟

قال: لا- قال: فخفت ان يوسخ ثيابك؟ قال: لا، قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): فما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)! ان لي قرينا يزين لي كل قبيح و يقبح لي كل حسن و قد جعلت له نصف مالي فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) للمعسر: أ تقبل؟ قال: لا- فقال له الرجل: و لم؟ قال: أخاف ان يدخلني ما دخلك!:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 316

و كفرا بالرحيم في شقه، و كفرا بالربوبية دون الخالقية او الخالقية دون الربوبية، أم كفرا بالعبودية دونهما أمّا هيه؟ من كفر بأية رحمة من رحمات الرحمن‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»! «لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ» و ما ألطفها و أنضرها نظرة إليها كأنما ينظر إلى السماء اللؤلؤية البيضاء «وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ» و المعارج و هي ما يعرج بها تعم المعارج الأرضية و فوق الأرضية من طائرات أم ماذا «عَلَيْها يَظْهَرُونَ»: يطّلعون ظاهرين غالبين على ما يهوون من التطلّع إلى سقف أرضية أم ما فوق الأرضية أم ماذا؟

«وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً» كما تناسب ذوات السقف الفضّية «و سررا عليها يتكؤون» كما تناسب تلك البيوت «زخرفا»: زينة من ذهب أو فضة أم زمردة ام أية زينة من الزين من نابتات: «حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ ..» (10: 23) أو مصطنعات‏ «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ..»

(17: 93) و إلى‏ «زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً» (6: 112) و هو صوت الشيطان: «وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ» (17: 64) ف «زخرفا» هي مطلق الزينة للبيوت و سواها، عموما بعد خصوص، و الحياة الدنيا كلها زخرف، و لذلك تسمت هذه السورة بالزخرف و صيغتها الأخرى سورة الدنيا، حيث تمثّلها كما هيه.

«وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ».

«لمّا» هنا قد تعني «إلا» «1» و عله غير فصيح و لا صحيح أن يؤتى بدل «إلا» الصريحة «لمّا» كإحدى معانيها بل، و لا يعرف لها هذا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما حكاه سيبوية «نشدتك بالله لما فعلت» اي الا فعلت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 317

المعنى‏ «1».

أو أنها تعني معناها الانتظار حتى الآن و «إن» مخفقة عن مثقلة ف «كُلُّ ذلِكَ» المذكور حتى الآن متاع الحياة الدنيا، عند أهل الآخرة و الدنيا بميزان اللَّه‏ «وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ».

إلا أن «لمّا» بمعنى «إلّا» مكررة في الذكر الحكيم و قرينتها التي تعني منها «إلا» هي معها «وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ» (36: 32).

«وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ» فإنها لصالحهم حيث هيئوا لها بما قدموا من صالحات، فهي ليست لسواهم و إنما عليهم بما قدمت أيدهم من طالحات، و لكنما الدنيا تعاكس الآخرة، حيث المتقون لهم منها حظوة قليلة يستقدمونها لأخراهم.

و «عِنْدَ رَبِّكَ» قد تكون وصفا للآخرة، فإنها عند ربك و الدنيا بعيدة عنه، و إن كانتا عند ربك قدرة و علما و حكما، و لكنما الآخرة عند ربك قربا و ملكا «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ»! و قد تكون‏ «عِنْدَ رَبِّكَ» في ميزان الرب، و خصوص الحضور للرب، فالآخرة للمتقين عند ربك، أو أنها تعنيهما: «فالآخرة التي عند ربك هي عند ربك للمتقين عند ربك»! وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36).

متاع الحياة الدنيا و زهرتها يعشي أصحابها عن ذكر الرحمن تعاميا عنه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما رواه الامام الرازي عن أبي الحسن و حكى عن الكسائي في انه قال: لا اعرف وجه الثقيل:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 318

بتقصير دون قصور «1» فالبصر يعشوا و من ثم البصيرة تعشوا و يصبح الإنسان عشوا عن ذكر الرحمن متعاميا متغاضيا عما يذكره الرحمن، محجوبا قلبه، ناسيا متناسيا، و هنالك مهبط الشيطان و هنا «نقيض»: نرسل‏ «لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ».

و ذكر الرحمن هو كلّ ما يذكّرك الرحمن، و هي كافة الرحمات التي تعيشها في نفسك و حولك، من عامة تعم الكون، و من خاصة للخصوص من خلق اللَّه، الدالة على وجوده و توحيده و علمه و عدله و حكمته و سائر صفاته و أسماءه الحسنى.

فليعش الإنسان ذكر الرحمن دون أن يعشو عنه أيا كان، عشو القلب او القالب، عشو البصر و البصيرة، عشوا عن اي إدراك و تبصّر، و لكي يتذكّر الرحمن فإنه يتبنّى عقيدة الإيمان و عمل الإيمان، و به تنضبط الحياة في مسيرة و مصيرة الإنسان! فلا يختص العشّو عن ذكر الرحمن بعشو الباصرة بصرا و بصيرة، إنه يعمها و كل مدركة في الإنسان، فعليه أن يكرّسها كلها لذكر الرحمن.

و ذكر الرحمن مصدرا و صادرا درجات كما العشو عن ذكر الرحمن دركات، فرسالات اللَّه و كتاباته ذكر، و آيات اللَّه في الأنفس و الآفاق ذكر، و الإنسان هو نفسه بما يحوم حوله من قريب أو غريب ذكر، و هذه بين معصوم سديد، او مأثوم طريد، أم عوان بين ذلك، فالمعصوم ذكر مضمون بعصمة تبشيرا، و المأثوم ذكر بطرده إنذارا، و العوان إنذار

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عشى يعشى عشا من باب علم إذا كان يبصره آفة لا يبصر مطلقا او بالليل و عشا يعشوا عشوا من باب نصر إذا تعامى و تعشى بلا آفة و هنا: يعش من الثاني مجزوما و لو كان من الاول لكان يعش بالكسر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 319

و تبشير.

فالعاقل اللبيب يذكر الرحمن بكل ذكر، و الجاهل البليد لا يذكر الرحمن فيعشو عن كل ذكر و إن كان قرآن محمد او محمد القرآن‏ «وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ! فالذاكرون اللَّه لا يقيّض لهم هكذا شيطان يمدّهم في عشو هم، مهما كان لهم شيطان غيره، و العاشون المتعامون عن ذكر اللَّه يقيّض لهم شيطان:

«وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ» (41:) 25) «أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» (19: 83) «وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ» (7: 202).

فقد يتغلب عليه و قد يغلب في عراك دائب، خنّاس نسناس يوسوس في صدور الناس من الجنة و الناس، و قد يغلب على طول الخط فيسلم كصاحبه المسلم كما للرسول، (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «1» و من معه.

و هنا شيطان آخر يبعث إلى من يعشو عن ذكر الرحمن، أخ له قرين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 17- اخرج ابن حبان و البغوي و ابن قانع و الطبراني و ابن مردويه عن شريك بن طارق قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ليس منكم احد الا و معه شيطان قالوا و معك يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)؟ قال:

و معي الا ان اللَّه اعانني عليه فأسلم، و أخرجه مثله جماعة من طريق عائشة و ابن مسعود و ابن عباس‏

: أقول: ليس هذا هو الشيطان المرسل المقيض لأنه خاص بمن يعشو عن ذكر الرحمن، و إنما هو الذي مع الكل كما أخرجه احمد في الزهد عن وهب بن منبه قال: ليس من الآدميين احد الا و معه شيطان موكل اما الكافر فيأكل معه من طعامه و يشرب معه من شرابه و ينام معه على فراشه و اما المؤمن فهو يجانب له ينتظره حتى يصيب منه غفلة او غرّة فيثبّ عليه ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 320

يمدّه في الغي دون إقصار، و هذا غالب على طول الخط على‏

«من تصدى بالإثم» «1».

و هذه سنة دائبة آئبة للعاشي عن ذكر الرحمن أن يعيش معه الشيطان ليمده في الغي دون إقصار، غيا يحسبونه هدى، ضلالة على ضلالة هيئوا لهما بعشو هم ظرفا يناسبه، و قد قضت مشيئة اللَّه ألّا يخلو القلب من هاد أو مضل، فمن يرفض الهادي جاءه المضل، فإن الإضلال طبيعة الشيطان ما وجد له سبيلا، ثم اللَّه ليس ليقطع سبيله إلى قلب عاش عن ذكره تسييرا على ترك الضلال و كما لا يسيّر إلى الهدى: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» (61: 5) و إنما يهدي اللَّه من اهتدى‏ «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً» (47: 17) جزاء وفاقا و عطاء حسابا! وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37).

و يا لهذا الحسبان من خسران حيث‏ «زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ» (27: 24) «... وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ» (29: 38) فقد كانوا قبل ذالك مستبصرين، فعثوا عن ذكر الرحمن على بصيرة و عناد تعاميا معمّدا عن الحق فقيّض اللَّه لهم شياطين تزيينا لهم فصدو هم عن السبيل و يحسبون أنهم مهتدون‏ «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» (18: 104)؟ حيث لا يدعه الشيطان القرين أن يفيق أو يتبين الضلال فيثوب، و إنما يوهمه أنه سائر في الطريق القاصد القويم، حتى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 603 ح 47 في كتاب الخصال‏ فيما علم امير المؤمنين (عليه السلام) أصحابه من الاربعمائة باب مما يصلح للمسلم في دينه و دنياه «من تصدى بالإثم اعشى عن ذكر اللَّه تعالى؟ من ترك الأخذ عن امر اللَّه بطاعته قيض له شيطان فهو له قرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 321

يصطدم بالمصير الأليم، و ترى أن الشيطان الثاني هو من قبيل الجان أم و هو أيضا من الإنسان؟ إنه يعمهما كما الأول دون اختصاص بجان أم إنسان، اللهم إلّا النفس الأمارة بالسوء، فإنسان يستجيب سائر الشيطان، و من المصيبة العظمى و الداهية الكبرى أن قرن الشيطان المقيض لهذا الإنسان يبقى معه حياته دون انفصال في البرزخ و القيامة الكبرى و هو عليه و بال!:

حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38).

ترى ماذا يعني «جاءنا» و اللَّه لا يجي‏ء إلى و لا يجاء إليه؟ .. إنه مجي‏ء عالم الرحمن برحمتيه الرحمانية و الرحيمية الخاصة بيوم الحساب. ف «جاءنا» يعني ما يعنيه‏ «وَ جاءَ رَبُّكَ» تجي‏ء ربوبيته الخاصة بيوم الجزاء و هم يجيئون إلى تلك الربوبية يوم الجزاء! فقد يستمر ذلك العشو، و هذا القرين و صدّه عن السبيل‏ «حَتَّى إِذا جاءَنا» العاشي عن ذكر الرحمن مع قرينه الملازم له، و ذلك المجي‏ء بادئ من الموت مجيئا برزخيا و إلى القيامة الكبرى مجيئا نهائيا «قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ» بينونة غابرة في حياتها الأولى و حاضرة في حياتها الأخرى، و لكنه تأوّه بعد حينه و لات حين مناص! ليس هنا فعل ماض أو مضارع يخص التأوّه بقربه مع الشيطان القرين في زمان خاص، بل هو تأوه يشمل هذا القرن في مثلث الزمان، فبعد المشرقين أم أبعد «إِذا جاءَنا» لا يبعده عن عذابه الذي خلفه بقرنه في الحياة الدنيا!.

هكذا ينتقل العاشي في ومضة من هذه الأولى إلى الأخرى، طيا لشريط الحياة السادرة و شرائطها إلى نهاية المطاف فجأة دون انتظار، و هنالك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 322

يفيق بعد طويل النوم، و يفتح عينيه بعد مديد العمى، و يرى قرينه شيطانا أضله بعد ما رآه هاديا دلّه، فيتأوه لحاضره و ماضيه، حيث يرى قرنه به عذابا فوق العذاب، فيخاطبه خطاب العتاب: «يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ» بونا بين المشرق و المغرب و هو أبعد البعد في هذه الكرة، و أنا عشتك في أقرب القرب القرين‏ «فَبِئْسَ الْقَرِينُ»! وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (39). ترى و ما هو الفاعل في‏ «لَنْ يَنْفَعَكُمُ» أهو التأوه الندم «يا ليت» ل «أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ» «إِذْ ظَلَمْتُمْ» باشتراك، إذا فاشتراك باشتراك؟ فلن ينفعكم «يا ليت» كم، لا فصلا بينكم (إنسان و شيطانه) و لا تخفيفا عن المضلّل زيادة على المضلّل، و من اشتراك العذاب الجمع بينهما حيث يتراءيان في حوار و تأوّه! أم الفاعل «أنكم ..» فاشتراككم في العذاب‏ «لَنْ يَنْفَعَكُمُ» لا تسلية، فكلّ مشغول بنفسه منشغل عن غيره و العذاب شديد لا يبقي مجالا لتسلية، و لا تخفيفا فالعذاب كامل لا تخففه الشركة، و لا يتقاسمه المشتركون، و لا أن اللَّه يخفّف عن مضلّل و يثقل على مضلّل‏ «إِذْ ظَلَمْتُمْ» فكلّ يعذّب على حد ظلمه أيا كان و لو مضلّلا، أو يكون الإضلال على جهل من المضلّل: فمضلّلا: «لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ» (16: 25)، فاشتراك الظلم لزامه اشتراك العذاب كلّ على قدر ظلمه‏ «وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا»! فلا التأوه ينفع إذ ظلمتم لاشتراك العذاب، و لا اشتراك العذاب ينفع إذ ظلمتم، و الآية لفظيا و معنويا تتحمل الفاعلين على البدل، فتحمل المعاني‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 323

المسرودة ككل دون تحميل، لا سيما الثاني‏ «1» و السبب الرئيسي في‏ «لَنْ يَنْفَعَكُمُ» هو «إِذْ ظَلَمْتُمْ» فكلّ يعذب لظلمه و على حدّه، دون رعاية للظالم المضلّل، أو نكاية زائدة على الظالم المضلّل، اللهم في مزيد الظلم من مضلّل او مضلّل على سواء! و لا يظلمون نقيرا.

موقف بائس متقاعس، شائن متشائن، اشتراكا في العذاب ولات حين متاب، حيث الظلم عريق و الضلال عميق:! أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ مَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (40). «أف» بعد ذلك الصمم المعمدة و العمى القاصدة و الضلال المبين‏ «فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ» و لا سمع لهم يستمعون‏ «أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ» و لا بصر لهم يبصرون و يتبصرون فإنه «كان» طول حياته غريقا «فِي ضَلالٍ مُبِينٍ»:

يبينه لنفسه و سواه، دون ابتغاء لهداه؟! فهداية الدلالة هنا لا مجال لها، و هداية الإيصال إلى المطلوب لست أهلا لها و لو لأهلها، فكيف تكون إذا لغير أهلها، ما اللَّه على قدرته المطلقة لا يهدي لها؟ فلما ذا هذا التجشم في إسماعهم و ليهتدوا؟ و لم ذلك التحزن عليهم إذ لم يهتدوا، فإن عشو هم عن ذكر الرحمان في سمعهم أصمهم، و في بصرهم أعماهم و لن يهتدوا إذا أبدا! فلا حظوة لهم إلا الانتقام، بعدل إذ «ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ» (8: 33) أم و عندك حيث الضلال تعدّى طوره و اقتضى انتقاما فوره.

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ 41 أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42).

«إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ» (10:)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حيث الاول يتطلب حذف لام التعليل «لأنكم»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 324

46) «... فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ» (13: 40) «ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ» (6: 52) «إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ» (88: 26).

فهل أنت مستاء بعد لم لم يهتدوا؟ أم لم لم يعذبوا بعد ما عاندوا؟ فلا لك هذا و لا عليك ذاك إن عليك إلا البلاغ و علينا الحساب.

و ترى كيف تناسب نون التأكيد الثقيلة الحاتمة لمدخولها، و إن الشرطية المشككة؟ .. عله لأن هناك حتمية الموت أيّا كان، و لكنما الانتقام على حتميته قد يكون قبل الموت أو بعده! و ترى كيف التلاحم بين وعد الانتقام قبل موته‏ «أَوْ نُرِيَنَّكَ ..» و بين ترك العذاب فيه: «وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ» (8: 33)؟

قد يكون‏ «الَّذِي وَعَدْناهُمْ» هنا «بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ» في ثلاث أخرى، و العذاب في حياته كل عذابهم يوم الدنيا و الثابت فيها- أحيانا- بعضه، حيث يتعدى ضلالهم طوره فيقتضي عذابهم فوره.

أو أن الذهاب به لا يعني موته و إلا لقال‏ «أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ» كما في آياته الأخرى، بل يعني هجرته من مكة إلى المدينة، أو أنه يعنيهما كالذي بيّنا و في أحاديثنا «1» و قد تعني‏ «وَ أَنْتَ فِيهِمْ» كونه بينهم في مكة قبل هجرته لا حياته!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

فقد يروى انه موته كما في الدر المنثور- 6: 18- اخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن ابن صالح عن جابر بن عبد اللَّه عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في قوله: فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون- نزلت في علي بن أبي طالب انه ينتقم من الناكثين و القاسطين بعدي،

و

في ملحقات الإحقاق 14: 354- اخرج الحافظ ابن المغازلي في المناقب ص 102 نسخة مكتبه صنعاء اليمن قال: أخبرنا الحسن بن احمد بن موسى الفندجاني قال حدثنا هلال بن محمد الحفار قال حدثنا إسماعيل بن علي قال حدثنا أبي علي قال حدثنا علي بن موسى الرضا قال حدثنا أبي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 325

فهناك تسلية لخاطر النبي الأقدس (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أنه أدى واجبه في دعوته و ماذا عليه بعد مهما ضلّوا، و أخرى أن اللَّه ينتقم منهم في حياته شطرا أو بعد مماته، فما عليك إذا إلا استمساك بوحيه:

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (43).

عش يا صاحب الرسالة السامية استمساكا بالذي أوحي إليك دونما فترة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

موسى بن جعفر قال حدثنا أبي جعفر قال حدثنا أبي محمد بن علي الباقر عن جابر بن عبد اللَّه الانصاري قال: اني لأدناهم من رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في حجة الوداع بمنى حتى قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لألفينكم ترجعون بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض و ايم اللَّه لئن فعلتموها لتعرفنني في الكتيبة التي تضاربكم ثم التفت الى خلفه فقال: او علي او علي ثلاث مرات فرأينا ان جبرئيل غمزه فانزل اللَّه على اثر ذلك‏ «فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ» بعلي بن أبي طالب او نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ثم نزلت‏ «قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏ ثم نزلت: فاستمسك بالذي اوحي إليك من امر علي انك على صراط مستقيم و ان عليا لعلم للساعة و لك و لقومك و سوف تسألون عن علي بن أبي طالب.

و فيه اخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن مسعود العبدي قال قرء علي بن أبي طالب (رضي اللَّه عنه) هذه الآية قال: ذهب نبيه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و بقيت نقمته في عدوه،

و أخرج ما في معناه جماعة آخرون منهم ابو نعيم الاصفهاني بسنده عن زر بن حيش عن حذيفة انه قرء: فإنا منهم منتقمون بعلي بن أبي طالب، و رواه مثله في فضائل السمعاني بسنده عن ابن عباس و

روى محمد بن العباس عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الآية قال: ان اللَّه تعالى انتقم بعلي في حرب البصرة و هذا ما وعده اللَّه و رسوله.

و

في ملحقات الاحقاق 3: 444 روى جماعة من أعلام القوم نزول الآية في علي (عليه السلام) منهم النيسابوري في تفسيره 25: 57 بهامش تفسير الطبري عن جابر انه قال: لما نزلت: فانا منهم منتقمون قال النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بعلي بن أبي طالب (رضي اللَّه عنه)، و منهم السيوطي في الدر المنثور 6: 18 عنه و الترمذي في مناقب مرتضوي 53 عنه و القندوزي في ينابيع المودة 98 عن حذيفة بن اليمان مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 326

و لا فتور، أنه لا يهتدي به هؤلاء، و دونما نخوة أو غرور أنك تهدي به هؤلاء، و إنما استمساكا به كما أوحي دونما تقتصر فيه أو قصور! و ترى «أوحي» الماضي يختص الاستمساك بالماضي فقط من وحي القرآن؟ و القرآن قرآن بماضي وحيه و مستقبله، بل إنما «أوحي» حيث يضم مطلق الوحي المحكم ليلة القدر و قسما من المفصل، ثم القسم المستقبل من المفصل تتمة لتفصيل محكمه و تكملة لمفصله.

و لأن هذه التكملة من الوحي، و ليس واجب الاستمساك بما أوحي إلا بعلة الوحي، فليشمل الاستمساك بالوحي القرآني مثلث زمن الوحي، ف «بِالَّذِي أُوحِيَ» أبلغ من كل الصيغ، فإن «ما يوحي» لا تشير إلى محكمها الماضي، و «بالوحي» يشمل كل وحي في كل الرسالات، و «با الوحي إليك» لا تصرح بمادة الوحي و إنما بمصدره، و «بالقرآن» لا يشمل محكم القرآن و لا وحي السنة، فما أبلغه و أشمله‏ «بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ»! ثم‏ «بِالَّذِي أُوحِيَ» دليل أول لوجوب الاستمساك، و دليل ثان: «إِنَّكَ عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» من صراط العصمة و الروح القدسي الرسالي، يعصمانك بإذن اللَّه عمليا، فاستمسك بالذي أوحي إليك علميا فإنه صراط مستقيم و إلى صراط مستقيم، كما أنك على صراط مستقيم و إلى‏ «وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (42: 52) تماسكا بين الصراطين المستقيمين:

الناطق و الصامت، إيفاء بالرسالة الإلهية في عصمة تامة، فاستمساك غير المعصوم بكتاب معصوم أو استمساك المعصوم بكتاب غير معصوم ناقص و إلى نقص! و لماذا «فاستمسك» طلب المسك، دون «فامسك الذي أوحينا إليك»؟

لأنه كرسول عليه طلب المسك بوحيه بين العالمين، كما أمسكه لنفسه قبل العالمين، فالاستمساك إمساك لنفسه و طلب من غيره، ليصبح الرسول و المرسل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 327

إليهم تمسكا بالوحي يعيشونه في كل حياتهم فالاستمساك بالقرآن صراط مستقيم لا حول عنه و لا عوج فيه، و هو سبيل المصلحين: «وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ» (7: 170) و هو العروة الوثقى يستمسك بها في إسلام الوجه إلى اللَّه‏ «وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى‏» (31: 22) و هو القاطع لكل عذر و الحجة في كلّ غدر «أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ» (42: 21).

فما دام الاستمساك بالقرآن فأنت على صراط مستقيم، و إذا تحولت عنه إلى سواه فأين الصراط المستقيم؟ اللهم إلا إذا وافق القرآن! و إلا فسوف تسألون:

وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ (44).

كلّ كتابات الوحي ذكر «وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ» (26: 5) و القرآن هو أفضل الذكر «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» (15: 9) تأكيدات منقطعة النظير عن سائر الذكر! و كل رسول من اللَّه ذكر «ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ ..» (26: 5).

و لكن الرسول محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أفضل الذكر:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولًا ..» (65: 10) و هنا يأتي ذكر «القرآن» لذكر «رسول القرآن» و قومه: «وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ»! و ترى المعني من ذكر القرآن للرسول و قومه فقط أن يتذكروا به كما أنه حجر الأساس فيما يهدف من ذكر القرآن؟ أم و أنه يرفع ذكر من تذكر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 328

به قدره كما رفع اللَّه ذكر محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و من معه، فمئات الملايين من الشفاه تصلي و تسلم عليه و تقرن ذكره بذكر اللَّه في أذانات الصلاة و إقاماتها، ذكر المحب المشتاق آناء الليل و أطراف النهار على مر التاريخ! و كذلك الذين معه من مسلمي التاريخ أيا كانوا و أيان! «وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ» ماذا فعلتم بهذا الذكر؟ و هل أديتم واجب الشكر في ذكره لكم؟ فأما الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الذين معه فمعهم ما معهم من إجابات حسب الدرجات، و لكن الذين‏ «اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً» (25: 30) علميا و عقائديا و عمليا، رغم ما استظلوا تحت ظله أننا أهل القرآن فاحترمهم العالمون! فهؤلاء «سَوْفَ تُسْئَلُونَ» تهتكا و استنكارا، و هم الأكثرية الساحقة من المسلمين و حتى من لا نسميهم و هم يجهلون القرآن! متجاهلين موقفه في حوزات الإسلام! يدرسون فيها و يدرّسون كتابات سوى القرآن و القرآن مندرس بينهم لا يدرس، و هذه قسمة ضيزى ما أظلمها بجنب القرآن أن يندرس و لا يدرس، اللهم إلا قراءته خاوية خالية عن الذكرى، خاصة لأرواح الأموات و الأحياء منها بعاد و حتى في استماعه! مستمعين إلى كل متكلم إلا قارئ القرآن! اجل إن هناك مسئولية كبرى عن هذا الذكر العظيم عمن حمّلوه و لم يحملوه‏ «ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» (102: 8) و ليست هذه المسؤولية لما دون ذلك النعيم العظيم! ترى و من هم قوم الرسول المسؤلون معه عن ذلك الذكر؟ .. إن للرسول أقواما يجمعهم «العالمون» لمكان رسالته العالمية، و لكنهم على مدارج شتى من حيث وجهة هذه الرسالة و مفعوليتها فيهم.

فمنهم المكذبون به‏ «وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ» (6: 66) «وَ لَمَّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 329

ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ» (43: 57).

و من قومه من قام بتمام الواجب في تقبّل و حمل دعوته و هم عترته المعصومون‏ «1»، و بينهما متوسطون و يجمعهم سائر العالمين و تجمعهم‏ «وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ» مهما اختلفت المسؤوليات حسب المسؤوليات، في درجات أم دركات!.

وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45).

المأمور بالسؤال هنا هو الرسول محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و المسؤول عنهم كافة الرسل، و مورد السؤال‏ «أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» ترى و لماذا السؤال و كيف سئل المرسلين و هم أموات؟ فمسائلة الذين درجت قرونهم و خلت أزمانهم غير ممكنة و لا مفيدة إن أمكنت! بطبيعة الحال ليس هذا السؤال ليعلم الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بعد جهل ألّا معبود إلا اللَّه، فإنه قبل رسالته كان على توحيد اللَّه و هذا السؤال حين رسالته، كذلك و ليس ليعلم هل إن الرسول قبله كانوا موحدين و دعاة التوحيد أم ماذا؟ و إنما لكي يعلم الناكرون أو الشاكون في توحيد اللَّه أن التوحيد سنة الرسالة الدائبة دونما استثناء! ثم و سؤاله (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الرسل ينطلق عنهم و هم حضور لديه ليلة المعراج‏ «2» أمّا ذا، فله الحوار معهم أينما شاء في معراج أم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 604 ينقل روايات عدة ان الائمة (عليهم السلام) هم قومه في هذه الآية و هم المسؤولون، رواه عن الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) و عنه عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) بعدة اسناد.

(2) هنا روايات عدة من طريق إخواننا و من طرقنا أن هذا السؤال كان ليلة المعراج،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 330

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و اللفظ الأكثر

رواية «قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يا عبد اللَّه اتاني ملك فقال: يا محمد: «وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا على ما بعثوا؟ قلت:

على ما بعثوا؟ قال: على ولايتك و ولاية علي بن أبي طالب،

أقول و هذا في ليلة المعراج كما رواه جماعة منهم العلامة الشيخ ابراهيم بن محمد بن أبي بكر بن حمويه الحويني في فرائد السمطين المخطوط جزء 32 بسند متصل الى عبد اللَّه بن مسعود قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و

العلامة البدخشي في مفتاح النجا ص 41 مخطوط و العلامة الحسكاني في شواهد التنزيل ج 3 ص 156 ط بيروت بسند له عن علقمة و الأسود عن ابن مسعود قال قال لي رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لما أسري بي الى السماء إذا ملك قد اتاني فقال لي يا محمد! سل من أرسلنا من قبلك من رسلنا على ما بعثوا؟ قلت معاشر الرسل و النبيين على ما بعثكم اللَّه؟ قالوا على ولايتك يا محمد و ولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) و رواه مثله ابو الحسن الفقيه ابن شاذان من طرق إخواننا عن ابن عباس له.

ثم أقول: هذه ولاية التوحيد الكامل و على ضوئها ولاية الرسالة المحمدية و الخلافة العلوية، فلا تنافي نص الآية ان السؤال حول التوحيد! و كما

يرويه أبو نعيم المحدث الاصفهاني في حلية الأولياء في تفسير هذه الآية انه لما أسري برسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أحضرت الرسل عنده قال اللَّه تعالى يا محمد! سلهم بماذا بعثكم اللَّه، قالوا بشهادة الا اله الا اللَّه و الإقرار بنبوتك و بولاية علي (عليه السلام) (كفاية الخصام (ص 348/ و في الكافي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: ولايتنا ولاية اللَّه و ما بعث نبي الا بها.

و

من طريق أصحابنا في تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن أبي حمزة الثمالي عن أبي الربيع قال‏ حججت مع أبي جعفر (عليه السلام) في السنة التي حج فيها هشام بن عبد الملك و كان معه نافع بن الأزرق مولى عمر بن الخطاب فقال يا امير المؤمنين من هذا الذي تتكافى عليه الناس؟ فقال هذا نبي اهل الكوفة محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال نافع: لآتينه فلاسألنه عن مسائل لا يجيبني فيها الا نبي او وصي نبي او ابن وصي فقال هشام فاذهب اليه فاسأله فلعلك تخجله فجاء نافع فاتكى على الناس ثم اشرف على أبي جعفر (عليه السلام)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 331

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقال: يا محمد بن علي! إني قرأت التوراة و الإنجيل و الزبور و الفرقان و قد عرفت حلالها و حرامها و قد جئت اسألك عن مسائل لا يجيبني فيها الا نبي او وصي نبي او ابن وصي نبي فرفع اليه ابو جعفر (عليه السلام) رأسه فقال له: سل- فقال:

اخبرني كم بين عيسى و محمد من سنة؟ فقال: أخبرك بقولي ام بقولك؟ قال اخبرني بالقولين جميعا قال اما قولي فخمسمائة سنة و اما قولك فستمائة سنة، قال فاخبرني عن قول اللَّه عز و جل «و اسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون، من ذا الذي سأل محمد و كان بينه و بين عيسى خمسمائة سنة؟ قال: فتلا ابو جعفر (عليه السلام) هذه الآية «سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى‏ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا» فكان من الآيات التي أراها اللَّه محمدا (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حين أسري به الى البيت المقدس ان حشر اللَّه له الأولين و الآخرين من النبيين و المرسلين ثم امر جبرئيل (عليه السلام) فاذن شفعا و اقام شفعا ثم قال في إقامته حي على خير العمل ثم تقدم محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فصلى بالقوم فانزل اللَّه عليه‏ «وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ»: فقال لهم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): على ما تشهدون و ما كنتم تعبدون؟ فقالوا: نشهد ان لا اله الا اللَّه وحده لا شريك له و انك رسول اللَّه أخذت على ذلك مواثيقنا و عهودنا، قال نافع: صدقت يا ابن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يا أبا جعفر أنتم و اللَّه أوصياء رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و خلفاؤه في التوراة و أسماؤكم في الإنجيل و الزبور و في القرآن و أنتم أحق بالأمر من غيركم:

و

في الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه‏ و اما قوله‏ «وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا» فهذا من براهين نبينا (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) التي آتاه اللَّه إياها و أوجب به الحجة على ساير خلقه لأنه لما ختم به الأنبياء و جعله اللَّه رسولا الى جميع الأمم و ساير الملل خصه بالارتقاء الى السماء عند المعراج و جمع له يومئذ الأنبياء فعلم منهم ما أرسلوا به و حملوه من عزائم اللَّه و آياته و براهينه فأقروا أجمعين بفضله و فضل الأوصياء و الحجج في الأرض من بعده و فضل شيعته وصيه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 332

غير معراج و لكنه سؤال بإجابته لا يفيدان من سواه فإنه غيب حيث المؤمنون عنه بعاد فضلا عن سواهم! و إنما هو تشريف لهم أن يسألوا و له أن يسأل.

و من ثمّ سؤالهم عن كتبهم الناطقة- على تحرّفها- بجوابه حيث المآت المآت من آياتها البينات إجابة له شافية: «لم يجعل‏ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» مهما تمسّك المنحرفون من أهل الكتاب بمتشابهات من آياتها أو مختلقات، و لكنما المحكمات الثابتة منها ناطقة دون تشابه و اختلاف! و دليل الفطرة و العقل يؤيدان توحيد العبادة و يرفضان شركها فإنه ظلم مستحيل على اللَّه أن يسوي بينه و بين خلقه في العبادة.

ثم و سؤال علماء الأديان غير المنحرفين منهم و المتطرفين، و إنما الربانيون منهم و هم حضور في كل زمان: «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ ..» (10: 94) و أهمّ ما أنزل عليه هو التوحيد، و شكه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من باب إياك اعني و اسمعي جارة.

و ذلك السؤال في الحقلين الأخيرين استجاشة للأمم المشركة أو المتشككة أن يتساءلوا أهله عما يشركون أو يتشككون، و الجواب كلمة واحدة عقليا و نقليا: «أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ».

و علّ مربع السؤال معني في أمر الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ما يخصه كسؤال الحضور في معراج و غير معراج، و ما يعمه و سواه كالآخرين.

و فيما يخصه نجد أبعاد الزمان و المكان و أبعاد الحياة و الموت كلها تطوى و تتلاشى أمام ذلك السؤال من إمام المرسلين، فيراهم جميعا و يسألهم ما أمره‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 333

اللَّه و يسمع الجواب الذي نجده في كتاباتهم و على ألسنة الربانيين من علماء أديانهم.

ثم و في غير هذا الموقف الجماهيري الرسالي ليلة المعراج، بإمكانية الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن يواجه أي رسول أيا كان فإنهم كلهم من أمته المؤمنين به الناصرين له كما في آية الميثاق و روايته:

«وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (3: 81)

ففي الامالي عن الصادق (عليه السلام) عن أبيه عن جده عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: أخذت من النبيين ميثاقهم بربوبيتي و نبوتك و ولاية علي.

أ فبعد هذا كله، يحجز الرسول عن سؤاله المرسلين المؤمنين به حاجز الزمان و حاجز المكان و حاجز الموت أمّاذا من حواجز يخرقها! و ترى ان معراجه و ما سواه من آياته الكبرى اكبر ام سؤاله المرسلين في معراجه؟ طبعا معراجه الذي حوى سئواله، اللهم الا آيته الكبرى:

القرآن!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 334

[سورة الزخرف (43): الآيات 46 الى 67]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى‏ بِآياتِنا إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (46) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (47) وَ ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَ قالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (50)

وَ نادى‏ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ (52) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (55)

فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلاً لِلْآخِرِينَ (56) وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (59) وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60)

وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَ اتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (62) وَ لَمَّا جاءَ عِيسى‏ بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (67)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 336

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى‏ بِآياتِنا إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (46).

حلقة مختصرة غير محتصرة من قصة موسى و فرعون و حوار بينهما، بينها و بين قصة الرسول محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) متشابهات كأنها نسخة تكرّر و أسطوانة تعاد! تدليلا على وحدة الرسالة في جوهرتها و آياتها، ففي عرض له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) تسليات و استقامات و طمئنينات.

و هنا في إرسال موسى إلى فرعون و ملاءة دلالة صريحة على عدم اختصاص رسالته ببني إسرائيل مهما كانوا حجر الأساس في دعوته إذ كانوا مستضعفين أمام الفرعنة الجبارة، و «آياتنا» كجمع مستغرق آيات اللَّه كلها و كما في أخرى‏ «وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَ أَبى‏» (20: 56) هذه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 337

لا تعني كل الآيات الإلهية إلا جلّها، و «كلها» و «آياتنا» هنا و هناك تعنيان كل الآيات التي كانت تناسب ظرف الزمان و ظرف المكان، و ما أرسل رسول بمثل هذه المجموعة من الآيات التي تحلّق على الأرض و السماء برا و بحرا و إنسانا في مختلف الضروب و الظروف! و لأنها كانت من أصعبها و أصلبها أصبحت تترى عليهم يمينا و شمالا، ترغيبا و ترهيبا لعلهم يرجعون،» و جمعية أخرى لهذه الآيات أنها تجمع بين متصلة كاليد البيضاء و منفصلة قريبة كالعصا حيث قلّت حية تسعى و ثعبانا مبينا، و قلّبت الحجر اثنتي عشرة عينا، و البحر رهوا، و طريقا يبسا، ثم منفصلة بعيدة هي الدم و القمل و الطوفان و الضفادع بآيات مفصلات تترى.

فقد أوتي إذا آيات اللَّه كلها بأنواعها في هذا المثلث- إلى فرعون و ملإه!.

فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (47).

متظاهرين أنها ضحك السخرية و الاستهانة بها، و هذه من سيرة الفرعنة الثراء، توهينا لرسالات اللَّه بآياتها: «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ» (83: 29) يوم الدنيا، و أما الآخرة: «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» (9: 83).

وَ ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48).

و هذه ظاهرة مكرورة واقعة في آيات موسى.

وَ قالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (49).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 338

و كان العذاب المدعو كشفة من آل فرعون هو الرجز: «فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ. وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى‏ أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ. فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ ..» (7: 136).

فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (50).

و إلى هنا تتختم الآيات منذ حيّة العصى حتى غرقهم في اليم، يطويها طيا لعرض حوار في هذا البين، و عجب من هؤلاء النكدين الأشراس، تراهم غرقى في بلاء الآيات، و ثم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم رجز البلاء، و يعدونه بذلك الاهتداء، و هم على ما هم يتهتكون موقفه الرسالي: «أَيُّهَا السَّاحِرُ»؟! و موقف الرب «ربك» كأنه ربه لا سواه و «بِما عَهِدَ عِنْدَكَ» كأن عهده لا يتخطاه إلى سواه كشفا للرجز عن هؤلاء! فلو كان ذلك «الرجز» سحرا فلتدفعوه بسحر مثله و أنتم أهله، و إن كانت معجزة فلما ذا «يا أَيُّهَا السَّاحِرُ»؟ و من ثم «ربك» ثم «عندك»؟

فلو كنتم من أهل الإيمان و الاهتداء بالآية الإلهية فتلك هي الآية و الأخيرة من الآيات كلها، فهل إن كشف الرجز آية و وقوعه سحر و ليست آية؟

و لكنما اللَّه يستجيبهم‏ «إِلى‏ أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ» تأكيدا للحجة و إنارة للمحجة «إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ» و من قبل كان يعلم نكثهم بأضرابهم الأسلاف السّلاف: «وَ لَوْ رَحِمْناهُمْ وَ كَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (23: 75) «إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عائِدُونَ» (44:) 15).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 339

تلك آيات من اللَّه و ما واجهها آل فرعون فما هي الآيات الفرعونية و إجاباتها؟ إنها لا تتخطى خداعات خواء و ادعاءات جوفاء و زخرفات تجلب عقول الجماهير الساذجة المخدوعة بالأبهة و البريق و زينة الحياة الدنيا.

وَ نادى‏ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ (52) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53).

عرض تافه رخيص يواجه به آيات اللَّه البينات‏ «أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ ...» و ماذا يثبت له ملك مصر الذي حصل عليه بالسيف و النار، بالزور و الغرور؟ و حتى إذا كان له حقا و خيرة من شعبه، أكلّ ذلك يثبت أنه إله؟ أم عبد يستغني عن اللَّه؟ إذا فكل ملك إله، أو هو مستغن عن اللَّه! و ترى من هذا الذي هباه و أعطاه؟ هل هو هو أم اللَّه؟ فليس هو إذا بإله و لا يستغني عن اللَّه!.

فرعون بيّن فضله و استجاش قلوبا مستغفلة مستخفّة «أَ فَلا تُبْصِرُونَ» بأبصاركم، إذ لا حاجة إلى بصيرة لهذا العرض المحسوس؟ .. و من ثم يبين مهانة موسى عنده‏ «وَ لا يَكادُ يُبِينُ» «فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ ..» و مهانته الأخرى عند اللَّه‏ «أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ»؟ و يقايس بين نفسه و بين ذلك المهين‏ «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ...».

فرعون الطاغية هنا في تدجيله بين نفي و إثبات، يثبت لنفسه كلّ أهلية ينفيها عن موسى، و ينفي عن موسى ما يثبته لنفسه:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 340

1- «لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ» و موسى مهين ليس له ملك و لا هو من الطائفة الملوكية، بل من بني إسرائيل المستضعفين المستخدمين! 2- أنا أبين و هو لا يكاد يبين، حيث العقدة في لسانه و لا عقدة في لساني! 3- أنا عليّ أسورة من ذهب، «فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ»؟

4- أنا معي جندي مقترنين و لم يجي‏ء مع موسى حتى ملائكة مقترنين.

و لكن ليس ملك مصر و لا أي ملك أوسع منه كرامة، و لا استضعاف موسى مهانة، و أما أنك تبين و تفصح عما تريد، فما ذا تبين إلا خرافات و ادعاءات، و موسى الذي لا يكاد يبين على حد زعمك يبين كما يستطيع حقائق بينات.

و ترى ماذا يعني‏ «لا يَكادُ يُبِينُ» هل لأنه لم يكن فصيحا كما يليق‏ «وَ أَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي» (28: 34) ينطلق لسانه‏ «وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى‏ هارُونَ» (26: 13) أم كانت في لسانه عقدة لا ينطلق كما يحق‏ «وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي» (20: 28) فقد أرسل أخاه هارون، و أحل عقدة من لسانه‏ «قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى‏» (20: 38) فصاحة متصلة بإزالة العقدة عن لسانه، و منفصلة بإرسال هارون و هو أفصح منه لسانا، و تعزيزا بتأزيره بأخيه، و كل ذلك حصل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 341

و أما الملائكة المقترنون، فهم ليسوا معك، اللّهم إلّا شرذمة كافرة من الضالين معك، و آيات موسى التسع المقترنة به تكفيه عن إقران الملائكة، و لو اقترنوا به لكانوا في صور الرجال فما هي إذا فائدة الاقتران؟.

و أما الأسورة من ذهب تصدّق رسالته! فهي تصدق فرعنة و ترفا و قد تكذب الرسالة، حيث الرسالة الإلهية تناحر هذه الفخفخات المادية، و تشاجر المترفين ذوي الأثرة و الكبرياء!.

(لقد دخل موسى بن عمران و معه أخوه هارون (عليه السلام) على فرعون و عليهما مدارع الصوف و بأيديهما العصيّ فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه و دوام عزه فقال: ألا تعجبون من هذين؟ يشترطان لي دوام العز و بقاء الملك و هما مما ترون من حال الفقر و الذل، فهلا ألقي عليهما أساور من ذهب، إعظاما للذهب و جمعه، و احتقارا للصوف و لبسه، و لو أراد اللَّه سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان و معادن العقيان و مغارس الجنان و أن يحشر معهم طيور السماء و وحوش الأرضين لفعل، و لو فعل لسقط البلاء و بطل الجزاء و اضمحلت الأنباء، و لما وجب للقابلين أجور المبتلين و لا استحق المؤمنون ثواب المحسنين، و لا لزمت الأسماء معاينها، و لكن اللَّه سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم، و ضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعته تملأ القلوب و العيون غنى، خصاصة تملأ الأبصار و الأسماع أذى، و لو كانت الأنبياء (عليهم السلام) أهل قوة لا ترام و عزة لا تضام و ملك تمتد نحوه أعناق الرجال و تشد إليه عقد الرحال لكان ذلك أهون على الخلق في الإعتبار، و أبعد لهم من الاستكبار، و لأمنوا رهبة قاهرة لهم، و رغبة مائلة بهم، و كانت النيات مشتركة و الحسنات متقسمة، و لكن اللَّه سبحانه أراد أن يكون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 342

الإتّباع لرسله و التصديق بكتبه و الخشوع لوجهه و الاستكانة لأمره و الاستسلام لطاعته أمورا له خاصة و لا يشوبها من غيرها شائبة، و كلما كانت البلوى و الاختبار أعظم كانت المثوبة و الجزاء أجزل» «1».

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (54).

الاستخفاف هو طلب الخفة من ثقل، و ثقل الإنسان عقله و هو إمام النواميس الخمسة في كيان الإنسان و هي العقل و الدين و النفس و المال و العرض، فإذا خف العقل باستخفاف تغافلا عنه و تنازلا عن حكمه تخلفه الطاعة المطلقة لمن يستخف، و هو الاستحمار الذي يخلفه سائر الأبواب السبع الجهنمية من الاستثمار و الاستعمار و الاستكبار و الاستبداد و الاستضعاف، فالاستحمار وليد الاستخفاف ثم هو أم لسائر الأبواب فإذا خف الإنسان عقله أمام الاستخفاف، حرمانا عن التعقل أو ابتعادا عن حكم العقل أصبح كالريشة في مهب الرياح الاستحمارية، متخليا عن كيان الإنسانية ككل، إلى أنزل و أنذل دركات البهيمية اللّاشعورية، و هنالك الطامة الكبرى و المصيبة العظمى! و كافة المحاولات الفرعونية في حمل قومه على طاعته تختصر في هذه الصيغة:

«فاستخف ..» فللمستضعفين أمام الطغاة إحدى حالات ثلاث.

المنعة و الاستقامة على موازين العقل و الحكمة كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف و لا تزيله القواصف، فلا يزيده الاستخفاف إلا قوة و سدادا، و هؤلاء هم المستضعفون المؤمنون الذين وعدهم اللَّه خلافة الأرض‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 606 ح 66 عن نهج البلاغة عن امير المؤمنين علي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 343

و وراثتها، حيث لا يخفّون مهما يستخفون، بل و يزدادون ثقلا في الإيقان و تبلورا في الإيمان.

2- سفه و قلة عقل دون فسوق و لا تقصير، اللهم إلّا في مبادئه، و هنا الطاعة بالاستخفاف واقعة لا محالة، و لا ذم فيها إلّا قليلا: «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ .. (4: 99).

3- تخاذل دون تثاقل على عقل و دراية، بفسق عامد، رغم إمكانية المنعة و الاستقامة: و هم: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً» (4: 97).

هؤلاء هم المستخفون فسقا حيث يخفون، يحتنكهم كل شيطان و هم له مطيعون، يحنون ظهورهم فهم عليهم راكبون‏ «فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ»! فمادة الفسق: الخروج عن حكم العقل و الفطرة و عن حكم اللَّه، تزداد فعالية لمّا يستخف الإنسان عن أثقال الإنسانية فيخف تنازلا عنها و تخاذلا: فطاعة مطلقة للمستخف المستحمر! فاستخفاف الطغاة لهذه الجماهير استحمار فاستثمار دائب لا حول عنه، حيث يعزلون الجماهير عن أسباب المعرفة فيتناسونها حتى ينسوها، فلا يعودون ليبحثوا عنها، فلما تخلّوا عن المعرفة بأسبابها ألقوا في روعهم ما يشاءون من بواعث الكوارث فيسهل استخفافهم و يلين سلسا قيادهم فيذهبون بهم ذات اليمين و ذات الشمال حيث يلعبون بهم كالريشة في مهب الريح العاصفة.

و لما انتهت مراحل الابتلاء إلى هذا الحد من الخفة و البلاء، وقع هنالك الانتقام في الأولى قبل الأخرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 344

فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ (56).

و هذه سنة اللَّه بالنسبة للمستخفين الفاسقين العائشين على هوامش الفرعنات، يستدرجهم مليّا يملي، ثم يأخذهم بغتة و كما

يروى عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله) على ضوء هذه الآية: (إذا رأيت اللَّه يعطي العبد ما شاء و هو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له ثم تلا هذه الآية) «1».

و ترى كيف بإمكان العبد أن يؤسف ربه، و ربّنا لا يأسف مهما توفرت عوامل الأسف؟ لا يعني «آسفونا» هنا إلّا أنهم عملوا الأعمال المؤسفة و هو سبب الانتقام، و أمثال هذه الأفعال تجرّد عما لا يليق بساحة الربوبية كما الغضب و أضرابه من تغير الحال حيث (لا يتغير بانغيار المخلوقين)! فهو تعالى (لا يأسف كأسفنا) «2» «فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً» ماضيا فيه عبرة «و مثلا» نموذجا من عواقب الفسوق «للآخرين» كمن أتوا و يأتون بعدهم من الفاسقين، و هم أمثال في رزاياهم و قضاياهم كما قومك من هؤلاء الآخرين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 19- اخرج احمد و الطبراني و البيهقي في الشعب و ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال ..

(2)

نور الثقلين 4: 608 في كتاب التوحيد باسناده الى احمد بن أبي عبد اللَّه رفعه الى أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في قول اللَّه عز و جل‏ «فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ» قال: ان اللَّه تبارك و تعالى لا يأسف كأسفنا و لكنه خلق اولياء لنفسه يأسفون و يرضون و هم مخلوقون مدبّرون فجعل رضاهم لنفسه رضى و سخطهم لنفسه سخطا و ذلك لأنه جعلهم الدعاة اليه و الأدلاء عليه فلذلك صاروا كذلك، و ليس ان ذلك يصل الى اللَّه كما يصل الى خلقه و لكن هذا معنى من قال من ذلك و قد قال ايضا: من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة و دعاني إليها، و قال ايضا: من يطع الرسول فقد أطاع اللَّه، و قال ايضا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 345

وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ (59) ترى من هنا ضارب المثل و ما هو هذا المثل الذي فاجأ صدا من هؤلاء ضجّا و ضحكا؟! «1» ثم احتجوا بما احتجوا جدلا و خصومة، فجاءت الإجابة «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ.».؟

هل هو المثل المضروب بابن مريم في سورة مريم (عليها السلام) فإنها المكية الوحيدة التي أتت بذكر عيسى بن مريم، حيث يذكر مع جموع من النبيين من ذرية آدم، و تختم قصته معهم بأنه عبد أنعم عليه كما هم:

«أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا ..» (58) ثم و فيها رد على الذين تبنّوا المسيح للَّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ» و كل هذا و شبهه على ما ذكرت لك و هكذا الرضا و الغضب و غيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك و لو كان يصل الى المكوّن الأسف و الضجر و هو الذي أحدثهما و انشأهما لجاز لقائل ان يقول: ان المكون يبيد يوما، لأنه إذا دخله الضجر و الغضب دخله التغيير، فإذا دخله التغيير لم يؤمن عليه الإبادة و لو كان ذلك كذلك لم يعرف المكوّن من المكوّن و لا القادر من المقدور و لا الخالق من المخلوقين تعالى اللَّه عن هذا القول علوا كبيرا هو الخالق للأشياء لا لحاجة فإذا كان لا لحاجة استحال الحد و الكيف فيه فافهم ذلك إنشاء اللَّه.

و رواه مثله في اصول الكافي باسناده عن حمزة بن بزيغ عنه (عليه السلام): ..

أقول: بداية الحديث لتوجيه العوام حيث «نا» في «آسفونا» هو اللَّه و ليس أوليائه الا بضرب من التأويل أنّ أسفهم أسف اللَّه، و ذيل الحديث لتوجيه الخواص ان أسفه يجرّد عن تغير الحال الى عذابه الناتج عن الأسف.

(1). الصدّ بالكسر هو الضج الصريخ و الضحك و قد يروى كذلك عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «الصدود في العربية الضّحك، معاني الاخبار للصدوق بسند متصل عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و في الدر المنثور 6: 30- اخرج ابن مردويه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 346

«ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ‏ .. وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (36).

فهنالك‏ «قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ»: ضجة و ضحكة، فضجة و إنكارا لما ضرب أنه عبد و ليس إلها و لا ابنه فلا يعبد، و إنما هو حسب النصارى و هم أهل كتاب، إله أو ابن إله. يعبد، و من ثم ضحكا: كيف أنت تصدنا عما نعبد من ملائكة و هم آلهتنا «1» و هؤلاء الكتابيون: يعبدون بشرا «أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» طبعا آلهتنا الملائكة! فأنت تصدّنا و نحن منك نصّد! «ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا» فالقرآن يضرب ابن مريم مثلا للتوحيد، و هم يحولونه إلى مزعمة النصارى مثلا للشرك، فمثل الحق يحوّل إلى مثل الباطل، ضجة في تحويله و ضحكة من تحوّله: «أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ»! و طبعا آلهتهم- في زعمهم- خير من ابن مريم في زعم النصارى.

و هذا تبرير كتابي في جدلهم الخصوم أن يعبدوا آلهتهم الملائكة من دون اللَّه! فيأتي الجواب كما لمح له في مريم‏ «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ.»!

أم إن ضارب المثل هو من هؤلاء لما نزل‏ «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ»

قال قائلهم للرسول (صلى اللَّه عليه و آله):

خاصة لنا و لآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال (صلى اللَّه عليه و آله): بل لجميع الأمم! فقال خصمتك و رب الكعبة أ لست تزعم أن عيسى بن مريم نبي و تثني عليه خيرا و على أمه و قد علمت أن النصارى يعبدونهما و اليهود يعبدون عزيرا و الملائكة يعبدون فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا نحن و آلهتنا أن نكون معهم، فسكت النبي (صلى اللَّه عليه و آله) و فرح القوم و ضحكوا و ضجوا فأنزل اللَّه تعالى‏ «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏ أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدليل على ان هؤلاء القوم كانوا عبدة الملائكة هنا قوله فيما بعد «وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً» و فيما سبق‏ «وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ (19):: وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ» (20).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 347

و نزلت هذه الآية ايضا «وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ:» «1».

و هنالك تنقلب الحجة عكس ما مضت‏ «أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» لعله هو! فإذا هو في الجحيم فنحن و آلهتنا نرضى ذلك الجحيم! أو أن ضارب المثل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله) حيث شبه عليا (عليه السلام) بابن مريم كما

رواه سادة أهل البيت عن علي (عليه السلام) قال: جئت إلى النبي (صلى اللَّه عليه و آله) يوما فوجدته في ملاء من قريش فنظر اليّ ثم قال: يا علي! إنما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى بن مريم (عليهما السلام) أحبه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا و أبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا و اقتصد فيه قوم فنجوا فعظم ذلك عليهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و

في الدر المنثور 6: 20- اخرج احمد و ابن أبي حاتم و الطبراني و أبن مردوية عن ابن عباس ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال لقريش‏ انه ليس احد يعبد من دون اللَّه فيه خير فقالوا: الست تزعم أن عيسى كان نبيا و عبدا من عباد اللَّه صالحا و قد عبدته النصارى فان كنت صادقا فانه كآلهتهم فانزل اللَّه‏ «وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ» قال يضجون و انه لعلم للساعة قال: خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة، و فيه اخرج ابن مردويه عن ابن عباس ان المشركين أتوا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقالوا له أ رأيت ما يعبد من دون اللَّه اين هم؟ قال: في النار قالوا، و الشمس و القمر قال: و الشمس و القمر، قالوا فعيسى بن مريم فأنزل اللَّه‏ «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ».

أقول: و ما ذكرناه في المتن تجده في تفسير الرازي ج 27 ص 221 و في هامشه:

ان الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) رد عليه عند ذلك بقوله لابن الزبعري‏ «ما أجهلك بلغة قومك، «ما» لما لا يعقل، و حينذ فلا تقع على الذين اتخذهم الكفار آلهة من الأنبياء و الملائكة و الصالحين و انما عنى من الأصنام التي عبدوها

، ثم أقول: ان «ما» في‏ «ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» يخص غير ذوي العقول فلا يشملهم الا بدليل و «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏» يستثني الصالحين!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 348

و ضحكوا و قالوا يشبهه بالأنبياء و الرسل فنزلت هذه الآية» «1».

فالوجهان الأولان موجّهان بالقرآن أولا فالأول و ثانيا فالثاني، و هذا الأخير موجّه و على هامش القرآن بالسنة «2» لا أنه المقصود فقط أم بالأصالة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

رواه في مجمع البيان و في نور الثقلين 4: 609 عن روضة الكافي بسند متصل عن أبي بصير قال: بينا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ذات يوم جالسا إذ اقبل امير المؤمنين (عليه السلام) فقال له رسول اللَّه (عليه السلام): ان فيك شبها من عيسى بن مريم لولا ان تقول فيك طوائف من امتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك قولا لا تمر بملإ من الناس الا أخذوا التراب من تحت قدميك يلتمسون بذلك البركة قال: فغضب الأعرابيان و المغيرة بن شعبة و عدة من قريش معهم فقالوا: ما رضي ان يضرب لابن عمه مثلا الا عيسى بن مريم فانزل اللَّه على نبيه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): و لما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ..

و في كتاب الخصال في احتجاج علي (عليه السلام) على الناس يوم الشورى قال:

قال: نشدتكم باللَّه هل فيكم احد قال له رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) احفظ الباب فان زوارا من الملائكة يزورني فلا تأذن لأحد فجاء عمر فرددته ثلاث مرات و أخبرته ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) محتجب و عنده زوار من الملائكة و عدّتهم كذا و كذا ثم اذن فدخل فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)! اني جئتك ثلاث مرات غير مرة و كل ذلك يردني علي و يقول: ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) محتجب و عنده زوار من الملائكة وعدتهم كذا و كذا فكيف علم بالعدة، أعاينهم! فقال: يا علي! كيف علمت بعدتهم؟ قلت: اختلفت علي التحيات و سمعت الأصوات فأحصيت العدد قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) صدقت فان فيك شبها من اخي عيسى فخرج عمر و هو يقول: ضربه لابن مريم مثلا فأنزل اللَّه‏ «وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ.» غيري؟ قالوا: اللهم لا.

و في مناقب ابن شهر آشوب، قال النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يدخل من هذا الباب رجل أشبه الخلق بعيسى فدخل علي (عليه السلام) فضحكوا من هذا القول فنزلت هذه الآية:

(2)

أخرج في كفاية الخصام بهذا الصدد عشرين حديثا (13) منه من طريق إخواننا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 349

و انما تأويلا يلائم القرآن حيث الجواب عن صدهم‏ «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ» لا يناسب نصا إلّا الأولين، و الأخير يناسب التأويل بتأويل الدليل! «ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا»: إن المثل الذي ضرب بابن مريم نحن ضربناه حقا و أنت، و هم ضربوه لك جدلا «بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ».

فلو كان الجدال بحق و إلى حق فبالتي هي أحسن: «وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» و إن كان بباطل و إلى باطل فهي أسوء الجدال، أم بباطل إلى حق أو حق إلى باطل فهو سيئ و ليس إلّا خصومة للحق‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و الباقية من طرقنا و ممن رواه من إخواننا الحافظ ابو نعيم الاصفهاني في كتابه نزول القرآن في علي عن ربيعة بن ناجد عن علي (عليه السلام) انها نزلت في شأنه، و محمد بن العباس بسنده عن ابن عباس و عبد اللَّه بن احمد بن حنبل بسنده عن الشعبي و بسنده عن علي (عليه السلام) و محمد بن قاسم بسنده عن ربيعة بن ناجد عن علي (عليه السلام)، و في ملحقات إحقاق الحق 3: 398 و رواه احمد بن حنبل في فضائل الصحابة 172 و النسائي في الخصائص 39 و محب الدين الطبري في ذخائر العقبى 92 و ابن عبد ربه الاندلسي في عقد الفريد: 194 و ابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة 95 و ابن حجر الهيثمي في الصواعق 121 و السيوطي في تاريخ الخلفاء 117 و المتقى الهندي في منتخب كنز العمال بهامش المسند 5: 34 و المير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي 58 و القندوزى في ينابيع المودة 109، و منهم سعيد بن الحسني و سفيان بن وكيع و ابن عقدة و عبد اللَّه بن احمد و ابن الصلت و الوكيع و احمد بن القاسم كما في البحار 9: 60- 62.

(1).

الدر المنثور 6: 21- اخرج سعيد بن منصور و احمد و عبد بن حميد و الترمذي و صححه و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و الطبراني و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في شعب الايمان عن أبي امامة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل ثم قرأ «ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» و فيه اخرج سعيد بن منصور عن أبي إدريس الخولاني قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ما ثار قوم فتنة إلّا أوتوا بها جدلا و ما ثار

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 350

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ (57) «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ» لا إله او ابن إله حتى يقاس بآلهتكم أيهما خير فليس العبد إلا ابن عبد «أَنْعَمْنا عَلَيْهِ» بما أنعمنا، كما بيّن في مريم‏ «وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا» آية بنفسه حيث ولد دون أب، و آية برسالته و آياتها، مثلا إلهيا «لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى‏ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» و المسيح من المثل الأعلى في الأرض‏ «مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ» كحجر الأساس في رسالته و دعوته ثم و للعالمين أجمعين، فنحن جعلناه مثلا لنا، ثم جماعة جعلوه لنا مثلا فنسوا المثل و ضلوا في المثل!:

وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60) وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَ اتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) «وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (62).

أنتم البشر تعبدون الملائكة لكونهم ملائكة؟ «وَ لَوْ نَشاءُ» و لن‏ «لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً» أن نبدلكم ملائكة، أو نجعلكم في عصمتهم و طهارتهم كملائكة «فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ» كونهم أناسي من قبل، و يخلف بعضهم بعضا بالتناسل!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قوم في فتنة الا كانوا لها حرزا، و فيه اخرج ابن عدي و الخرائطي في مساوي الأخلاق عن أبي امامة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ان الكذب باب من أبواب النفاق و ان آية النفاق ان يكون الرجل جدلا خصما.

و

يروي ابن جرير الطبري في جامع البيان بسند متصل عن أبي امامة قال: ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) خرج على الناس و هم يتنازعون في القرآن فغضب غضبا شديدا حتى كأنما صب على وجهه الخل ثم قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لا تضربوا كتاب اللَّه بعضه ببعض فانه ما ضل قوم قط الا أوتوا الجدل ثم تلا (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ((ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 351

إذا فأنتم تعبدون أمثالكم، و من بالإمكان تبديلكم بهم.

«وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ» و ما هو المرجع لضمير الغائب في «إنه»؟ هل هو المسيح (عليه السلام) في خارقة ولادته علم للساعة الخارقة عندكم، و كذلك في سائر خوارقه و لا سيما إحياء الموتى؟ أو أنه في نزوله آخر الزمان فإنه من أشراط الساعة «1»؟ و هو كذلك في كل ذلك! أو أن القرآن بما هو خاتمة الوحي في آخر الزمان لعلم للساعة؟ و هو كذلك! أو أن نزول الملائكة إلى الأرض علم للساعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 30- أخرجه الفرياني و سعيد بن منصور و مسدد و عبد بن حميد و ابن أبي حاتم و الطبراني من طرق ابن عباس «قال: خروج عيسى قبل يوم القيامة «و اخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة في الآية قال: خروج عيسى يمكث في الأرض أربعين سنة تكون تلك الأربعون اربع سنين يحج و يعتمر، و اخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد قال: آية للساعة خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة و أخرجه عبد بن حميد و ابن جرير عن الحسن مثله.

و

في مجمع البيان قال ابن جريح اخبرني ابو الزبير انه سمع جابر بن عبد اللَّه يقول سمعت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: ينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم تعال صل بنا فيقول ان بعضكم على بعض أمراء تكرمة من اللَّه لهذه الامة- أورده مسلم في الصحيح و في حديث آخر: كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم و إمامكم منكم؟

و

اخرج مالك و الشيخان و ابو داود عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): و الذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب و يقتل الخنزير و يضع الجزية و يفيض المال حتى لا يقبله احد حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا و ما فيها، أقول: و حديث نزول المسيح (عليه السلام) تواتر عن طريق الفريقين و انه يصلي خلف المهدي (عليه السلام) و في قوله تعالى: «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً» دلالة قوية على هذا النزول.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 352

«لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ: ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ ما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ» (15:) 8)؟

كل ذلك علم للساعة فكل محتمل و الجمع أجمل على درجات لهذه المحتملات‏ «فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَ اتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ»! إنه لعلم للساعة، لا إله الساعة او الدنيا إمّا ذا، و انما مثل للعالمين يوم الدنيا و علم للساعة فلا تمترن بها! «وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ».

صد متأكد للشيطان عليكم ف «لا يصدنكم» و عداء متأكدة له عليكم يبينه لكم‏ «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ».

وَ لَمَّا جاءَ عِيسى‏ بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (64). فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65).

بينات عيسى التي جاء بها هي الآيات المعجزة البينة و آيات الإنجيل و آيات من نفسه المقدسة حيث التربية و العناية الإلهية بيّنة في هذه الثلاث و إن كانت درجات، «قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ» و هذه كلها حكمة و الرسالة كلها حكمة عقلية و علمية و عملية، تحكم ما انفصل و فصل بين الناس، أو بين الإنسان و نفسه من المشككات‏ «وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» فالكل موكول الى خاتمة الرسالات محمد (صلى اللَّه عليه و آله) كما ينطق به القرآن: «وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ» (16: 89) «1» و ينطق به الإنجيل كما في يوحنا 16: 7- 15) و مما فيه «و ان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 611 عن بصائر الدرجات علي بن إسماعيل عن محمد بن عمرو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 353

عندي كثيرا أقوله لكم و لكنكم لا تطيقون حمله الآن (12) و لكن متى جاء روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق.» «1»!

ثم الحكمة هي الناحية الإيجابية من الشرعة الانجيلية «و لأبين:» من الناحية السلبية التي تتكلف بيان جذور من الخلافات و الانشقاقات بينهم‏ «فَاتَّقُوا اللَّهَ»: في سلبياته‏ «وَ أَطِيعُونِ» في حكمه الإيجابية و منها «إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ» سواء و لا أمتاز عنكم بربوبيته، فأنا و أنتم عبيد رب واحد «فاعبدوه» لا سواه‏ «هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ» لا سواه و لكن.

«فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ» أحزاب مذهبية متخلفة عن شرعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الزيات عن عبد اللَّه ابن وليد قال قال لي ابو عبد اللَّه (عليه السلام): اي شي‏ء يقول الشيعة في عيسى و موسى و امير المؤمنين (عليه السلام) قلت: يقولون ان عيسى و موسى أفضل من امير المؤمنين (عليه السلام) قال: أ يزعمون ان امير المؤمنين قد علم ما علم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قلت: نعم- و لكن لا يقدمون على اولى العزم من الرسل أحدا قال ابو عبد اللَّه (عليه السلام) فخاصمهم بكتاب اللَّه قلت: وفي اي موضع منه أخاصمهم؟ قال: قال اللَّه تبارك و تعالى لموسى‏ «وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» علمنا انه لم يكتب لموسى كل شي‏ء و قال اللَّه تبارك و تعالى لعيسى: «وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» و قال تبارك و تعالى لمحمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى‏ هؤُلاءِ وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ».

و

في الاحتجاج للطبرسي عن الصادق (عليه السلام) يستدل بدلا عنها: و قال لصاحبكم امير المؤمنين (عليه السلام) قل كفى باللَّه شهيدا، بيني و بينكم و من عنده علم الكتاب، و «وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ» و علم هذا الكتاب عنده.

(1). اوردنا في كتابنا رسول الإسلام في الكتب السماوية بشارات ثلاث من يوحنا 14:

16 و 15: 16: 7- 15: يبشر فيها المسيح بمجي‏ء بريكليطوس «محمد- احمد» و من ضمنها انه يرشدكم الى جميع الحق- راجع ص 146- 157.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 354

الحق، كان من بين هؤلاء اختلفوا في البينات و الحكم و البيان التي جاء بها المسيح ظلما «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ» بين قائل إنه اللَّه، و قائل إنه ابن اللَّه، و قائل بالثالوث، و قائل بألوهية المسيح و أمه و آخرين في أخريات من العقائد و الطقوس تأتي في طيات آياتها المفصلات‏ «1».

جاء المسيح بصراح التوحيد و التسامح الروحي و الخلقي قبل الشكليات الخاوية التي تخلت عن هذه الروح فحاربه المحترفون الناكرون له و جماعة من المعترفين إياه، تفريطا من هؤلاء و إفراطا من أولاء، فأصبح بين من يلعنونه و من يؤلّهونه على مختلف مذاهبهم الفلسفية و سواها، و بقي القليل ممن و فى لرعاية الحق و هم الموحدون المخلصون حيث اتبعوه و تعرضوا لأنواع العقوبات من قبل الأحزاب!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). شرحناها في كتبنا الثلاثة «عقائدنا- المقارنات- رسول الإسلام في الكتب السماوية»: و من هؤلاء الأحزاب طائفة الصدوقيين التي تولت الكهانة من عهد داود و سليمان و هم حسب احترافهم كانوا متشددين في شكليات العبادات و طقوسها و ينكرون البدع و هم مترخصون في ملاذ الحياة ناكرون للقيامة.

و طائفة الفريسيين و كانوا على شقاق مع الصدوقيين ينكرون ذلك التشدد و جحدهم للقيامة، و السمة الغالبة عليهم هي الزهد و التصوف و في بعضهم اغترار بالعلم و المعرفة و المسيح ينكر عليهم تلك الخيلاء و الشقشقة.

و طائفة السامريين و كانوا خليطا من اليهود و الآشوريين تدين بالكتب الخمسة في العهد القديم المعروفة بالكتب الموسوية و تنفي ما عداها من المضافات إليها.

و طائفة الآسين او الأسينيين و كانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفية يعيشون عزلة عن سائر طوائف اليهود و يأخذون أنفسهم بالشدة و التقشف:

و هناك غير هذه الطوائف نحل فردية شتى و بلبلة في الاعتقادات و التقاليد بين بني إسرائيل الراضخين لضغط الامبراطورية الرومانية الذين ينتظرون الخلاص على يد المخلص المنتظر من الجميع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 355

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) «هل ينظرون»:- نظرا أو نظرة- أمرا «إلا الساعة» فإنهم ناكرون كافة الإنباءات الغيبية و الآيات الإلهية فلم تبق‏ «إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً» مباغتة مفاجئة تحدث غريبا فهم كانوا يرونها بعيدا و نراه قريبا «تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» لا واقع الساعة و لا اعتقاد مجيئها، لا شعورية في بعدين، عامدة إذ لم يشعروها في حياة التكليف حيث لم يعتبروا و يستدلوا بآياتها و لم تنفعهم مؤشراتها، و غير عامدة إذ «لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً» دون خبرة سابقة بزمن وقوعها، او أمارات متصلة بوقوعها، و انما هي مباغتة «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ»! و ان كانت مؤشرة بأشراطها و هم يتغافلونها! الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) «1» ترى و لماذا هنا الأخلاء دون الأصدقاء أو الاودّاء؟ علّه لأن الخلة هي قمة الصداقة و المودة لحد يخل الخليل في خليله كأنهما نفس واحدة، أو تخل المودة بينهما و في كل منهما فإذا أصبحت الأخلاء أعداء فمن دونهم أولى بالعداء! فكل خلة بين الأخلاء نبعت و نبتت على غير تقوى تبوء يومئذ إلى العداء حيث تبنّتها الطغوى، و لماذا إلى العداء دون أن تحبط فلا خلة و لا عداء؟ لأنها حصلت على ضلال، و نبتت و قويت على ضلال، فأصبحت مضللة لكلّ خليله، فلا يتلاحمون عليها يومئذ بل و يتلاومون و يتلاعنون، يلقي كل على خليله تبعة ضلاله، فالخلة التي تجمع بين الأخلاء هنالك تجمح بينهم، فقد كانت ظاهرها فيها الرحمة و باطنها من قبلها العذاب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الأخلاء جمع لخليل من الخلة: ما يغطى به جفن السيف لكونه في خلالها، او الخلة: المودة لأنها تتخلل في جوانح الموادين و بينهم فلا تبقي فراغا للعداء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 356

و هكذا يكون دور كل خلة و اتصالة على غير تقوى حيث تبوء إلى عداء، و اما خلة التقوى فهي تبقى هنالك و تقوى حيث هنالك حياة الربوة و المزيدة: «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها»!

«إذا كان يوم القيامه انقطعت الأرحام و قلت الأنساب و ذهبت الأخوة إلا الأخوة في الله ..» «1»

(ألا كل خلة كانت في الدنيا في غير اللَّه عز و جل فإنها تصير عداوة يوم القيامة) «2»

(و للظالم غدا يكفيه عضه يديه و للرجل و شيك و للأخلاء ندامة إلا المتقين‏ «3»

«اطلب مواخاة الأتقياء، و لو في ظلمات الأرض و إن أفنيت عمرك في طلبهم فإن اللَّه لم يخلق أفضل منهم على وجه الأرض بعد النبيين (عليهم السلام) و ما أنعم اللَّه على عبد بمثل ما أنعم به من التوفيق لصحبتهم، و أظن من طلب في زماننا هذا صديقا بلا عيب بقي بلا صديق) «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 21- اخرج ابن مردويه عن سعد بن معاذ قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) .. و فيه استناده في قوله الى الآية.

(2، 3) نور الثقلين 4: 612 عن تفسير القمي عن الصادق (عليه السلام) و عن امير المؤمنين (عليه السلام).

(4) المصدر ح 83 في مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) و يستند الامام بالآية بعد «لصحبتهم».

و في الدر المنثور 6: 21- اخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و حميد بن رنجويه في ترغيبه و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه في شعب الايمان عن علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» في قوله‏ «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» و من طريق أصحابنا القمي بسند متصل عن الحارث عن علي (عليه السلام) قال .. أقول بين النقلين اختلافات لفظية و المعنى واحد و ما يأتي من طريق القمي لأنه اضبط و أجمل:

قال في الخليلين مؤمنين و خليين كافرين و مؤمن غني و مؤمن فقير و كافر غني و كافر فقير، فاما الخليلان المؤمنان فتخالا في حياتهما في طاعة اللَّه تبارك و تعالى و تباذلا عليها و توادا عليها فمات أحدهما قبل صاحبه فأراه اللَّه في منزله في الجنة يشفع لصاحبه فيقول: يا رب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 357

هنا نعرف ان الخلة المنفية يوم القيامة و الشفاعة ليست عن المتقين‏ «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفاعَةٌ وَ الْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (2: 254).

[سورة الزخرف (43): الآيات 68 الى 89]

يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَ كانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوابٍ وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (71) وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72)

لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (73) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (74) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَ نادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (77)

لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (78) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ بَلى‏ وَ رُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80) قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (81) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82)

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83) وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) وَ تَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85) وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (86) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87)

وَ قِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

خليلي فلان كان يأمرني بطاعتك و يعينني عليها و ينهاني عن معصيتك فثبته على ما ثبتتني عليه من الهدى حتى تريه ما اريتني فيستجيب اللَّه له حتى يلتقيا عند اللَّه عز و جل فيقول كل واحد منهما لصاحبه: جزاك اللَّه من خليل خيرا كنت تأمرني بطاعة اللَّه و تنهاني عن معصيته، و اما الكافران فتخالا بمعصية اللَّه و تباذلا عليها و توادا عليها فمات أحدهما قبل صاحبه فأراه اللَّه تبارك و تعالى منزلته في النار فقال: يا رب خليلي فلان كان يأمرني بمعصيتك و ينهاني عن طاعتك فثبته على ما ثبتني عليه من المعاصي حتى تريه ما اريتني من العذاب فيلتقيان عند اللَّه يوم القيامة يقول كل واحد منهما لصاحبه: جزاك اللَّه من خليل شرا كنت تأمرني بمعصية اللَّه و تنهاني عن طاعة اللَّه ثم قرء الآية ... أقول:

و اخرج مثله في المعنى عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال: و ذكر لنا ان نبي اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كان يقول الأخلاء اربعة مؤمنان و كافران ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 359

يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَ كانُوا مُسْلِمِينَ (69).

إلى هنا كانت التهديدات تتلاحق على غير العباد، و من هنا البشارات المتلاحقة للعباد «يا عباد»! صيغة صيغت في سائر القرآن لعباد اللَّه الصالحين: «فَبَشِّرْ عِبادِ» (31: 17) عباد منحصرون في اللَّه منحسرون عما سوى اللَّه‏ «لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» مما يحصل، «وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» مما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 360

حصل قبل اليوم، فحاضركم لا يخيف و ماضيكم لا يحزن، حيث الإيمان كان قيد الفتك، و الإسلام بعده خروج عن أسر الهوى إلى حرية الهدى.

و ترى ما هو الإسلام في تداومة طول حياة الإيمان‏ «وَ كانُوا مُسْلِمِينَ» و الإيمان حاصل قبله بداية الإسلام، و الإسلام هو دوما قبل الإيمان؟

هنالك إسلام قبل الإيمان و لمّا يدخل الإيمان في القلب، و هو الإسلام الظاهر على اللسان أم و على الأركان، و من ثم إيمان حيث يدخل الإسلام في الجنان، ثم هنالك اطمئنان للإيمان الإسلام في القلب يعيشه المؤمن طول حياة الإيمان، إسلاما لوجهه كل وجهه للَّه‏ «وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى‏» (31: 22).

إذا فالإسلام الثاني هو ثنيّ الإيمان و كماله و هو أحسن الدين‏ «وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ» (4: 125) و على هذا الضوء فالرسول (صلى اللَّه عليه و آله) و هو أوّل العابدين هو أول من أسلم‏ «قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ» (6: 14)!.

و هناك سلبية الخوف الحزن من سمات‏ «الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَ كانُوا مُسْلِمِينَ» فلرب مؤمن لم يسلم فعليه خوف و حزن قدر ما لم يسلم رغم إيمانه‏ «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» لا يخلصون للَّه و يسلمون!.

و يا لهذا الخطاب الحنون من عطف منون أن يخاطبنا ربنا بنفسه دون وسيط كأننا من رسله، و تشريفنا بعبوديته الخاصة و هو أعلى تشريف كما «أَسْرى‏ بِعَبْدِهِ» و من ثم إضافة ضيافته‏ «لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» بداية الورود و لمّا، و لكيلا يطمع غيرهم فيتحسرون، و ليطمح المؤمنون يواصف «عباد» ب «الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَ كانُوا مُسْلِمِينَ» و ثم أمر بالدخول في ضيافته للمؤمنين الأصلاء و أتباعهم:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 361

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) تسرون سرورا يشمل أعطافكم و يبدو عليكم الحبور و السرور «1» ترى هؤلاء العباد الصالحون يدخلون الجنة بما قدموا، فلما ذا أزواجهم؟ فهل هن مؤمنات كما هم مؤمنون؟ «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ» تشملهن، حيث‏ «عِبادِ .. الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَ كانُوا مُسْلِمِينَ» تشمل إناثهم كذكرانهم سواء! و إلّا؟ فكيف تدخل غير المؤمنات مع الأزواج المؤمنين جنتهم! و هنالك الصّلات منقطعات إلّا صلات إيمان، لا خلّات و لا شفاعات و لا أنساب و لا أية صلات إلّا للمتقين! الجواب أن الأزواج هنا الأقران في الإيمان إلّا أنهم أتباع، سواء أ كانوا زوجاتهم أم الأغارب، ذكرانا و إناثا، فهم كلهم من أزواجهم:

القرناء الأتباع كما في الذريات: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ» (52: 21) «2»، كما و في اهل النار: «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى‏ صِراطِ الْجَحِيمِ» (37: 23):

يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوابٍ وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (71).

«يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ. بِأَكْوابٍ وَ أَبارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الحبور هو السرور الذي يظهر اثره و حباره في الوجه و الحبرة الزينة و حسن الهيئة.

و

في نور الثقلين 4: 613 ح 85 في روضة الكافي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) انه قال لابي بصير يا أبا محمد! صرتم عند اهل هذا العالم شرار الناس و أنتم و اللَّه في الجنة تحبرون و في النار تطلبون و في رواية بصائر الدرجات عنه (عليه السلام) اضافة «فلا توجدون».

(2) راجع سورة الطور حول الآية في الفرقان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 362

(76: 19) هم أمّن ذا؟ من ذرياتهم و أزواجهم! «بصحاف»: قصع أو أصغر «من ذهب» و ما ألطفها و أسماها «و أكواب» جمع كوب: كوز لا عروة له، تلك للطعام و هذه للشراب.

ثم و كنعيم شامل في بعدين- 1- «وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ- 2- وَ أَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ»! إن لأسفل أهل الجنة فوق ما نتصوره من نعيم مقيم فضلا عمن فوقهم‏ «1» و ترى‏ «ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ» تعم كل المشتهيات و الملذات؟ «وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ» (21: 102) «وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ» (41: 31)؟!.

أقول: نعم حيث الأنفس هناك طيبة لا تشتهي إلّا الطيبات دون شقاء و لا عناء، فإذا اشتهى ولدا لم يحمّل حمل التوليد و التربية، و لا الوالدة حمل الحمل، فقد يخلق اللَّه له ما يشتهيه من دون حمل و لا ولادة «2» أم بهما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 22- اخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ... ان ادنى اهل الجنة منزلة و اسفلهم درجة لا يدخل بعده احد يفسح له في بصره مسيرة عام في قصور من ذهب و خيام من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر الا معمور يغدى عليه كل يوم و يراح بسبعين الف صحفة في كل صحفة لون ليس في الآخر مثله شهوته في آخرها كشهوته في أولها لو نزل به جميع اهل الأرض لوسع عليهم مما اعطى لا ينقص ذلك مما اوتي شيئا.

(2)

نور الثقلين 4: 613 ح 87 في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن الحجة القائم (عليه السلام) و فيه‏ سئل (عليه السلام) عن اهل الجنة هل يتوالدون إذا دخلوها ام لا؟ فأجاب (عليه السلام) ان الجنة لا حمل فيها للنساء و لا ولادة و لا طمث و لا نفاس و لا شقاء بالطفولية و فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين كما قال اللَّه سبحانه فإذا اشتهى المؤمن ولدا خلقه اللَّه عز و جل بغير حمل و لا ولادة على الصورة التي يريد كما خلق آدم (عليه السلام) عبرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 363

دون حمل و لا عناء، و لا طول زمان‏ «1» تلك الأنفس لا تشتهي ذوات البعل من نساء الجنة، إذ تتهيأ لها ما تشاء و لا تشاء دعارة و لا تحتاجها إمّا ذا من مشتهيات كاذبة أم ظالمة، و إنما طيبات ملذات دونما عناء و لا تنازعات و ايذاءات! إذ «يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ» (47: 37) و ليست الجنة دار المنازعات و المشاجرات‏ «فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ» دونما دناءة في خيانة و اعتداء على الآخرين، و لا ابتغاء شهوة رذيلة، فكلها فضيلة لا تحوي محرمات ذاتية و المحرمات المصلحية لا مجال لها في الجنة حيث النعمة المستطابة المتوفرة هناك لا تسمح لشهوة كاذبة أمّاذا في غير فضيلة! و هنالك أحاديث عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله) يبين فيها مدى المشتهيات و الملذات في الجنة أنها لا تقف لحد إلّا أنها كما تطيبه النفوس الطيبة «2».

وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (73) «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا» (19: 63) «وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (7: 43).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أقول: نفي الولادة هنا يعني الولادة الصعبة و شقاء الطفولة و كما في حديث رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) التالي:

(1).

الدر المنثور 6: 23- اخرج احمد و هناد و الدارمي و عبد بن حميد و الترمذي و حسن و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن حبان و البيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ان الولد من قرة العين و تمام السرور فهل يولد لأهل الجنة؟ فقال: ان المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله و وضعه و سنه في ساعة واحدة كما يشتهي.

(2) راجع الدر المنثور 6: 23- 24:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 364

هنا ميراث للمستضعفين المتقين يوم الدنيا «وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا» (7: 137) «إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (7: 128) و يعني إخراج الأرض من حكم المستكبرين و تحويلها للمستضعفين، فهل هكذا يورثون الجنة و لا شركة فيها و لن، فضلا عن أن المستكبرين كانوا زمنا محتليها حتى تحوّل إلى المستضعفين؟ و ليس الميراث إلّا انتقالا لدولة ام دولة أم ماذا من شخص أو اشخاص إلى آخرين! علّه لأن اللَّه تعالى خلق كلّا من الجنة و النار على سعة العالمين، فأهل الجنة يورثونها بتقواهم، و أهل النار يحرمونها بطغواهم، و كان لهم فيها أمكنة و دور، و كما

يروى عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله): «ما من أحد إلّا و له منزل في الجنة و منزل في النار فالكافر يرث المؤمن منزله في النار و المؤمن يرث الكافر منزله في الجنة و ذلك قوله‏ «وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ ..» «1».

كما و ان ما يتركه الميت هو لكل ولده و يحرم الولد الكافر و يرثه في نصيبه الولد المؤمن، فان آمن الكافر قبل القسمة يؤتاه نصيبه، فمن مات مؤمنا دخل الجنة و أورث ما كان لغير المؤمن، و أما من يموت كافرا فلات حين مناص إذ فات زمن الخلاص و قد كانوا داخليها لو آمنوا! «لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ»: كثيرة لا تفنى بأكلها بل «منها» تلميحا مليحا أنها باقية لا تنفد مهما كثر الأكل و الآكلون! إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (74) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 23- اخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي هريرة ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 365

أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة، و المجرم هو ذو جرم: أن سنته في الحياة هي قطع ثمرة الحياة و بترها، فلا تفيد يوم الأخرى، و لا الدنيا إلا قضاء شهوات، هم: «فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ»: ماكثون طويلا قدر إجرامهم‏ «لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ» ما يستحقونه‏ «وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ»: آيسون هنا ساكتون عن الخروج و تفتّر العذاب، فإنهم من الآبدين: أبد النار، و هل ينقضي منهم عمر؟ أو

«لا ينقضي منهم عمر أبدا» «1»

قضية العدل و الرحمة الإلهية و الجزاء الوفاق لأخلد الخالدين و هم الآبدون أن يفنوا بفناء النار، و عدم الفناء فيما يروى يعني مع بقاء النار حيث الأدلة القاطعة تدلنا على فنار النار بمن في النار! وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) حيث خلّدوا في جهنم بما ظلموا، و أما إذا ظلّوا فيها إلى غير نهاية، و هم بأجرامهم لهم نهاية، فإنه ظلم بجزاء غير وفاق، فنفي الظلم هنا في خلود النار و إبلاسهم في النار دليل لا مرد له على فناء النار ففناء من في النار.

وَ نادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (77): صيحة متناوحة من مكان سحيق، لا طلبا للبراءة فهم عارفون ألّا براءة لهم، و لا تخفيفا فإنهم مبلسون، و إنما يصيحون مستغيثين في طلب الهلاك السريع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 14 ح 89 القمي عن امير المؤمنين (عليه السلام) «و اما اهل النار فخلدهم في النار و أوثق منهم الاقدام و غل منهم الايدي الى الأعناق و البس أجسادهم سرابيل القطران و قطعت لهم منها مقطعات من النار هم في عذاب قد اشتد حره و نار قد اطبق على أهلها ما يفتح عنهم ابدا و لا يدخل عليهم ريح ابدا و لا ينقضي منهم عمر ابدا العذاب ابدا شديد و العقاب ابدا جديد لا الدار زائلة فتفنى و لا آجال القوم تقضى»

أقول: عدم زوال الدار هنا يعني قبل زوال الاعمار، و عدم انقضاء الآجال يعني قبل فناء النار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 366

الذي يريح فلا يحسوا بعد عذابا، أم قضاء الخروج دون مكوث أمّاذا غير المكوث، و لماذا لا يطلبون الرب دون وسيط، إذ «قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ» (23: 108) «كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ» (83:) 15)! و «مالك» ليس إلّا هنا و في‏ «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» و هو هنا مالك النار بما ملّكه اللَّه كما يراه، فلا يملك لأهل النار أو عليهم حكما إلّا من اللَّه، لذلك يتطلبون قضاءهم منه من ربه، و في «ربك» هنا تلميحة بهذه الأصالة في ربوبية النار، و أخرى أنهم يرونهم منقطعين عن الرب و «نادَوْا ... رَبُّكَ» و ثالثة كأنهم يحاكون ما كانوا عليه يوم الدنيا من نكران ربوبيته العامة أم أصلها، فجاء الجواب الحاسم دون تأخير «إِنَّكُمْ ماكِثُونَ» فلا خروج عن النار، فإنهم الذين لا يخرجون عن النار مهما فنوا بفناء النار! «1» و قد يعني المكوث هنا الخلود آبدا و غير آبد، فالإبلاس ايضا إياس عن تفتّر العذاب و عن الخروج قبل أمده أو مطلق الخروج، و ليناسبه قوله تعالى:

لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (78) فالأكثرية الكارهة للحق من أهل النار هم الآبدون دون خروج، و الأقلية غير الكارهة، بل المضلّلة تقصيرا في تحري الحق، دون كراهة للحق فيرفضوه كراهية، و لا محبة له فيتحروا عنه حبا، هذه القلة كافرة و فاسقة تخلّد في النار دون أبد، فإنهم كانوا على هوامش الضلالة، لا اصلاء و لا دعاة إليها إلا جهلا دون كراهية و عناد للحق!:

و هذه قضية عدله سبحانه ألّا يسوي بين أهل النار كما لا يسوي بين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فمن اهل النار من يخرج قبل فناء النار و هم غير المؤبدين من اهل النار، و هنا المعنيون بالمجرمين هم المؤبدون لا كل اهل النار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 367

أهل الجنة، فلكلّ ما أحسن قدره، و على كلّ ما أساء قدره و لا يظلمون فتيلا!: و لا نجد أكثرية كارهة للحق يوم الدنيا: و إن كان‏ «أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ» (21: 24) اللهم الأكثرية خاصة «أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ» (23: 70) فالأكثرية الكارهة للحق هنا هي من بين من‏ «يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ» لا كل الناس و لا كل الكافرين، فطالما الأكثرية من الناس غير شاكرة، فهي جاهلة فاسقة كافرة لا تؤمن و هي مضلّلة عن سبيل اللَّه أم ايّة دناءة و انجراف، و لكنما القليل منها كارهة للحق‏ «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» فهم مضللون و الكثير منهم يجهلون فيضللون‏ «أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ» إعراضهم عن الباطل إذ تصوّر لهم الحق بصورة الباطل! و قد يعني «كم» في «أكثركم» عامة المكلفين، فأكثرهم متخلفون عن فطرة التوحيد، فهم له و لسائر الحق كارهون؟ إلّا أن «كم» هنا يخص المنادين مالكا في الجحيم، و الأكثرية ليسوا للحق كارهين، بل هم الضالون، و قليل منهم مستكبرون و هم للحق كارهون، و كثير مستضعفون ضالون بإضلالهم.

و هل إن «جئناكم» من كلام «مالك»؟ و لم يكن من الرسل، و لا وسيطا في وحي الرسل! أم من اللَّه؟ و هم‏ «عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ‏ (83: 15)! اللهم إلا في خطاب تبكيت! أو أن مالكا ينقله ك «إِنَّكُمْ ماكِثُونَ» عن اللَّه؟ أم ليس «جئناكم» إطلاقا من اللَّه، فإنه مصدر الحق لا الجائي به‏ «1» و «جئناكم» يتطلب مجيئا منه و هو اللَّه و جائيا به‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لا تجد المجي‏ء بالحق في القرآن كله الّا في رسل اللَّه، الذين يجيئون بالحق من عند اللَّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 368

و هم رسل اللَّه، إذا ف «جئناكم» ليست إلا من رسل اللَّه!.

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) «أم» عطف على محذوف لا يهم ذكره و قد يعرف من المعطوف ك أكذبناهم في إنذار العذاب «أم» إذ صدقنا فهم‏ «أَبْرَمُوا أَمْراً» فلا يخافون العذاب بما أبرموا، من كيد يريدونه: «أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ» (53: 42) أو مكر بالرسول في دار الندوة:

«وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ» (8: 30) أم أي إبرام في أي أمر خلاف الحق في الدنيا و الآخرة فإن اللَّه يبرم الحق و يبطل الباطل إن الباطل كان زهوقا! كما أبرموا أمر الخلافة الإسلامية في غير أهلها فابرمها اللَّه في أهلها «1»! أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ بَلى‏ وَ رُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 615 ح 92 في اصول الكافي بسند متصل الى عبد اللَّه بن كثير عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في قول اللَّه تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى‏ أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى» فلان و فلان و فلان ارتدوا عن الايمان في ترك ولاية امير المؤمنين (عليه السلام) قلت: قوله تعالى: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ»؟ قال: نزلت فيهما و اللَّه و في اتباعها و هو قول اللَّه عز و جل‏ «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ، قال:

دعوا بني امية الى ميثاقهم ألا يصيّروا الأمر فينا بعد النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و لا يعطونا من الخمس شيئا و قالوا: ان أعطيناهم إياه لم يحتاجوا الى شي‏ء و لم يبالوا ان لا يكون الأمر فيهم فقالوا: سنطيعكم في بعض الأمر الذي دعوتمونا اليه و هو الخمس أن لا نعطيهم منه شيئا و قوله: «كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ» و الذي نزل اللَّه ما افترض على خلقه من ولاية امير المؤمنين (عليه السلام) و كان معهم ابو عبيدة و كان كاتبهم فانزل اللَّه: «أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ- أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ‏ الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 369

حيث «قال واحد منهم ترون اللَّه يسمع كلامنا فقال واحد إذا جهرتم سمع و إذا أسررتم لم يسمع فنزلت: أم يحسبون؟ «1».

لا فحسب أنا نسمع سرهم و نجواهم، بل‏ «وَ رُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ» من‏ «كِراماً كاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ» و من أنبياء شهود، و من الجوارح و الأرض بفضائها، رسل إلهية تكتب كل حسبها الأقوال و الأعمال كلها و النيات! و «لديهم» يعني رسلنا الكائنين لديهم، يكتبون لديهم سواء أ كانت رسالة تكوينية كرسل الأعضاء و الأجواء، أم تدوينية علما أماذا من تسجيل الأعمال! قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (81) آية يتيمة غرة منقطعة النظير في سائر القرآن كثرت في تفسيرها القيلات و الاحتمالات! ندرسها و سواها في تساؤلات حتى يتبين الحق على ضوء الدلالات القرآنية و السنة و ما تتحملها الآية لفظيا و معنويا أو لا تتحمل و ما هو عوان بين ذلك، و الذي يهمنا هو كشف الرباط بين جملتي الشرطية «إِنْ كانَ‏ .. فَأَنَا ..»؟

يا ترى «إن» نافية تعني لم يكن للرحمن ولد فأنا اوّل العابدين الموحدين له أن ليس ولد معه يعبد؟ و إن النافية لا تدخل على فعل! و عند نفي الولد فلا فرق في توحيد العبودية بين اوّل العابدين و سواه! «2» ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 23- اخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال بينا ثلاثة بين الكعبة و أستارها قرشيان و ثقفي او ثقفيان و قرشي فقال واحد منهم ترون ..

(2) الدر المنثور 6: 24- اخرج ابن جرير عن زيد بن اسلم قال هذا كلام العرب ان كان للرحمن ولد، اي لم يكن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 370

و المناسب لهذا النفي اثبات الأوّلية في العقيدة لا العبادة، و مناسبة أخرى «و» بدل «ف» إذ لا تفريع في «إن» النافية! أم إنها شرطية و العابدين تنفي العبادة بأنها هنا من «عبد» إذا اشتدت أنفته، فإن كان له ولد تولد عن ذاته، فهو والد كسائر من يلد، فمتجزّئ فمحدود كسائر الخلق، فليس إذا إلها يعبد فأنا اوّل المتأنفين لعبادته، و لأنني أعبده مخلصا فليس له ولد؟ و لكن العابدين بمعنى الآنفين، و إن كانت لغة و لكنها شاذة، و ذكرها دون قرينة تصرفها عما يعرف غير فصيح و لا صحيح، و إن كان المعنى في نفسه. من الصحيح! «1» أم إنها شرطية و العابدين هم العابدون، «إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ» كما تقو لون‏ «فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» لهذا الولد، فإني العارف بوالد و ما ولد قبلكم و قبل كل أحد، فإذا لا أعبد رحمانا هكذا و لا ولدا، فليس إذا للرحمن ولد؟ و المناسب لموقف صلب هكذا «لو» الامتناعية لا «إن» المجوّزة كلا النفي و الإثبات! «فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» ترمي إلى اثبات قاطع مطلق أنّه أوّل العابدين! «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 616 ح 95 في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه: قوله: ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين» اي: الجاحدين و التأويل في هذا القول باطنه مضاد لظاهره.

أقول: مضادة الباطن للظاهر في القرآن البيان غير مقبولة حيث لا تضاد فيه لا ظاهرا و لا باطنا، فليس هذا من كلام علي (عليه السلام) و

قد يروى مثله عن ابن عباس، كما في الدر المنثور 6: 23- اخرج الطستي عن ابن عباس‏ ان نافع الأزرق قال له اخبرني عن قوله عز و جل‏ «فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» قال: انا اوّل متبرئ من ان يكون للَّه ولد.

(2) المصدر ح 96 في تفسير علي بن ابراهيم في الآية يعني اوّل القائلين لله عز و جل أن يكون له ولد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 371

أم‏ «إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» للوالد دون ما ولد؟ حيث التسوية بين والد و ما ولد ظالمة متهتكة؟ و هو يناسب «لو» و لا تناسبه أولية العبادة و لا أصلها حيث الرحمان الوالد لا يعبد! أو «إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ» دون ولادة ذاتية، و إنما تكريما لشرف العبودية القمة كما المسيح و عزير و الملائكة- زعم المتبنّين للَّه- كانوا أعبد من عبد الرحمان فاتخذهم ولدا «فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» في رتبة العبودية «1» و كما أنني أوّل في درجات العصمة و الولاية و الرسالة بين العالمين، إذا فأنا أوّل من يتخذ ولدا لهذه الكرامة العليا؟ و لم يوح اليّ و لا لمحة من هذه الولادة، و لم أدّع و لن لمحة منها، فلا ولادة هكذا لمن دوني في كرامة العبودية و كما:

«وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ. لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ. وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» (21: 29).

و في هذا الوجه الوجيه ليست الجملة شرطية كاملة، جزاءها «فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» بل هي وصلية، فإنما «أَوَّلُ الْعابِدِينَ» يهدم صرح هذه الولادة التكريمية لمن ادعيت له، و «إن» الوصلية هنا دون «لو» الشرطية مسايرة في الحوار التي تأتي لهم بكل بوار و خسار! و هذا هو المعنى الأصل، ثم الولادة الذاتية عن الرحمن، كذلك هي منفية حيث‏ «فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» للرحمان العارفين وحيه، و لا أعرف له وحيا يسانده، فإنما يعانده، فليس إذا للرحمن ولد.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فهذه الاولية ليست زمنية و لا عددية و انما عددية رتبية حتى تصلح هدما لصرح‏ «إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 372

هذا و ما يليه من صحيح المعاني التي لا تعنى كل بمفردها، قد تعنيها الآية كلها، دون ما لا يصح و اللَّه أعلم‏ «1».

سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) سبحانه أن يلد او ان يتخذ ولدا و هو رب السماوات و الأرض و رب العرش دونما شريك، سبحانه عما يصفون و تعالى عما يشركون.

هناك ربوبيتان للرب الواحد، ربوبيّة الخلق: «رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» و هو تعبير عن الخلق كله، و ربوبية التدبير: «رَبِّ الْعَرْشِ»:

«إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ» (10: 3)

«و هو وصف عرش الوحدانية عما يصفون» «2».

إذا فما لمن دونه من خلقه الذين هم في تدبيره مهما سمي ولدا أمّاذا رجما بالغيب و كذبا! فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ف «إن» بين احتمالات ثلاث: نافية- شرطية- وصلية و «كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ» بين احتمالين: ولادة ذاتية و تشريفية، و «فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» بين ايجابية العبادة و سلبيتها، و كل هذه الوجوه علّها معنية على مختلف مراتبها و الأصل فيها ما رجحناه و على هامشه سائرها إلا غير الصحيح معنويا أو أديبا، اللهم إلّا ضمن الصحيح فيها، ف «إن» النافية و ان كانت لا تأتي قبل الفعل و لكنها ضمن شرطيتها و وصليتها تأتي قبل الفعل- تأمل:

(2)

نور الثقلين 4: 617 ح 97 في كتاب التوحيد باسناده الى حنان بن سدير عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في حديث طويل ذكر فيه العرش و قال: ان للعرش صفات كثيرة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 373

و لما تصل الحجاج إلى ذلك الحد من اللجاج «فذرهم» و اتركهم «يخوضوا» أغوارا مظلمة من تلكم الهرطقات «و يلعبوا» في خوضهم وكل حياتهم كأطفال‏ «حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ» يوم الموت و يوم القيامة و هما يوم واحد لوحدة النشأة مهما كانا يومين لاختلافهما في الحدّة «الَّذِي يُوعَدُونَ»: «وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ..» (6: 68) «قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ» (6:) 91).

وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) هذه الآية تنفي مزعمة الإلهين أحدهما إله السماء و ثانيهما إله الأرض، و تنفي أيضا كونهما مكانا لإله واحد إذ ليس له مكان، فألوهيته- لا ذاته- تضم الأرض و السماء على سواء «1» لا أنه في إحداهما و يحكم فيها و في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

مختلفة له في كل سبب وضع في القرآن صفته على حده يقول فيه، فمن اختلاف صفات العرش انه قال تبارك و تعالى: «رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» و هو وصف عرش الوحدانية عما يصفون، و قوم و صفوه بيدين فقالوا: يد اللَّه مغلولة، و قوم و صفوه بالرجلين فقالوا: وضع رجله على صخرة بيت المقدس و ارتقى الى السماء، و قوم و صفوه بالأنامل فقالوا: ان محمدا (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: اني وجدت برد أنامله على قلبي، فلمثل هذه الصفات قال: «رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» يقول: رب المثل الأعلى عما به مثّلوه و للَّه المثل الأعلى الذي لا يشبهه شي‏ء و لا يوصف و لا يتوهم فذلك المثل الأعلى.

(1).

نور الثقلين 4: 617 ح 98 في اصول الكافي علي بن ابراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن الحكم قال قال ابو شاكر الديصاني: ان في القرآن آية هي قولنا، قلت: و ما هي؟ فقال‏ «وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ» لم أدر بما أجيبه فحججت فخبرت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) فقال: هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت اليه فقل: ما اسمك بالكوفة، فانه يقول: فلان- فقل له: ما اسمك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 374

الأخرى، أم هو فيهما جميعا، و إنما «فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ» فيهما «العليم» بهما سواء، يحكم فيهما هو لا سواه، و يعلم ما فيهما وحده لا سواه، فلا أنّ المسيح أو سواه إله الأرض ولادة أم وراثة و اللَّه إله السماء كما يهرف المسيحيون في صلاتهم «ليأت ملكوتك في الأرض كما هو في السماء» و ترى من يلتمسونه أن يأتي بملكوت اللَّه إلى الأرض كما هو في السماء؟ و لا أن الملائكة آلهة السماوات و هو إله الأرض، فما من ألوهة في الخلق و التدبير و العبادة إلّا للَّه.

فهذه الآية تجرف ما يهرفه و يخرفه المقتسمون للألوهية إلى أقسام الكون، أم يمكّنون و يسكنون إله السماوات و الأرض في السماوات أو الأرض، و إنّما تمكينا لألوهيته في الكون كله دون تمكّن لذاته في الكون كله، فإنما حكمته النافذة و علمه الشامل يديران الكون و يدبّرانه، فالمدبر هو الخالق و الخالق هو المدبر، دون فرق بين كائن و كائن، و دون تمكن في أي كائن! وَ تَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85) «تبارك»: تعاظم و تسامى‏ «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما» حيث يملكهما، و ما بينهما ثم لا ملك و لا ملك سواهما «و عنده» لا سواه‏ «عِلْمُ السَّاعَةِ» و هي المنزل الأقصى للسالكين «و إليه» لا سواه «ترجعون» و من إليه الرجوع فإليه التدبير، و من إليه التدبير فله الربوبية،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بالبصرة؟ فانه يقول: فلان، فقل كذلك اللَّه ربنا في السماء إله و في الأرض إله و في البحار إله و في القفار إله و في كل مكان إله، قال: فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته فقال: هذه نقلت من الحجاز!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 375

فهو متبارك عما يصفون بهذا المثلث المجيد من شئون الألوهية! وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (86) ملائكة أو أنبياء أو الجن أم أيا كانوا ممن دونه، فهم لا يملكون الشفاعة التي ليست إلّا باذنه و تمليكه‏ «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ»: بحق اللَّه في توحيده، و بحق العبودية لنفسه، و بحق الشفاعة لنفسه، و بحق للمشفع له و هو من ارتضى اللَّه دينه‏ «وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏» (41: 28) «وَ هُمْ يَعْلَمُونَ»: شروط الشفاعة في ميزان اللَّه، و يعلمون حقيقة حال المشفّع لهم أنهم أهل لأن يشفع لهم، إذا فقوله في الشفاعة مأذون و صواب: «لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً» (78: 38)! و أما الذين عبدوا إذ عبّدوا لأنفسهم و دعوا فلا يشفعون و لا يشفّع لهم كأمثال فرعون الطاغية، ثم الذين عبدوا و لم يعبّدوا من الصلحاء، فمنهم من يملك الشفاعة إذ «شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» و منهم من لا يملكها و يملك أن يشفع له لأنه من «من ارتضى» ثم من الأشقياء الذين عبدوا دون أن يدعوا او يرضوا من لا يصلح أن يشفع له، و من ثم غير العقلاء من الأصنام و الأوثان فسوالب بانتفاء الموضوع، حيث الشفاعة في بعديها تتطلب علما و شعورا! «لا يَمْلِكُ‏ .. الشَّفاعَةَ» قد تعم الشافعين و المشفّع لهم، و إن كان الأولين أولى، و مهما اختلفت شروطهما حيث يشتركون في الإيمان، «مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» بينهما درجات.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87) و الخالق هو الذي يملك خلقه و تدبيرهم، و يملك عبوديته و شفاعتهم، فأنّى يصرفون إفكا و كذبا و هم بوحدانيته في خلقه معترفون!.

وَ قِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 376

سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89).

لقد قيل في «قيله» قيلات عليلات لا تناسب القرآن البيان، و «قيل» هو «قول» صيغة ثانية مصدرية، و الضمير الغائب راجع إلى حاضر الوحي: الرسول (صلى اللَّه عليه و آله) فبعد الاستفتاء العام من العالمين‏ «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ..» و الجواب العام بين المشركين و الموحدين:

«لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» فلينظر العالمون إلى «قيله» عن المشركين‏ «رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ» و الواو تعطف إلى غير مذكور من ساير قبيله من هذا القيل.

و هنا الجواب من رب العزة في ثلاثة بنود: «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ» إعراضا بصفحك عمن لا يحنّ إلى حق، و لكن بالصفح الجميل: «وَ قُلْ سَلامٌ» لست لكم إلّا سلاما، و لا أدعوكم إلّا إلى سلام، و إذ تعرضون عن سلامكم فسلام‏ «وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً» دون خفاء و لا جفاء تزيد في جهلهم و كفرهم، و ما أنت و تعذيبهم بصفح غير جميل‏ «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» حين موتهم و القيامة الكبرى، يعلمون حقا بعد علم متجاهل قاحل إذ «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 377

سورة الدّخان مكيّة و آياتها تسع و خمسون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 379

[سورة الدخان (44): الآيات 1 الى 16]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

حم (1) وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4)

أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9)

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى‏ وَ قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14)

إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى‏ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 380

حم‏ 1.

.. الدخان هي خامسة الحواميم السبع‏ «1»، بازغة بذكر الكتاب المبين المنزل في ليلة مباركة، و «حم» هذه قد تعني فيما تعني الرسول محمدا (صلى اللَّه عليه و آله) حيث يقسم بالكتاب المبين انه أنزله في ليلة مباركة و لا منزل له إلا قلبه المنير، كما و «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» لمحة لامعة أنه المخاطب في «حم» و لا يناسب النزول المحكم للكتاب المبين إلا الرسول الأمين، و الست الأخرى من السبع الحواميم يعقبها تنزيل الكتاب و هنا- فقط- إنزاله.

و لأن‏

«الحواميم تاج القرآن» «2»

و محمد (صلى اللَّه عليه و آله) تاج النبيين‏ «3» فلتكن خاصة به (صلى اللَّه عليه و آله) في خطابها كما هي و أضرابها تخصه في معانيها، و كما

في الكاظمي (عليه السلام) «أما حم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة الأحقاف ج 26 من الفرقان ص 7- 8 و سورة الشورى ج 25.

(2) المجمع عن انس بن مالك عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ...

(3) في: نبوئت هيّلد: وحى الطفل: لحمان حطوفاه الموجود باللغة الأنقلوسية و هي عبرانية رمزية، يصفه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ب «محمد كايا بايا إعاد يطمع هويا و يهى كليليا» يعمر بيت اللَّه بملك عظيم اسمه «محمد هو كبير قدير، الشجرة الطيبة الرفيعة، مأمول لإفناء ما كان و إطفاء النائرة و هو الكل و التاج و حمل على الأكتاف.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 381

فهو محمد» (صلى اللَّه عليه و آله) «1»

و قد تعني «ح» أحمد و «م» محمد، و إذا لم تكن «حم» خطابا لصاحب الكتاب المبين، لم يكن لها موقع أدبي كمبتدء أم ماذا، «وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ» القسم لا يصلح خبرا و لا فعلا و لا أيا كان بالنسبة ل «حم» إلّا أن تعني جملة مستقلة عن، «وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ» اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا! وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ 2 إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ‏ 3 إن للقرآن مراحل ثلاث أعلاها أم الكتاب، و أوسطها محكم الكتاب و أدناها تفصيل الكتاب: «وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» و قد أنزل من أم الكتاب حكيما في ليلة مباركة هي ليلة القدر «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ». «. فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» ثم نزل طول البعثة قرآنا عربيا: «وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا» و مهما تشترك الحواميم السبع في نزول القرآن تلوها، فالدخان تختص من بينها بنزول الإنزال- المحكم- في ليلة مباركة، و الست الأخرى بنزول التنزيل طول البعثة:

و ترى أن هذه الليلة المباركة هي غير ليلة القدر، كالنصف من شعبان؟ و محكم القرآن لم ينزل إلّا مرة في ليلة واحدة هي ليلة القدر- ليلة مباركة! أم إن ليلة القدر هي النصف من شعبان كما يقولها رعيل من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 623 ج 14 عن اصول الكافي، باسناده الى يعقوب بن جعفر بن ابراهيم قال: كنت عند أبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) إذ أتاه رجل نصراني فقال: إني اسألك أصلحك اللَّه فقال سل، فقال: اخبرني عن كتاب اللَّه الذي انزل على محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و نطق به ثم وصفه بما وصفه فقال: «حم ... ما تفسيرها في الباطن فقال: اما حم فهو محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 382

أهل السنة؟ و محكم القرآن نازل في رمضان: «شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» فلتكن ليلة القدر و ليلة مباركة هما ليلة من رمضان دون شعبان أو ايّا كان! فليلة مباركة هنا هي ليلة القدر هناك من رمضان، كما المواصفات المذكورة هنا و هناك توحّدها في قدر رمضان.

1- ليلة القدر هناك واحدة و ليلة مباركة هنا واحدة، و لم ينزل محكم القرآن إلّا مرة واحدة، إذا فهما هذه الواحدة، هي من رمضان حيث هو منزل محكم القرآن! 2- ليلة القدر هي الوحيدة بين ليالي السنة قدرا، و ليلة مباركة هي الوحيدة بينها بركة، و القدر القمة و البركة القمة هما واحدة و إلّا فلا قمة في كل منهما على حدة، فهما- إذا- واحدة من رمضان! 3- هناك في وصفها «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ» و هنا «فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» و «كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ» و «كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» هما واحد، فهما واحدة من رمضان!:

4- هناك‏ «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» و هنا «أَمْراً مِنْ عِنْدِنا» و هما واحد، فهما واحدة من رمضان!:

5- هناك «سلام هي» و هنا «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» و هما واحد، فهما واحدة من رمضان! و من ثم الروايات المتواترة عن الفريقين أن ليلة القدر هي من رمضان، فلتكن هي ليلة مباركة من رمضان، مهما وردت روايات أخرى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 383

بشأن النصف من شعبان‏ «1» و علّها تبجيلات بشأنها لأنها مولد المهدي من آل محمد (عليهم السلام): فإنها مولد النور الذي يشع الكون بأسره، و يخلص العالم عن أسره في عسره (صلوات اللَّه عليه)!.

لا دليل للقائلين بان ليلة مباركة هي النصف من شعبان من كتاب او سنة «2» و هو منهما برهان قاطع لا مرد له أنها هي ليلة القدر من رمضان.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الدر المنثور 6: 26- 27 يروي أحاديث نزول اللَّه الى السماء الدنيا في ليلة النصف من شعبان و لا ريب انها مختلقة، و روايات أخرى خالية عن النزول مادحة لهذه الليلة و لا ريب فيها و لا تثبت أنها ليلة القدر، و منها ما

أخرجه البيهقي عن عائشة عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في حديث قال: (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يا عائشة أو يا حميراء .. هذه ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين و يرحم المسترحمين و يؤخر اهل الحقد كما هم» من ثلاث بين روايات عدة تذكر فضيلة ليلة النصف من شعبان أكثرها عن عائشة و فيها خرافة نزول اللَّه الى السماء الدنيا!.

(2) كما يعترف الرازي في تفسيره 27: 238 في قوله: و اما القائلون بان المراد من الليلة المباركة المذكورة في هذه الآية هي ليلة النصف من شعبان فما رأيت لهم فيه دليلا يعول عليه و انما قنعوا بان نقلوه عن بعض الناس، فان صح عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فيه كلام فلا مزيد عليه و إلا فالحق هو الاول- يعني انها ليلة القدر و هي من رمضان، أقول: و لن يصح عن رسول اللَّه ما يكذبه القرآن و السنة المتواترة! و قد اخرج عبد بن حميد عن أبي الجلد قال: نزلت صحف ابراهيم في أول ليلة من رمضان و انزل الإنجيل لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان و انزل الفرقان لأربع و عشرين- و كما تظافرت في رواياتنا اضافة الى نزول التوراة لثلاث عشرة و الزبور لثمان عشرة، و ان القرآن نزل في التاسع عشر او الواحد و العشرين او الثالث و العشرين ..

و اخرج عبد بن حميد و محمد بن نصر و ابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال: كنت عند الحسن فقال له رجل يا أبا سعيد ليلة القدر في كل رمضان هي؟ قال: اي و اللَّه انها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 384

و إنها ليلة مباركة بنازلها القرآن و منزلها قلب نبي القرآن، كما أنه كتاب ذو قدر و هو (صلى اللَّه عليه و سلم) نبي ذو قدر، فلا قدر و لا بركة لزمان أو مكان إلّا بما ينزل فيهما أو يصدر منهما من بركة و قدر.

و ليلة مباركة مستمرة في بركتها و قدرها مرّ الأعوام إلى يوم القيام، حيث تتكرر بكل قدر اللّهم إلّا نزول القرآن حيث كان لأول ليلة قدر من أولى سنيّ الرسالة المحمدية (صلى اللَّه عليه و آله) و من ثم‏ «فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» فرقا و تنزّلا مستقبلا منذ نزول القرآن المحكم حتى القيامة الكبرى.

و ما دام النزولان- للقرآن المحكم و لكل أمر- كانا في اختصاص الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) للمرحلة الأولى من ليلة القدر، فتنزّل الملائكة و الروح فيها من كل أمر يعمه و المحمديين المعصومين من عترته، حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

لفي كل رمضان و انها لليلة يفرق فيها كل امر حكيم فيها يقضي اللَّه كل اجل و عمل و رزق الى مثلها، و في نور الثقلين 4: 624 ج 16 عن الكافي باسناده عن إسحاق بن عمار قال: سمعته يقول و ناس يسألونه يقولون: الأرزاق تقسم ليلة النصف من شعبان؟ قال: فقال: لا و اللَّه ما ذلك الا في ليلة تسع عشرة من شهر رمضان و إحدى و عشرين و ثلاث و عشرين، فان في تسعة و عشرين يلتقي الجمعان و في ليلة احدى و عشرين يفرق كل امر حكيم و في ليلة ثلاث و عشرين يمضي ما أراد اللَّه تعالى من ذلك و هي ليلة القدر التي قال اللَّه تعالى‏ «خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» قال: قلت: ما معنى قوله:

يلتقي الجمعان؟ قال: يجمع اللَّه فيها ما أراد من تقديمه و تأخيره و ارادته و قضائه، قال قلت:

فما معنى يمضيه في ثلاث و عشرين؟ قال: انه يفرق في ليلة احدى و عشرين ما أمضاه و يكون له فيه البداء فإذا كانت ليلة ثلاث و عشرين أمضاه فيكون من المحتوم الذي لا يبدو له فيه تبارك و تعالى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 385

يفرق فيها كل أمر حكيم بنازل الملائكة و الروح في منزل قلب الإمام في كل عصر، فكان هو الرسول في اثنين و عشرين سنة، حيث الأولى جمع إليه إنزال القرآن، ثم من بعده المعصومون من عترته.

«... إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» طول كتابات الوحي و الرسالات الإلهية، طالما الإنذار بالقرآن هو أمّ الإنذار، كما و أن رسالته هي أمّ الرسالات.

و علّ‏ «كُنَّا مُنْذِرِينَ» تعني فيما تعني سابق الإنذارات الإلهية في كتابات الوحي بنزول القرآن، بطيّات البشارات، و قد أوردناها في «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

و إنها حقا ليلة مباركة منقطعة النظير عن كل نذير و لهذا البشير النذير، إذ فتح فيها ذلك الفتح المبين للعالمين، بادئا فيها استقرار خاتمة المناهج الإلهية على المكلفين من الجنة و الناس أجمعين، يعيشون الكتاب المبين و يحيون به في كل حين.

ثم لا تقف هذه الليلة لمرة واحدة ذات قدر و مباركة، ثم القدر في كل سنة ليس ذكرى لما مضى، بل و تتكرر في كل سنة:

«فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» و قد فرق القرآن المحكم في أولاها عن أم الكتاب‏ «لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» فرقا من تلك الحكمة العليا، ثم فرق فرقا آخر هو تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين-: «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (11: 1) فرق التفصيل الأخير طول البعثة.

و من ثم يستمر فرق كل أمر حكيم سوى أم الكتاب على مرّ الزمن منذ القدر الاوّل، و الفرق هو التبيين لكل أمر غير مبين في هذه الليلة، حتى يصبح كفرق الصبح في بيانه، او مفرق الطريق في اتضاحه، و منه فرق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 386

الشعر إذا خلصت بعضه من بعض، و بيّنت مخطّ وسطه بالمدرى او الإصبع.

هكذا يفرق فيها كل أمر حكيم، للرسول محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فرق للقرآن المحكم عن أم الكتاب، و فرق لكل محكم يحتاجه الرسول في ولايته الرسالية، و للائمة من آل الرسول فرق واحد هو الثاني.

فيها يتضح لولي الأمر كلما أحكم له و أجمل قبلها، كما فرق القرآن و لم يكن الرسول يعلمه قبل إنزاله من أم الكتاب.

ترى لمن يفرق فيها كل أمر حكيم بما تنزل الملائكة و الروح فيها من كل أمر، إلّا لولي الأمر؟ و هل ترى أنه كل من تولى أمر الامة أيا كان؟

و منزل الملائكة و الروح ليس إلّا قلب محمد او قلب محمدي! و كما في حوار لباقر العلوم (عليه السلام) «1» و «كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» هنا هو «مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 621 ج 10 في اصول الكافي باسناده الى أبي جعفر الباقر (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام) فان قالوا: من الراسخون في العلم؟

فقل: من لا يختلف في علمه، فان قالوا: فمن هو ذاك؟ فقل: كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) صاحب ذلك فهل بلغ أولا؟ فان قالوا: قد بلغ فقل: فهل مات (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الخليفة من بعده يعلم علما ليس فيه اختلاف؟ فان قالوا: لا- فقل ان خليفة رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مؤيد و لا يستخلف رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الا من يحكم بحكمه و الا من يكون مثله الا النبوة، و ان كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لم يستخلف في علمه أحدا فقد ضيع في أصلاب الرجال ممن يكون بعده، فان قالوا: فان علم رسول اللَّه كان من القرآن، فقل: «حم وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ- الى قوله- إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» فان قالوا لك: لا يرسل اللَّه عز و جل الّا الى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 387

القدر، فبعض الأمر مفروق عند ولي الأمر و هو الأصل الرسالي الذي تحتاجه الأمة و يحتاجه ولي الأمر في أمره، و بعض غير مفروق و هو حكيم يحتاجه ولي الأمر في الأمة في كل سنة، و بعضه حكيم عند اللَّه لن يفرق لأحد، و لا يعني كل أمر إلّا الأوسط من حكيم الأمر، كما عبر عنه في القدر بالبعض: «مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» تنزل الملائكة و الروح به لفرقه بأذن ربهم‏

«انه لينزل في ليلة القدر إلى ولي الأمر تفسير الأمور سنة سنة يؤمر فيها في أمر نفسه بكذا أو كذا و في أمر الناس بكذا و كذا و إنه ليحدث لولي الأمر سوى ذلك كل يوم علم الله الخاص و المكنون العجيب المخزون مثل ما ينزل في تلك الليلة من الأمر» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

نبي فقل: أ هذا الأمر الحكيم الذي يفرق فيه هو من الملائكة و الروح التي تنزل من سماء الى سماء او من سماء الى ارض؟ فان قالوا: من سماء الى سماء فليس في السماء أحد يرجع من طاعة الى معصية، فان قالوا: من سماء الى ارض و اهل الأرض أحوج الى ذلك فقل: فهل لهم بد من سيد يتحاكمون اليه؟ فان قالوا: فان الخليفة هو حكمهم، فقل: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ...» و لعمري ما في الأرض و لا في السماء ولي للَّه عز ذكره الا و هو مؤيد و من أيد لم يخطأ و ما في الأرض عدو للَّه عز ذكره الا و هو مخذول و من خذل لم يصب كما أن الأمر لا بد من تنزيله من السماء يحكم به أهل الأرض، كذلك لا بد من وال- فان قالوا: لا نعرف هذا- فقل لهم قالوا: ما أجبتم أبي اللَّه عز و جل بعد محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ان يترك العباد و لا حجة عليهم.

(1).

عن الباقر (عليه السلام) قال‏ قال اللَّه عز و جل في ليلة القدر «فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» قال: ينزل فيها كل امر حكيم و المحكم ليس بشيئين انما هو شي‏ء واحد فمن حكم بما ليس فيه اختلاف فحكمه من حكم اللَّه و من حكم بأمر فيه اختلاف فرأى انه مصيب فقد حكم بحكم الطاغوت، انه لينزل ... ثم قرأ «وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ..» (نور الثقلين 4: 422 ح 11 عن اصول الكافي).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 388

و «أمر» هنا كما في القدر يعم أمر الفعل و أمر الحكم مقابل النهي، و أمر الشي‏ء «وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» (15: 21) ينزل مثلث الأمر الحكيم فيفرقه لولي الأمر عن حكمته إلى تفصيله، فلكل سنة من سنّي الأمة أمور و أوامر حكيمة ليست من صلب الشرع و أصله، يفرقها اللَّه تعالى لولي الأمر، نبيا في زمنه، و إماما في زمنه، مما يدل على تقاسم الأمر لدى ولي الأمر، من دائب هو لزام ولايته و إمرته على المسلمين رسالة و إمامة، و من غيره و هو لزامه المتجدد في كل عام،

«و لو كان للنبي (صلى الله عليه و آله و سلم) دون غيره لكان الخطاب يدل على فعل ماض غير دائم و لا مستقبل، و لقال: نزلت الملائكة و فرق كل أمر حكيم، و لم يقل: تنزل الملائكة و يفرق كل امر حكيم» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين ع: 626 ج 24 في كتاب الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) في حديث طويل‏ بعد ذكر الحجج قال السائل: من هؤلاء الحجج؟ قال: هم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و من حلّ محله من أصفياء اللَّه الذين قرنهم اللَّه بنفسه و رسوله و فرض على العباد من طاعتهم مثل الذي فرض عليهم ميثاقا لنفسه و هم ولاة الأمر الذين قال اللَّه فيهم: [أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ‏] و قال فيهم: «و لو ردوه إلى الرسول و إلى اولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم، قال السائل: ما ذاك الأمر؟ قال (عليه السلام) الذي تنزل به الملائكة في الليلة التي يفرق كل امر حكيم من رزق و اجل و عمل و حياة و موت و علم غيب السماوات و الأرض و المعجزات التي لا تنبغي الا للَّه و أصفيائه و السفرة بينه و بين خلقه و هم وجه اللَّه الذي قال‏ «فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» هم بقية اللَّه يعني المهدي (عجل اللَّه فرجه) الذي يأتي عند انقضاء هذه لنظرة فيملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملأت ظلما و جورا و من آياته الغيبة و الاكتتام عند عموم الطغيان و حلول الانتقام، و لو كان هذا الأمر الذي عرفتك بيانه للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) دون غيره لكان الخطاب يدل ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 389

و لقد أمرنا ان نحاجج ناكري ولاية الأمر الدائبة بسورة القدر و الدخان «فإنها لولاة الأمر خاصة» «1».

و علّ «حكيم» هنا تعني الحكمتين 1-: صاحب الحكمة و المصلحة- 2- و غير المفروق، ففرقه هو عن حكمته الثانية ليتضح الأمر لولي الأمر.

إن كل أمر حكيم أمر و فرقه امر، و هما ليسا من عند ولي الأمر و لا الملائكة و الروح و لا أي من الخلق، و إنما «أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ»: أمر الأذن في تنزّلهم على ولي الأمر، و أمر الفرق لكلّ أمر حكيم، أمر التشريع لفرق شرعة حكيمة، و أمر التكوين لشرعة تكوينية حكيمة، أم اي أمر يحتاجه في الأمر في إمرته على الأمة، فكما أن شرعة التكوين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 622 ح 12- في اصول الكافي باسناده الى أبي جعفر (عليه السلام) قال: يا معشر الشيعة خاصموا بسورة «إِنَّا أَنْزَلْناهُ» تفلحوا فواللَّه انها لحجة اللَّه تبارك و تعالى على الخلق بعد رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و انها لسيدة دينكم و انها لغاية علمنا، يا معشر الشيعة خاصموا بحم و الكتاب المبين. انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين» فانها لولاة الأمر خاصة بعد رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يا معشر الشيعة يقول اللَّه تبارك و تعالى‏ «وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ» قيل:

يا أبا جعفر، نذيرها محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: صدقت- فهل كان نذير و هو حي من البعثة في أقطار الأرض؟ فقال السائل: لا- قال ابو جعفر (عليه السلام) أ رأيت بعيثه أ ليس نذيره كما ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في بعثته من اللَّه عز و جل نذير؟

فقال: بلى- قال: فكذلك لم يمت محمد الا و له بعيث نذير، قال: فان قلت: لا- فقد ضيع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من في أصلاب الرجال من أمته، قال: و ما يكفيهم القرآن؟ قال: بلى ان وجدوا له مفسرا، قال: و ما فسره رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)؟ قال: بلي قد فسره لرجل واحد و فسّر للامة شأن ذلك الرجل و هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 390

و التشريع التي تتبنى ولاية الأمر رسالة و إمامة ليست إلّا من عند اللَّه، كذلك الأمر فيهما سنويا ليس إلّا من عند اللَّه، ولاية دائبة، و على هامشها ولاية سنوية!.

و علّ‏ «إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» تدل على دوامة ليلة القدر منذ بزوغ الرسالات الإلهية حتى آخر زمن التكليف، حيث تضرب إلى اعماق الماضي الرسالي، رسالة ذات بعدين: نزول كتاب الشرعة، و من ثم فرق كل أمر حكيم في كل سنة، «إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» رسل الوحي، و رسل القدر لفرق الأمر! و قد تعني‏ «إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» الرسالة الأولى و هي الدائبة الأصيلة، ثم‏ «إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» الرسالة الثانية السنوية، فالأولى خاصة بالرسل و الثانية تعم أولي الأمر، طالما الرسل يجمعونهما.

ف «إنا كنا» هنا و هناك تضم دوامة أمر الولاية إلى أمر الرسالة منذ بزغت الرسالة، فلتكن ليلة القدر دائبة عبر الرسالات و الولايات منذ البداية حتى النهاية القيامة.

أو أن الأولى تخص الرسالة و الثانية تعمها و الولاية، و لكنما الرسالة في الولاية ليست في أصل الشرعة و بوحي، و إنما في فرق كلّ أمر حكيم بإلهام على هامش الرسالة.

و مهما يكن من أمر فليلة القدر المحمدية تختلف عن القدر لسائر الرسل و ولاة أمرهم، في قدر الأمر المفروق لهم، و الكتاب النازل عليهم، و الملائكة المتنزلة إليهم: فإن‏ «كُنَّا مُنْذِرِينَ‏ و كُنَّا مُرْسِلِينَ» إنما تثبت أصل القدر، لا قدر القدر و كيفيته، إذا فالملائكة و الروح خاصة بهذه الرسالة السامية، كما أن مادة الوحي و كيفيته هنا تختلف اختلافا شاسعا عما هناك رغم الاشتراك في أصل الوحي.

و كما الرسالة المحمدية و ولايتها هي المركز الرئيسي لسائر الرسالات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 391

و الولايات، كذلك قدرها و الملائكة و الروح فيها و أمرها بفرقها، و لذلك ترى خماسية الرحمة تربط بالنازلة على محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم):

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) 1- إنا أنزلنا .. 2- إنا كنا منذرين- 3- فيها يفرق كل أمر حكيم- 4- أمرا من عندنا- 5- إنا كنا مرسلين!: «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ...».

فكما أن 1- نزول القرآن- 2- و فرق كل أمر حكيم في قدرك 3- من عند اللَّه، هي‏ «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» كذلك الإنذار في الرسالات مع رسالتك، و رسالات القدر فيها مع قدرك، هما ايضا «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ»! فهما إذا نابعتان من كوثرك جاريتان طول التاريخ الرسالي في سواقي الرسالات و ولايات الأمر حيث «فعلهم فعله و أمرهم أمره» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 4: 159 ح 2- الكافي عن علي بن ابراهيم عن عمر بن أذينة عن الفضيل و زرارة و محمد بن مسلم عن حمران‏ انه سأل أبا جعفر (عليه السلام) عن قول اللَّه عز و جل‏ «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ» قال: نعم ليلة القدر و هي في كل سنة في شهر رمضان في عشر الأواخر فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر قال اللَّه عز و جل: «فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» قال: يقدر في ليلة القدر كل شي‏ء يكون في تلك السنة الى مثلها من قابل من خير و شر و طاعة و معصية و مولود و اجل و رزق، فما قدّر في تلك السنة و قضي فهو المحتوم و للَّه عز و جل فيه المشية قال: قلت: ليلة القدر خير من الف شهر» أي شي‏ء عنى بذلك؟ قال: العمل الصالح فيها من الصلاة و الزكاة و انواع الخير من العمل في الف شهر ليس فيها ليلة القدر و لولا ما يضاعف اللَّه تبارك و تعالى للمؤمنين ما بلغوا و لكن اللَّه يضاعف لهم الحسنات،

و

الطبرسي في الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) في حديث طويل قال (عليه السلام) فيه: و انما أراد اللَّه بالحق اظهار قدرته و إبداء سلطانه و تبيين براهين حكمته فخلق ما شاء كما شاء و اجرى فعل بعض الأشياء على ايدي من اصطفى من امنائه فكان فعلهم فعله و أمرهم امره كما قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 392

«إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ» دعوات المرسلين قبلك بشأنك، كإبراهيم الخليل و أضرابه، سميع كل الدعوات الصالحة ليالي القدر و طول السنة، سميع ألسنة القال و الاستعداد و الحال في صالح الأقوال و الأحوال .. «العليم» حاجيات و متطلبات الأمم فرادى و جماعات.

رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) ذلك و كأنما الرحمات الربانية لرب السماوات و الأرض و ما بينهما مجموعة في الرسول محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فناشئه عنه بإذن اللَّه إلى الكائنات، فالرب الإله هو أولا ربك، و من ثم هو «رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ»!.

و إشارة ثانية في هذا الانتقال- تهدم صرح مختلف الربوبيات المزعومات- أن ربه هو رب الأرض و السماوات‏ «إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ» بالرب الإله، حيث الشرك في الربوبيات مع العلم أن ربك هو خالق الكون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ» و جعل السماء و الأرض و وعاء لمن يشاء من خلقه ليميز الخبيث من الطيب مع سابق علمه بالفريقين من أهلهما و ليجعل ذلك مثالا لأوليائه و امنائه و عرّف الخليفة فضل منزلة أوليائه و فرض عليهم من طاعتهم مثل الذي فرضه منه لنفسه و الزمهم الحجة بان خاطبهم خطابا يدل على انفراده و توحيده و ابان لهم اولياء اجرى أفعالهم و أحكامهم مجرى فعله فهم العباد المكرمون لا يسبقونه بالقول و هم بامره يعملون هم الذين أيدهم بروح منه و عرّف الخلق اقتدارهم بقوله‏ «عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى‏ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ» و هم النعيم الذي يسأل عنه ان اللَّه تبارك و تعالى أنعم بهم على من اتبعهم من أوليائهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 393

أجمع، إنه ينافي الإيقان بربوبيته، فالألوهية الوحيدة لزامها الربوبية الوحيدة.

لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9) ربوبية وحيدة جامعة للكون أجمع من سماواته و أرضه و ما بينهما، و لأهل الكون أجمع‏ «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» «بل هم» المشركون «في شك» من وحدة الربوبية رغم الاعتراف بوحدة الألوهية «يلعبون» لعبة بساحة الألوهية كأنه اقتسم ربوبية ما هو إلهه و خالقه، بينه و بين خلقه! فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (11) لا نرى الدخان في سائر القرآن إلّا هنا و في فصّلت‏ «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ» (41: 11) أ ترى أنهما واحد أو من سنخ واحد أن ترجع السماء إلى ما كانت دخانا و هو المستصحب مع اللهيب‏ «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (14: 48)؟ قد يكون هذا صحيحا في نفسه كما «وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ»- و منه الرجوع إلى ما ابتدأت دخانا- قد تأتي له شاهدا، و لكن يوم الدخان هذه هو قبل القيامة الكبرى، فهي تتلوه: «يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى‏ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16) فبطشة الدخان ليست من الكبرى، ثم و لا كشف للعذاب يومها و لا قليلا، و يوم الدخان‏ «إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عائِدُونَ (15) فبطشة الدخان قد تكشف قليلا و هي في نفسها أقل من الكبرى، فليست هي الأخرى! و قد يعني بطش الدخان المبين العذاب الأدنى: «وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى‏ دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (32: 21) أو أنه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 394

العذاب دون الأكبر و ليس الأدنى، اللهم إلّا أن يعنى من الأدنى ضمنها، قياسا إلى الأكبر.

أ ترى بعد ما هو هذا الدخان و متى؟ هل إنه مضى فيما مضى أو يأتي كشرط من أشراط الساعة الكبرى؟ لا نعرف فيما مضى دخانا يغشي الناس كلّا و لا جلّا أو بعضا من السماء كعذاب أليم، فعلّه من أشراط الساعة كما يروى عن نبي الساعة» «1».

و قد وصف ذلك الدخان بثلاث 1 «مبين» 2 «يَغْشَى النَّاسَ» 3 «هذا عَذابٌ أَلِيمٌ» مما يؤكد أنه من أشراط الساعة المستقبلة، ف «مبين» قد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 29- اخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان مرفوعا اوّل الآيات الدجال و نزول عيسى و نار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس الى المحشر ثقيل معهم إذا قالوا و الدخان قال حذيفة يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و ما الدخان فتلا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ» يملأ ما بين المشرق و المغرب يمكث أربعين يوما و ليلة، اما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة و اما الكافر بمنزلة السكران ليخرج من منخريه و أذنيه و دبره،

و

اخرج ابن جرير و الطبراني بسند جيد عن أبي مالك الاشعري قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ان ربكم أنذركم ثلاثا الدخان يأخذ المؤمن منه كالزكمة و يأخذ الكافر فينفخ حتى تخرج من كل مسمع منه و الثانية الدابة و الثالثة الدجال،

و

اخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: يهيج الدخان بالناس .. و اخرج مثله عبد بن حميد و ابن جرير عن الحسن، قال بلغني ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: ... و اخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن أبي حاتم عن علي (عليه السلام) قال: ان الدخان لم يمض بعد- ثم ساق مثله ..

و

في المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي 2: 117 «طلوع الشمس من مغربها او الدخان او الدجال م فتن‏

128، 39، 40، 129، د ملاحم 12، ت فتن 21، جه 25، 28، حم 2، 324، 337، 372، 407، 446، 511، 4، 6، 7.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 395

يعني إبانة الدخان عن أمر غير مبان و أهمه الساعة، فدخان الساعة رجع للسماء إلى ما كانت من دخان الغاز، و دونه دخان من أشراط الساعة، كما انشقاق القمر من قبل هو من أشراط انشقاقه عند الساعة، و أين دخان من دخان و انشقاق من انشقاق، اللهم إلّا أنهما من أشراطها.

و «يَغْشَى النَّاسَ» ككلّ: «أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» (12: 107) و الساعة غاشية «هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ» (88: 1) «يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (29: 55).

يغشاهم ذلك الدخان أدنى من غشية الساعة، فيشملهم عذابا «هذا عَذابٌ أَلِيمٌ»! و ترى الطغاة هم الذين يستحقون غشية العذاب الأليم هنا و يوم الدين، فما بال التقاة يغشاهم معهم هنا دون يوم الدين؟.

علّه لهم عذاب دونما للطغاة تخفيفا عنهم و كما يروى عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يأخذ المؤمن منه كالزكمة و اما الكافر بمنزلة السكران يخرج من منخريه و أذنيه و دبره، فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه‏ «1»! فقد اختلف عذاب الدخان هنا بين المؤمن و الكافر و كما يختلف في قيامة التدمير «يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْ‏ءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى‏ وَ ما هُمْ بِسُكارى‏ وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (22: 2).

و حتى إذا لم يختلف عذاب الدخان هنا و الزلزال هناك، فهو للكافر عذاب قبل العذاب الأكبر، و للمؤمن عذب حتى يخفف عنه من العذاب الأكبر، و كما في الزلازل و البركانات التي لا تميّز بين مؤمن و كافر! و قد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نفس المصدر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 396

يشير «يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ» إلى الاكثرية الساحقة من نسناس الناس حينذاك فإنه من أشراط الساعة القريبة إلى الرجعة و قيام المهدي من آل محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الذي به يملأ اللَّه الأرض قسطا و عدلا بعد ما ملأت ظلما و جورا.

و قد يعني دخان السماء الغاشي ما يحصل في الحرب العالمية الثالثة، التي يذهب فيها ثلثا الناس أو ثلاثة أرباعهم، أو سبعة أو تسعة أعشارهم حسب مختلف الحديث‏ «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا» (21: 97- 96) «فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا. وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً» (18: 99).

فنسل يأجوج و مأجوج من كل حدب مرتفع، تهجّما على من تحت كل حدب، قد يعمل دخانا غاشيا كعذاب أليم، و كما نرى الطائرات الحربية كيف تشعّل نارا و دخانا في كل حدب؟.

و مهما يكن من شي‏ء فدخان السماء الغاشي كلّ إنسان قبل الساعة هو من أشراط الساعة، سواء أ كان من هذه الحرب العالمية، و النسل اليأجوجي، أماذا من عوامل الدخان بشريا أم إلهيا، اللّهم لا علم لنا إلّا ما علمتنا! و ترى ما هو- إذا- لسان حال الناس و قالهم، أفهم تائبون و إلى ربهم آئبون و من بعد الغفلة يتذكرون؟.

رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى‏ وَ قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 397

قَلِيلًا إِنَّكُمْ عائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى‏ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16).

فمن الناس- حينئذ- النسناس الخناس، المتولون عن الرسول القائلون إنه مجنون، يقولون‏ «رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ» نؤمن الآن أو آمنا و هم كاذبون، و «أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى‏» حتى يؤمنوا و قد تعرّق في أعماقهم الكفر حيث‏ «قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ»: لكلّ حق كالشمس في رايعة النهار «ثم» بعد البيان‏ «تَوَلَّوْا عَنْهُ» و ازدادوا كفرا حيث‏ «قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ» بدل أن يقولوا «معلم عاقل»! و رغم أننا عالمون بكيدهم في استكشاف العذاب و كيدهم في دعوى الإيمان‏ «إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا» تحقيقا لما التمستم و إظهارا لما كذبتم و كدتم‏ «إِنَّكُمْ عائِدُونَ» إلى ما كنتم‏ «وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا» (17: 8) و كما يعود تطهيرا للأرض‏ «وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى‏ دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (32: 21) فذوق العذاب هو لمسه، و كشف العذاب يعم قبل اللمس و بعده، أم لذوقه، دركات عدة بعضها تلو بعض! و أما الناس المؤمنون أم غير المكذبين من دونهم فقد لا يستكشفون العذاب، لأنهم ليس لهم عذابا، أو يرونه تخفيفا لهم عن آثام لهم فيقبلون، و إلى ربهم يقبلون!.

ثم لا يكفي فريق النسناس ذوق العذاب الأدنى و عوده- بل: «يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى‏ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ» منهم! و ترى ناكرو الرب إلحادا و إشراكا كيف يستكشفون العذاب و هم في أعمق الكفر و أحمقه؟ .. إنها نداء من عمق الفطرة عند ما تتقطع الأسباب، فيظهر عنها ما تخفى تحت ستارات الذنوب و الشهوات، و كما اللَّه ينبّه الغافلين و يوجّههم إلى تلك الحالة، لمّا «جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 398

مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ..» (10: 22).

و كيف يكشف اللَّه عنهم العذاب قليلا و هو يعلم كذبهم‏ «إِنَّا مُؤْمِنُونَ» و الإيمان عند رؤية البأس لا ينفع؟ إنه ليس من منافع الإيمان الكاذب حيث لم يتقبّل، و إنما هو تأجيل للعذاب حجة عليهم و لمن دونهم، أنهم كاذبون، فكشف العذاب هنا من أصله هو من منافع الإيمان، و كشفه قليلا هو من حجج اللّاإيمان! فتنة عليهم و أخرى لغيرهم‏ «1».

و من ثم كيف تحيل‏ «أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى‏» ذكرى الإيمان، بأن تولوا عن الرسول المبين و قالوا معلم مجنون؟ إنه استحالة بالاختيار، حيث زاغوا عن بيان‏ «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» «وَ عَلى‏ سَمْعِهِمْ وَ عَلى‏ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ» «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ».

و ترى‏ «إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا» تعني تقليل العذاب كشفا عن وطأته، أم تقليل الزمان كشفا عن أصله؟ قد تعني «قليلا» كلتا القلتين إذ تحملهما أدبيا و يناسبانه معنويا، أو أن كشف العذاب يقتضي نفيه عن أصله زمنا «قليلا» «إِنَّكُمْ عائِدُونَ» بعد قليل، فالقلة الزمنية مقصودة على أية حال، و القلة الأخرى مشكوكة، أم إنها تقليل للفتنة و الحجاج عليهم و لمن سواهم، فلتكن قلة زمنية لا غيرها!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عليهم فتنة شر أن يبتلوا بعذاب اكبر و يظهر كذبهم لمن لم يظهر له انهم كاذبون، و فتنة خير لغيرهم انتباها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 399

و أمّا «مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ» فمجنونها يفسر معلّمها أن ليس تعليما إلهيا حيث المشركون لم ينسبوا إلى اللَّه فرية الجنون أم تعليم الجنون، فإنما هو تعليم بشري في سحر و جنّة، أو في غيرهما: «وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (16:) 103).

«يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى‏ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ» انتقاما يستحقون، جزاء وفاقا بما كانوا يعملون، حيث البطشة الدنيا هي ما دون الكبرى مهما كانت كبيرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 400

[سورة الدخان (44): الآيات 17 الى 33]

وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (19) وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21)

فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (25) وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (26)

وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (27) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (28) فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ (29) وَ لَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31)

وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى‏ عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (32) وَ آتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ (33)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 401

وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) فتنة سالفة قبل فتنتهم، من جنات و عيون و زروع و مقام كريم، و نعمة كانوا فيها فاكهين، و أن جاءهم رسول كريم، و إنّها لفتنة كبرى أن يصبح الإنسان في قوة و نعمة و ثراء ثم يأتيه رسول من اللَّه يهدّده بطغواه فيها و يحد له تقواه.

و هذه من النصوص على الرسالة العالمية لموسى الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إذ جاء قوم فرعون، كعديد أمثالهم، و هكذا تقتضي كرامة الرسالة وسعتها ألّا تخص قوما دون سواهم، مهما ركزت على قوم دون آخرين كما في بني إسرائيل، «جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ» برسالة كريمة، و هم لئام مستكبرون، و من ثم بنو إسرائيل لئام مستضعفون إلّا شذر منهم نبيون أم مؤمنون، و ما وصف رسول بشخصه أنه كريم إلّا موسى و محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ» (81: 19) و قرآنه:

«إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ» (56: 77) طالما الرسل بوجه عام: «سَفَرَةٍ كِرامٍ بَرَرَةٍ» (80: 16) و علّ هذا الإختصاص فيهما لموضع اللئامة المنقطعة النظير في قوم موسى و هذا البشير النذير.

و ما هي دعامة الرسالة الموسوية إلى فرعون و ملإه، في اختصار دون احتصار؟ إنها:

أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 402

إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (19) إنها تختصر في سلبية الفرعنة و الاستكبار على عباد اللَّه و على اللَّه، و ما لم يتحقق السلب فلا دور للإيجاب، «أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ» تطلّب أوّل من برثنة الفرعنة هو تخلية السبيل من عباد للَّه استعبدهم فرعون و ملأه، إذ جعلوهم عبيدا لهم من دون اللَّه، و لا يتضرر من هذه السلطة إلّا من تحت السلطة و هم بنو إسرائيل المستضعفون المستعبدون، فليبدأ بهم تخليصا لهم عن المستعبدين، و من ثم يرجعهم إلى عباد رب العالمين، فما لم يخرج الإنسان من عبودية من سوى اللَّه، ليس ليصبح عبدا للَّه.

ثم‏ «وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ» تطلّب ثان، فإن فرعون كان عاليا من المسرفين، على عباد اللَّه استعبادا، و على اللَّه ادعاء «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» فهو الطاغوت الذي يطغى على عباد اللَّه و يطغى على اللَّه!:

يعلل الأمر الأول ب «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» رسول لكم من اللَّه أحمل أمانة اللَّه، فأدوا إليّ عباد اللَّه لأحقق فيهم ما ائتمنت من اللَّه، و حتى إذا كانوا هؤلاء عبادا لكم مملوكين، فاللَّه يملكهم و إياكم، و قد أرسلني لاستدعائهم منكم تخليصا لاستعدائكم عليهم.

و يعلل الثاني‏ «أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ» ب «إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ» ألّا سلطان لكم على اللَّه و عباده، و ألّا إله إلّا اللَّه و أني رسول اللَّه، سلطان يبين صدق ما أقول.

فالعلوّ الظالم أيا كان، على عباد اللَّه و على اللَّه، إنه رذيل قبيح، تطارده الرسالات الإلهية كأصل أصيل من أصولها، و هذا الرسول الكريم يؤمر أولا بسلب العلو الاوّل، و من ثم الثاني، فإن العباد هم المستاؤون المتضررون من هذا العلوّ كواقع خطير، و لكنما اللَّه لا يعلى عليه إلّا في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 403

توهمات واهية، تركّز الرسالة الإلهية على سلبها ثانية، و لكي لا يعلو على عباد اللَّه بتركهم العلو على اللَّه، و تعبدّهم للَّه! ثم «ليس عباد الله» هنا لمحة إلى كرامتهم في عبادة اللَّه لموقفهم المتخلف طول تاريخهم، و انما هي تعريضة بآل فرعون ان اتخذوهم عبادا لهم، فالواجب الرسالي تخليصهم عن أسر العبودية لغير اللَّه، حفاظا على ساحة الربوبية و تحريرا لمستضعفي عباد اللَّه! «جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ. أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ» فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ» (20: 47) و تحذرا من خلفيات هذه التطلّبات الثقيلة على آل فرعون يستعيذ باللَّه أن يرجموه، و قد كان عذاب الرجم عندهم أشد العذاب، و هذا الرسول الكريم لا يترك أو يؤخر دعوته خوف الرجم، و لا يعوذ بهم من عذاب الرجم، و إنما وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) «عذت» الماضي لا «أعوذ» الحال أو المستقبل، تدليلا على أن زاده في دعوته عوذ الرب فإنه رسول الرب فليعذه ربه في هذه السبيل الشائكة الفاتكة و كما أعاذ! .. و آخر المطاف في دعوته‏ وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21): «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ» فلا تتعرضوني برجم أم ماذا؟ كما لا أحملكم على ما أدعوا كرها دون إختيار «فاعتزلون» فإنما شأني بعد كمال الدعوة مع ربي: فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) أجرموا قطعا لثمرات الإنسانية الحرة قبل إيناعها، و فصلوا عنها كافة معداتها، و الرسالة حياة جماهيرية و سلالة من ثمرات الإنسانية هم مجرموها و قاطعوها، يا رب أنت بعثتني للإثمار الإيناع لاستعدادات خاملة كرما على الإنسانية جمعاء «وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ» و هم برجمهم المهدّد مجرمون هذه البعثة الكريمة فأنت و شأنك يا رب! فلا مخلص لي في أمرك إلّا بأمرك يا رب!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 404

هنالك تأتي الإجابة فور الدعاء كأنها آتية مع الدعاء، و لمّا يصل أمرك إلى ما وصل: فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) «أسر بهم» فرارا عن تجدد حصرهم و أسرهم إياكم، و لأن سراة كل شي‏ء أعلاه، فالإسراء ليلا هو السير بهم في مرتفع الليل‏ «إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ» رغم ظلام الليل و ارتفاعه‏ وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24).

و لماذا هذا السريّ السرّي في مرتفع الليل؟ «إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ» على أية حال، فليكن الفرار ليلا لكي يبطئوا عن اتبّاعكم فلا يلحقوكم، و إذا اقتربوا إليكم بحرا، «وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً» ل «إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ» في اتباعهم إذا وجدوه رهوا!.

و الرّهو هو السكون، و هو الفرجة الواسعة، و كيف يترك البحر ساكنا على التطامه و تموّجه؟ إنه ضرب بعصاه البحر: «فَأَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ» (26: 63) و هذا المنفلق أصبح طريقا يبسا: «فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً» (20: 77) و علّ رهو البحر هو طريقه اليبس بفرجة واسعة، إذ لا ماء فيه حتى يلتطم و لا ضيق حتى يصطدم، أم و رهو سائر البحر الماء مدّ البصر من الطريق اليبس دفعا عن الرهب، هنا يؤمر موسى أن يترك البحر في رهوه أم رهويه كيلا يهابه آل فرعون، فيدخلوه لكي يصبحوا «جُنْدٌ مُغْرَقُونَ» و قد حصل ما أراد اللَّه من غرق آل فرعون المتبقين و إنجاء بني إسرائيل المتبعين! و قد تلمح‏ «وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ» أن موسى أراد بعد الخروج عن البحر أن يرجعه إلى ما كان صدّا عن آل فرعون، فأمره اللَّه بترك البحر رهوا «إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ» أتركه لإغراء فرعون فإغراقه، و هكذا ينفذ قدر اللَّه من خلال الأسباب جلية و خفية، لتكون كلمة اللَّه هي العليا و كلمة الذين كفروا السفلى!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 405

هنا يطوى شريط حياة الطغاة الشريرة في ايحاءات قصيرة، تعقيبا عليه يشي بهوان فرعون الذي كان يشمخ بخرطومه فيطأطئ له المستخفون طاعة عمياء و عبادة طخياء، تاركا كل ثرواته و نعماته.

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (25) وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (26) وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (27) تركوا كل كريم و كريم، إذ تركوا الرسول الكريم، و نعمة لا نعمة، حيث النعمة هي الحالة الحسنة من مال أو حال، و من حسنها بقاءها في كل النشآت فإنها هيئة، و النعمة هي التنعم المرة ثم انقطاع فإنها مرة، و هي للمتنعمين بها خاصة بالدنيا أيّاما أم بالتمام ثم تنقطع عنهم بالمرة و تصبح بعدها مرّة، و لا نجد النعمة في سائر القرآن إلّا هنا! فهؤلاء الحماقى هم الذين يبدلون نعمة اللَّه نعمة فنقمة: «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ». تلك النعمة الجنات و العيون و زروع و مقام كريم، هم كانوا فيها غريقين فاكهين: يتعاطون فيها الفكاهة و مختلف ألوان الشهوة بكل تفاهة و رذالة و حيونة كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (28) «وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى‏ عَلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ» (7: 137) «وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ. وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ» (28: 6)!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 406

ترى و هل أورث بنو إسرائيل كلما كان لفرعون و ملائه و حتى‏ «نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ»؟ علّه لا! حيث النّعمة مضلّلة و من مقامهم استعلاء على اللَّه و استعباد لعباد اللَّه! أو علّه نعم، حيث النعمة هي النعمة التي تبدّل بكفرانها و الكفر بها نعمة، فإرث النعمة للصالحين منهم نعمة، و للطالحين نعمة، و كما المقام الكريم السّلطة، كل يعاملها حسب البغية و الشاكلة، و ليس لزام الإيراث نقل عين الميراث، و إنما عزل قوم و نقل آخرين إلى ما كانوا يملكون، على تحول و تبدل أماذا؟

فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ» (29) ترى و هل تبكي السماء و الأرض على المؤمن لكيلا تبكي على الكافر و ما بكائهما؟ أجل و كما يروى عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بكاء عليه و تحزنا من مواضع صلواته و مصاعد أعماله‏ «1» و لأن البكاء هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 30- اخرج الترمذي و ابن أبي الدنيا في ذكر الموت و ابو يعلى و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و ابو نعيم في الحلية و الخطيب عن انس قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «ما من عبد إلّا و له في السماء بابان باب يصعد منه عمله و باب ينزل عليه من رزقه فإذا مات فقداه و بكيا عليه و تلا هذه الآية «فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ» و ذكر انهم لم يكونوا يعملوا على وجه الأرض عملا صالحا يبكى عليهم و لم يصعد لهم الى السماء من كلامهم و لا من عملهم كلام طيب و لا عمل صالح فتفقدهم فتبكي عليهم.

و

اخرج ابن أبي الدنيا و ابن جرير عن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلا قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إن الإسلام بدأ رغيبا و سيعود غريبا، ألا لا غربة على مؤمن ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء و الأرض ثم قرأ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 407

التحزن البادي على وجه الباكي، و انقطاع عمل المؤمن بموته انقطاع لما يصعد إلى السماء من أعماله و لمّا ينزل إلى الأرض من بركاته، فكأنهما إذا تبكيان، و بنفس الحجة هما على الكافر يضحكان، حيث تنقطع أعماله التي كانت تسوّد كتاب الأرض و السماء، و تزعج كتّابهما الذين يستنسخونها! و من ثم فأهل السماء و الأرض- المطلعون على وفاة المؤمن- هم عليه باكون و على الكافر ضاحكون! ثم و من البكاء الإستنصار، الذي هو كائن من أهل اللَّه للمؤمن و بائن عن الكافر! ثم المؤمن و لا سيما العالم إذا مات ثلم ثلمة دون الكافر، و قد يمثلون خلو الدار عن سكانها و قطّانها، بأنها باكية عليهم و متوجعة لهم لانقطاع أسباب النعمة و الأنسة عنها، و لكنما الكافر حياته عذاب على الناس، فلا تبكي عليه السماء و الأرض، إذ لا أثر له صالحا حتى ينقص بفقدانه، و لو كانتا من الجنس الذي يصح منه البكاء لم تبكيا عليهم و لم تتوجعا لهم إذ كان اللَّه عليهم ساخطا، و لهم ماقتا، و حياتهم عذاب على أهل السماوات و الأرض.

كل هذه البكاء ثابتة للمؤمن، منفية على الكافر «وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ» حيث أغرقهم اللَّه دون إنظار و ما كانوا منتصرين.

المستضعفون و هم دوما الأكثرية الساحقة، و من معهم من رسل اللَّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ» ثم قال: انهما لا يبكيان على كافر.

و اخرج ابن المبارك و عبد بن حميد و ابن أبي الدنيا و ابن المنذر من طريق المسيب بن رافع عن علي (رضي اللَّه عنه) قال: ان المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض و مصعد عمله من السماء ثم تلا هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 408

و ملائكة اللَّه و ساير المؤمنين، هم كلهم يفرحون و يرتاحون لموت الكافر و يبكون لموت المؤمن.

فهناك بكاء للسماء و الأرض على المؤمن، كلما ازداد إيمانه ازدادت حيث تحمرّ كما احمرّت ليحيى بن زكريا و للحسين‏ «1» (عليهما السلام) و بكاء لأهل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 30 و اخرج ابن أبي حاتم عن عبيد المكتب عن ابراهيم (رضي اللَّه عنه) قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلّا على اثنين، قيل لعبيد. أ ليس السماء و الأرض تبكي على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه و حيث يصعد عمله، قال:

و تدري ما بكاء السماء؟ قال: لا- قال: تحمر و تصير وردة كالدهان، ان يحيى بن زكريا لما قتل احمرت السماء و قطرت دما و ان الحسين بن علي (عليه السلام) يوم قتل احمرت السماء، و اخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن زياد قال: لما قتل الحسين احمرت آفاق السماء اربعة أشهر.

أقول: و

من طريق أصحابنا روي بكاء السماء على يحيى و على الحسين (عليهما السلام) القمي في تفسيره قال حدثني أبي عن حنان بن سدير عن عبد اللَّه بن الفضل الهمداني عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين صلوات اللَّه عليه قال: مر عليه رجل عدو للَّه و لرسوله فقال: «فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ، وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ» ثم مرّ عليه الحسين بن علي (عليه السلام) فقال: لكن هذا لتبكين عليه السماء و الأرض، و ما بكت السماء و الأرض إلا على يحيى بن زكريا و على الحسين بن علي (عليهما السلام)،

و

في كتاب المناقب لأبن شهرآشوب عن الباقر (عليه السلام) ان عليا (عليه السلام) خرج قبل الفجر متوكئا على عنزه و الحسين (عليه السلام) خلفه يتلوه حتى أتى خلفه رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ثم قال: ان اللَّه تعالى ذكر أقواما فقال، «فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ» و اللَّه ليقتلنه و لتبكين السماء عليه.

و

فيه عن الصادق (عليه السلام) بكت السماء على الحسين أربعين يوما بالدم‏

و

فيه عن إسحاق الأحمر عن الحجة (عليه السلام) حديث طويل في أواخره: و ذبح يحيى (عليه السلام) كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 409

السماوات و الأرض، و لكتاب الأعمال و كتّابه، و للحياة الصالحة حيث البكاء تحزّن بانتقاص في الحياة، و انتقاض في سنن الحياة، و بكاء كل شي‏ء بحسبه! و هناك ضحك لها كلها لموت الكافر، كلما ازداد كفرا ازدادت ضحكا و ضحك كل شي‏ء بحسبه، و ترى هلّا يبكي على الكافر حتى الكفار، الذين كانت لهم حظوة و شهوة من حياته؟:: مورد الآية هم آل فرعون و قد استأصلوا بالغرق، و من ورائهم مستضعفون من بني إسرائيل و سواهم و هم يضحكون.

ثم و سائر الكفار الذين يموتون عن أمثالهم، فقليل بواكيهم و الضاحكون عليهم كثير، و بكاء السماوات و الأرض يعني الكون كله بمن فيه و ما فيه، و الشذاذ الباكون على الكافرين، ليسوا السماوات و الأرض، بل و ليسوا منها بحق حيث لا يعتبرون شيئا! ثم «فما بكت» إضافة إلى ما عنته، قد تعني السخرية بهم حيث كانوا يستعظمون أنفسهم، و يعتقدونهم إن ماتوا بكت عليهم الدنيا رغم ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ذبح الحسين و لم تبك السماء و الأرض إلّا عليهما (نور الثقلين 4: 627- 628).

و

في تفسير البرهان 4: 161 ج 4 عن القمي عن امير المؤمنين (عليه السلام) في الرحبة و هو يتلو هذه الآية إذ خرج عليه الحسين بن علي (عليه السلام) من بعض أبواب المسجد فقال: اما هذا سيقتل و تبكي عليه السماء و الأرض.

و

فيه خرج امير المؤمنين (عليه السلام) فجلس في المسجد و اجتمع أصحابه حوله فجاء الحسين (عليه السلام) حتى قام بين يديه فوضع يده على رأسه فقال: يا بنيّ إن اللَّه عيّر أقواما بالقرآن فقال‏ «فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ» و ايم اللَّه لتقتلن من بعدي ثم تبكيك السماء و الأرض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 410

ضحكت، كما نراها تضحك و حتى أهلوها الوارثون لها على فجارها، حيث يستغلونها بما يستقلون بها! إذا فذلك تعبير يلقي ظلال الهوان على هؤلاء الطغاة المتطاولين حيث ذهبوا ذهاب النمال، و هم كانوا يطئون الناس وطأ النعال، أرواح خبيثة منبوذة في الكون، لمّا تنقطع عنه و تستروح فهو يستريح، فإنهم عذاب للكائنين مهين، ثم في الصفحة المقابلة لهم بنو إسرائيل الوارثون:

وَ لَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31) قد يأتي العذاب رحمة رغم كونه زحمة كما للذين يستشهدون في سبيل اللَّه او يؤذون دون مهانة في هذه السبيل، و هذا رغم كونه عذابا ليس من عذاب اللَّه، و إنما عذاب الشيطان و لم يأت في القرآن بصيغة العذاب اللهم إلا أذى في اللَّه: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ» (29: 10):

و قد يأتي من اللَّه تذكيرا و لعلهم يرجعون: «وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى‏ دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» و منه مهين و منه غير مهين:

و قد يأتي مهينا بما قدمت أيدينا و أن اللَّه ليس بظلام للعبيد، و قد كان فرعون من العذاب المهين، حيث أهان كرم الإنسانية باستعبادها، استخفافا لها «فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ» في بني إسرائيل قتلا و فتكا و استعبادا لرجالهم و استحياء لنسائهم: «يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (28: 4) «وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» (2: 49).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 411

«وَ لَقَدْ نَجَّيْنا» تأكيدات ثلاث‏ «1» أنه نجاهم من العذاب المهين- «من فرعون» و لماذا؟ «إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ» عاليا على عباد اللَّه استعبادا لهم و على اللَّه ادعاء للربوبية العليا، مسرفا في علوّيه، و ليس اللَّه ليصبر على هكذا هتك و فتك لساحته و عباده، اللّهم إلّا امتحانا للعلات على علّاتهم و امتهانا لمن تخاذلوا أمامهم على علّاتهم:

إن العلو الاستعلاء بغير حق و في إسراف هو من أهون العذاب المهين لجماهير المستضعفين. «وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ» (10: 83) «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (28: 4) و لقد أسرف في علوه حتى على اللَّه مسا مهينا من كرامة اللَّه‏ «فَحَشَرَ فَنادى‏. فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» (79: 24).

فهنالك نجاة لبني إسرائيل من هذا العذاب المهين، و من ثم اختيار لهم على علم على العالمين:

وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى‏ عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (32).

اختيار إلهي انتخابا لخير الموجودين في ذلك الزمن، و «على علم» بحالهم و مسيرهم و مصيرهم، و بخيرهم و شرهم، و اللَّه يعلم أنهم سوف يصبحون من أفسد المفسدين، لحد قلّما نجد أقواما في التاريخ الرسالي- فيما يقصه القرآن- كأمثالهم فيما أفسدوا.

و لكنه لما يعلمه اللَّه أنهم على حالهم و استقبالهم من أفضل العالمين و أحقهم بالانتصار حيث استضعفوا بالفرعنة الجبارة و هم موحدون، و أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هي ل- قد- نا. فان (نا) جمعية الصفات انه تعالى بهذا الجمع العظيم نجاهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 412

فيهم أنبياء صلحاء مهما حصل بينهم من انحراف و انجراف و تلكّؤ و التواء:

«وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ. وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ» لقد كان ذلك اختيارا مؤقتا باختبار و حتى في الآيات التي أوتوها بلاء مبينا: وَ آتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ (33) و هي الآيات التي خصتهم دون آل فرعون، إذ كانت في غرقهم كفلق البحر، أو بعد غرقهم كانبجاس العيون من الحجر، و نتق الجبل، و إنزال المن و السلوى عليهم، و بنتيجة اختبارهم و سقوطهم في هوّات الضلالة و الإفساد سلبت عنهم النبوة إلى نبي اسماعيلي، و بعث عليهم من يشردهم و يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة «وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» (7:) 167).

و «ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ» تلميحة بينة أن هذه الآيات المعجزات كانت بطيّاتها بلاء مبين يبين مدى إيمانهم أو كفرهم و كفرانهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 413

[سورة الدخان (44): الآيات 34 الى 59]

إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الْأُولى‏ وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (35) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (36) أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (37) وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (38)

ما خَلَقْناهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (39) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (41) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42) إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (43)

طَعامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى‏ سَواءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (48)

ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (50) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (53)

كَذلِكَ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (55) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولى‏ وَ وَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58)

فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 415

إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى‏ وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (35).

.. عرض لقيلة شائنة عن شأن الموت و الحياة لغير الموحدين من مشركين و ملحدين، القيلة التي سوف يستنكرونها يوم الدين إذ يعترفون بكرور الموت و الحياة مرتين مرتين: «قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى‏ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ» (40: 11) «1» و هم كانوا بها كافرين، «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»؟ (2: 28).

ف «إن هي» العاقبة او النهاية أو- و بأحرى- الموتة «إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى‏» فلا ثانية لها: أن نموت عن حياة برزخية هي بعد الموتة الأولى‏ «وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ» عن الموتة الثانية.

فقد ينكر هؤلاء الناكرون أية حياة بعد الأولى‏ «إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» (23: 37) رغم أنهما إحيائان! .. أو ينكرون أيّة إماتة بعد الأولى‏ «وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ» كما هنا.

فنكران الموتة الثانية نكران للحياة البرزخية بعد الموت، حيث الموتة الثانية تستلزم حياة بين الموتتين، ثم‏ «وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ» نكران للحياة الآخرة بعد الموتة الثانية.

«إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا .. وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» نكران للحياة الأخرى و «إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى‏ وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ» نكران للحياتين بعد الموت، و الحياة البرزخية ضرورة كما الحياة الأخرى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية من سورة المؤمن ستجد بحثه المفصل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 416

فهنالك إماتتان و إحياءان، إحياء أول للحياة الدنيا ثم إماتة عنها فحياة برزخية، ثم إماتة ثانية و من ثم إحياء ثان للأخرى، هم يعترفون بهما يوم الدين، و هم أولاء ينكرونها يوم الدنيا!،.

هم هكذا يدعون دون برهنة على دعواهم، و لا يصدقون أية برهنة إلّا أن يؤتى بآبائهم:.

فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (36).

أ فإتيانا بهم أحياء لكي تثبت نشرة بعد موتة؟ فلما ذا آباؤهم و هم لا يعرفونهم عيانا! و هم بمشهد متواتر من حياة بعد موت نباتية و حيوانية، ثم النشرة ليست إلّا في الأخرى جماهيرية، و في الرجعة جمهرات خاصة، و ليس صدق القول في النشرة يحصر في نشر الآباء، ثم و لا يثبت نشرهم إلى الحياة الدنيا نشرهم إلى الأخرى إلا إمكانية بالمماثلة، و هي حاصلة عمليا و واقعيا! أو اتيانا بهم ليسألوهم هل هناك نشرة بعد الموتة، و هم كأمثالهم في نكرانها! و حتى إذا صدقوها كيف هم يصدّقون و حملة الوحي يكذّبون، و إذا تكذّبون حملة الوحي بآياتهم المعجزات و أنتم تعرفونهم فأنتم أولى تكذيبا لآبائكم و أنتم لا تعرفونهم، و لو عرفتموهم فلا حجة في أقوالهم إلّا أنهم آباؤكم، تقليدا أعمى، و تقديما لقولة الموتى! و هذه خرافة تتكرر و شريطة تعاد على ألسن الناكرين ليوم الدين: من الذي مات ثم رجع حتى يخبرنا عن الحياة الأخرى؟ يسألونه كأن لا جواب لهم إلّا نكرانها، و ليس تصديقها محصورا في أخبار الموتى، و إنما تتبع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 417

أدلتها العقلية و الواقعية الأخرى في إمكانية الحياة الحساب و ضرورتها دون أن يثبتها قولات الموتى، أو تنفيها هي أم أمورا أخرى.

فإن هي إلا طنطنات و شنشنات يهرفها الخارفون و ينكروها العارفون، فان لكل مدلول دليلا يخصه دون ما يتعنّته الناكرون.

إنهم يغفلون أو يتغافلون عن حكمة النشرة الحساب، أنها للوصول بالصالحين إلى النهاية الكريمة التي تهيئوا و تأهلوا لها في الرحلة الدنيا، و الوصول بالطالحين إلى النهاية الحقيرة الذليلة التي قدّموا لها من حياتهم الرذيلة، و خطواتهم المرتكسة في الحمأة القذرة.

إذا فدور البعث و النشور ليس إلّا بعد انقضاء الحياة الأرضية كلها، دون أن تكون لعبة تتم حسب أيّة رغبة او نزوة و تهوسة لفرد أو جماعة، كي يصدقوا بالحياة الآخرة و لن يصدقوها مهما غرقوا في واقع الأدلة.

هنا و قبل توجيههم إلى أدلة قاطعة على ضرورة الحياة الحساب، يلمس قلوبهم المقلوبة بلمسة ضريعة سريعة عن مصارع مسارع لمن قبلهم كقوم تبع:

أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (37).

تبّع هذا هو أسعد الحميري من الملوك الحميريين باليمن، لا نجد له ذما في القرآن إلّا لقومه، مما يلمح إلى إسلامه و كما

يروى عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم» «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 31- اخرج احمد و الطبراني و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 418

«و هو أوّل من كسا الكعبة «1».

فهنا قوم تبع، و في (ق) «وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ» (14).

قوم تبع كانوا خيرا منهم قائدا فتخلفوا عنه، و أكثر منهم نعمة فبدلوها نعمة و نقمة فاستحلوا دار البوار جهنم يصلونها و بئس القرار، و من قبل‏ «أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ» فلا سبيل لكم إلّا الهلاك.

وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (38).

توجيه بعد تهديد إلى برهان لضرورة الحياة الأخرى، أن لولاها لكان خلق السماوات و الأرض و ما بينهما باطلا و لعبة، و لكنما الإله الحق لا يأتي إلّا بالحق، و حق الخلق لزامه حق الحياة الحساب.

إن خلقها لعبا لهو في الخلق، و ضلال بعيد عن غاية الخلق: «وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ. لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ. بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

سهل بن سعد الساعدي قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): لا تسبوا ..، و أخرج ابن المنذر و ابن عساكر و وهب بن منبه قال نهى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) عن سب أسعد و هو تبع قيل و ما كان اسعد؟ قال: كان على دين ابراهيم.

(1).

المصدر اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) لا تسبوا اسعد الحميري و قال هو أول من كسا الكعبة،

و

روى في المجمع عن الوليد بن صبيح عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ان تبعا قال للأوس و الخزرج:

كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) اما انا لو أدركته لخدمته و خرجت معه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 419

(21: 18).

إذا فالخلق دون الحياة الحساب لعب و هو لهو بالخلق مستحيل على اللَّه في بعدين لو أراده- و لن-! لاتخذه من لدنه دون خلقه، حيث اللهو بهم ظلم في ظلم و ما اللَّه بظلام للعبيد!.

أ ترى لماذا اللعب اللهو في خلقهما لولا الحياة الحساب؟ لأن الخلق فيهما، بينهم ظلامات و تعديات، و تخلّفات عن شرعة الحق، و بينهم استكبارات و استضعافات، و فيهم من يعدل و ما أقلهم، و الخلق الحق و الخالقية الحقة العادلة تقتضي الجزاء الوفاق لكل كما يعمل، فإنه قدير عليم و عدل حكيم، فإذ لا نرى الجزاء الحساب هنا فلتكن حياة أخرى بعدها لتجزى فيها كل نفس بما تسعى، و لولاها لكان الخلق لعبة و لهوا و عبثا: «أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ» (23: 115).

و لأن الخالق هادف غير لاه أو لاعب أو عابث، و أن القصد و التصميم لائح من الخلق، و أنه عدل حكيم، فلتكن هناك حياة أخرى بعد الأولى إذ «ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ»:

ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (39).

أكثرية ساحقة من ناس هم في الحق نسناس لا يعلمون أن لهذا المطاف نهاية، أ ترى أن هذه الرحلة القصيرة على هذه الكوكبة الصغيرة للإنسان أم أيا كان من الخليقة، في هذا الكون الشاسع الواسع المستخدم لتكامله، كل ذلك تصبح هباء خواء، دون أية نهاية مقصودة؟

إن الخلق الحق، البعيد عن أي باطل، كيف يحمل باطل اللعب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 420

و اللهو العبث، في اتساعة دونما حاجة في هذه القصيرة، و في عدم الحياة الحساب في النهاية.

«ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ» سببا و ملابسة و غاية، فالخلق إذا في مثلث الحق، فلو لم يكن حساب أصبح في مثلث الباطل‏ «وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ».

«لا يعلمون» الحق الذي خلقتا به، لا جهلا ذاتيا قاصرا فهم معذورون، فإنما تجاهلا و تغافلا مقصرا فهم مسئولون! لا يخفى على ذي حجى أن الفعل من العالم الحكيم هادف قاصد؟

فهل اللَّه يخلق ثم يهرج و يمرج بين خلقه دونما شرعة تضبطهم هنا، و حياة أخرى للحساب يجازيهم فيها هناك؟

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (41).

إنه يوم الفصل بين المحشورين بانفصال العقائد و الأعمال، رغم أنه يوم الوصل بين المحشورين فإنه ميقاتهم أجمعين من الأوّلين و الآخرين و الخيّرين و الشّريرين.

فالولاية الواصلة يوم الدنيا في غير اللَّه هي الفاصلة يوم الدين حيث لا يغنى مولى عن مولى شيئا، اللهم إلّا ولاية اللَّه بين من يتولاه فهي قد تغني شفاعة بإذن اللَّه لمن يشاء و يرضى.

فلا ولاية و لا نصرة هناك إلّا من اللَّه و بأذنه و «لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً» (19: 87) فهناك ينصرون دون إغناء، فإنه الاستقلال و ليس إلّا للَّه، و النصرة دون استقلال فهي حاصلة بشفاعة صالحة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 421

و المولى هنا هو الذي يلي أمر صاحبه و هو صاحبه الذي يتولى أمره، فالأول هو الأول و الثاني هو الثاني، و لماذا لا إغناء هناك و لا نصرة؟ و لا ..

إذ «تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ» (2: 166) و لا ينصرون:

«وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ» (2: 48).

إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42) فمن رحمه اللَّه يغنيه اللَّه و هو المؤمن و «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا» و من رحمه اللَّه ينصره الموالي في اللَّه شفاعة بإذن اللَّه‏ «ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ» (10: 3).

ف «إلّا» هنا استثناء عن‏ «وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ» دون «لا يغني» ف «شيئا» في سياق نفي الغنى ينفي كل غنى في كل شي‏ء فلا يستثنى، «وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ» دون شيئا، يقبل استثناء لمولى في شي‏ء كما يشاء اللَّه و يرضى، فالنصرة المساعدة هي موضع الشفاعة على شروطها، دون الغنى المستقلة لمن ليست له أية أهلية للرحمة الإلهية، فالشفيع لا يغني و لا يكفي و إنما ينصر، فإنه تعالى هو الكافي المغني لا سواه‏ «أَ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ» اللهم إلّا غنى باللَّه كما يروي عن الصادق (عليه السلام) «1» و في النجم تصديقه:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 629 ج 39 في اصول الكافي احمد بن مهران عن عبد العظيم بن عبد اللَّه الحسنى عن علي بن أسباط عن ابراهيم بن عبد الحميد عن زيد الشحام قال قال لي ابو عبد اللَّه (عليه السلام) «إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ» نحن و اللَّه الذي استثنى اللَّه فكنا نغني عنهم،

أقول: يعني الغنى باللَّه و هي الشفاعة النصرة دونما استقلال.

و

المصدر ح 40 عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) انه قال لابي بصير يا أبا محمد و اللَّه ما استثنى اللَّه عن ذكره بأحد من أوصياء الأنبياء و لا اتباعهم ما خلا امير المؤمنين و شيعته فقال في كتابه و قوله الحق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 422

«وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَرْضى‏» (53: 36) فلا يغني أحد إلّا باللَّه و حتى رسول اللَّه:

«وَ ما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» (12: 67).

«إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ» الغالب فلا مغني سواه- و «الرَّحِيمُ» قد ينصر سواه بإذنه دون أن يغنيه، فالعزة تحصر فيه حسرا عن سواه، و الرحمة قد تكون بأذنه و هي الشفاعة لسواه.

أجل و في يوم الفصل يتجرد و ينفصل الناس من كل سناد لهم في الأرض، من كل قرابة و ولاية و آصرة، عائدين إلى ربهم فرادى كما خلقوا أوّل مرة، اللهم إلّا شفعا برحمة اللَّه لا سواه‏ «إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ»! «إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ» تعم المولى الناصر الشافع‏ «1» و المنصور المشفع له، حيث المستثنى منه يعمهما «مَوْلًى عَنْ مَوْلًى».

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (43) طَعامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ» يعني بذلك عليا و شيعته أقول: فعلي و أضرابه من المعصومين هم المولى الشافع و الشيعة هم المولى الثاني.

(1).

نور الثقلين 4: 630 ح 41 في تفسير القمي في الآية قال: من والى غير اولياء اللَّه لا يغني بعضهم عن بعض ثم استثنى من والى آل محمد فقال: «إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» ثم قال: ان شجرة الزقوم طعام الأثيم، نزلت في أبي جهل بن هشام و قوله عز و جل: قال: المهل الصفر المذاب، يغلي في البطون كغلي الحميم، هو الذي قد حمى و بلغ المنتهى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 423

«أَ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ. إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ» (37:) 65)- «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ. فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ. هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ» (56: 56).

إن الاثماء الظالمين الضالين المكذبين، نزلهم الطعام زقوم يوم الدين، زقوم يأكل زقوما و ذلك عذاب مهين!.

و إنها من الشجرة الملعونة في القرآن يوم الدين، هي أكل للشجرة الملعونة في القرآن يوم الدنيا، ملعونة بملعونة و زقوم في زقوم، و ما أدراك ما زقوم! إن جرس اللفظ يلمح بجرس المعنى، فكما اللفظ كأنه خنقة الحلوق كذلك الواقع خنقا للحلوق و غليا في البطون‏ «طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ» فإنها تطلع كخلفيّة لرؤوس الشياطين، فهي إذا طعام لرؤوس الشياطين، رؤوس للشياطين و رؤوس الشياطين: حملة رايات الشيطنات من الجنة و الناس أجمعين.

فهناك مثلث من الزقوم: اسما في جرس اللفظ، و سمة في شاكلة الواقع، و ومصة في فاعلية تنطبق حذو النعل بالنعل و القذة بالقذة على مثلث الشيطنات أسماء و سمات و وصمات.

و الزقم هو الكريه في المنظر و المطعم و الريح، فالزقوم هو المبالغ في ذلك، فلا طعام في النار أكره من الزقوم، كما ليس في النار أكره من ذلك الأثيم! و إنه «كالمهل» المذاب من النحاس و الرصاص أو دردي الزيت‏ «يَغْلِي فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 424

الْبُطُونِ» فأحرى به أن يغلي فيصبح منه البطون غليا على غلي‏ «كَغَلْيِ الْحَمِيمِ» البالغ في الحمّة «1» مما يحمّ، و إذا «سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ» (47: 15) فما ذا يصنع حميم الزقوم؟! خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى‏ سَواءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (50).

أمر صارم من الجبار الحكيم، الى زبانية الجحيم، باعتقال جبار لئيم و هو في زعمه العزيز الكريم «خذوه» أخذ الاعتقال، و شدّوه في كل إهانة و مهانة على أية حال، و هو في حالة الفرار ولات حين فرار «فاعتلوه» خذوه بمجامعه و جرّوه بقهر «إِلى‏ سَواءِ الْجَحِيمِ»: وسطه و عمقه و كأنه دركه الأسفل المحيط به سائر الجحيم، «وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ» (9: 49) فإن الجحيم طبقات متداخلة كروية أماهيه، بعضها فوق بعض، مما يزيد كل تالية عذابا حتى الدرك الأسفل في المركز الرئيسي منه، كما الكرة الأرضية ذات الحرارة في أعماقها، حيث الأسفل منها مركزها و هي أحرّ من سائر أطباقها.

و لأن أصل الحرارة في الجحيم هو في أصل الجحيم، فأهل الأصل هم صلاءه و الباقون بهم يصطلون: «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ. (69: 31) اجعلوه صلاءة الوقود، ثم ماذا بعد الأخذ القتل و الجذب و الدفع؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 630 ح 41 في تفسير القمي في الآية قال: من والى غير اولياء اللَّه لا يغني بعضهم عن بعض ثم استثنى من والى آل محمد فقال: «إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» ثم قال: ان شجرة الزقوم طعام الأثيم، نزلت في أبي جهل بن هشام و قوله عز و جل: كالمهل: قال: المهل الصفر المذاب، «يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ» و هو الذي قد حمى و بلغ المنتهى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 425

ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (48) كما هم صبوا فوق رؤوس المستضعفين من عذاب الحميم، استكبارا عليهم و استخفافا و استحمارا لهم فأصبحت رؤوسهم خاوية عن الهدى حاوية لكل ردى، و من ثم تأنيب و ترذيل:

ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) كلمة تقال له حين العذاب، عذابا فوق العذاب، حيث كنت يوم الدنيا تراك عزيزا «1»:

تتغلب على من سواك- كريما: كأنك المنعم على من سواك لا سواك، و حتى إذا كانت قيامة فأنت أنت لك الحسنى دون من سواك: «وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى‏ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى‏» (41: 50) «وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً» (18: 36): «ذق» و لمّا يصلك العذاب الحساب، و إنما ذوق العذاب! و هذا من جزاء العزير دونما عزة، و الكريم دونما كرامة، و إنما ذلة و لئآمة بلا هوادة! إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ‏ و تترددون في تكلّف النكران، حيث البينات من كلّ الصنوف واضحة الدلالة على ضرورة الحياة الحساب وضح النهار، و لكنكم‏ «كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ» تحميلا على فطركم و عقولكم حيث لا تتحمل مثل ذلك النكران إلّا تكلّفا، و الافتعال تكلّف للفعل! هذا مصير الأثماء و رؤوس الشياطين، فما مصير المتقين؟

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (51).

فكما الطغوى تجعل أهلها في اضطراب مهين، كذلك التقوى تجعل أهلها في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في جوامع الجامع روي‏ ان أبا جهل قال لرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ما بين جبليها أعز و لا أكرم مني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 426

مقام أمين، يوم الدنيا و يوم الدين، حيث العقبات السوء من الآثمين يوم الدنيا التي تتربص دوائرها بالمتقين، لا تحسب اضطرابات لهم أمام الأمن الأمين لهم يوم الدين، و من قبل و هم في الدنيا لهم الأمن في ضمائرهم‏ «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (13: 28) «الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» (6: 82) فإنه في «حزب الله بالتقوى من كل بلية» «1» و من ثم لهم كمال الأمن في الدولة الاخيرة المهدوية:

«وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً» (24: 55) أمن بعد أمن هنا و ثالث يوم الدين:

فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (53) كَذلِكَ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (55).

«جنات» تجري من تحتها الأنهار «و عيون» إضافة إلى الأنهار «يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ» الحريرة الرقاق «و» من «إستبرق» الحريرة السّماك، يلبسونها متقابلين و يجلسون متقابلين، إخوة متقين متقابلين لإخوة متقين، ثم و هم مع أزواجهم متقابلين.

«كذلك» المقام الأمين- ثم‏ «وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ» رجالا لهم منهن زوجات كما لهم من المؤمنات زوجات، و هنّ أفضل من الحوريات «يدعون»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 630 ح 46 في اصول الكافي محمد بن يحيى عن احمد بن محمد بن عيسى عن ابن محبوب عن عبد اللَّه بن سنان عن أبي عبد اللَّه (ع) قال: اي عبد اقبل قبل ما يحب اللَّه عز و جل أقبل اللَّه قبل ما يحب و من اعتصم باللَّه عصمه اللَّه و من أقبل اللَّه قبله و عصمه لم يبال لو سقطت السماء على الأرض او كانت نازلة على اهل الأرض فشملتهم بلية كان في حزب اللَّه بالتقوى من كل بلية أ ليس اللَّه عز و جل يقول: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ»؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 427

المتقون رجالا و نساء «بِكُلِّ فاكِهَةٍ» من الفكاهة و الفاكهة «آمنين» بكل أمن دونما اضطراب، و يأمنون أضرارها.

لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى‏ وَ وَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57).

أ ترى أن الموتة الأولى- و هي عن الدنيا إلى البرزخ- هم ذاقوها في الجنة؟

فلا يذوقون فيها موتة ثانية «1». و لا موت في الجنة فضلا عن الأولى التي هي قبل البرزخ و الجنة! إنه استثناء منقطع يستأصل عن الجنة أيّة موتة فيها فإنها دار الخلود، و ما أجمله تأكيدا لاستئصالة استثناء ما مضى عما قد يظن أنه يلحق، فهو إذا تأكيد ذو بعدين.

و ترى هل الموتة واحدة قبل الجنة هي الأولى؟ فلما ذا الأولى و هي تلمح لغير الأولى؟ و إذا كانت واحدة فلتكن‏ «إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى‏» لا الأولى.

ثم هي مرتان كما حملتهما الآيتان، واحدة تنذر بمن يحصرها في الأولى‏ «إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ. إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى‏ ..» (44: 35) و الاخرى تثبت الموتة الثانية «قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ» (40: 11) إذا فكيف لا يذوقون فيها إلّا الموتة الأولى؟

علّ الثانية- و هي عن الحياة البرزخية إلى الأخرى- تخص غير المؤمنين كما الآيتان لا تدلانها إلّا لهم دون المؤمنين، فالصعقة العامة بالنفخة الأولى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و لئن سأل سائل هب ان اهل البرزخ يصعقون موتة كما الكافرون او غشية كما المؤمنون، فما للأحياء الذين يموتون موتتهم الاولى بهذه الغشية؟ فالجواب ان المؤمنين و هم الاكثرية الساحقة لا يموتون إلّا مرة واحدة، و سواهم قد تتكرر موتتهم فالاولى بهذه الصعقة و الثانية باماتة خاصة بين الصعقتين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 428

هي للكافرين موتة ثانية، و للمؤمنين دون موتة بصعقة، و لمن شاء اللَّه لا صعقة و لا موتة: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» (39:) 68) «1».

أو علّ ذوق الموت يعني ذوق ألمه، فالكافر يذوقه في الموتة الثانية كالأولى، و المؤمن لا يذوقه في الثانية لأنه في رحمة اللَّه مهما مات ثانية، رغم ذوقه في الأولى، حيث الدنيا دار بلاء و عناء و عل‏ «فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ» يعني فضل الجنة، و فضلا قبلها أنهم لم يذوقوا الموتة الثانية، حيث لم يموتوا ثانية أو لم يذوقوا ألمها و «ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

مما لا يريبه شك أن‏ «مَنْ شاءَ اللَّهُ» و هم أكرم الأكرمين على اللَّه، هم لا يذوقون الموتة الثانية، ثم من دونهم من المؤمنين باللَّه قد لا يموتون و إن صعقوا، و قد يموتون دون ذوق لألمه.

و لأن‏ «لا يَذُوقُونَ ...» من ميّزات أهل الجنة و كما في الصادقي «و أحياء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 34- اخرج ابن مردويه عن انس (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: يجاء بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة و النار فيعرفه هؤلاء و يعرفه هؤلاء فيقول اهل النار اللهم سلط علينا و يقول اهل الجنة اللهم إنك قضيت ان لا نذوق فيها الموت الا الموتة الاولى فيذبح بينهما فييأس اهل النار من الموت و يامن اهل الجنة من الموت، أقول يأس اهل النار هو من الموت فيها و هي باقية تخفيفا عن العذاب. و اما الموت المطلق بعد تكملة العذاب فواقع قضية عدل الله، ثم قوله (صلى الله عليه و آله و سلم) و يقول اهل الجنة .. دليل على اختصاص .. لا يذوقون ..» بأهل الجنة- فقد يذوقه أهل النار كما بيناه ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 429

لا يموتون» «1» فليذق اهل النار موتة ثانية أمّاهيه بعد الأولى، منها الموتة الثانية و هي عن البرزخ، و منها موتاتهم المستمرة في حياتهم الجهنمية .. «ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى‏» (87: 13) فرغم أنهم لا يموتون في النار فوتا- اللهم إلّا مع النار- فحياتهم لا تشبه الحياة، و إنها أشر من الموت، حيث يذوقون دونما انفصال أخطر بواعث الموت.

إذا فللكافر بعد الموتة الأولى موتات: عن الحياة البرزخية إلى الأخرى، ثم لا يموت فيها و لا يحيى و من ثم الموت المطلق مع النار حيث تموت النار بمن فيها كما حققناه في مباحث الخلود في النار.

و هلّا يكون في الجنة نوم كما ليس فيها موت، قد يكون رياحة، و قد لا يكون لأنه أخ الموت و لأنه من ذوق الموت، فالموتة الأولى و الثانية معهما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 633 ح 57 في اصول الكافي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) انه قال‏ حاكيا عن القرآن يأتي الرجل من شيعتنا الذي كان يعرفه و يجادل به اهل الخلاف فيقوم بين يديه فيقول ما تعرفني؟ فينظر اليه الرجل فيقول ما أعرفك يا عبد اللَّه! قال:

فيرجع في صورته التي كانت في الخلق الاول فيقول ما تعرفني؟ فيقول: نعم- فيقول القرآن: انا الذي أسهرت ليلك و انصبت عيشك و في سمعت الأذى و رجمت بالقول في ألا و ان كل تاجر قد استوفى تجارته و انا وراؤك اليوم، قال: فينطلق به الى رب العزة تبارك و تعالى فيقول: يا رب عبدك و أنت اعلم به قد كان نصبا فيّ مواظبا عليّ يعادى لسببي و يحب فيّ و يبغض فيقول اللَّه عز و جل: ادخلوا عبدي جنتي و اكسوه حلة من حلل الجنة و توّجوه بتاج فإذا فعل به ذلك عرض على القرآن فيقال له: هل رضيت بما صنع بوليك؟ فيقول: يا رب اني استقل هذا له فزده مزيد الخير كله فيقول عز و جل: و عزتي و جلالي و علوي و ارتفاع مكاني لأنحلن له اليوم خمسة أشياء مع المزيد له و لمن كان بمنزلته، الا انهم شباب لا يهرمون و أصحاء لا يسقمون و أغنياء لا يفتقرون و فرحون لا يحزنون و احياء لا يموتون ثم تلا هذه الآية «لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى‏».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 430

موتات النوم، و الجنة ليس فيها موت و لا نوم‏ «1» و لكن قد تدلنا على نومهم الراحة آية المقيل: «أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا» (45: 24) فانه نوم نصف النهار، و لكنها تعني مقيل البرزخ قبل القيامة بدليل التالية لها: «وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا» (25) ثم اللهم لا علم لنا إلّا ما علمتنا.

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58).

هل إن تيسير القرآن بلسانه تسهيل لتفهّمه على ضوء اللغة العربية؟

و قد تكون صعبة لا ميسّرة! و حتى إذا كان القرآن ميسّرا بالعربية «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» لا تختص بالعرب و «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» (81: 28) «وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» (54: 17)! و الحل أن اللسان غير اللغة، فمهما كانت لغته عربية و هي خير اللغات و أيسرها تفهّما، و لكنما اللسان الرسالي المحمدي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) له موقعه الخاص في‏ «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» «فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا» (19: 97) «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» (14: 4) و قوم أولي العزم من الرسل هم العالمون أجمع، فلا بد لكلّ من لسان يفهمه العالمون أجمعون، فليست إذا هي اللغة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 34- اخرج البزار و الطبراني في الأوسط و ابن مردويه و البيهقي في البعث بسند صحيح عن جابر (رضي اللَّه عنه) قال: قيل يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)! أ ينام اهل الجنة؟ قال: لا- النوم أخ الموت و اهل الجنة لا يموتون و لا ينامون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 431

فقد تكون اللغة صعبة و اللسان ميسّر، أو اللسان صعبا و اللغة ميسّرة، و القرآن ميسّر في البعدين لسانا و لغة، حتى إذا لا تعرف اللغة فلتعرف اللسان الذي يترجم اللغة، و هكذا القرآن.

فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59).

ماذا يرتقب الرسول و ماذا يرتقبون؟ إنه يرتقب خلفيّة رسالته و مفعوليتها، و هم مرتقبون به دوائر السوء.

و ارتقب رحمة ربك و ما وعد المتقين من مقام أمين، إنهم مرتقبون لك خلافه من الموت الفوت و في الحق يرتقبون شجرة الزقوم.

و ارتقب عاقبة أمرك اليسر و هم مرتقبون عاقبة أمرهم الإمر «وَ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» (11: 93).

و ارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين‏ «إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ» و هنالك فليخسر المبطلون.

فكل يرتقب نتائج أعماله شاء ام لم يشاء، يوم الدنيا و يوم الدين، و ما عليك إلا البلاغ المبين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 433

سورة الجاثية مكيّة و آياتها سبع و ثلاثون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 435

[سورة الجاثية (45): الآيات 1 الى 13]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ ما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4)

وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ (6) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى‏ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (8) وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (9)

مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَ لا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (10) هذا هُدىً وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 436

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2). الجاثية هي سادسة الحواميم السبع، بازغة بتنزيل الكتاب من اللَّه العزيز الحكيم! و هو القرآن المفصل النازل على صاحب «حم» طوال البعثة، بعد المحكم النازل عليه في ليلة مباركة كما في خامسة الحواميم.

نرى تنزيل الكتاب من اللَّه العزيز الحكيم هنا الجاثية و في غافر الحواميم، و الأحقاف، و في الشورى هو العزيز الحكيم في ذلك الكتاب و ما أنزل قبله من كتاب، ثم في فصلت‏ «تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» ثم لا نجده في الدخان فإنها بازغة بذكر الكتاب المحكم النازل في ليلة مباركة، و لا في الزخرف البازغة بالكتاب المبين.

ففي الخمس التي يأتي ذكر القرآن المفصل يتلوه‏ «الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» إلّا في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 437

واحدة من‏ «الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ». مما يلمح أن الحكيم في القرآن المحكم عزيز في تفصيله و حكيم في ذلك التفصيل و هو الرحمن الرحيم في عزته و حكمته و عزيز حكيم في رحمانيته و رحيميته.

فعزته و حكمته بارزتان في تنزيل الكتاب، فأصبح بآياته كلها تدل على عزة غالبة و حكمة بالغة برحمانيته و رحيميته.

هنالك تبرز كل رحمة و عزة وكل حكمة ممكنة التنزيل على العالمين إلى يوم الدين، فإنه إضافة إلى الشرعة الأخيرة الإلهية نسخته تدوينية في آياته عن كل آية في السماوات و الأرض للموقنين، «تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ»؟.

ندرس هنا مثلثا من آيات التكوين هي آيات اللَّه كشريطات تتكرر و أسطوانات تدار في كتاب اللَّه التدوين و التكوين، تجمعهما الآية «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» (41: 53) و تفصّلها «إِنَّ فِي السَّماواتِ‏- إلى- يُؤْمِنُونَ». إِنَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3).

السماوات هي السبع، و الأرض هي السبع، و هما تعبيران عن الكون كله، و فيه ككل‏ «لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ» فالإيمان هو الذي يفتح البصائر و الأبصار لتلقّي الأصداء و الأضواء و الأنداء، حيث يخالط القلوب بشاشته و يحركها استجاشة، فتحيا و تلتقط من الكون كله آيات و يصبح الكون كله لدى المؤمن آيات بينات، فلا يواجه طرفا من الكون إلا و هو آية تزيده إيمانا باللَّه!.

إن آية السماوات و الأرض و ما فيهما من آيات لا تقتصر على شي‏ء دون شي‏ء و لا على حال دون حال، فانها آيات اللَّه على اية حال «و في كل شي‏ء له آية تدل على أنه صانع»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 438

و لكن لمن؟ لمن أبصر بها فبصّرته، دون من أبصر إليها فأعمته، و الآية هي هي بنفسها و إنما الاختلاف في شبكات الأبصار، قوم عنها عمون، و آخرون و هم قلة يبصرون و يتبصرون حيث هم مؤمنون! إنها آيات اللَّه و كلماته، تحدثّهم عن اللَّه: «قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً» (18: 109) فإن البحر بمداده و مدده آية و كلمة لربي بقطراته، إذا فلا تقف كلمات الرب لحد تحصى و نحن فيها غرقى، في بحر ملتطم من كلمات اللَّه و آياته الدالات، و لا مدلول في الكون يملك من براهين الآيات ما يملكها اللَّه! لو مدّ الإنسان ببصره، و فتح غشاء قلبه و غطاء بصيرته في الأرض و السماوات لتزاحمت الآيات و تراكبت عليه معلنة عن نفسها، دالة على خالقها لمن ألقي السمع و هو شهيد.

و كما أن كتاب التدوين فيه آيات محكمات هن أم الكتاب و أخر متشابهات، كذلك كتاب التكوين، فلنرجع متشابهاته إلى محكماته، اتضاحا لكيانها و دلالتها على بارئها العزيز الحكيم، الرحمن الرحيم! السماوات و الأرض آيتان، و فيهما و ما بينهما آيات، آيات فيها آيات و دلالات لا تجد فيها قيد شعرة إلّا ذات دلالة على العزيز الحكيم الرحمن الرحيم! و ترى إذا كانت آيات الأرض و السماوات خاصة للمؤمنين، فالكافرون قصّر لا يدركونها، فلما ذا يؤنّبون و يعذّبون؟ إنها آيات لكل الناظرين، و حيث لا ينتفع بها إلا من يمشي سبيل الإيمان فهي إذا آيات للمؤمنين، كما القرآن هدى للناس أجمعين، و لكن لا يهتدي به إلّا المتقون‏ «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» ف «المؤمنين» ك «المتقين» هم الذين يفتحون أبصارهم ببصائرهم فهم بآيات اللَّه يهتدون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 439

فأوليات درجات الإيمان تحصل بنظرة بسيطة في سائر الكون، ثم توصل إلى يقين الإيمان بنظرة عميقة في مظاهر الحياة فإنها أغمض، ثم نظرة أعمق في موجبات الحياة و هي أغمض و أعمق، فالأولى لقوم يؤمنون و الثانية لقوم يوقنون، و الثالثة لقوم يعقلون، خطوات ثلاث يتدرّجها السالك إلى اللَّه‏ «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ»؟!.

تلك هي سفرة في ساير الكون، شاسعة فيه آيات للمؤمنين، فإلى سفرة أخص منها و ألمس، حيث الحيويّة الناطقة بآياته تزيد المؤمن إيقانا:

وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ ما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) فآية الدابة و أنتم منها، تزيد على سائر الكون حياة ملموسة، مادية ملموسة مزيجة بلطيفة ملكوتية غير ملموسة، مما يزيد التدبر فيه يقين الإيمان و إيمان اليقين.

دابة مبثوثة في بعدين، بثّ أوّل بين السماوات و الأرض: «وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ» (42: 29).

و بث ثان استمرارية التناسل بين زوجيها في كلّ من السماوات و الأرضين، كما و أن قرن‏ «خَلْقِكُمْ وَ ما يَبُثُّ» ب «السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» يلمح بوجود دواب في السماوات كما في الأرضين، الشاملة لكل من يستحق خطاب «كم» ففي السماوات عقلاء الدواب كما في الأرض من جن و إنسان أم أيا كان.

«فِي خَلْقِكُمْ» و خلق‏ «ما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» حيث مجال الإتقان هنا أوسع لمكان الحياة في كل دابة و بثّها على قدر:

هنالك بث في الزمان و بث في المكانة و بث في المكان، لو لم تكن يد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 440

ضابطة و ممسكة بزمان الدواب في كل بثّ لا نثبّت و تفاوتت و تهافتت.

فالنسور و الأسود جارحة و عمرها مديد و بأسها شديد، و لكنها قليلة البيض و الفراخ بالقياس إلى العصافير و الزرازير في نسلها الكثير الغزير، فلو كانت كما النسور لم يبق لها أثر، فسبحان من خلق كل شي‏ء بقدر.

و ذبابة واحدة تبيض في كل دورة مئات الألوف و لكنها لا تعيش إلّا زهاء أسبوعين، فلو كان فلت في الزمان دون لفت و نظام قاصد حكيم، فعاشت الذبابة أكثر من صالح النظام لغطّت كلّ الأجسام و لألحقت الأضرار الجسام .. و هكذا كل دابة في كل بثّ و بثّ لا تنبث إلّا على قدر، ففي خلق ما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون!: تستيقن قلوبهم أن من ورائها مدبر قدير عليم حكيم سبحان الخلاق العظيم! و من هنا نقلة في خطوة أعمق و أعرق، حيث التفتيش عن موجبات الحياة في الأرض و السماوات:

وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5).

خطوات ثلاث في ساحة الآيات لقوم يؤمنون و يوقنون و يعقلون، و كمال الإيمان هو الإتقان، و كمال الإتقان هو عقل الإيمان و الإتقان، تنتجها هذه السفرات الثلاث من الخلق إلى خالق الخلق، سبحان العظيم المنان! اختلاف الليل و النهار لا تعني تفاوتا بينهما بتضاد و ابتداد، فإنه آية التضاد، و إنما تعني مجي‏ء كل خلف الآخر كسناد و عتاد: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ» (3: 190) «... لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» (2: 164) «لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ» (10: 6).

فلو كانت هنالك صدفة عمياء لكان الفعل واحدا دون اختلاف! و لو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 441

كان الخلق من شركاء متشاكسين فيما يخلقون لما تواتر الليل و النهار خلف بعض بهذا النسق و النظام!. فالليل الراحة اللباس، و النهار المعاش، يتعاملان في صالح الإنسان، بما فيهما من آيات كونية أخرى لأولى الألباب الذين يعقلون و يتقون.

ليس اختلاف الليل و النهار إلّا نتيجة دورات دائبة للأرض حول نفسها و شمسها، عائمة سابحة في الفضاء، دون دعامة ترونها تدعمها و تمسكها على فلكها و تديرها في مدارها، إلّا قدرة العزيز الجبار، سبحان الخلاق العظيم! ثم و هذه الدورات لو كانت أسرع أو أبطأ مما هي الآن لاستحالت الحياة على الأرض، أمّا ذا من مخلّفات و مقدمات اختلاف الليل و النهار لقوم يعقلون، كلما تقدم العقل تقدمت هذه الآيات في دلالات و دلالات، سبحان الخلاق العظيم!.

و لفتة ثانية في هذه الخطوة تلفت أنظار ذوي العقول، هي تكملة الحياة الأرضية بنازل السماء:

وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها (5) و رزقها النازل منها من رازقها إلى مرزوقها في الأرض يعم كل نازل منها ينفع الأرض و أهلها، من مطر و وقد و برد، و من نور و نار من شمس و قمر و نجوم.

فشمسها بنارها تزجي سحابا من الأبخرة الحصيلة بإشراقها فترجع ماء صافيا بقدر، كمصفاة دائبة الإصفاء كما الأرض تصفي في خلالها، ثم النار النور من شمسها تساعدان على إنماء ثمارها و دوابها من إنسانها و سواه، أمّا ذا من عوائد مشرقة بذلك الإشراق، حيث تتعامل نازلات السماء- ما ظهر منها و ما بطن- في إحياء الأرض بعد موتها «فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 442

فلو كانت الشمس نارا دون نور، أم نورا دون نار، أو انحصر ماء السماء بحارّ دون برد، او برد دون ماء، أمّا ذا غير ما هي الآن، لانحسرت الحياة عن الأرض أو ما حصلت، و من ثم: «وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ» ... تصريفه الرياح، و تصريف الرياح السحاب المسخر بين الأرض و السماء، فلولا هذا التصريف أو ذاك لما انصرفت الرياح إلى حيث يصلح، و لتصريف الرياح علاقة بارزة بدورة الأرض و ظاهرتي الليل و النهار و الرزق النازل من السماء، و علاقة أخرى بتدوير و تدبير الأمطار، و تمويج البحار و الأنهار، أمّا ذا من رحمات مقصودة للَّه الواحد القهار، حيث تتعامل في تجاوب عاقل لصالح الحياة على الأرض، لولاها لصعبت أو استحالت: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ وَ السَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» (2: 164) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ (6).

هنالك إيمان بآيات اللَّه فإيقانا و عقلا عنها دلالة على اللَّه، و إيمان باللَّه مدلولا عليه بتلكم الآيات، فهل هنالك دليل أهدى من آيات اللَّه، أو مدلول أقوى من اللَّه‏ «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ»؟.

و ترى آيات اللَّه حديث فإنها حادثة بما خلق اللَّه، فهل اللَّه نفسه كذلك حديث؟ هنا حديث في ذاته و دلالته هي آيات اللَّه، و ثم حديث في كونه مدلولا عليه سرمدي في ذاته هو اللَّه، فإذ كان اللَّه و لم يكن معه شي‏ء، فهو الأزلي فوق حديث، و إذ عرف اللَّه بعد خلقه آياته فالتبصّر بها فالإيمان به، فهو حديث في الإيمان به، فبأي حادث في الكون بعد اللَّه معرفة به و إيمانا و بعد آياته يؤمنون، فاللَّه تعالى مدلولا بآياته دون ذاته حديث، كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 443

آياته حديث، او ان‏ «بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ» تعني بعد حديث اللَّه في كتاب التدوين القرآن، و بعد حديث آيات اللَّه في كتاب التكوين، تؤمنون.

فمن الحديث مبصر و مسموع يعقل، و منه غير مسموع يعقل، و لا ثالث للحديث، فهل بعد كتاب اللَّه حديث فوقه أو مثله، و هل بعد آيات اللَّه في سائر الكون حديث فوقه أو مثله؟

لسان التدوين يحدثكم بأفصح بيان و أبلغه، و لسان التكوين يحدثكم بأفصح بيان و أبلغه، «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ» تدوينا و تكوينا «فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ» (67: 41)!.

فأنتم بين من لا يفهم أي حديث يدل على ما غاب من علم؟

فكالأنعام و أضل سبيلا! أم تفهمون حديثا به تعرفون فتؤمنون.

فهل في الكون حديث أبلغ من كتابي التدوين و التكوين، و الكون كله آيات اللَّه، و كتاب اللَّه يحدثكم عنها و عن شرعة اللَّه، فإذ لا تؤمنون بحديث اللَّه القرآن، و بحديث آيات اللَّه الكون، محدّثان بليغان ما أبلغهما عن اللَّه‏ «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ».

فإما كفر مطلق بكل حديث، أو إيمان مطلق باللَّه حيث يحدثكم عنه كل حديث، فنفسك حديث، و عالمك حديث، و كتاب اللَّه حديث، يحدثك بلسان الفطرة و العقل، بلسان الحال و القال، بلسان التدوين و التكوين، و بكل لسان يفهمه أي إنسان، فإذ لا يؤمنون بحديث اللَّه و آياته‏ «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ»؟

أنت وكل كائن يحمل عقلا أو أية مرتبة من الإدراك، تعيش كونا كلّه آية، و كله لسان، و كله حديث، يحدثكم عن حكمة واحدة بارعة و تصميم فكيف به تكفرون و بكل ما تشتهون تؤمنون: «أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 444

السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‏ءٍ وَ أَنْ عَسى‏ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ» (7: 185) «كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ» (77: 50) حديث اللَّه القرآن هو أحسن حديث‏ «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ ..» (39: 23) و الكون- و هو أحسن الحديث- كله آيات اللَّه، محدّثان عن اللَّه ما لهما من مثيل‏ «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ»؟

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى‏ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (8) الإفك هو كل مصروف عن وجه الحق و وجهته، قولا أو فعلا أو اعتقادا أما ذا من صرف عن الحق، فالأفّاك هو المبالغ في الإفك، و الأثيم هو الذي يعيش الإثم كأنه لزامه في حياته، و الأفاك الأثيم هو الذي يسمع آيات اللَّه البينات من تدوينية القرآن و تكوينية الكون، و يسمعها تتلى عليه، ثم يصر مستكبرا، في استكبار صارم عارم، دون أن يهتدي بها إلى اللَّه، كأن لم يسمعها، فبشره بعذاب أليم.

ويل لفطرته المحجوبة، و عقله الغارب، و قلبه المقلوب، و كل كيانه الإنساني المتغافل عنه، ويل في أولاه و أخراه، في مبدئه و منتهاه، فهو ويل في مقاله و فعاله، في حلّه و ترحاله، وي كأنه الويل كله، أو كأن الويل هو هو كله، فهم شياطين و تنزّل عليهم الشياطين: «هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى‏ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ. تَنَزَّلُ عَلى‏ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ» (26: 223).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 445

و إنها صورة بغيضة متكررة في كل جاهلية، لو أن لها بشارة فهي عذاب أليم، فضلا عما لها من نذارة، إذ تعجز عن تعبيرها كل صيغة «يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ» و لا يتسمّعها فلا يتفهّمها، حتى:

وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (9).

إذا علم- و تفهم في كرور الآيات و مرورها على مسامعه- علم شيئا، لم يأخذها بعين الإعتبار، و لم يتذكر بها بل اتخذها هزوا، إهانة بها و مهانة ليسقطها عن أعين الناس‏ «أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» كما أهانوا آيات اللَّه، مهين بمهين، و أين مهين من مهين؟! و ترى العذاب المهين لهم- فقط- يوم الدين؟ كلّا! فإنه مهان أينما كان و أيان، في حساب اللَّه و حساب عباد اللَّه، مهما تظاهر الشياطين في احترامه مصلحيا لهم و خوفا منه، حيث الهازى‏ء المهين بآيات اللَّه بأحرى هو مهين بخلق اللَّه، لا يعرف لمن سواه احتراما إلّا اختراما، ففي حين يحترم خوفا و مصلحيا، يخترم واقعيا في الأولى، ثم:

مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَ لا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (10).

«مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ» دليل أن عذابهم المهين بادئ يوم الدنيا و إلى يوم الدين، و لا يغني عنهم هناك ما كسبوه من مال و منال يملكونها «وَ لا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ»- إذ ملكتهم- شيئا، ضعف الطالب و المطلوب‏ «وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» فوق أنه مهين.

هذا هُدىً وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11).

«هذا» القرآن البيان «هدى» تدوينية تجاوب هدى تكوينية، آيات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 446

و آيات تتعامل في «هدى» فالضابطة العامة «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ» رغم هداها «لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ» و الرجز أصله الاضطراب، فهنا مثلث العقاب الاضطراب الأليم، دركات يدركونها بميزانية تكذيب الآيات.

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12)» وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13).

خطوة رابعة رائعة للسالكين إلى اللَّه لقوم يؤمنون و يوقنون و يعقلون أنهم يتفكرون، فيما سخر لهم البحر جريا لفلكه بأمره ابتغاء فضله و لعلكم تشكرون، بل‏ «وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ». و ترى ذلك تسخير البحر و ما في البر، فكيف سخر لنا ما في السماوات، و ليس لنا خبر حتى الآن عن كثير مما في السماوات، بل و لمّا نخلّص خبر الأرض فأين ذلك التسخير و أنّى؟! ذلك التسخير لكم له بعدان، أصليّ هو للَّه حيث سهّل في الكون مسالك الإنسان و أقرانه لابتغاء فضله من بحر و بر و جوّ في الشعاع المستطاع لأيّ كائن، فقد نظم الكون بأجمعه بحيث ينتفع به كل كائن، علم ما سخر له أم لم يعلم، فالشمس بتسخير اللَّه تجري لصالحنا كما لسائر الكون، و النجوم مسخرات بأمره، أمّا ذا من كائن في الأرض أو في السماوات‏ «جَمِيعاً مِنْهُ»: حال أن الجميع من المسخّر و المسخّر له و المسخّر لأجله و المسخّر معه، منه لا سواه! «وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ» (21: 79) إذا فليس هناك تسخير من الإنسان أو أيا كان، و إنما تسخير لأجل الإنسان- و فوقه معه- كما سخر مع داود الجبال و الطير.

و من ثم تسخير لنا في بعد ثان أن هيأ لنا أسبابا عقليا و علميا أمّا ذا للكشف عن رموز من الكون نستطيع على ضوئها الحصول على خبايا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 447

و خفايا في الأرض و السماء تجمعها كافة المحاولات العلمية في مختلف الحقول في تقدم متواتر.

فالكشوف الذرية و الأشعة ما فوق البنفسجية و أضرابهما من كشوف علمية و حتى نزولنا إلى القمر أمّا ذا من أجواء عالية و كرات، كل ذلك مما سخّر لنا، و لكن على ضوء الجهود المتواصلة، و إن كانت هنالك تسخيرات لصالحنا من الكون كله ننتفع بها دون وسيط ام بوسيط بسيط كالفلك التي تجري في البحر بأمره أمّا ذا من خلفيات و نتائج في تسخيرات تصلنا دون غور في خضمّ الاكتشافات الملتوية الصعبة و الشائكة.

و مهما كانت هنالك فوارق بين هذه و تلك و لكنها «جَمِيعاً مِنْهُ» دون استقلال في أي استغلال للإنسان إلّا على ضوء القوانين المقررة الكونية من ناحية، و الاستعدادات المتعالية الإنسانية من أخرى: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ. وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ» (14: 34) «سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» (43: 13).

فلا يعني التسخير لنا أو معنا أن نستقل فيما سخّر لنا، أو المناحرة مع المسخّر ضد صالح الكون، و إنما السلوك في السبل الكونية جلية و خفية، المقررة لنا.

فمثلا مكائن التفريخ و أمثالها مما نستبدلها من مخترعاتنا بما خلق اللَّه، إنها من تسخير اللَّه في بعد ثان، حيث هدانا إليها بما نبذل من جهود و نصرفها من طاقات و إمكانيات و «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» فالفكر حركة من المبادئ و من المبادئ إلى المراد، و هذه الحركة الفكرية في الكون المسخر لنا من الآفاق و الأنفس، من الأرض و السماوات و ما فيها من خبايا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 448

و طاقات كامنة منتظمة، إنها آيات دالات على مدبر حكيم سبحان الخلاق العظيم.

فهنالك إيمان و ايقان و تعقل و تفكير مع ركب الكون كآيات إلهية ربانية، توصلنا إلى خالق الكون.

[سورة الجاثية (45): الآيات 14 الى 19]

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (14) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15) وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (16) وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17) ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى‏ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (18)

إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 449

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (14).

أيام اللَّه و ما هي أيام اللَّه؟ أ ليست كل الأيام للَّه حتى تقتسم الأيام بما للَّه و ما لغير اللَّه؟ و كل مكان و زمان للَّه! أجل الأيام كلها من اللَّه و للَّه، و لكن- الظاهر فيها حكم اللَّه، و الحاكم فيها اللَّه لا سواه- ليست هي كل الأيام، فكما أنه مالك يوم الدين و إن كان مالكا ليوم الدنيا، كذلك في الدهر أيام خاصة باللَّه لا دور فيها لسواه، كيوم الرجعة و يوم البرزخ و يوم القيامة، فالأول رغم كونه في الأولى هو من أيام اللَّه حيث الحاكم فيه بقية اللَّه عليه سلام اللَّه، و الآخران هما للَّه إذ تقطعت الأسباب فلا حكم إلا للَّه‏ «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ».

ليس يخص أيام اللَّه بالأخرى فإنه يوم لا أيام، و لا هو مع البرزخ الوسطى فإنهما يومان لا أيام، و أقل الجمع ثلاث، فالقدر الثابت من أيام اللَّه ثلاث، و قد تكون هي الأصيلة و أيام أخرى على هامشها! لا نجد أيام اللَّه في سائر القرآن إلّا هنا و في إبراهيم: «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى‏ بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» (5) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هنا روايات ثلاث إحداها ما

رواه العياشي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الآية «وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ» قال: بآلاء اللَّه يعني بنعمته،

و

الثانية في كتاب الخصال عن مثنى الحناط قال سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: ايام اللَّه يوم القائم و يوم الكرة و يوم القيامة، و الثالثة ما أورده القمي في تفسيره في الآية قال: ايام اللَّه ثلاثة: يوم القائم (عليه السلام) و يوم الموت و يوم القيامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 450

في الدنيا للَّه أيام مركزها الرئيسي يوم الرجعة و القائم، ثم و على ضوئه كل يوم يغلب فيه حكم اللَّه، فهو إذا يوم واحد تجمعه بركات اللَّه على أوليائه، و منذ الموت حتى القيامة يوم، و اليومان محدودان، و من ثم القيامة الكبرى دون حدّ إلّا ما يحدّده عدل اللَّه في أهل الجحيم حيث يفنون أخيرا بفناء الجحيم.

و الذين لا يرجون أيام اللَّه هم الناكرون و المترددون في هذه الأيام، دولة عالمية، ثم برزخ، ثم قيامة، و بصيغة أخرى: قيامة صغرى ثم وسطى ثم كبرى هي أيام اللَّه التي لا يرجوها إلّا أهل اللَّه.

من حق أيام اللَّه أن ترجى إذ تعني هذه الثلاث، أو تخاف كأيام العذاب الاستئصال، و الثانية لمن لا يرجو الأولى.

و ترى كيف يؤمر الذين آمنوا أن يغفروا للذين لا يرجون أيام اللَّه و هم خطر و شرر على الكتلة المؤمنة؟ ثم و كيف يغفرون و ليس الغفر إلا بيد اللَّه، و هو أيضا لا يغفر حيث غفرهم يعني‏ «لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ»؟! الغفر و هو الستر و الإغماض، قد يعني غفرا إلهيا لا يتكفله غير اللَّه و لا سيما فيما اللَّه واعد فيه العذاب كما هنا، أم غفرا بشريا فيما يحق له الانتقام و لا يسطع أم لا تناسبه الظروف كما في العهد المكي، فليغفر حتى يأتي اللَّه بأمره كما في العهد المدني، أم غفرا في الدعوة غير الناتجة لمن كتب عليه العذاب حيث الإنذار و سواه عليه سواء، فليغفر الإنذار إعراضا عن الدعوة ليذوقوا و بال أمرهم‏ «لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» و هذا الغفر يستمر في كافة العهود الرسالية للذين آمنوا.

إذا فآية الغفر ليست منسوخة بآيات القتال المكية حيث الغفر الأخير مستمر في ممرات الدعوة، و الثاني مستمر في ظروفه طوال الدعوة، مهما كان العهد المكي من أبرز مصاديقه، فللمسلمين عهود تختلف، و لكل ظرف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 451

عهده من قيام و قعود و حرب و صلح، و من الغفر للذين لا يرجون أيام اللَّه ترك الدعوة حين لا تؤثر إلّا مزيد الطغيان فحرب و إبادة، كما منه تركهما إذ لا يسطع المحاربة، و كلّ يتطلب ظرفه المناسب له، و الظرفان مشتركان في استحقاق العقوبة «لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ».

فالغفر- إذا- قد يكون رحمة من اللَّه أو من أهل اللَّه كسائر موارد التسامح عن المذنبين، و قد يكون نقمة كما في ترك الدعوة مقاطعة لإقامة الحجة للذين‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» و هذه المقاطعة تزيد المقطوع عنه طغيانا و كفرا فعذابا فوق العذاب، أم في ترك الانتقام إذ لا تسطع فإلى اللَّه المصير فيما لا تسطع‏ «لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» «1».

كما و من الغفر واجب و منه راجح و منه محرم، و لا يؤمر الذين آمنوا إلا بغير المحرم، فترك ملاحقة الكفار و المفسدين عند المكنة محرم، و ترك الأمر و النهي في ظروفهما المتطلّبة لهما محرم، و ترك الدعوة فيما تؤثر أو تزيد حجة محرم، فمثلث الغفر هذه محرم لا تعنية آية الغفر هذه كما لا تعني الغفر المستحيل و هو السماح عن الذنوب الخاص باللَّه.

مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ‏. (15).

فكل من العمل الصالح و الطالح يرجع بلزام آثاره الى عامله، مهما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 1 ح 6 عن تفسير القمي في الآية قال: يقول أئمة الحق لا تدعون على أئمة الجور حتى يكون اللَّه الذي يعاقبهم في قوله‏ «لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» حدثنا ابو القاسم قال حدثنا محمد بن عباس قال حدثنا عبد اللَّه بن موسى قال حدثني عبد العظيم بن عبد اللَّه الحسني قال حدثنا عمر بن رشيد عن داود بن كثير عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الآية: قل للذين مننا عليهم بمعرفتنا ان يعرفوا الذين لا يعلمون فإذا عرفوهم فقد غفروا لهم، أقول ليست معرفتهم غفرانا لهم الا في تاركة الدعوة حيث أيسوا بما عرفوهم من هداهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 452

أثر في الآخرين، فمن سن سنة حسنة كان له مثل اجر من عمل بها الى يوم القيامة و لا ينقص أولئك من أجورهم، و من سن سنة سيئة كان عليه وزر من عمل بها الى يوم القيامة و لا ينقص أولئك من أوزارهم شيئا، جزاء من ربك عطاء حسابا و عقابا وفاقا.

وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (16).

ذلك بيت إسرائيل، أوتي مثلثا من الرحمة: الكتاب و الحكم و النبوة، في الرعيل الأعلى منهم، و من ثم رحمة عامة: «وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ».

فقد جمعت لهذا البيت المفضل على العالمين مجامع الرسالة، من رسول جمعت له‏ «الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ» كموسى و المسيح (عليهما السلام) كتاب مستقل و حكم رسالي مستقل و نبوة و رفعة في الحكم الكتاب.

و منهم من أوتي كتابا برسالة دون حكم و لا نبوة، اللهم إلّا حكما ملكيا كداود و سليمان، أم حكما على هامش ولي العزم كسائر الحكم في سائر المرسلين، و أما النبوة المطلقة و هي رفعة في الحكم الرسالة فهي لولي العزم خاصة، فكل نبي رسول و ليس كل رسول نبيا «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ».

و منهم من أوتي حكما دون كتاب و لا نبوة كطالوت ملك إسرائيل، حكما على ضوء الرسالة و ليس حاكمه من الرسل، فما أوتي كتابا فضلا عن نبوة.

ثم الذين لم يؤتوا كتابا و لا حكما و لا نبوة في أنفسهم، عاشوا مثلث هذه الرحمة، حيث كانت لهم و إليهم كرأس الزاوية الرسالية، ثم و هم رزقوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 453

من الطيبات و فضلوا على العالمين.

وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17).

هنا «بينات» من أمر الشرعة التوراتية، و بينات من أمر الآية الرسالية، آيات بينات تكوينية و تدوينية، حاسمات فاضلات لا غموض فيها و لا عوج و لا انحراف، بينات ربانية كالشمس في رايعة النهار لا تدعو إلى اختلاف، و إنما إلى العلم الواضح.

«فَمَا اخْتَلَفُوا» في بينات الأمر رسالة و كتابا «إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ» بغيا على البينات، و على حملة البينات بعضهم على بعض، و بغيا على الأمة، تحريفا كما يهوون، و تجديفا كما يشاءون‏ «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

و لقد وصل أمرهم في اختلافهم في أمرهم إلى حد من نكرهم في إمرهم لا يتحمل، إلّا أن يتحول أمر الشرعة إلى غيرهم و كما هددوا في التوراة و لكن لا حياة لمن تنادي! في العهدين الجديد و العتيق بشارات بانتقال أمر الشرعة الإلهية إلى بيت إسماعيل في الرسالة المحمدية (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و نموذجا منها ما في حزفيال 19: 10- 14 «أمّك مثل كرمة غرست على المياه فصارت كثيرة الثمار و الأفنان من غزارة المياه (10) و صارت قضبان صلبة صوالجة للسلاطين و ارتفع قوامها بين الفروع الملتفة فظهرت في ارتفاعها و كثرة عذباتها (11) ثم إنها قلعت بحنق و طرحت على الأرض فأيبست الريح الشرقية ثمرتها و كسرت قضبانها الصلبة و أكلتها النار (12) و الآن هي مغروسة في البرية في أرض قاحلة ظمئة (13) فخرج من قضبان شعبها نار أكلت ثمرتها فلم يبق فيها قضيب صلب صولجان للتسلط هذا رثاء و رثاء سيكون (14).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 454

فالكرم هنا ابراهيم حيث المخاطب في أمك اما حزقيال او كافة بني إسرائيل، فالأغصان هي نسل إبراهيم من بيت إسرائيل، إذ سكنوا فلسطين فنموا و ريّوا و تمتعوا فتحصلت من هذه الأغصان قضبان صلبة هي النبوة الإسرائيلية، «ثم قلعت بحنق و طرحت» و هي انقضاء الحكم و النبوة و الكتاب عنهم «و الآن هي مغروسة في البرية في أرض قاحلة ..»

هي برية فاران أرض الحجاز، حيث تحولت القضبان الإسرائيلية من هذه الشجرة الإبراهيمية إلى قضبان إسماعيلية في الرسالة الأخيرة المحمدية، و النار الخارجة منها هي الشريعة النارية التي هي نار للشاردين و نور للواردين، نار تحرق كل أغصان الباطل، و تورق أغصان الحق من تلك الشجرة الطيبة ..» «1»-

ذلك ما تلمح به آي من الذكر الحكيم، حين تذكر رحمة الكتاب و الحكم و النبوة و رزقهم من الطيبات و تفضيلهم على العالمين:

ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى‏ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19).

إنه لا بد من حكم في الجماهير المحتشدة المختلفة، فإما شريعة من امر اللَّه و إما شرعة الأهواء الهباء، فلا وسط بينهما و لا أنصاف حلول، فشرعة الأهواء الخالصة أو الملتقطة من الشرعتين هما على سواء، و قد تكون الضلالة في شرعة الالتقاط أعمق و أهوى، حيث تبرز الحق بمظهر الباطل ليتجنب، و الباطل بمظهر الحق ليتّبع، فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص 31- 32- و فيه بشارات اخرى كهذه تدل على انتقال الشريعة من بني إسرائيل الى بني إسماعيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 455

و نجى الذين سبقت لهم من اللَّه الحسنى! فلا يترك أحد شرعة اللَّه إلا ليحكّم الأهواء، فكل ما عدى شرعة اللَّه الخالصة هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون، سقطات في هوّات و لأتباع ضلالات! أمر اللَّه- و هو دينه- واحد و الشرائع إليه عدة تنحو منحى واحد، مهما اختلفت الشكليات حسب مختلف القابليات و البليات: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» (42: 13) «1».

إن الأمر الدين هو كتاب الوحي و رسول الوحي ببينات الوحي، و في هذا المثلث ترسم شرعة من الأمر، و شريعة من الأمر- الأخيرة- هي تحمل الأمر كله، و الشرائع المستقدمة عليها تهيئات لها و مبشرات بها، و محضّرات إياها للعالمين إلى يوم الدين.

إتباع هذه الشرعة منذ بزوغها إلى يوم الدّين هو الدين كله، و الأمر كله، كما اتباع سواها إتباع لأهواء الذين لا يعلمون، على دركاتهم في ال «لا يعلمون» من ملحدين و مشركين و كتابيين أو و مسلمين التقاطيين أمّن ذا من هؤلاء الذين ينجرفون عن محض شرعة الإسلام إلى غير محضها، مهما كان خليطا منها و سواها، أم كلّها سواها أم ماذا؟

إنها شريعة واحدة تستحق هذه السمة «فاتبعها» ثم و لما عداها «وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» و لماذا تتبعها تركا لشرعة اللَّه أو لشي‏ء منها؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية في الشورى تجد فيها بحثا مفصلا يساعدك على ما هنا من امر الشرعة الأخيرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 456

هل ليغنوا عنك من اللَّه شيئا في تشريع شرعة، و لا مشرّع إلّا اللَّه‏ «إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً»!.

أم ليغنوا عنك بديلا عنها أو عن بعضها نصرة لك في الدعوة أو كثرة في اتباع الدعوة ف «لن ..» فإنهم و أنصارهم إذا أتباع أهوائهم دون هذه الشرعة! أم ليغنوا عنك يوم القيامة بديلا عن عذاب اللَّه؟ و «لن ..» فإنهم يكفيهم ما هم فيه من عذاب عظيم! أماذا من إغناء ترجوه منهم‏ «إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ» فلا يغني عنك من اللَّه هنا و في أيام اللَّه إلّا اللَّه، و هو لا يغني إلّا المتقين المتحرزين عن إتّباع الأهواء.

إن الظالمين بأمر اللَّه و شرعته و برسول اللَّه و كتابه، هم بعضهم أولياء بعض، فلا تكن من هؤلاء الأبعاض‏ «اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ» دون الظالمين.

فاتّباع غير هذه الشريعة من الأمر ظلم و ضلال مهما كان في حكم مصلحيا أو أحكام، فشريعة اللَّه لا يتاجر بها، و لا تخالطها أهواء الذين لا يعلمون.

هكذا يؤمر الرسول فأحرى بمن سواه من المكلفين إلى يوم الدين أن يتخذوا شرعة القرآن و على هامشها السنة الإسلامية، يتخذونها لا سواها نبراسا ينير الدرب على الحائرين، و متراسا يجابهون به المائرين!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 457

[سورة الجاثية (45): الآيات 20 الى 27]

هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (21) وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (22) أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى‏ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلى‏ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلى‏ بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (23) وَ قالُوا ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (24)

وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (26) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 458

هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20).

«هذا» الأمر شريعة من الأمر و هي في الحق الأمر كله، و علّه لذلك يشار إليه ب «هذا» دون «هذه» مع التصريح المسبق‏ «شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ»، «هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ».

و الشريعة في الأصل هي الطريقة المفضية إلى الماء المورود، و الشرايع هي طرائق إلى الأمر الدين الحياة الرّواء، و هذه الشريعة تروّي الظمآن من مائها المورود كله، فهي هو و هو هي‏ «بَصائِرُ لِلنَّاسِ».

و البصائر جمع بصيرة، و هي المبالغة في الإبصار و هو الإدراك المصيب للواقع، كما «الْإِنْسانُ عَلى‏ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَ لَوْ أَلْقى‏ مَعاذِيرَهُ» (75: 15) فالقرآن مجموعة من البصيرة، و لأنه الصراط المستقيم، لا يحيد سالكه عن رحمته و هداه حتى يوصله إلى يقينه‏ «وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» من علم اليقين و عين اليقين و حق اليقين.

سائر الشرايع من الأمر ليست بصائر في نفسها بكتابات وحيها إلّا على ضوء اثباتاتها ببصائر الآيات المعجزات و أهمها و اجمعها و أغناها بصائر شرعة موسى: «وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى‏ بَصائِرَ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 459

لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (18: 43) و لكنه بصائر بعد هؤلاء الآيات: «ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ وَ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً» (17: 102):

فبصائر الكتب الشرعة في سائر الرسالات منفصلة عن بصائر الآيات المعجزات، و لكن بصائر الشرعة الأخيرة يجمعها القرآن، فهو بنفسه أفضل و أكمل آية معجزة لهذه الرسالة و هذه الشرعة، و مهما كان نبيّه بصيرة: «قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى‏ بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي» (12: 108) و لكنه قد لا يصدّق في سبيله الرسالية إلّا على ضوء بصائر القرآن:

«وَ إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى‏ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (7: 203):

كل آية من هذا البصائر بصيرة تحمل بصائر في كافة الحقول لأرباب العقول، بصيرة فطرية- عقلية- فكرية- علمية- قلبية، بصيرة للأبصار و البصائر، و بصيرة فردية و اجتماعية، ثقافية و سياسية، و اقتصادية و حقوقية، أخلاقية و معرفية أمّاذا من بصائر، تجعل الإنسان الذي على نفسه بصيرة، تجعله نبعة البصائر، و تضي‏ء له الدرب إلى المساير و المصاير.

«هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ» ككل، و لكنها لا تبصّر إلّا من استبصر بها فتبصّر، إذا فهو «هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (7: 203) و من ثم‏ «هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»، فهنالك إيمان ثم إيقان في مراتبه الثلاث.

فلا ذريعة للإيمان الإيقان إلّا بصائر القرآن، دونما حاجة إلى بصائر عقلية فلسفية أو علمية من غير القرآن، أ تظن اللَّه أهمل طرفا من ذرائع الإيمان و الإيقان في قرآنه البيان و «تِبْياناً لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ»؟! و «إن هذا القرآن هو النور المبين، و الحبل المتين، و العروة الوثقى، و الدرجة العليا، و الشفاء الأشفى، و الفضيلة الكبرى، و السعادة العظمى، من آثره على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 460

ما سواه هداه اللَّه، و من طلب الهدى في غيره أضله اللَّه، و من جعله شعاره و دثاره أسعده اللَّه، و من جعله إمامه الذي يقتدي به و معوّله الذي ينتهي إليه أداه اللَّه إلى جنات النعيم و العيش السليم‏ «1» أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (21) «أم» الإضرابية في عطفها توحي بمعطوف عليه يناسب معطوفها ك «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ‏ ان هي إلا حياتهم الدنيا» كما ينقل عنهم بعد هنيئة، «أَمْ‏ .. نَجْعَلَهُمْ ..»

و تلك هي قولتهم الخواء تنازلا عن نكران الحياة بعد الموت أن اللَّه سوف يسوي بينهم في الحياة الأخرى في رحمته‏ «أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ». فكما كانوا في محياهم سواء في عدم الانتقام من ظالمهم لمظلومهم، كذلك في مماتهم، «سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ» بما لهم الرجاحة في الحياة الدنيا و كأن اللَّه عليهم أعطف و بهم أرحم و ارأف! «ساءَ ما يَحْكُمُونَ» بين المحسن و المسي‏ء، و يحكمون على اللَّه أنه ظلام للعبيد، فسواء لم تكن هناك حياة الحساب بعد الموت، أو كانت و لكنها سواء بين المحسن و المسي‏ء! و قد تعني «سواء» المساواة بين الحياة اللّاحساب، و الممات اللّاحساب، إما لأن الموت فوت، أو أنه حياة دون حساب كما الحياة الدنيا، فالتسوية بين حياة الفريقين و مماتهم ظلم و بطلان لخلق الكون، فمهما كانوا سواء في محياهم في اللّاحساب على رجاحة مجترحي السيآت في الحياة، ففي مماتهم حساب يجبر ما جرحوا و ظلموا، و يحبر المظلومون المؤمنون.

فرغم أن محياهم في اللّاحساب سواء، و الظالمون هم المفضّلون في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اصول الكافي ج 2 ص 600 عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 461

حظوة الحياة الدنيا! فمماتهم ليس سواء ألّا حياة بعده أم ليست هي حياة الحساب! ويلهم من هذه الرعونة النكراء، الطاغية على خلق اللَّه و على اللَّه:

وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (22).

إن خلق الكون بالحق، مادة و مدة، عدّة و عدّة، مصاحبا «بالحق» و هادفا «بالحق» «وَ لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ» في مجموعة الكون‏ «وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» كل ذلك يناحر قولتهم الخواء: «سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ» أم و «ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا» أ تسوية ظالمة هادفة بين المحسن و المسي‏ء: و بين الظالم و المظلوم، تجعل خلق الكون لهوا و باطلا بما هم يظلمون، أ جهلا بما يظلمون! أم عجزا عن جزائهم، أو ظلما «وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»؟! سيئات مجترحة شرف الإنسانية و نواميسها، و ساحة الربوبية و سماحتها، ثم يتغافل عنها أو يعامل معها معاملة الحسنات؟ ويحهم أنى يؤفكون، فبأي حديث بعد اللَّه و آياته يؤمنون»! أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى‏ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلى‏ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلى‏ بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (23).

«أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا» (25: 43) كلا! إذا فلا هداية بعد من اللَّه و لا وكالة لرسول اللَّه، حيث انقطع بتأليه هواه عن ولاية اللَّه! إن لاتّباع الهوى دركات أسفلها الطاعة المطلقة للهوى: أن يصبح صاحبها سلس القياد لها دونما تخلف عنها كأنه يعبدها، فالآله من يؤله فيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 462

و يحتار و يعجز عن دركه و يفزع له و يسكن إليه فيعبد، و من اتخذ إلهه هواه هو غير من اتخذ هواه إلهه، فالأول يعرف إلهه و لكنه يرفضه و يستبدل به هواه يطيعها كما يحق أن يطيع اللَّه! و الثاني قد لا يعرفه فيظنه هواه، فذلك على علم من إلهه و هواه و لكنه يجحده إلى هواه‏ «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ» (27: 14) فما أضل منه سبيلا!.

«وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى‏ عِلْمٍ» على علم ممن اتخذ إلهه هواه أنه أخطأ هداه، و على علم من اللَّه أنه لا يحنّ إلى هداه، فحق عليه أن يضله اللَّه إزاغة بما زاغ و إضلالا بما ضل، تركا له في ضلاله يعمه و في طغيانه يتردّد، ختما على سمعه فلا يسمع و على قلبه فلا يعي و لو يسمع، و غشاوة على بصره فلا يبصر، فالقلب له وعي من ذاته و وعي من سمعه و بصره، فإذا ختم على سمعه و غشي على بصره فلا وعي له منهما، و إذا ختم على قلبه فلا وعي له من ذاته: «لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» (7: 179):

«فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ» إذ تركه و أضله «أ فلا تذكرون» ما هو مصير من اتخذ إلهه هواه، «وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى‏ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» (38: 26) «وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى‏. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى‏» (79: 40) و من تذكر صحا و تنبه و تخلص من ربقة الهوى و تقلّص.

وَ قالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24) هذه أطول قولة تنقل عن الماديين، لا مثيل لها في ساير القرآن إلّا في نكران المعاد «إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 463

(23: 37) «وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» (6: 29).

فتلك إذا آية وحيدة في نسبة الإهلاك إلى الدهر، تزيد كفرا على نكران المعاد، تتحدث عن الناكرين للمبدء و المعاد «1»، و هم قلة قليلة طول التاريخ، و على غرارها لا تحملها إلّا آية واحدة.

لقد حصروا الحياة بالدنيا و حسروها عما بعدها من وسطى و عليا، و حصروا إهلاكهم بالدهر، مما يدل على إحياءهم في زعمهم كذلك بالدهر، دونما علم أو أثارة من علم به يسندون في نكران المبدء و المعاد، إلّا ظنا و حسبانا باتباع الهوى: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ» (53: 23).

و لماذا «نَمُوتُ وَ نَحْيا» معاكسة التعبير عن ترتيب الواقع «نحيا و نموت»؟

علّه تعبير عن مواصلة الموت و الحياة للمجموعة حيث يموت بعض و يحيى آخرون فيستمر النسل، ف «نموت» جماعة «و نحيى» جماعة أخرى، يتنقل الموت و الحياة هنا دونما نقلة بالموت إلى حياة أخرى، أو «نموت» نحن الأحياء ثم لا نحيى لحياة أخرى حقيقية و إنما بما يحيى أولادنا، كسخرية تقابل الحياة الأخرى، فنحن المجموعة- إذا- بين موت واحد و حياة واحدة و ليست هنالك بعدهما حياة و لا موتة أخرى، و هو خلاف الحق الذي جاء به الرسل فيصدقونها يوم الدين‏ «قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ..»!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «نَمُوتُ وَ نَحْيا» للدهريين يعني الاول و للمشركين يعنيهما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 464

و في‏ «نَمُوتُ وَ نَحْيا» دون سناد لمن يميتهم و يحييهم تلميحة إلى نكران المحيي المميت اللّهم إلّا الدهر المميت و ليس إلّا من جنسهم.

فهم يظنون ألا تمتد إليهم يد بالموت و الحياة، إنما هي الأيام تمضي و الدهر ينطوي و بطيّاته إذا هم أحياء و من ثم هم أموات‏ «وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ» و كيف يصلح الدهر مفسرا للموت و هو أمر منتظم مقصود و ليس الدهر الطبيعة قاصدا، فالأطفال يموتون كما الشيوخ، و الأصحاء يموتون كما المرضى، و الأقوياء كما الضعفاء، فالتفسير الحي للحياة و الموت أنهما على نظم و قصد دونما صدفة عمياء، أو فاعلية دهرية طخياء! هب إن الهلاك هو بالدهر، فما هو سبب الحياة، هل هو كذلك الدهر، و مختلف الفاعليات دليل القصد و الحياة في الفاعل، أم إن الحياة مما فوق الدهر فهو اللَّه، أم الحياة و هي ارقى ليس لها سبب و إنما الهلاك؟ تلك إذا قسمة ضيزى! و لأن جماعة من المشركين يعتقدون تناسخ الأرواح في الحياة الدنيا، أن روح كل ميت ينتقل إلى حي فيعيش في غير بدنه، و الآية في احتمال أوسع تشمل قبيلي الملحدين و المشركين، «نَمُوتُ وَ نَحْيا» لجمع من المشركين قد تعني المعنيين، فكما يموت بعض و يحيى بعض، كذلك نموت من بدن و نحيى في بدن آخر «1»: و ما الإهلاك النسبي هذا و لا الإهلاك القاطع إلّا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 2 ح 9- القمي في الآية: ثم عطف على الدهرية: نزلت هذه الآية في الدهرية و جرت في الذين فعلوا، ما فعلوا بعد رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ..

و

فيه عن اصول الكافي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال‏ قلت له: اخبرني عن وجوه الكفر في كتاب اللَّه عز و جل؟ قال: الكفر في كتاب اللَّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 465

بالدهر حسب الدهريين، ام و البعض من المشركين القائلين بربوبية للدهر الطبيعة إمّا ذا؟

و هل الدهر في زعمهم هو الزمان، ففي تصرمه لحدّ مّا هلاك من يهلك، أو أنه الطبيعة، فكما خلقتنا كذلك أهلكتنا؟ و ما الدهر الّا بأمر خالق الدهر طبيعة أو زمانا أو أيا كان من «كان» فهو المحيي و هو المميت‏ «وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ» الذي يهرفون «من علم»: ايّ علم أو أية شائبة من علم، ف «من» تلمح كتصريحه ألّا علم لهم إطلاقا في حصرهم الحياة بالدنيا، و موتهم بالدهر و تناسخ لأرواحهم، أمّاذا من هرطقات و أساطير الجهالات.

فالقول بغير علم جهل عميق و حمق عريق قد يعبر عنه بالظن، و كيف الظن و هو اعتقاد راجح؟:

حالات العقل بين احتمال و شك و ظن و علم، و يقين بمراتبه، فإذا كانت مستندة إلى حجة مقبولة كانت ممدوحة: يحتمل لأنه .. أو يشك فيه لأنه أمّاذا!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

على خمسة أوجه فمنها كفر الجحود على وجهين، فالكفر بترك ما امر اللَّه و كفر البراءة و كفر النعم، فاما كفر الجحود فهو الجحود بالربوبية و هو قول من يقول لا رب و لا جنة و لا نار و هو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم الدهرية و هم الذين يقولون: و ما يهلكنا إلّا الدهر و هو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان منهم على غير تثبت منهم و لا تحقيق لشي‏ء مما يقولون يقول عز و جل‏ «إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» ان ذلك كما يقولون.

و

في نهج البلاغة: فانظر الى الشمس و القمر و النبات و الشجر و الماء و الحجر و اختلاف هذا الليل و النهار و تفجر هذه الأنهار و كثرة هذه الجبال و طول هذه الاتلال، و تفرق هذه اللغات و الألسن المختلفات فالويل لمن جحد المقدر و أنكر المدبر زعموا انهم كالنبات، ما لهم من زارع و لا لاختلاف صورهم صانع و لم يلجئوا الى حجة فيما ادعوا و لا تحقيق لما ادعوا و هل يكون بناء من غير بان او جناية من غير جان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 466

أمّا إذا لم تستند إلى وثاق و إنما بما تهوى الأنفس فهي كلها مطرودة و لو كانت يقينا! و هؤلاء يظنون ما يتقولون دونما حجة لهذه الرجاحة الظنية:

«إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ» فهو أردء من احتمال مرجوح يملك برهانه.

و قد يعبر عن يقينهم- الخاوي عن حجة- بالظن، تزييفا لموقفه و تنزيلا إلى الظنّة المتهوّسة التي لا تملك أية حجة في أية رجاحة لما يظن.

و على أية حال فمن حالات النفس مقدسة و إن كانت شكا في الحق إذا كان عن حجة و لمّا تصله حجة الحق و هو يتحراها، و منها مدنّسة و إن كان يقينا حين لا تملك حجة إلّا على خلافها كظنون الدهريين و المشركين و أضرابهم من الناكبين المقصرين عن صراط الحق.

فإذا كانت من هدى العقل متحرية عن الحق صحت، أو كانت من هوى النفس متجرئة على الحق سقمت، و ماذا بعد الحق إلّا الضلال فأنى تصرفون!:

وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25) و آباؤهم كأمثالهم‏ «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ» و هل اللّادليل دليل لمن ليس له دليل، لأنه من القدامى الماضين؟ و لو أتوا بدليل فهل يربوا على آيات اللَّه البينات؟ فهل يأتى الآباء المشركون بأفضل مما أرسل به المرسلون، أم لهم حجج على ما يدّعون، «ما كانَ حُجَّتَهُمْ» على ممر التاريخ الرسالي‏ «إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ».

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (26).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 467

إنها لا صدفة للحياة و الموت و لا فاعلية مستقلة من هذا الكون في إحياء و إماتة، فإنما اللَّه و اللَّه فقط «يحييكم» للحياة الدنيا «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ» عنها «ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ» في حياة أخرى‏ «إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ» في مثلث الإحياء و الإماتة و الجمع ليوم القيامة «وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ».

مختلف الأفعال المنتظمة دليل على فاعلية إلهية حكيمة عليمة للحياة و الموت، و الألوهية الحكيمة العادلة لزامها الجمع إلى يوم الجمع، فالآية إذا برهان إجمالي لإثبات المبدء و المعاد.

اللَّه يحييكم كما أحيى الدهر، ثم يميتكم كما يميت الدهر، فالحياة و الموت تلو بعض مشهودان لكل حيى في مشهد الدنيا، فما ذا يجديكم أن يؤتى بآبائكم؟ ثم الذي يحيي أوّل مرة و يميت هو أجدر أن يحيي ثاني مرة و يميت و هو أهون عليه، كما يجمع الجميع للموت يوم الجمع الإماتة، ثم للحياة في الجمع الإحياء.

وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27).

«للَّه» لا سواه‏ «مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» تعبيرا عن الكون كله، ملك لا يزول و لا يتنقل‏ «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ» القيامة «يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ» في واقع أعمالهم و أفكارهم الظاهرة هناك بحقائقها الباطلة، مهما لم يظهر خسارهم يوم الدنيا كما يجب، رغم أنهم في خسار و بوار، و معيشة ضنك، «مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏ ..»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 468

[سورة الجاثية (45): الآيات 28 الى 37]

وَ تَرى‏ كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى‏ إِلى‏ كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى‏ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (31) وَ إِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32)

وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (33) وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (34) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (36) وَ لَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 469

وَ تَرى‏ كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى‏ إِلى‏ كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29) مشهد عجيب رهيب، يوم العرض الأكبر على اللَّه، و قد تجمعت فيه الأمم المحتشدة، جاثية على الركب دون جهنم‏ «1» في ارتقاب الحساب «و ترى» أنت أيها الرسول كشهيد الشهداء، و يرى معك كل راء «كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى‏ إِلى‏ كِتابِهَا».

«كُلَّ أُمَّةٍ» هنا تعني كافة العالمين المكلفين، و ليس جمع‏ «كُلَّ أُمَّةٍ» إلّا بقاسم كل شرعة شرعة، إذا «كُلَّ أُمَّةٍ» تعني أمة كل شرعة، و هي الخمس لأولي العزم الخمسة «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى‏ إِلى‏ كِتابِهَا» فلكلّ من الخمس كتاب تدعى إليه عرضا لأعمالها عليه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 36- اخرج سعيد بن منصور و عبد اللَّه بن احمد في زوائد الزهد و ابن أبي حاتم و البيهقي في البعث عن عبد اللَّه بن باباه قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كأني أراكم بالكرم دون جهنم جاثين ثم قرأ سفيان: و ترى كل امة جاثية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 470

و ترى‏ «كُلَّ أُمَّةٍ» لا تشمل المتخلفين عن كل شرعة من موحدين و مشركين و ملحدين الذين لا يدينون بأية شرعة من الدين؟ و هم أحرى أن تكون جاثية، و أن ينطق كتاب الحق عليهم بالحق، استنساخا لما كانوا يعملون! أم تشملهم و كيف تشملهم و هم خوارج عن كل أمة؟ .. «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا .. وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا» من أدلة الشمول، و أن الكفار بدركاتهم تشملهم‏ «كُلَّ أُمَّةٍ»! و كون الكافر في كل رسالة من الخمس من أمتها لا يعني أنه مصدق بها، و إنما أمة كل رسالة هي التي يتوجب عليها الإيمان و التطبيق لهذه الرسالة، سواء آمنت فنعمّا أو كفرت فبئسما! فتدعى‏

«إلى ما يجب عليهم من أعمالهم» «1»

و لا يعني كتاب كل أمة كتب الأعمال الشخصية فإنها لكل فرد فرد من كل أمة، و النص: «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى‏ إِلى‏ كِتابِهَا» دعوة للعرض عليه بكتاب كل فرد فرد، أو أن «كتابها» تعنيهما، كتاب كل أمة كمعروض عليه، و كتاب كل فرد كمعروض به، كما أن‏ «ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏ ... هذا كِتابُنا ... إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ::» تعبيرات ثلاثة عن ثاني الكتابين.

يعرض كتاب الأعمال على كتاب الأمة فيجزى كل بكتابه الخاص، بعمله، فالجزاء هناك عبارة عن ظهور ملكوت الأعمال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 5 في روضة الكافي باسناده عن أبي بصير عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال‏ قلت له قول اللَّه عز و جل‏ «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى‏ إِلى‏ كِتابِهَا قال: الى ما يجب عليهم من اعمالهم:

و

في الدر المنثور 6: 36- اخرج ابن جرير عن قتادة في قوله‏ «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى‏ إِلى‏ كِتابِهَا» قال يعلمون انه يدعى امة قبل امة و قوم قبل قوم و رجل قبل رجل ذكر لنا إن نبي اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كان يقول: يمثل لكل امة يوم القيامة ما كانت تعبد من حجر او وثن او خشبة او دابة ثم يقال: من كان يعبد شيئا فليتبعه فيكون اوّل ذلك الأوثان قادة الى النار حتى تقذفهم فيها فيبقى امة محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و اهل الكتاب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 471

«الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» لا «بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فليس الجزاء منفصلا عن العمل، فإنه متصل به اتصال الحقيقة بالظاهر و السر بالعلن، «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»، و هذه من عشرات الآيات في تصريحاتها بانعكاس الأعمال‏ «1».

لكل أمة كتاب هو كتاب شرعة اللَّه، و لكل فرد كتاب استنسخه اللَّه، فهما كتاب اللَّه كما الأول كتاب كل امة و الثاني كتاب كل فرد، قد يعبر عنه بكتابك‏ «اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى‏ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» (17: 14) أم كتاب اللَّه‏ «هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

«إِنَّا كُنَّا» هنا كتعليل ل «كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ» أن كيف تنطق الأعمال؟ فالجواب‏ «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» و حق الاستنساخ للعمل نقل صورته بسيرته كما صدر في حال أو مقال أو أعمال، في نسخة صوتية أم صورية أمّاذا من نسخة طبق الأصل‏ «2» كما الصور التلفزيونية و الأصوات المسجلة و أقوى منها و أبقى.

و هنالك نسخ تسجّل في الأعضاء العاملة «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى‏ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» و أخرى في الأرض بأجوائها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع آية الزلزال و الإسراء و الكهف و غيرها في الفرقان تجد تفصيلا حول انعكاس الأعمال.

(2)

نور الثقلين 5: 5 ج 17 في تفسير علي بن ابراهيم بسند عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث‏ القلم و الكتاب المكنون قال: او لستم عربا فكيف لا تعرفون معنى الكلام و أحدكم يقول لصاحبه: انسخ ذلك الكتاب؟ او ليس انما ينسخ من كتاب آخر من الأصل و هو قوله: انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 472

«يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها» «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً» و ثالثة في صحائف قلوب شهداء الأعمال‏ «وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى‏ هؤُلاءِ» و رابعة عند الكرام الكاتبين‏ «وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ، كِراماً كاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ» نسخا أربع طبق الأصل من أعمال العباد «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» «1».

هذا الكتاب في نسخه ينطق على أهله بالحق، نطقا عينيا هو أفضل و احجى من نطق اللسان، و «بالحق» دون اي باطل في زيادة او نقصان لحد يقول صاحب الكتاب: «ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً» (18:) 49):

ذلك استنساخ بعد العمل و هنالك استنساخ قبل العمل في العلم في اللوح المحفوظ و الكتاب المكنون منه النسخ كلها، فكتب الأعمال نسخة منها و الأعمال نسخة من الأصل العلم‏ «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ..» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر ج 19 في بصائر الدرجات باسناده عن محمد الحلبي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: ان الأعمال تعرض على اللَّه في كل خميس فإذا كان الهلال أجلت فإذا كان النصف من شعبان عرضت على رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و على علي (عليه السلام) ثم ينسخ في الذكر الحكيم، و في الدر المنثور 6: 36- اخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: ان للَّه ملائكة يتولون في كل يوم بشي‏ء يكتبون فيه اعمال بني آدم.

(2)

المصدر ج 17- القمي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) سئل عن‏ «ن وَ الْقَلَمِ» قال: ان اللَّه خلق القلم .. ثم، قال للقلم اكتب ما كان و ما هو كائن الى يوم القيامة فكتب .. فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها أ و لستم عربا ..

و

ح 20 في عيون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 473

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى‏ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (31).

بعد الدعوة إلى كتاب الدعوة لكل أمة، و عرض كتاب الأعمال على كتاب الشرعة الإلهية، يقتسم الفريقان من كل أمة، كتلة مؤمنة صالحة و أخرى كافرة طالحة و «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» عمل كلّ من صالح و طالح هو جزاؤه حيث تبلى السرائر «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» فالرحمة لأهل الجنة كما الجنة، هي الظاهرة هناك من ملكوت الصالحات‏ «وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ» حيث كانوا يتسمعون إلى آيات اللَّه تتلى عليهم، و النار لأهل النار، ظاهرة من ملكوت الطالحات جزاء وفاقا «أَ فَلَمْ تَكُنْ آياتِي» في كتاب الأمة «تُتْلى‏ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ» مما يدل أن الداخلين في النار خالدين و غير خالدين هم الذين تليت عليهم آيات اللَّه بينات فاستكبروا مجرمين، و امّا القصّر و المجانين و البله و المستضعفون غير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الاخبار باسناده الى الحسين بن بشار عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) قال: سألته أ يعلم اللَّه الشي‏ء الذي لم يكن ان لو كان كيف كان يكون؟ فقال:

ان اللَّه تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء: قال عز و جل: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ...» فلم يزل اللَّه عز و جل علمه سابق الأشياء قديما قبل ان يخلقها فتبارك و تعالى ربنا علوا كبيرا خلق الأشياء و علمه سابق لها كما شاء كذلك ربنا لم يزل عالما سميعا بصيرا.

و

في الدر المنثور 6: 36- اخرج ابن مردويه عن ابن عمران رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: ان أول شي‏ء خلق اللَّه القلم فأخذ بيمينه و كلتا يديه يمين فكتب الدنيا و ما يكون فيها من عمل معمول بر أو فاجر رطب او يابس فإحصاه عنده في الذكر و قال: اقرأوا ان شئتم‏ «هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فهل تكون نسخة الا من شي‏ء قد فرغ منه؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 474

الظالمين- و لم تصلهم الحجة- فهم معفو عنهم على قدر قصورهم، فلا عذاب إلّا بحجة بالغة قضية العدالة الإلهية.

وَ إِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32).

«ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ» تجاهلا عن الساعة و موقفها أنها لا تدرى، كأنها غير مفهومة و لا معقولة، و مهما ظننا أنها ممكنة أم كائنة، «إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا» هيّنا ضئيلا لا يملك دليلا فلا يلزمنا بشي‏ء للساعة «وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ»:

و ترى كيف يجتمع الظن بالساعة كما هنا، و الظن بعدم الساعة كما هنالك‏ «إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» رغم أنهم كانوا متأكدين في نكران الساعة «ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا»؟

إن غير المستيقنين بالساعة دركات عدّة، فمن ناكر للمبدء فمتأكد ألّا ساعة، و من مشرك كذلك رغم اعترافه بالمبدء، و من مشرك أم ملحد شاك في المبدء أو في المعاد، و علّ‏ «إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا» هي مقالة الآخرين، و بأحرى المتأكدين ألّا ساعة أن يكونوا من أهل الجحيم، مهما يعبّر عن يقينهم المدعى بالظن‏ «إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» حيث لا يستند إلى برهان و حتى في موقف الظن!.

وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» (33).

سيئات الأعمال و هي حقائقها، غير البادية يوم الدنيا، تبدو لهم يوم الأخرى‏ «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ».

«وَ حاقَ بِهِمْ» من الحيق و هو نزول بردّة فعل، لم يأت في سائر القرآن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 475

إلّا «ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» «1» فقد استهزءوا بالساعة «ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ» ثم في الساعة: «حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» من الساعة، حيث تحيط بهم هازئة بكل ترذيل و تأنيب! وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (34) نسيان هناك في حيق العذاب بنسيان هنا للساعة، ليس في الحق إلّا تناسيا هناك بتناس هنا، نسيان متعمّد و أنت تعيش ذكرى الساعة، متغافلا عنها دونما غفلة، «الْيَوْمَ نَنْساكُمْ» عامدين متغافلين دونما غفلة، جزاء وفاقا.

ف «ننساكم» لا تعني إلّا تعامل الناسي و ليس بناس‏ «كَما نَسِيتُمْ» تعامل الناسي للساعة و لستم بناسين‏ «كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى‏» (20: 126) «فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (32: 14).

فاللَّه لا ينسى‏ «لا يَضِلُّ رَبِّي وَ لا يَنْسى‏» (20: 52) و إنما يتناسى من تناساه‏ «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» (9: 67) أم تناسوا لقاء يومهم هذا «فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا» (7: 51).

ثم النسيان غير المتعمّد يغفر «رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا» (2: 286) رغم المتعمد المتواصل حيث لا يغفر، كنسيان اللَّه و اليوم الآخر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في 6: 10: 11: 8- 16: 34- 39: 48- 40: 83- 46: 26 و في 21: 41 فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» و في 40: 45 فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 476

ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35) «ذلك» حيق العذاب الاستهزاء و نسيانكم إنما هو بعصيانكم‏ «بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً» حالا و مقالا و أفعالا «و» الحال أنكم‏ «غَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا» و إلي هنا ينتهي معهم الخطاب العتاب، سدلا للستار عليهم بإعلان مصيرهم بمسيرهم، تحويلا لوجه الكلام إلى الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و من معه من الصالحين‏ «فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها» فهم واقعون فيما قدموا من هزء و غرور دون خروج عن ذلك، فإنه لزامهم أيّا كانوا و أيّان.

ف «منها» تعني النار التي هي السيآت البادية مما عملوا، و هي أنفسهم و أعمالهم: «حَصَبُ جَهَنَّمَ» «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ» (21: 98) واردون في حصبها و هي حطبكم أنفسكم بأعمالكم‏ «لا يُخْرَجُونَ مِنْها» و ترى أنه الخلود إلى غير النهاية فيها، و لزامه خلود النار هكذا، فلأن النار سوف تخمد و تفنى، فهم يفنون بفناء النار، و ليس ذلك خروجا عن النار و إنما فناء مع النار! «وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ»: و لا يطلب منهم أن يعتبوا، لا ربهم إذ لا يعاتب بعدله، و لا أنفسهم و إن كانوا معاتبين إذ لا يفيدهم عتابهم أنفسهم، و لا يسمع منهم حيث الأبواب أوصدت إيصادها الأخير فلم يك بعد ذلك تحوير و لا تغيير، فلما ذا «يستعتبون»؟

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (36) وَ لَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37) «فَلِلَّهِ الْحَمْدُ» لا سواه على ألوهيته و ربوبيته في الأولى بربوبية التكوين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏26، ص: 477

و التكليف امتحانا، و في الأخرى بربوبية الجزاء الوفاق عدلا و امتنانا «وَ لَهُ الْكِبْرِياءُ» كما له الحمد «فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ»: الكون كله‏ «وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فهو المحمود الكبير العزيز الحكيم لا سواه!.